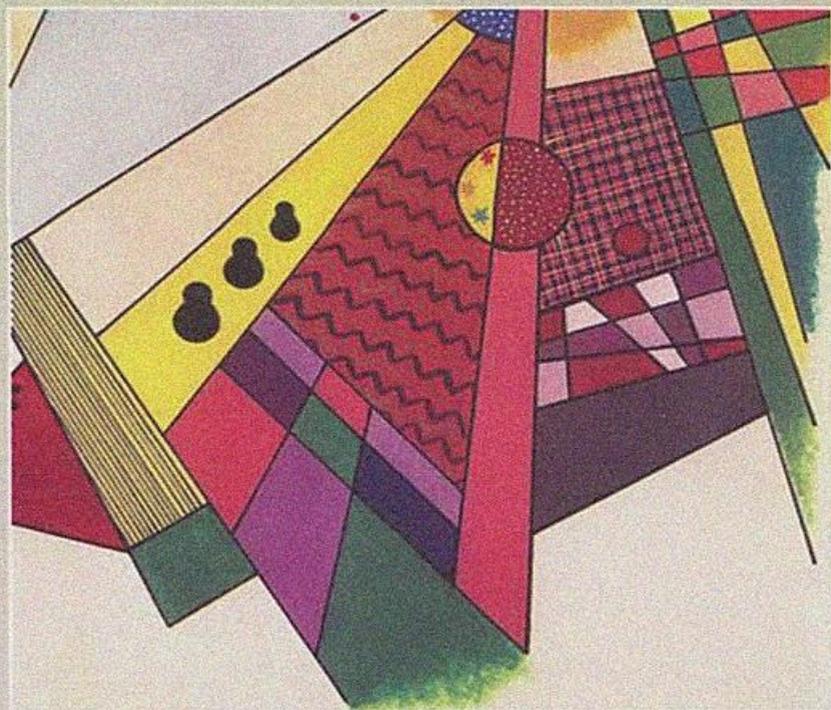


ماريو بارغاس يوسا

البيت الأخضر

رواية



ترجمة : رفعت عطفة



هاريو بارثلمس يوما

البيت الأضفى

ترجمة: مها عطفة

دار الحوار

البيت الأخضر

الكتاب: البيت الأخضر

المؤلف: ماريو بارغاس يوسا

المترجم: مها عطفة

الطبعة الأولى: 2015/1

حقوق الطبعة العربية محفوظة © دار الحوار للنشر والتوزيع

يتضمن هذا الكتاب الترجمة الكاملة للنص الاسباني:

La Casa Verde

By Mario Vargas Llosa

ISBN: 978 - 9933 - 523 - 25 -1



تم تنفيذ التنضيد والإخراج الفني في القسم الفني بحار الحوار

دار الحوار للنشر والتوزيع www.daralhiwar.com
ص.ب 1018 اللاذقية، سورية، هاتف وفاكس: +963 41 422 33
البريد الإلكتروني daralhiwar@gmail.com
info@daralhiwar.com



الجزء الأول

-I-

لقى الرقيب نظرة على الأم باتروثينيو والتعرة ما تزال هناك. ترنح الزورق فوق المياه العكرة بين جدارين من الأشجار التي تزفر بخاراً حاراً وبنقاً. كان الحراس مضطجعين تحت أشجار الباماكاري¹ عراة من وسطهم إلى الأعلى، تلفحهم شمس الظهيرة الضاربة إلى الخضرة والصفرة. كان رأس «الصغير»² يتكئ على بطن «الثقل»³، ويتعرق «الأشقر»⁴ بغزارة، فيما كان «الأسود»⁵ يشخر وقمه مفتوح.

كانت ظلة من البعوض⁶ تواكب الزورق. وتطوف بين الأجسام فراشات وديابير وذباب سمين. شخر المحرك، توقّف، شخر مرة ثانية. كان الدليل نيبس يدير الدفة باليسرى ويدخن باليمنى ووجهه الشديد اللمعان لا يطراً عليه أي تبدل تحت قبة القش. لم يكن الغائبون، أولئك، عاديين، إذ لماذا لا يتعرقون مثل بقية المسيحيين؟ كانت الأم أنخليكا جاسئة في مؤخرة الزورق، مغمضة العينين وفي وجهها ألف تجعيدة على الأكل، وتخرج، بين فينة وأخرى، جزءاً صغيراً من لسانها لتلتصق به عرق سبلتها وتبصقه. يا لها من عجوز مسكينة، غير أهل لمثل هذا الخيب! تخفق النعرة بجناحيها الصغيرين الزرقاوين، وتقلع باندفاع ناعم عن جبين الأم باتروثينيو المتورد، وتضيق راسمة دوائر في النور الأبيض، أما الدليل نيبس فقد ذهب ليطفئ المحرك. «أيها الرقيب، ها هم يصلون». وخلف ذلك الشعب كانت تشيكاييس. لكن قلب الرقيب كان يحدثه بأنه لا يوجد أحد.

انقطع ضجيج المحرك، فتحت الأمان والحراس عيونهم، رفعوا رؤوسهم ونظروا. انتصب الدليل نيبس على قدميه ومال بالمجداف يمناً ويساراً، اقترب

¹ باماكاري Pamacari: نوع من الشجر.

² تشيكيتر Chiquito: لقب معناه الصغير.

³ يسارو Pesado: لقب معناه الثقل، للغليظ

⁴ روبيو Rubio: لقب معناه الأشقر

⁵ أوسكورو Oscuro: لقب معناه الداكن، القاتم.

⁶ بعوض Jejen: حشرة أمريكية أصغر من البعوضة أصلاً، لكن لسعها ملهب جداً.

الزورق من الضفة دون جلبة. انتصب الحراس، ارتكوا قمصانهم وقبعاتهم وسرّوا طماقاتهم. انقطع سياج الضفة اليمنى النباتي بقسوة بعد منعطف النهر. كانت هناك وهدة وبقعة هلالية من الأرض الضاربة للحمرة، تتحدر حتى تصل شراً صغيراً من الطين والحصى وشجيرات القصب والمرخس. لم يُلمح على الشاطئ أي زورق، كما لم يُلمح أي طيف بشري في الوهدة. ارتطم المركب، قفز نيبس مع الحراس مبريطين في الوحل الرصاصي. مقبرة، قلب الإنسان بليله، والمانغاثيون على حق. انحنى الرقيب فوق المقنمة، وسحب الدليل والحراس الزورق نحو اليابسة لمساعدوا الأمين، جاعلين من أيديهم كراسي، كي لا تتبّلا. كانت الأم أنخليكا ما تزال شديدة الوقار بين أيدي «الأسود» و«الثقل». تردّت الأم باتروثينيو حين شبك «الصغير» و«الأشقر» أيديهما كي يتلقياها، وحين ألقت بنفسها احمرت مثل قريدىس. عبر الحراس الشاطئ، متذبذبين، واضعين الأمين حيث انتهى الوحل. قفز الرقيب ووصل حافة الوهدة بينما تسلفت الأم أنخليكا المنحدر تتبّعها الأم باتروثينيو. كانت كلتاها تحبوان حبواً وتختفيان في زوابع الغبار الأحمر. أرض الوهدة رخوة وتتهار مع كل خطوة. تقدم الرقيب والحراس غائصين إلى ركبهم، منحنيين يخنقهم الغبار، عطس «الثقل» ويصق والمنديل على فمه. في القمة نفذ واحد منهم ثياب الآخر والرقيب يراقب: بقعة أرض عارية ودائرية وعدد من الأكواخ ذات الأسطح المخروطية، قطع أرض مزروعة بإبرة أم⁷ وأشجار الموز، يحيط بها جميعاً جبل وارف. بين الأكواخ شجيرات علّقت بأغصانها أكياس بيضوية: أعشاش طيور الباوكار⁸. هو كان قد قال ذلك، أيّتها الأم أنخليكا، بل وأكد عليه: لا يوجد روح واحدة، وها هم يرون ذلك. لكن الأم أنخليكا تمضي من جانب إلى آخر، تدخل كوخاً وتخرج، تدخل رأسها في الكوخ المجاور، تطرد الذباب مصفقة بيديها، دون أن تتوقف لحظة واحدة، وهكذا لم تكن تبدو من بعيد، وقد محا الغبار ملامحها، عجزوا، بل لباس راهبة، جوالاً، منتصباً، شبحاً يعجّ بالحوية. بالمقابل كانت الأم باتروثينيو تبدو جامدة، تخبئ يديها في ثوبها بينما تجوب عيناها القرية الخاوية عدة مرات.

⁷ إبرة أم Yuca: نبات أمريكي من فصيلة الزنبقيات، لكنه يوكل.

⁸ باوكار Paucar: طائر أمريكي.

تهتَز بعض الأغصان، وعلو زعيقُ سرِبٍ من الأجنحة الخضراء والمناقير السوداء والصدور الزرقاء، ويخفق مصدراً طنيناً فوق أكواخ تشيكاييس المقفرة فيتابعه الحراس والأمان بعيونهم إلى أن تبتلعه الحراج، تدوم جلبته برهة. كان هناك ببغاوات صغيرة، وكان من الضروري معرفة ذلك، فلربما نقصهم الطعام، إلا أنها تسبب الزحار، أيتها الأم، بمعنى أن معدة الإنسان تنقلت. ظهرت في الوهدة قبة قش، كانت وجه الليل نيبيس المحمص: إذن لقد ارتعب الأغوارونيون⁹، أيتها الأمان. إن غنادهما رهيب، من الذي أمرهما ألا تكثرنا له؟ اقتربت الأم أنخيليكَا، ونظرتُ بعينها الصغيرتين المجدعتين هنا وهناك وهي تهزّ يديها المتخشبتين، للتين يعلوهما نمش كستائي، في وجه الرقيب: لقد كانوا هناك قريبين منهم، فهم لم يحملوا معهم أمتعتهم، وعليهم أن ينتظروا عودتهم. تبادل الحراس النظرات. أشعل الرقيب سجارة وفي الجو طائرا باوكار يروحان ويفدونان، ريشهما الأسود والذهبي يشع بريقاً رطباً. هناك أيضاً عصافير، ما من شيء إلا وكان في تشيكاييس، إلا الأغوارونيون. بضحك «الغليظ». لماذا لا يأخذونهم على حين غرة؟ لهنتُ الأم أنخيليكَا، ربما لم تكوني تعرفينهم، أيتها الأم؟ اهتزتُ منفضة ريش نقفا البيضاء بنعومة، لقد كانوا يخشون المسيحيين ويختبئون منهم، لا أحد يحلم بأن يعودوا، وما داموا موجودين هنا لن يروا حتى غبارهم.

كانت الأم باتروثينيو قصيرة، بدينة، بين «الأسود» و«الأشقر». لكنهم لم يخبئوا في العام الماضي وخرجوا لاستقبالهم، بل وقموا لهم سمك غاميتانا طازجاً¹⁰. ألا ينكر الرقيب؟ لكنهم لم يكونوا يعرفون أيتها الأم باتروثينيو، وأصبحوا الآن يعرفون، يجب أن تنتهي إلى ذلك. جلس الحراس والليل نيبيس على الأرض، خلعا أذيتهم، فتح الأسود دنته، شرب وتهدّه. رفعت الأم أنخيليكَا رأسها: لينصبوا الخيام أيها الرقيب. وجهها ذاو. ليضعوا الناموسيات. نظرتها رخوة. سينتظرون حتى يعودوا. صوتها متهدج. وعليه ألا يعبس في وجهها هكذا، فقد كانت خبيرة. رمى الرقيب السجارة وطمرها عفاً بقمه،

⁹ أغوارونيون Aguarunas: هود أمريكيون يعيشون على ضفاف الأمازون في المنطقة التي يلتقي فيها هذا النهر بنهر مانتياغر.

¹⁰ غاميتانا Gamitana: نوع من السمك يصل وزنه إلى خمسة وعشرين كيلوغراماً.

فماذا كان بهم؟ أيها الفتيان، تحركوا. وفي هذه الأثناء انبعث فرق وبعثت أجمة نجاجة، أطلق «الأشقر» و«الصغير» صيحة فرح، لاحقاها، كانت سوداء، أمسكا بها وكان فيها بقع بيضاء، قدححت عينا الأم أنخليكا شرراً، إنهما لصان، ماذا كانا يفعلان، اهتزت قبضتها في الهواء، هل هي لهما؟ ليفلتاها، والرقيب: ليفلتاها، لكن أيتها الأمان، إذا كانوا سيمكثون هنا فإنهم سيحتاجون للطعام، وهم ليسوا هنا كي يجوعوا. لن تسمح الأم أنخليكا بالتمادي. ثم كيف سينقون بهم إذا كانوا يسرقون حيواناتهم؟ وافقتها الأم باتروثينيو الرأي، أيها الرقيب: السرقة إهانة للرب، وبوجه مستكبر ومعاقى، ألم يكن يعرف الوصايا؟ لامست الدجاجة الأرض، قرقت، فلتت إبطيها، هربت متبخترتة والرقيب يهز كتفيه: لماذا تبنيان الأرواح إذا كانتا تعرفانهم مثله أو أكثر منه؟

ابتعد الحراس نحو الوهدة، زعقت الببغاوات وطيور الباوكار فوق الأشجار، من جديد، كان هناك أزيز حشرات، ونسمة خفيفة تهز أوراق اليارينا¹¹ على أسطح تشيكاييس: أرخى الرقيب طماقيه، تتم بين أسنانه. كان فمه موروباً. ربت الليل نيبيس على كتفه، أيها الرقيب: لا تعكر صفوك ولتأخذ الأمور بروية. وأشار الرقيب، مغتاضاً، إلى الأمين، يا دون أدريان، لقد كانت هذه الأعمال التافهة تُعجّر روحه. كانت الأم أنخليكا تعاني من ظمأ شديد، وربما كان عندها قليل من الحرارة، همتها ما تزال عالية، لكن جسمها كثير الطل. الأم باتروثينيو وهي لا، لا، يجب ألا تقول هذا، أيتها الأم أنخليكا، الآن ما إن يصعد الحراس حتى تتناولني كأساً من عصير الليمون وتشعري بتحسن، سترين. هل يا ترى كانتا تتناولانه؟ تفحص الرقيب المكان حوله بعينين شاريتين. هل كانتا تظنانه غيباً؟ هوى لنفسه بالقبعة. يا لهذا الزوج من البغاث، وفجأة التفت إلى الليل نيبيس: التهامس في المجالس

¹¹ يارينا Yarina: نوع من النخيل، لا ساق له، تنمو أوراقه الطويلة على وجه الأرض، وله

متراذفات عامية كثيرة مثل رأس العبد.

عيب، وهو، انظر، أيها الرقيب، الحراس يعودون رآضين. زورق؟ أجب
«الأسود» بلى، وفيه الأغوارونيون؟ وقال «الأشقر» بلى، يا حضرة الرقيب،
وكذلك «الصغير»، و«الغليظ» والأمان: بلى، بلى، ذهبوا وسألوا وعادوا
هائمين، وطلب الرقيب من «الأشقر» أن يعود إلى الأهدة، وليخبر عمّ إذا
كانوا يصعدون، وأن يختبئ الباقرن، جمع الدليل نيبس الطماقات والبنادق عن
الأرض. نخل الحراس والرقيب كوخاً. مكثت الأمان في المنطقة العارية،
وقالت الأم باتروثينيو: أسرعى أيتها الأم أنخليكا. نظرت الواحدة منهما إلى
الأخرى، قفزتا، دخلتا الكوخ المقابل، ومن بين الشجيرات التي كانت تخفيهم
أشار «الأشقر» بإصبعه إلى النهر: ها هم يهبطون، أيها الرقيب، ويربطون
الزورق، ها هم يصعدون، يا حضرة الرقيب، وهو أيها الواهن، تعال واختبئ،
لا تتم، أيها «الأشقر»، يراقب «الصغير» و«الغليظ» الخارج مستلقين على
كرشيهما، وذلك من خلال فجوات حاجز قند النخيل، فيما كان «الأسود»
والدليل نيبس واقفين في عمق الكوخ، ووصل «الأشقر» راكضاً، وجلس
القرصاء بجانب الرقيب. لقد كانوا هناك، أيتها الأم أنخليكا، لقد كانوا هناك،
والأم أنخليكا قد تكون عجوزاً، لكن بصرها جيد، أيتها الأم باتروثينيو، فقد
كانت تراهم، كانوا ستة. العجوز ذات الشعر المسترسل ترتدي لباس الزنجيات
الضارب إلى البياض، وإسطوانتان من اللحم البض والداكن تتكلمان حتى
وسطها. خلفها رجلان لا عمر لهما، قصيران، أكرشان، بسيقان كالقصب،
تغطي أعضاهما التناسلية قطعتان من قماش أصفر، ربطتا بليانا¹²، مكشوفاً
الإليتين، يصل شعرهما الذي كالإكليل حتى حواجبهما، ويحملان أقرط موز.
كما أن هناك فتاتين صغيرتين، بتاجين من الليف، في أنف الأولى قرط وفي
ساقى الأخرى خلاخل من جلد. إنهما عاريتان كالطفل الذي يلحق بهما ويبدو
أقل عمراً، وهو أكثر ضموراً. ينظرون إلى المنطقة العارية، تفتح المرأة فمها

¹² - Lianalana: نوع من الخيزران، يدعى أيضاً جل الجبل.

ويَهْرُ الرجلان رأسيهما، هل كانوا سيتحدثون، أيتها الأم أنخليكا؟ والرقيب: بلى، انتبهوا، أيها الفتيان ها هما، الأمان تخرجان. تلتفت الروس الستة معاً وتتخشب. تتقنم الأمان من المجموعة بخطوات واحدة مبسمتين، يقرب الأغوارونيون بعضهم من بعض دفعة واحدة ويشكلون فجأة جسماً تريبياً مترصاً. أزواج العيون الستة لا ترتفع عن هينتي الثنايا الداكنة، اللتين تطفوان نحوهما، وإذا ما حزنوا فطينا أن نهرب، أيها الفتيان، لا أريد إطلاق نار، ولا إخافتهم. لتركوهما تقربان، أيها الرقيب، كان «الأشقر» يظن أنهم سيهربون عندما يرونهما. إنهما مخلوقتان ناعمتان وفتيتان، أليس كذلك أيها الرقيب، لم يكن هناك من وسيلة لعلاج هذا «الغليظ». توقفت الأمان بينما تراجعت الفتاتان الصغيرتان، متتا أيديهما وأمسكتا بساقي العجوز، التي بدأت تضرب على كتفيها بيدين مفتوحتين، فيترنح مع كل ضربة نهداها المفرط الطول ويتأرجحان: كان الرب في عونهم. أطلقت الأم أنخليكا زمجرة، بصقت، ودفقت بدفقة من الأصوات الصافرة، والخشنة، التي كانت تقطعها كي تبصق. تابعت زمجرتها بتباه كماريشال، تحركت يداها، رسمتا خطوطاً مهيبية أمام الوجوه الأغوارونية، المتخشبة الشاحبة والقاسية. كانت تهذر معهم باللغة الوثنية¹³، أيها الفتيان، وتبصق مثل التشونتشيات تماماً. كان يسرهم يا حضرة الرقيب، أن تكلمهم مسيحية بلغتهم. لكن خفقوا من الجلبة، إذ لو سمعوكم، لفزعوا. وصلت دمدمة الأم أنخليكا الكوخ، صافية، قوية، محمومة، تجسس «الأسود» والدليل نيبيس عبر الفسحة وقد التصق وجهاهما بالحاجز، لقد أصبحوا طوع يديهما، أيها الفتيان، ما أحقها من راهبة، تتبادل الأمان والأغوارونيان الابتسامة وعلامات الاحترام. ثم إنها متقفة تماماً، هل يعلم، الرقيب أنهم يقضين الوقت في البعثة في الدراسة؟ بل كنّ يصلين، يا تشيكيتو، من أجل خطايا العالم، ابتسمت الأم باتروثينيرو للعجوز فأشاحت هذه عنها عينيها

¹³ اللغة الوثنية Pagano: تطلق على جميع اللغات التي يتكلم بها السكان الأصليون.

محتفظه بجديتها ويداها على كتفي الصغيرتين. ما تراهم يقولون، أيها الرقيب؟ كيف يتحدثون؟ كثرَت الأم أنخليكا وكذلك الرجلان، أوأوا، بصقوا، تنازعا الكلام، ثم فجأة ابتعد الصغار الثلاثة عن العجوز، هاموا، ضحكوا بصوت مرتفع. كان الصبي ينظر إليكم، أيها الفتيان، لم يرفع بصره عن هذا المكان. كم كان هزياً، ألم يلحظ الرقيب ذلك؟ كان ضخم الرأس، صغير الجسم، ويبدو عنكبوتاً. تحت خصلة الشعر كانت عينا الصغير مصويتين بثبات إلى الكوخ. محمص مثل نملة، مقوس الساقين هزيلهما. رفع يده فجأة وصرخ، أيها الفتيان، يا ابن الحرام، أيها الرقيب، وحدث اضطراب خلف الحاجز وتجديفات وصدامات، وانفجرت أصوات حلقة في المنطقة العارية حين اقتحمها الحراس راكضين مبعثرين. أنزلوا هذه البنادق، أيها الجهلة، وثري الأم أنخليكا الحراس يديها الغاضبتين، آه، سترون حسابكم مع الملازم. أخبات الصغيرتان رأسيهما في صدر العجوز فتطرح ثدياها اللدنان، بينما مكث الصغير مصعوقاً وسط الطريق بين الحراس والأمين. أفلت أحد الأغوارونيين قرط الموز، وقرقت الحاجة في مكان ما. كان الليل نبيس يقف على عتبة الكوخ وقبعة قش إلى الخلف وسيجارة بين أسنانه، ماذا كان يظن الرقيب؟ قفزت الأم، لماذا يحشر نفسه طالما أنهما لم تطلبا منه ذلك؟ لكن إذا أنزلوا بنادقهم سيتبخرون، أيها الأم، تربه هي قبضتها النمشاء، وهو: لتزلوا بنادقكم الموزر، أيها الفتيان.

كلمت الأم أنخليكا الأغوارونيين بنعومة ويأس، رسمت يداها المتخشبتان أشكالاً بطيئة ومقنعة، وشيئاً فشيئاً خرج الرجلان من تخشيها وأجابا بكلمات أحادية المقطع، وتابعت هي ندمتها باسمه، من دون أن تلين، اقترب «الصغير» من الحراس، شمّ البنادق، تصسها، ضربه «الثقل» على جبينه ضربة خفيفة، فقبع وصرخ، كان العاهر متوجساً وهزّت الضحكة خصر «الثقل» المترهل ووجنتيه، شحب لون الأم باتروثينيو، قليل الحياء، ماذا كان يقول؟ لماذا كان يستخف بهم؟ يا له من سفيه، و«الثقل» اعتذر وهز رأسه المشوش كراس فدان، فقد أفلت منه لسانه دون أن ينتبه، أيها الأم، لقد ربط

لسانه. دارت الصغيرتان والصبي بين الحراس، تفحصوهم، تحسّوهم برؤوس أصابعهم، نمتت الأم أنخليكا والرجلان بمودة والشمس ما تزال تتلأأ في البعيد، رغم أن الجو من حولهم كان غائماً، وتكتس فوق الغابة غابة أخرى من الغيوم البيضاء الكثيفة: ستمطر. كانت الأم أنخليكا قد شتمتهم، أيتها الأم: ماذا قالوا؟ تبتسم الأم باتروثينيو، يا لك من أحق! لم تكن شتمة بل اسم شجرة، قاسية مثل رأسك، والتفتت الأم أنخليكا إلى الرقيب: سيأكلون معهم، فليصعدوا بالهدايا وعصير الليمون. وافق، أعطى توجيهاته للصغير والأشقر مشيراً إلى الوهدة، موز أخضر وسمك نيء، وليمة أخت عاهرة، أيها الفتيان. طاف الأطفال حول «الثقل» و«الأسود» والدليل نيبس، بينما نضت الأم أنخليكا والرجلان والعجوز أوراق الموز على الأرض، دخلوا إلى الأكواخ، أتوا بأوان صلصالية وإبرة أم، أضرموا ناراً خفيفة، لفوا أسماك الفريدي والبيوكاتشيك بأوراق عقدها بنوع من الخيزران وقربوها من اللهب، هل كان عليهم أن ينتظروا الآخرين، إذا كانوا قد ذهبوا فلأنهم لا يرغبون بالزيارات، وهؤلاء سيذهبون عند الغفلة. صحيح، الرقيب يعرف، لكن كان من غير المفيد أن يتشاجروا مع الأمتين. عاد الصغير والأشقر بالأكياس والترامس وجلست، الأمان والأغوارونيون والحراس في حلقة حول أوراق الموز فيما كانت العجوز تنب الحشرات بكفيها. وزعت الأم الهدايا على الأغوارونيين الذين أخذوها دون أن يبديوا أي مظهر من مظاهر الحماس، لكن فيما بعد وحين بدأت الأمان والحراس بتناول قطع السمك، التي انتزعوها بأيديهم، فتح الرجلان كيسيهما دون أن يتبادلا النظر، دغدغا مرأيا صغيرة وأطواقاً، تقاسما الخرزات الملونة فبرقت في عيني العجوز بروق جشع فجائي. تنازعت الصغيرتان قنينة فيما كان الصغير يمضغ بنهم، والرقيب سيمرض، ستأذى معدته، ابن الخراء، سيصاب بالإسهال وسينتفخ مثل هوالو¹⁴، أكرش، وستخرج من جسمه كتل

¹⁴ هوالو Hualo: نوع من الصفاوح كبير الحجم.

تنفجر ويخرج منها صديد. قطعة السمك على حافة شفثيه، رقت أجفانه، علث ملامح «الأسود» و«الصغير» و«الأشقر» أيضاً علامات الامتعاض، أغمضت الأم باتروثينيور عينها، بلعت وتقلص وجهها، لا أحد مد يده باستمرار إلى أوراق الموز وقطع اللحم الأبيض، ونظفه من الحسك بنوع من الفرح المتعجل، وحمله إلى فمه، إلا الدليل نيبيس والأم أنخليكا.

كان جميع الغائبين فظين تقريباً، وحتى الأمان، آه، كيف كانوا يأكلون؟! تجشأ الرقيب، فنظر إليه الجميع، سعل. لبس الأغارونيون الأطواق، أراها واحدهم للأخر، الخرزات البلورية قانية وتتقاض مع الوشم الذي يزین صدر من يلبس ستة أساور في زند وثلاثة في آخر. في أية ساعة سينطلقون، أيتها الأم أنخليكا؟ راقب الحراس الرقيب، ترقف الأغارونيون عن المضغ، مدت الصغيرتان أيديهما، تلمستا الأطواق والأساور بخوف، دمدم الأغاروني من كثرة ما أهديت من قرف. لم يكن لديه شهية للطعام، لكنه كان يريد أن يقول لها شيئاً، أيتها الأم، لا يمكن أن يمكثوا في تشيكاييس أكثر. فم الأم أنخليكا مملوء، والرقيب كان قد جاء للمساعدة، عصرت يدها، الضامرة والحجرية، ترمس عصير الليمون، وليس لإعطاء الأوامر. كان الصغير قد سمع الملازم، وماذا قال؟ وهو: عودوا قبل ثمانية أيام، أيتها الأم، وقد مضى عليهم خمسة أيام. وكم يوماً تستغرق العودة، يا دون أدريان؟ ثلاثة أيام إذا لم تمطر، أرايت؟ كانت أوامر، أيتها الأم، لا تتعبي نفسك معه. ووسط جلبية أخرى قاسية الوقع تحدث الأغارونيون بصوت عال، طرقوا أذرعاً بأذرع، قارنوا بين أساورهم. بلعت الأم باتروثينيور ريقها وفتحت عينها، وماذا لو لم يعد الآخرون؟ واستغرقت عودتهم شهراً؟ طبعاً كان هذا مجرد رأي، وأغمضت عينها، ربما كانت على خطأ، بلعت. قطبت الأم أنخليكا جبينها وظهرت في وجهها تجاعيد جديدة، داعبت خصلة الشعر الأبيض في نقتها. شرب الرقيب جرعة من مطرته: أسوأ من مسهل، كل شيء يسخن في هذه البلاد، لم تكن هذه حرارة بلاده، لأنها تفسد كل شيء. استلقى «الثقيل» و«الأشقر» على ظهريهما ووضعا القبعين على وجهيهما، وكان «الصغير» يريد أن يعرف، يا دون أدريان، ما إذا كان هناك من كان يقتنع بتلك، و«الأسود»، فعلاً، ليتابع ويحك يا دون أدريان. كن نصف

سمكة ونصف امرأة، ينتظران الغرقى في قاع البحيرات، حتى إذا انقلب زورق، هرعن وأمسكن بالمسيحيين وحملنهم إلى كصورهن السفلى. كن يضعنهم في أسرة معلقة، ليست من القنب الهندي وإنما من أفاع، وهناك كن يتمعن بهم، الأم باتروثينيو هل عادرا ليتحدثوا عن الخرافات؟ وهم لا، لا، ويحسبون أنفسهم مسيحيين؟ لا شيء من هذا، أيها الأم، كانوا يتناقشون حول ما إذا كانت ستمطر. انحنت الأم أنخليكا نحو الأغارونيين مدممة بعنوية، ومبتسمة بغناد، متشابكة اليدين، وانتصب الرجلان قليلاً قليلاً دون أن يتحركا من مكانيهما، مطاً رقبتيهما مثل البلمشونات حين تتشمس على ضفة النهر، وانبتق دوار، وشيء مذهل ويوسع الحنقات، وينتفخ صدر واحد منهما، فيبرز وشه ويمحي، ويبرز. وتتما تدريجياً من الأم أنخليكا، يقظين، جهمين وصامتين، وفتحت العجوز الطويلة الشعر يديها وأخذت الصغيرتين، الصغير ما يزال يأكل، أيها الفتيان، جاءت اللحظة الحرجة، انتهوا. يلزم الدليل و«الصغير» و«الأسود» الصمت. نهض «الأشقر» وقد احمرت عيناه وهز «الثقل»، نظر أغاروني إلى الرقيب شخراً، ثم إلى السماء، وضمت العجوز الصغيرتين وشنتهما إلى ثدييها الطويلين والمترهلين وعينا «الصغير» تنتقلان من الأم أنخليكا إلى الرجال ومنهم إلى العجوز، ومن هذه إلى الحراس فإلى الأم أنخليكا. بدأ الأغاروني الموشوم بالكلام، تبعه الآخر فالعجوز، فحنقت زويدة الأصوات صوت الأم أنخليكا، التي استكرت برأسها ويديها، وفجأة تجرد للرجلان، دون أن يتوقفا عن اللدمنة والبصاق، من الأطواق والأساور ببطة واحتفالية. وسقطت زخة من الخرز فوق أوراق الموز. مط الأغارونيون أيديهم إلى بقايا السمك، التي يسيل بينها جدول رفيع من النمل البني، لقد جمحوا، أيها الفتيان، لكنهم كانوا جاهزين، يا حضرة الرقيب، ورنه أوامره. نظف الأغارونيون فضلات اللحم الأبيض والأزرق، اقتصوا النمل بأظافرهم، سحقوه ولفوا الطعام بالأوراق المعرقة ويكثر من الحذر. ليتول «الصغير» و«الأشقر» أمر الصغيرتين، أوصاه بهما الرقيب، و«الثقل» يالهما من محظوظين. حركت الأم باتروثينيو، الشديدة الشحوب، شفتيها وضغطت أصابعها بقوة على حبات السبحة السوداء، ما يجب أن يؤخذ بالحسبان، أيها الرقيب، هو أنهما طفلتان، وهو كان يعرف،

كان يعرف وليئقي «الثقيل» و«الأسود» على العراة بلا حراك. الأم يجب ألا تتشغل، والأم باتروثينيو الوليل لهم إذا ما ارتكبوا أعمالاً همجية: يا مريم العذراء، يا أم الله. تأمل الجميع شفتي الأم باتروثينيو الذابلتين، وهي تصلي لأجلنا وتدفع بالحبات الصغيرة السوداء بأصابعها، والأم أنخليكا هداي، أيتها الأم والرقيب الآن وقتها. ينهضون، نون عجلة. نفص «الثقيل» و«الأسود» بنطاليهما، انحنيا، التقطا بندقيتيهما فحدث جري وزعيق في اللحظة ذاتها، وغطى الصبي وجهه، وتخشب الأغارونيان تماماً، واصطكت أسنانها ونظرت عيونهما بارتباك إلى البندقيتين المصويتين إليهما، لكن العجوز كانت واقفة تتعارك مع «الصغير»، بينما تخبطت الصغيرتان بين ذراعي «الأشقر» مثل ثعباني ماء. غطت الأم أنخليكا فمها بمنديل، تمت زوية الغبار وازدادت كثافة، عطس «الثقيل» والرقيب جاهز، تستطيعون يا فتيان ويا أم أنخليكا الذهاب إلى الوهدة. ومن كان سيساعد «الأشقر»، أيها الرقيب، ألا ترى أنهما تفلتان منه؟ تدرج «الصغير» والعجوز متشابكين على الأرض. ليذهب «الأسود» لمساعدته وسيلح الرقيب محلّه ويراقب العاري. سارت الأمان باتجاه الوهدة وكل منهما ممسكة بذراع الأخرى، و«الأشقر» جرّ هينتين متداخلتين متخبطتين، و«الأسود» هرّ العجوز من شعرها بحنق حتى يتحرر منها «الصغير» وينهض. لكن العجوز قفزت خلفهما، أدركتهما وهبشتهما، والرقيب جاهز، يا «ثقيل»، لقد ذهبوا. تراجعاً، انزلقا على أعقابهما وهما مصويان دائماً إلى الرجلين، اللذين نهضا معاً وتقلّما تجنّبهما البندقيتان. قفزت العجوز مثل حيوان ماكيسابا¹⁵ سقط وتكبّل بزوجين من الأرجل فترنح «الصغير» و«الأسود»، يا أم الله، وسقطا أيضاً، لتترقّف الأم باتروثينيو عن هذا الصراخ. تهبّ نسمة سريعة من النهر وتتسلق المنحدر فتحدث زوابع نشطة ونزارة، برتقالية اللون، محمّلة بحبات الرمل الغليظة والطيارة مثل ذباب الخيل. بقي الأغارونيان وديعين أمام البندقيتين والوهدة قريبة جداً. ترى لو هربا منه هل كان «الثقيل» سيطلق النار؟ والأم أنخليكا متوحش، كان من الممكن أن يقتلها، أمسك «الأشقر» الصغيرة ذات القرط من

¹⁵ ماكيسابا Maguisapa: حيوان ثديي.

نراعتها، لماذا لم تهبطوا، أيها الرقيب؟ وأمسك أيضاً بالأخرى، ذات العنق، أفلتتا منه، الآن أفلتتا منه، دون أن تصرخا لكنهما تتعاركان معه برأسيهما، وبأكتافهما وأقدامهما وسيقانها تضريان بها وتهترّ، ويمرُّ الدليل نيبس حاملاً الترامس، أسرع، يا دون أدريان، ألم تترك شيئاً؟ لا، لا لا شيء، عندما يريد الرقيب. ثبت «الأسود» و«الصغير» العجوز من كتفيها وشعرها وهي جالسة تصرخ وبين الحين والآخر تصفع «الأشقر»، يا يسوع. نظر الرجل الموسوم إلى بندقيّة «الثقل» أطلقت العجوز صرخة وبكت، فشقَّ خيطان رطبان فثائين رفيعتين في طبقة الغبار على وجهها وعلى «الثقل» ألا يتظاهر بالجنون. لكنه لو هرب منه، لفلق جمجمته، أيها الرقيب، حتى لو كان بضربة أخص، وينتهي المشوار. رفعت الأم أنخليكا المندبل عن فمها: وحش، لماذا كان ينطق الآثام؟ ثم لماذا كان الرقيب يسمح له بذلك؟ و«الأشقر» هل يستطيع أن يهبط؟ كانت اللصتان تهبشانه. أيدي الصغيرتين لا تصل إلى وجه «الأشقر» وإنما إلى رقبته المليئة بالخدوش البنفسجية فقط، لقد مرّقتا قميصه واقلعتا أزراره. بدا أحياناً أنهما تصابان بالقنوط، فيرتخي جسامهما وتثنان، لكنهما لا تلبثان أن تعودا فتهجما وتصطدم أقدامهما الحافية بطماقي «الأشقر»، فيلعنهما وبهزّهما، وهما تستمران دون صوت، لتهبط الأم، ما إذا كانت تنتظر؟ وكذلك «الأشقر» والأم أنخليكا لماذا كان يضغط عليهما بهذا الشكل طالما أنهما طفلتان؟ من بطنك يسوع يا أمنا، يا أمنا. إذا أفلت «الصغير» و«الأسود» العجوز فإنها ستقتض عليهما، أيها الرقيب البندقية، حرن الأغوارونيان، تراجعاً خطوة، أفلت «الأسود» و«الصغير» العجوز، وصارت أيديهما جاهزة للدفاع، لكنها لم تتحرك واقتصرث على فرك عينيها. وها هو الطفل هناك، كأن الزوابع قد أفرزته: يجلس القرفصاء ويقوص برأسه بين ثدييها السائلين. هبط «الصغير» و«الأسود» ولم يمض وقت طويل حتى ابتلعهما سور وردى، وكيف كان سيهبط بهما «الأشقر» الخراء وحيداً، ماذا جرى لهم، أيها الرقيب؟ لماذا كانوا يذهبون؟ وتقترب منه الأم أنخليكا موزجة ذراعها بثقة: هي تساعد، وتمد يديها نحو الصغيرة ذات القرط، لكنها لا تلمسها وتطوي وتضرب القبضة الصغير من جديد، فيغوص الإسكيم وتطلق الأم أنخليكا أنةً وتتكمش: ألم يقل لها؟ ويهزّ «الأشقر» الصغيرة مثل

خرقة. أيتها الأم، ألم تكن ضارية؟ تكرر الأم أنخليكا الخطأ نفسه شاحبة مصلية فتقتص النزاع بكلتا يديها، يا مريم العذراء، والآن يعون، يا أم الله، يرفسون، يا مريم العذراء، يهبشون، ويسعلون جميعاً، يا أم الله، وليمضوا هابطين بدل كل هذه الصلوات، أيتها الأم باتروثينيو، على أية كلبة كنت تخافين كل هذا الخوف؟ وعلى أية ساعة؟ وإلى متى؟ أمر غريب، ليهبطوا فالرقيب احمرت عينه، دارت الأم باتروثينيو، انطلقت في المنحدر وتبخرت، و«التقيل» قدم بندقيته فتراجع الموشوم. يا للكراهية التي كانت في نظرتي، يا حضرة الرقيب، كان يبدو حقوداً ابن العاهرة، وفخوراً بنفسه: لا بد أن عني حيوان التسولا. تشاكي¹⁶ هما هكذا، أيها الرقيب. كانت السحب السوداء التي لفتت الهابطين أبعد، والعجوز تبكي، وتتلوى، والأغارونيان يراقبان سبطانتي وأحمصي وفوهتي البنديقتين المستديرتين: لا تلعب بالسلاح أيها «التقيل». إنه لا يلعب، أيها الرقيب، لكن ويحه، ما هذه الطريقة التي كان ينظر بها؟ وأي حق له في ذلك؟ كذلك تلاشي «الأشقر» والأم أنخليكا والصغيرتان بين أمواج الغبار، وتسلفت العجوز ووصلت حافة الوهدة، تنظر باتجاه النهر، لامست حلمتها الأرض وأصدر الصبي أصواتاً غريبة، زعق مثل طائر حزين، ولم يكن «التقيل» يريد أن يكون العاريان قريبين منه كل هذا القرب، أيها الرقيب، إذ ماذا كانا سيفعلان ليهبطا وهما الآن وحيدان؟ يشخر محرك الزورق في هذه اللحظة: تسكت العجوز، ترفع رأسها وتتنظر إلى السماء، يقلدها الصبي، الأغارونيان يقلدانها أيضاً، والبلهاء كانوا يبحثون عن طائرة. يا «غليظ»، لم ينتبهوا، الآن، هذه هي اللحظة. يرجعان البنديقة ويقدمانها فجأة، يقفز الرجلان إلى الخلف، ويقومان ببعض الإشارات، يهبط الرقيب و«التقيل» على قنهما الآن بوضعية الرماية دائماً، غائصين حتى ركبهما، وفي كل مرة يزداد شخير المحرك ارتفاعاً عن قبل، ويسم الجوف بوقاته وغرغراته واهتزازاته وارتجاجاته، والوضع في المنحدر ليس كما في

¹⁶ تسولا. تشاكي chaquaChuala: حيوان أمريكي لم أستطع معرفة ماهيته

المنطقة العارية، ليس هناك من نسمة، كل ما هنالك بخار ساخن وغبار ضارب للحمرة وحارق يسبب العطس. في أعلى الوهدة رؤوس حلقة غبشاء تسير السماء، تتوس بنعومة باحثة بين الغيوم. فالمحرك هناك والصغيرتان تبكيان، يا «ثقل» وهو ماذا؟ ما عدت أستطيع، يا حضرة الرقيب. يجتازون الوحل عدواً وعندما يصلون الزورق لاهئين وألسنتهم خارج أفواههم. هذا وقتهم، لماذا تأخروا كل هذا التأخير؟ كيف كانوا يريدون من «الثقل» أن يصعد، وقد جلس المحتالون على هواهم، ليفسحوا له مكاناً. لكن كان عليه أن يخفف من وزنه، إذ ليلاحظوا، يصعد «الثقل» فيغوص الزورق ولم يكن الوقت وقت مزاح، فليطلقوا ويخلصونا أيها الرقيب. الآن، الآن سينطلقون، أيتها الأم أنخليكا، من موتنا أمين.

•••

-1-

دوّت صفقة باب، رفعت رئيسة الدير وجهها عن طاولة المكتب، اندفعت الأم أنخليكا إلى المكتب مثل إعصار وهوت يداها المزرقتان على ظهر كرسي.

- ماذا حدث أيتها الأم أنخليكا؟ لماذا تأتين بهذا الشكل؟

- لقد هرين، أيتها الأم. تمتت الأم أنخليكا. لم تبق ولا واحدة، يا إلهي!

- ماذا تقولين، أيتها الأم أنخليكا. ويقفة واحدة جاءت رئيسة الدير واقفة

وتقدمت من الباب. الربيبات؟

- يا إلهي، يا إلهي! . توافق الأم أنخليكا بهزات من رأسها قصيرة، ممتائلة

وسريعة جداً، مثل دجاجة تتقر الحب.

تشمخ مدينة سانتا ماريا ده نيبيا¹⁷ على مصب نهر نيبيا في نهر الألتو

مارانيون¹⁸، نهران يحتضنان المدينة ويشكلان حدودها. تطفو أمامها في المارانينون

جزيرتان تفيدان الجوار في قياس ارتفاع منسوب المياه وانخفاضه. عندما لا يكون

هناك ضباب، تلمح من البلدة، في الخلف، هضاب مغطاة بالخضرة. وفي الأمام،

وبعد مياه النهر العريض كتل الجبال التي يقطعها المارانينون في صدع

مانسيريتشه: عشرة كيلو مترات من الدوامات المائية العنيفة، والصخور والسيول

الجارفة، التي تبدأ عند إحدى التكنات العسكرية، تكنة الملازم بينغلو، وتنتهي عند

أخرى، هي تكنة بورخا.

- من هنا، أيتها الأم. قالت الأم باتروثينيو. انظري إلى الباب، إنه مفتوح،

لقد هرين منه.

رفعت الأم، رئيسة الدير، المصباح وانحنت: كانت الأعشاب البرية تشكل ظلًا ممتائلًا

مغطى بالحشرات. أسندت يدها إلى الباب المفتوح قليلاً والتفتت إلى الأمهات. كان الزي

الرهباني قد اختفى في الليل، لكن الخمارات البيضاء كانت تيرق مثل ريش البلشون.

¹⁷ سانتا ماريا نيبيا Santa Maria De Nieva: اسم مدينة في منطقة الأمازون.

¹⁸ ألتو مارانيون Alto Maranon: أعالي المارانينون وهو نهر طوله 1280كم.

- ابحتي عن بونيفاثيا، أيتها الأم أنخليكا . همست رئيسة الدير. خذيني إلى مكتبي.
- حاضر، أيتها الأم، حالاً.
انار المصباح للحظة نفن الأم أنخليكا المرتعش وعينيها الصغيرتين المرتعشتين.
- اذهبي ولخبري دن فابيو بذلك، أيتها الأم فريسدا . قالت رئيسة الدير. وأنت، أيتها الأم
باتروثينيير أخبري الملازم. ليخرجوا ويبحثوا عنهن حالاً. هيا أسرعاً، أيتها الأمان.
هالتان ناصعتا البياض تتفصلان عن المجموعة باتجاه فناء البعثة. سارت
رئيسة الدير، تتبعها الأمهات باتجاه مقر الإقامة المتاخم لجدار البستان، حيث
يوجد نعيب يظني، من وقت لآخر وعلى هراه، على خفق أجنحة الخفافيش
وصرير الجداجد. تظهر في أشجار الفاكهة عمزات وومضات، أتراها
كوكريات¹⁹؟ أم عيون بومات؟ توقفت رئيسة الدير أمام المصلى.
- انخلن أنتن أيتها الأمهات . قالت بنعومة . ولتتوسلن للعذراء ألا يحدث
لهن مكروه. وأنا ساتي فيما بعد.

تشبه مدينة سانتا ماريا ده نيبيا هراً غير منتظم، قاعدته النهران. يقع المرفأ على
نهر نيبيا، وحول الرصيف الطافي تترنح زوارق الأغوارونيين ومراكب وفلك المسيحيين.
إلى الأعلى تقع الساحة المرتبة، ذات التربة الصفراء، وفي وسطها جذعا شجرة
كابيرونا²⁰ أمردان وضخمان. في الأعياد الوطنية يرفع الحراس العلم فوق واحد منهما.
ويحيط بالساحة قسم الشرطة وبيت الحاكم وعدد من بيوت المسيحيين وحنانة بار نيس،
الذي يعمل أيضاً تاجراً ونجاراً ويعرف كيف يحضر البوسانغا²¹، ذلك المشروب الروحي
السحري الذي ينقل عدوى الحب. إلى الأعلى وفوق هضبتين تشكلان ما يشبه رأسي
المدينة، توجد محلات البعثة: أسطحة من الكالامين ودعامات من الطين وجدران مطلية
بالكلس، نوافذ مغطاة بنسيج معدني وأبواب خشبية.

¹⁹ كوكريات Cocuyo: حشرة من مغمدات الأجنحة، وهي نطاطة، موطنها أمريكا الاستوائية، وهي مثل
الحباب فوسفورية.

²⁰ كابيرونا Capirona: شجرة من فصيلة الفويات تلفظ قشرتها بأحجام كبيرة.

²¹ بوسانغا Pusanga: نوع من المصافي.

- علينا الآن نضيق الوقت، يا بونيفاتيا . قالت رئيسة الدير. قولي لي كل شيء .
- كانت في المصلى . قالت الأم أنخليكا. الأمهات هن اللواتي اكتشفنها .
- سألتك سؤالاً، يا بونيفاتيا . قالت رئيسة الدير. ماذا نتظرين؟
- كانت ترتدي عباءة زرقاء، تخفي جسدها من الكتفين وحتى الكعبين، وكانت قدمها الحافيتان، اللتان لهما لون ألواح الخشب النحاسية التي كانت تغطي الأرض، تمكثان معاً كحيوانين أفطسين متعددي الرؤوس .
- ألم تسمعي؟ . قالت الأم أنخليكا . تكلمي وخلصينا .
- كان الوشاح القائم الذي يوطر وجهها والظلمة الخفيفة يزيدان من غموض تعبير وجهها المتراوح بين النفور والتراخي. وكانت عيناها الواسعتان تتظران بثبات إلى المكتب، وكان لهب المصباح الذي تهزه النسمة القادمة من البستان يكشف أحياناً عن لونهما الأخضر ويريقهما الناعم .
- هل سرقن المفاتيح منك؟ . قالت رئيسة الدير .
- لن تتغيري أبداً، يا مهملة . تحوم يد الأم أنخليكا حول رأس بونيفاتيا. ألا ترين إلام انتهى إهمالك؟
- اتركها لي، أينها الأم . قالت رئيسة الدير. لا تضيعي مزيداً من وقتي، يا بونيفاتيا .
- كانت نراعاها تتكلمان على جانبيها ورأسها منخفض دائماً، ولا يكاد رداؤها يوحى بحركة صدرها. وكانت شفتاها المستقيمتان والغليظتان ملتحمتين بلمص متجهّم، وأنفها يتمدد ويتقلص بإيقاع متساو .
- سأزعل منك، يا بونيفاتيا، أكلمك باحترام وأنت كأنك لا تسمعين . قالت رئيسة الدير. في أية ساعة تركتهن لوحدهن؟ ألم تقفلي غرفة النوم بالمفتاح؟
- تكلمي وخلصينا، يا شيطانة هصرت الأم أنخليكا رداء بونيفاتيا. سيعاقبك الله على هذه العجرفة .
- أمامك النهار بطوله للذهاب إلى المصلى، وفي الليل واجبك أن تعتي بالريبيات . قالت رئيسة الدير. لماذا خرجت من الغرفة دون إذن؟

دَوَّتْ طَرَقَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى بَابِ الْمَكْتَبِ، التَّقَتَتِ الْأَمَانَ وَرَفَعَتِ بُونِيفَانِيَا
جَفْنِيهَا قَلِيلًا وَصَارَتْ عَيْنَاهَا لِثَانِيَةِ أَكْبَرِ، خَضْرَاوِينَ وَمُرْكَزَيَتَيْنِ.

من هضاب البلدة وعلى بعد مئة متر من ضفة نهر نيبيا اليمنى يُلمح كوخ أندريان
نيبيس ومزرعته الصغيرة، ثم فيض من الخيزران والحراج والأشجار المقطوعة الرؤوس.
هناك يلتهم الطين الأعشاب البرية ويحرق بأعمار المياه الأمنة التي تغلي بالشرورغ
والديدان. وتتأثر هنا وهناك مساحات صغيرة ومربعة من إبرة آدم، والذرة والحواكير
الصغيرة. درب وعر يهبط من مقر البعثة إلى الساحة. خلف مقر البعثة جدار ترابي
يكبح اندفاع الغابة، الهجوم النباتي الشرس. في ذلك الجدار باب مفتوح.

- إنه الحاكم، أيتها الأم. قالت الأم باتروثينيو. ممكن؟

- بلى، دعيه يدخل، أيتها الأم باتروثينيو. قالت رئيسة الدير.

رفعت الأم أنخليكا المصباح فانتشلت من ظلمة العتبة هيتين سدमितين. دخل
دون فاييو متلفعاً بمعطف، حاملاً بيده مصباح جيب وحانياً رأسه باحترام:
- كنت نائمًا وخرجت لا أدري كيف، فاعذريني، أيتها الأم، على هذه
الهيئة. سلم بيده على رئيسة الدير وعلى الأم أنخليكا.

كيف أمكن أن يحدث ذلك، أقسم لك أنني لم أستطع أن أصدق. وأنا
أتخيل الآن ما هو شعورك، أيتها الأم.

كانت جمجمته الصلعاء تبدو رطبة وكان وجهه يبتسم للأمتين.

- اجلس، يا دون فاييو. قالت رئيسة الدير. شكرًا على مجيئك، ناولي
الحاكم كرسياً، أيتها الأم أنخليكا.

جلس دون فاييو فاشتعل مصباح الجيب الذي كان يتلى من يده اليسرى
مشكلاً هالة ذهبية فوق سجادة التشامبيرا²².

- لقد خرجوا يبحثون عنهن، أيتها الأم. قال الحاكم. ومعهم الملازم أيضاً. لا
تتشغلي، أكيد سيجدونهن هذه الليلة.

²² تشامبيرا Chambira: نوع من الشجر، وهو المقصود هنا، ونوع من السمك أيضاً.

- تصوّر أولاء الصغيرات المسكينات وحدثن هناك، يا دون فابيو . تنهت
رئيسة الدير. لحسن الحظ أنها لا تمطر . لا تعرف مدى الخوف الذي انتابنا .
- لكن كيف حدث هذا، أيتها الأم . قال دون فابيو . حتى الآن لا أكاد أصدق .
- إهمال من هذه . قالت الأم أنخليكا مشيرة إلى بونيفاثيا . تركتهن وحدثن
وذهبت إلى المصلى . ربما نسيت أن تقفل الباب .
نظر الحاكم إلى بونيفاثيا وقد علت وجهه علام الصرامة والألم، لكنه ما
ليث بعد ثانية أن ابتسم وطأطأ رأسه باحترام لرئيسة الدير .
- الصغيرات غير واعيات، يا دون فابيو . قالت رئيسة الدير . وليس عندهن
فكرة عن الأخطار . هذا أكثر ما يشغلني . حادث ما، حيوان ما .
- آه، يا لهنّ من صغيرات . قال الحاكم . ها أنت ترين، يا بونيفاثيا، كان
عليك أن تكوني أكثر يقظة .
- ادعي الله ألا يحدث لهنّ مكروه . قالت رئيسة الدير . وإلا يا للندم الذي
ستعين فيه مدى حياتك، يا بونيفاثيا .
- ألم تشعرن بهن يخرجن، أيتها الأم؟ . قال دون فابيو . لم يمررن في
المدينة . لا بدّ أنهنّ ذهبن عبر الغابة .
- خرجن من باب البستان، لذلك لم نشعر بهن . قالت الأم أنخليكا . سرقتن
المفتاح من هذه البلهاء .
- لا تقولي بلهاء، أيتها الأم . قالت بونيفاثيا، وقد جحظت عيناها تماماً . لم يسرقني .
- بلهاء وفي غاية البلاهة قالت الأم أنخليكا . وتتجزلين أيضاً؟ ثم لا تنادينني أمأ .
- أنا فتحت لهنّ الباب . لم تكذبونيفاثيا تشقّ شفيتها . أنا تركتهن يهرين،
ألا ترين أنني بلهاء؟
مطّ دون فابيو ورئيسة الدير رأسيهما نحو بونيفاثيا، أغلقت الأم أنخليكا
فمها ثمّ فتحتّه، شخرت قبل أن تستطيع الكلام:
- ماذا تقولين؟ . شخرت من جديد . أنت هربتّهنّ؟
- بلى، أيتها الأم . قالت بونيفاثيا . أنا هربتّهنّ .

- ها أنت يلفك الحزن من جديد، يا فوشيا . قال أكيلىنو. لا تكن كذلك، يا رجل، هيا، تحدّث قليلا كي تتفرّج. حدثني كيف هربت وخلصني.
- أين نحن، أيها العجوز؟ . قال فوشيا. هل ما زال أمامنا الكثير كي نصل إلى نهر المارانينون.

- منذ برهة دخلناه . قال أكيلىنو. ولم تنتبه، كنت تغطّ مثل شقيّ.
- وهل دخلته ليلاً؟ . قال فوشيا. كيف لم أشعر بالمنحدرات المائية، يا أكيلىنو؟
- كان الجو رائقاً حتى أنه يبدو فجراً، يا فوشيا . قال أكيلىنو. السماء صافية تماماً والطقس أجمل طقس في العالم. لا شيء كان يتحرّك، ولا حتى ذبابة. في النهار هناك الصيادون وأحياناً هذا الزورق أو ذلك من زوارق الحراسة، أما الليل فإنه أكثر أماناً. ثم كيف ستشعر بالمنحدرات المائية إذا كنت أعرفها عن ظهر قلب. لكن لا تقطب وجهك، فأنت تستطيع أن تنهض إذا أردت. لا بدّ أنك تشعر بالحرارة عندك تحت البطانيات. لا يوجد أحد، ونحن سيّدا النهر.
- كل ما أريده هو أن أبقى هنا . قال فوشيا. فأنا أشعر بالبرودة وجسدي يرتعد بكامله.
- بلى، يا رجل، إذا شعرت بتحمّن . قال أكيلىنو. فهيا، ازو لي كيف هربت وخلصني، لماذا زجّوك هناك في الداخل؟ كم كان عمرك؟

كان قد دخل المدرسة، لذلك شغّله التركي²³ في مخزنه. كان يسوي له الحسابات، يا أكيلىنو في دفاتر يسمونها: ما لي وما عليّ. ورغم أنه كان نزيهاً وقتذاك، إلا أنه كان يحلم بأن يصبح غنياً، أه كيف كان يوفّر، أيها العجوز؟ يأكل وجبة واحدة في اليوم ويلا سجاثر ولا جرعات. كان يريد رأسماً صغيراً يوظّفه في التجارة. هكذا هي الأشياء، ودخل في رأس التركي أنه كان يسرقه، محض افتراء،

²³ للتركي El Turco: كلمة تعني في أمريكا اللاتينية العربي، وبالتحديد ابن المشرق العربي، ويعود ذلك إلى أن الهجرت الأولى والرئيسية من هذه المنطقة إلى أمريكا، حدثت إبان الاستعمار للتركي.

وجعلهم يأخونه سجيناً. ما من أحد أراد أن يصدق أنه كان نزيهاً فأدخلوه الزنزانة مع لصين. ألم يكن هذا من أكثر الأمور جوراً، أيها العجوز؟
- لكنك كنت قد رويت لي هذا عند خروجنا من الجزيرة، يا فوشيا. قال أكيلينو. وأنا أريد أن تقول لي كيف حدث وهربت.

- بهذا الخطأف . قال تشانغو. الذي صنعه ايريكوو من سلك السرير. جزيناه ففتح الباب دون أن يحدث ضجة. هل تريد أن ترى، أيها الياباني الصغير²⁴؟
كان تشانغو أكبرهم سنّاً وكان هناك لأسباب تتعلق بالمخدرات، ويعامل فوشياً بحنان، بينما ايريكوو كان يسخر منه دائماً. إنه حشرة واحتمل على الكثيرين بكنبة الإرث، أيها العجوز، وهو الذي وضع الخطة.
- وحدث ما حدث تماماً، يا فوشيا؟ قال أكيلينو؟
- تماماً. قال ايريكوو. ألا ترون أنهم ينقلونهم في رأس السنة الجديدة؟ ولم يبق في البهو إلا واحد وعلينا انتزاع المفاتيح منه قبل أن يرمي بها إلى الجانب الآخر من الشبك. كل شيء متوقّف على هذا، أيها الفتيان.
- افتح وخلصني، يا تشانغو. قال فوشيا. لم أعد أحتمل، يا تشانغو، هيا، افتح.
- أنت عليك أن تبقى، أيها الياباني الصغير. قال تشانغو. فالسنة تمر بسرعة. أما نحن فلا نخسر شيئاً، لكن إذا فشلنا سيخرب بيتك أنت وسيحكمون عليك بعدد من السنين زيادة. لكنه أصرّ وخرجوا وكان البهو مقفلاً. وجدوا الحارس نائماً بحذاء الشبك وبيده قتيئة.
- ضربته بساق السرير فخرّ أرضاً. قال فوشيا. وأعتقد أنني قتلته، يا تشانغو.

²⁴ الياباني الصغير El Japoncito: لقب فوشيا، وذلك لأنه يشبه اليابانيين.

- طر، يا أحق، فالمفاتيح صارت معي . قال ايريكوو. يجب أن نعبر
الفناء ركضاً. هل انتزعت منه المسدس؟
- اتركني أمر أولاً . قال تشانغو. والذين عند البوابة الرئيسية سيكونون
سكارى مثل هذا.
- لكنهم كانوا مستيقظين أيها العجوز . قال فوشيا. كانوا اثنين ويلعبان
بالزهر. آه كيف جحظت عيونهما عندما دخلنا.
- سدّ ايريكوو عليهما بالمسدس: تفتحان الباب أو يبدأ مطر الرصاص، أيها السافلان؟
- اربطهما، أيها الياباني الصغير . قال تشانغو. بزناريهما وضع ربطتي
عنيهما في فميهما. أسرع، أيها الياباني الصغير، أسرع.
- ليست له، يا تشانغيتو . قال ايريكوو. ولا واحد منها للباب. إننا نحترق
في باب الفرن، أيها الفتيان.
- واحد منهما يجب أن يكون، تابع التجريب . قال تشانغو. ماذا تفعل، أيها
الفتى، لماذا ترفسهما؟.
- ولماذا كنت ترفسهما، يا فوشيا؟ . قال أكيلينو. لا أفهم، ففي مثل تلك
اللحظة لا يفكر المرء إلا بالهرب.
- كنت حانقاً على جميع أولئك الكلاب . قال فوشيا. آه كيف كانوا يعاملوننا،
أيها العجوز. هل تعلم أنني أرسلتهم إلى المستشفى. في الصحافة قالوا، يا أكيلينو،
إنها وحشية ياباني، انتقامات شرقي. وكان هذا يضحكني، فأنا لم أكن قد خرجت
من كامبو غرانده إطلاقاً، وكنت برازيليّاً أكثر من أي شخص آخر.
- أنت الآن بيروي، يا فوشيا . قال أكيلينو. كان باستطاعتك حتّى عندما
عرفتك في مويوبامبا أن تكون برازيليّاً، فقد كنت تتكلم بطريقة غريبة قليلاً،
لكنك الآن تتكلم مثل المسيحيين هنا.
- لا برازيلي ولا بيروي . قال فوشيا. أنا الآن مجرد خراء، مسكين، قانورة
أيها العجوز.

- لماذا أنت فظ إلى هذا الحد؟ قال ايريكو. لماذا ضربتكما؟ إذا قبضوا علينا فإنهم سيقتلوننا ضرباً بالعصي.
- كل شيء يسير على ما يرام، لا وقت للجدال. قال تشانغو. هيا نخبئنا نحن، يا ايريكو، وأنت، أسرع، أيها الياباني الصغير، أخرج العربة وتعال مثل الطير.
- في المقبرة؟ قال أكيلينو. هذا ليس عمل مسيحيين.
- لم يكونوا مسيحيين وإنما لصوصاً. قال فوشيا. قالوا في الصحافة إنهم دخلوا المقبرة كي يفتحوا القبور، أيها العجوز، هكذا الناس.
- وهل سرقت عربة التركي؟ قال أكيلينو. كيف قبضوا عليهما ولم يقبضوا عليك أنت؟
- أمضيا الليل كله في المقبرة، ينتظرانني. قال فوشيا. فأطبقت عليهما الشرطة عند الفجر. وكنت أنا قد ابتعدت عن كامبو غرانده.
- هل تريد أن تقول إنك خنتهما، يا فوشيا؟ قال أكيلينو.
- أو لم أكن العالم كله؟ قال فوشيا. ما الذي فعلته مع بانئاتشا والهوامبسيين؟ ما الذي فعلته مع خوم، أيها العجوز؟
- لكنك لم تكن سيئاً آنذاك. قال أكيلينو. أنت نفسك قلت لي إنك كنت نزيهاً.
- كان ذلك قبل أن أدخل السجن. قال فوشيا. هناك لم أعد كذلك.
- وكيف جئت إلى البيرو؟ قال أكيلينو. إذ لا بد أن كامبو غرانده بعيدة جداً.
- كانت الصحافة في ماتو كروسو تقول إن الياباني في طريقه إلى بوليفيا، لكنني لم أكن غيباً إلى ذلك الحد أيها العجوز، كنت في كل مكان، وأمضيت زمناً طويلاً في الفرار، يا أكيلينو، ووصلت أخيراً إلى ماناوس ومن هناك كان العبور إلى إيكيتوس سهلاً.
- وهل هناك تعرقت على السيد خوليو رثاتيغي، يا فوشيا؟ قال أكيلينو.
- لم أكن أعرفه شخصياً وقتها. قال فوشيا. لكنني كنت قد سمعتهم يتحدثون عنه.
- كانت حياتك غنية، يا فوشيا. قال أكيلينو. شاهدت الكثير من الأمور.
- أحب الاستماع إليك، لا تعرف كم يسليني ذلك. وأنت، ألا يسرك أن تروي لي كل هذا؟ ألا تشعر أنّ الرحلة تمرّ بهذا الشكل بسرعة أكبر؟

- لا، أيها العجوز . قال فوشيا. فأنا لا أشعر إلا بالبرد.

عند عبور منطقة الكثبان تسخن الريح الهابطة من الجبال وتقسو: تسلك طريق النهر محملة بالرمال، وما إن تصل المدينة حتى يلمح ما بين السماء والأرض ما يشبه الدرع المبهر. وهناك تفرغ أحشاءها: في جميع أيام السنة وفي ساعة الغسق يسقط دائماً مطر جاف وناعم مثل نشارة الخشب فوق الساحات والأسطح وأبراج النواقيس والشرفات والأشجار وأرصفتها شوارع مدينة بيورا²⁵ ولا يتوقف إلا عند الفجر. يخطئ الغرياء حين يقولون: «إن بيوت المدينة على وشك الانهيار»، فالصرير الليلي لا يصدر عن الأبنية، التي هي قديمة فعلاً، وإنما عن انفجار القذائف الرملية الخفية واللامتناهية على الأبواب والنوافذ. كما أنهم يخطبون عندما يفكرون: «إن بيورا مدينة موحشة وحزينة». فالناس يأورن إلى بيوتهم في المساء ليتخلصوا من الريح الخائفة وانفجاع الرمال التي تجرح الجلد مثل وخز الإبر، فيحمر ويتقرح. لكن يلاحظ كيف أن الناس في مخيمات كاستيليا وأكواخ لا مانعا تشبيرا المصنوعة من الطين والقصب، وفي محلات البهار وحانات التثبيتا في لاغاليناثيرا، وفي بيوت المبصرين في المالكون، وبلاتا ده أرماس²⁶ وفي أي مكان آخر، يشربون، يستمعون للموسيقى ويتسامرون. ويختفي مظهر المدينة المهجور والكئيب عند عتبات البيوت، بما فيها أكثرها تواضعا، هذه المساكن التي شيدت في صفوف على ضفاف النهر في الطرف الآخر من «الكمال».

ليل بيورا مليء بالحكايات. فالفلاحون يتحدثون عن الأشباح، والنسوة يروين الأقاويل والفجائع في زواياهن وهن يطهين. الرجال يشربون جرعات التثبيتا الشقراء وكؤوس الكاناثو الكاوي، المشروب الجبلي والقوي جداً، الذي يُبكي الغرياء حين يجربونه لأول مرة. الأطفال يتقلبون على الأرض، يتعاركون، يغلغون أوكار الديدان، يخترعون المكائد للعطاءات، أو تراهم، بلا أدنى حركة، جاحظي العيون،

²⁵ بيورا Piura: مدينة في لشمال الغربي من لبيرو، عدد سكانها 250 ألف نسمة أو يزيد الآن قليلاً.

²⁶ بلاتا ده أرماس Plaza de armas: مساحة السلاح.

يصغون إلى حكايات الكبار: قطاع طرق يتراهنون على انتزاع حقائب المسافرين، بل وأحياناً على جزر رؤوسهم في شعاب كانتشاكه وهوانكا بامبا وأياباكا²⁷، بيوت تتعذب فيها الأرواح، علاجات سحرة خارقة، مطامر ذهب وفضة يظنون عن وجودها بجلبة سلاسل وأنين، عصابات تقسم الملأك في المنطقة إلى طائفتين وتجوب الرملة في كل الاتجاهات، يبحث بعضها عن بعض، تنموه في قلب العجاج الهائل، تحتل ضيقاً ومقاطع، تصادر الحيوانات، تجمع الرجال بالحيل وتنفذ كل شيء بأوراق تسميها قسائم الوطن، عصابات كان الأطفال خيامهم الميدانية في لابلاتا ده أرماس يندفعون إلى المدينة ألبسة موحدة حمراء وزرقاء، قصص تحدّ وفسق وكوارث ونساء رأين العذراء تبكي في الكاندرائية، ترفع يدها للمسيح، تبتسم للطفل الرب خلصة.

وعادة ما تنظم في أيام السبت الحفلات. يجوب الفرع لا مانغاشيريا، لاکاستليا، لاغاليناثيرا وأكواخ ضفة النهر مثل موجة كهربائية. وتدوي في جميع أرجاء بيورا تونادات وباسيليووات وقالسات بطيئة وهواينوات²⁸ يرقصها الجيليون ضاربين الأرض بأقدامهم الحافية ومارينيرات رشيقة وتريسات يتخللها التونديرو²⁹. وحين ينتشر السكر ويتوقف الغناء ورشقات القيثارات ودوي آلات الإيقاع ونحيب القيثارة، تظهر في بيوت العمال، التي تعانق بيورا مثل السور، أشباح فجائية تتحدى الريح والرمل: إنهم أزواج غير شرعيين من الفتيان يتسللون إلى غابة الخرنوب المبعثرة التي تظلل الرملة وشواطئ النهر الصغيرة والخفية والكهوف التي تطلّ على كاتاكاوي، وأكثرهم خوفاً يتسلل إلى طرف الصحراء. هناك يتبادلون الحب.

في قلب المدينة، في المربعات التي تحيط بلابلاتا ده أرماس، وفي بيوت كبيرة مطلية جدرانها بالكلس وشرفاتها ذات مشربيات، يعيش الملأك والتجار والمحامون

²⁷ كانتشاكه وهو أنكابامبا وأياباكا، أسماء مناطق في البيرو.

²⁸ تونادات وباسيليووات.. وهواينوات: موسيقى لأغاني تحمل الأسماء نفسها.

²⁹ مارنيررات.. تريسات.. تونديرو ..Tondero ..Trites ..marineras أسماء رقصات محلية.

وأبناء السلطة. يجتمعون ليلاً في الحدائق تحت أشجار البلح ويتحدثون عن الآفات التي تهدد القطن والقصب هذا العام، واما إذا كان النهر سيدخل في الوقت المناسب وغزيراً، عن الحرائق التي التهم بعضها أحطاب تشابيرو سميناريو، عن مصارعة الديكة أيام الأحاد، عن الاحتفال الريفي الذي يُنظَّم لاستقبال الطبيب المحلي الجديد: بيدرو ثيباليو. وفي الوقت الذي يلعب فيه الرجال بالروكامبور والومينو أو التريسيليو³⁰ تصلي السيدات بالسباحات في الصالات المليئة بالسجاد والظلال وبين اللوحات البيضوية والمرايا الكبيرة والأثاث المفروش بالدمقس، ويتفاوضن على الخطوبات المستقبلية، يبرمجن الموكب الديني ويزين المذابح ويعدن للمهرجانات الشعبية، ويعلقن على الأقاويل الاجتماعية للصحيفة المحلية، والتي هي ورقة ملونة يسمونها: «أصداء وأخبار».

يجهل الغرياء حياة المدينة الداخلية. ما الذي يمقتونه في بيورا؟ عزلتها، رملتها الشاسعة، التي تفصلها عن بقية البلد، انعدام الطرق، الأسفار الطويلة على الجياد وتحت الشمس الحارقة وكماثن قطاع الطرق. يصلون إلى فندق «لا استراليا دل نورته»³¹ الواقع في بلاتا ده أرماس، وهو دار فقدت لونها، مرتفعة مثل الميدان حيث يُعزف لحن العودة إلى التكنة أيام الأحاد، ويقام في ظلها الشحانون وماسحو الأحنية، ويتوجب عليهم البقاء فيه سجناء منذ الخامسة مساء وهم ينظرون من خلال ستائر النوافذ كيف تتملك الرجال المدينة الموحشة. يشربون في حانة «لا استراليا دل نورته»، حتى يسقطوا سكارى. والحال هنا ليس كما في ليما. كما يقولون. ليس هناك من مكان يتسلى فيه المرء، أهل بيورا ليسوا سيئين، لكنهم متجهمون، ونهاريون. يودون لو أن هناك بيوت قمار تتفتح طول الليل ليحرقوا فيها أرباحهم. لذلك فإنهم

³⁰ الروكامبور والومينو أو التريسيليو: الأولى والثالثة نوع من ألعاب الورق، والثانية هي لعبة الدومينو المعروفة عالمياً.

³¹ لا استراليا دل نورته: نجمة الشمال.

ينكرونها عادة بالسوء، ويصل بهم الأمر إلى حد الاقتراء. وهل يوجد من هو مضياف أكثر من أهل بيورا؟ فهم يستقبلون الغرباء استقبال المنتصرين، يتنافسون عليهم عندما يكون الفندق مملوءاً. يسلمى الوجهاء تجار المواشي وسامسة القطن وأي رجل سلطة يصل، بأفضل ما يستطيعون: ينظمون رحلات الصيد في جبال تشولوكاناس على شرفهم، ينزهونهم في أملاكهم، يقدمون لهم البانتشامانكا³². أبواب كاستيليا ولا مانغا تشيرياً مفتوحة للهنود الذين يهاجرون من الجبال ويصلون إلى المدينة جياً خائفين، وللسحرة الذين يقصدون بيورا بحثاً عن الثروة. تتلقفهم بائعات التشيشا والماء والسقاؤون بألفة، ويتقاسمون معهم طعامهم وأكواخهم. وعندما يرحل الغرباء فإنهم دائماً يحملون معهم الهدايا. لكن لا شيء يرضيهم، فهم جائعون للمرأة ولا يتحملون ليل بيورا، حيث لا يسهر إلا الرمل الذي يسقط من السماء.

كانت رغبة هؤلاء، الناكرين للجميل بالمرأة واللهو الليلي كبيرة إلى حد أن السماء - الشيطان، الرجيم ذو القرنين، كما يقول الأب غارثيا - استجابت لرغبتهم. وهكذا كان أن ظهر البيت الأخضر، صاخباً، مستهتراً ولبلياً.

يطوف العريف روبرتو ديلغانو أمام مكتب النقيب أرتميو كيروغا لبرهة طويلة دون أن يتخذ قراره. غيوم ضاربة للسواد تعبر ببطء بين السماء الرمادية ولاغوارنيثيون ده بورخا³³، والرقباء يدرّبون الأغرار في الفسحة المجاورة: انتبه، ويحك، استرخ. الهواء محمّل بالبخار الرطب. تويخ في أسوأ الحالات، ويدفع

³² بانتشامانكا: لحم متبل باللفل الحار ومشوي بين الحجارة الحامية.

³³ لاغوارنيثيون ده بورخا: نكلة بورخا.

العريف الباب، يحيي النقيب الموجود في مكتبه وهو يهوي بيده: ماذا هناك، ماذا كان يريد؟ العريف: إننا للذهاب إلى باغوا. هل يمكن ذلك؟ ماذا كان يحدث للعريف؟ يهوي النقيب الآن بعصبية ويديه الاثنتين، ما الحشرة التي لدغته. لكن العريف روبرتو ديلغادو لم تكن تلدغه الحشرات لأنه كان غائباً ومن باغوا، يا سيدي النقيب: كان يريد إجازة ليذهب ويرى عائلته. ها هو المطر الملعون يتساقط من جديد. ينهض النقيب على قدميه، يفلق النافذة ويعود إلى مقعده مبتل اليدين والوجه. فهذا الشكل لا تلدغه الحشرات. أليس لأن دمه فاسد؟ ولا تريد أن تتسمم، ولذلك لم تكن تلدغه، والعريف يرضى: ممكن، يا سيدي الملازم. ويبتسم الملازم مثل تمثال متحرك، والمطر يملأ الغرفة بالضجيج: فقطرات المطر الكبيرة تسقط على سطح الكالامين مثل الحجارة، والريح تصفر في شقوق الجدار الرقيق. متى أخذ العريف آخر إجازة؟ العام الماضي؟ آه، حسناً، هذا موضوع آخر وينقبض وجه النقيب. إذاً له الحق بإجازة لمدة ثلاثة أسابيع، وترتفع يده، هل كان سيذهب إلى باغوا؟ سيوافيه ببعض المشتريات ويلطم خدّه فيحمر. غير معقول. بريق مرح يعبر عيني الضابط ويحلي فمه الحامض، وغد: إما أن يضحك مقهقهاً أو أنه لن يحصل على إجازة. ينظر روبرتو ديلغادو مرتبكاً إلى الباب، ثم إلى النافذة. أخيراً يفتح فمه ويضحك ضحكة كانت في البداية مصنعة ومزيفة ثم طبيعية وأخيراً فرحة. كانت البعوضة التي لدغت النقيب أنثى، والعريف يهتز كله من الضحك، فالأنثى هي الوحيدة التي تلدغ، هل كان يعرف هذا لأن الذكر نباتية؟ والنقيب أغرب عن وجهي فوراً، والعريف يخرس: حذار أن تلتهمه الحيوانات في الطريق إلى باغوا لخفة دمه. لكنها لم تكن خفة دم وإنما شيء علمي، فالأنثى هي وحدها التي تمتص الدم: هذا ما كان قد شرحه له الملازم لا فلور، أيها النقيب، والنقيب ما همّ أن تكون أنثى أو ذكراً طالما أنها تحرق بالطريقة نفسها؟ ثم من الذي سأله؟ هل كان يظن نفسه عالماً؟ لكن العريف لم يكن يسخر، أيها النقيب، تصوّر، هناك وسيلة مضمونة النتائج، مرهم كان الأوراكوسيون يتدهنون به، سأحضر لك قنينة، يا سيدي النقيب، والنقيب كان يريد أن يكلموه بالمسيحية، فمن هم

الأوراكوسيون؟ لكن كيف كان العريف سيكلمه بالمسيحية³⁴؟ ثم هل رأى النقيب تشونتشيأ واحداً تلدغه الحشرات؟ لقد كانت لهم أسرارهم، كانوا يصنعون مراهمهم من صمغ الأشجار ويدهنون بها أنفسهم والبعوضة التي تقرب تموت. وهو: سوف أحضره لك يا سيدي النقيب، قنينة، كلمة شرف إنني سأحضره لك. كم كان العريف يخف دمه هذا الصباح، سنرى بأي وجه سيأتي إذا صغر له الوثنيون رأسه، والعريف خاطرة جميلة، جميلة، يا سيدي النقيب، فقد كان يتصور رأسه بهذا الحجم. لماذا كان العريف يريد الذهاب إلى أوراكوسا³⁵؟ ألمجرد أن يأتيه بالمرهم؟ والعريف طبعاً، طبعاً، إضافة إلى أنني سأختصر الطريق، سيدي النقيب. وإلا فإنه كان سيقضي الإجازة في السفر ولن يستطيع أن يمكث مع العائلة والأصدقاء. وهل جميع الناس في باغوا مثل العريف؟ وهو بل وأساء، وبهذا الدهاء؟ بل وأساء بكثير ولا يمكن أن تعرف، والنقيب يضحك على هواه والعريف يقلده، يراقبه، يقيسه بعينيه نصف المغضتين، وفجأة وهل يأخذ معه دليلاً، يا سيدي النقيب؟ خادماً؟ أمقدره ذلك؟ والنقيب أرتيميو كيروغا ماذا؟ كان العريف يظن نفسه فهمياً، أليس كذلك؟ كان يَلْتِنُه بحركاته البهلوانية، وهو كان يريد أن يضحك منه، أليس كذلك؟ لكن العريف وحده كان سيتأخر كثيراً، يا سيدي النقيب؟ ثم هل هناك طرق؟ إذن كيف كان باستطاعته أن يذهب إلى باغوا ويعود منها في مثل هذه الأيام القليلة جداً دون دليل، وجميع الضباط سيكلفونه بطلبات لهم؟ إنه بحاجة إلى من يساعده في حمل الصرر، فليتركه يأخذ معه دليلاً وخادماً، وكلمة شرف أنه سيحضر له ذلك المرهم القاتل للحشرات، يا سيدي النقيب الآن يثير حماسه: العريف كان ملماً بكل شيء. والعريف: أنت شخص عظيم، يا سيدي النقيب. بين الأعرار الذين وصلوا في الأسبوع الماضي دليل فليأخذه، وخادم يكون من المنطقة معه. هذا بلى، ثلاثة أسابيع ولا يوماً واحداً زيادة، والعريف ولا يوماً واحداً زيادة، يا سيدي

³⁴ يريد أن يقول هنا إنه يريد أن يكلموه باللغة الإسبانية لتمييزها عن اللغات المحلية.

³⁵ أوراكوسا: قرية من قرى السكان الأصليين في البيرو.

النقيب، أقسم لك. يضرب كعباً بكعب، يحيي، يتوقف في الباب باعتذار. ماذا كان يدعى اللؤلؤ؟ والنقيب أدريان نيبس والعريف ها هو كان ذاهباً، فهو كانت لديه أعمال متراكمة. يفتح العريف روبرتو ديلغانو الباب، يخرج، ريح رطبة وحارة تغزو الغرفة وتخرب شعر النقيب قليلاً.

طرقوا الباب، خرج خوسيفينو روخاس ليفتح، فلم يجد أحداً في الشارع. كان الظلام قد راح يخيم ولم يكونوا قد أشعلوا مصابيح حي تاكنا، وثمة نسمة تدور في المدينة بقتور. تقدم خوسيفينو عدة خطوات في جادة سانتشيث ثيرو فرأى ابني آل ليون على مقعد الساحة، إلى جانب تمثال الرسام ميرينو. كان خوسيه يضع سيجارة بين شفثيه وألمونو³⁶ ينظف أظافره بعود نقاب.

- من مات! قال خوسيفينو. لماذا هذه الوجوه الجنائزية؟

- تماسك جيداً، يا منيع، فسوف تقع على ظهرك. قال ألمونو. لقد وصل ليتوما.

فتح خوسيفينو فمه، إلا أنه لم يتكلم، رفث أظفانه لثوان وجعدت ابتسامه مرتبكة كامل وجهه. بدأ يفرك يديه بنعومة.

. منذ ساعتين في باص روجيرو. قال خوسيه.

كانت نوافذ مدرسة سان ميغل مضاءة، وموجه في الباب يحث الطلاب الليليين، مصفقاً. فتان بألبسة موحدة يتسامرون تحت أشجار الخروب الموشوشة في شارع الحرية. وكان خوسيفينو قد وضع يديه في جيبيه.

. جميل أن تأتي معنا. قال ألمونو. إنه ينتظرنا.

³⁶ ألمونو: لقب يعطى للقرود.

- عاد خوسيفينو واجتاز الجادة، أغلق باب بيته ورجع إلى الساحة، انطلق الثلاثة بصمت. وعلى بعد أمتار من حي أيكينا التقوا بالأب غارثيا، الذي كان يتقدم متلفعاً بلفاعه الرمادي منحنيًا، يجرجر قنميه لاهتًا. أبان لهم قبضته وصاح: يا قليلي الورع! ردّ عليه المونو: حارق! وخوسيه: حارق! حارق! كانا يسيران على الرصيف الأيمن وخوسيفينو في عرض الشارع.
- لكن باصات روجيرو تصل صباحاً أو ليلاً وليس في مثل هذه الساعة أبداً. قال خوسيفينو.
- انقطعوا في منحدر أولموس. قال المونو. انفجرت عجلة وبللواها، ثم انفجرت معهم اثنتان أخريان. تصور هذا الحظ!
- تجمّدا حين رأيناها. قال خوسيه.
- كان يريد أن يخرج ويحتفل هناك بالذات. قال المونو. تركناه بجهاز نفسه وجئنا نبحث عنك.
- اللعنة، لقد أخذني على حين غرة. قال خوسيفينو.
- والآن ماذا سنفعل؟ قال خوسيه.
- ما تأمر به، يا ابن العم. قال المونو.
- انتباني بالزميل، إذن. قال ليتوما. سنشرب معه بعض الكوروس. اذهبا وابحثا عنه، قولاه إن المنيع رقم أربعة قد عاد. لنر بأي وجه سينتقى الخبر.
- وها أنت تتكلم بجديّة، يا ابن العم؟ قال خوسيه.
- بكل جدية. قال ليتوما. فقد جلبت معي بعض قناني الـ «سول ده انكا»³⁷
- سنفرغ واحدة معه. كلمة شرف إنني مشتاق لرؤيته، اذهبا ريثما أبدل ثيابي.
- في كل مرة يتحدث فيها عنك المنيع يقول الزميل. قال المونو. إنه يقدرك مثلما يقدرنا تماماً.
- أتصوّر أنه التهمكما بالأسئلة. قال خوسيفينو. ماذا قلتما له؟

³⁷ الـ سو ده إنكا؛ شمس إنكا.

- أنت مخطئ، لم نتطرق لهذا إطلاقاً. قال المونو. ولم ينكر حتى اسمها. ربما نسيها.
- الآن ما إن نصل حتى ينهال علينا بالأسئلة دفعة واحدة. قال خوسيفينو.
- يجب أن نسوي هذا الأمر اليوم بالذات، قبل أن ينموا إليه.
- ستأخذ ذلك على عاتقك أنت. قال المونو. أنا لا أجزؤ. ماذا سنقول له؟
- لا أدري. قال خوسيفينو. هذا يتوقف على الكيفية التي سننم بها الأشياء. لو أنه فقط أخبرنا بقدمه. لكن أن يهبط علينا فجأة وبهذا الشكل. اللعنة، لم أتوقع ذلك.
- دعك الآن من فرك يديك بهذا الشكل. قال موسيه. ستعديني بتوتر أعصابك، يا خوسيفينو.
- لقد تغير كثيراً. قال المونو. فالسنون بادية عليه قليلاً، يا خوسيفينو، ولم يعد بديناً كما كان.
- كانت مصابيح جادة سانتشث ثيرو قد اشتعلت لتوها والبيوت ما تزال رجة، فحمة، بجرانها الزاهية وشرقاتها الخشبية المشغولة ومطارق أبوابها البرونزية، لكن صورة لامانغا تشيرياً في العمق وفي حشرجات الضق الزرقاء كانت تبدو مزيفة وضبابية. قافلة من الشاحنات كانت تسير في صف على الطريق باتجاه «البونته نويبو»³⁸، وعلى الأرصفة أزواج قابعون في البوابات، وتل من الفتیان وعجائز بطينون على العكازات.
- صار البيض شجعاناً. قال ليتوما. وبتزّهون الآن في لامانغا، تشيرياً وكأنهم في بيوتهم.
- الحق على الجادة. قال المونو. صارت بندقية حقيقية تهدد المانغاتشين.
- عندما كانوا ينشئونها كان عازف القيثارة يقول لقد خربوا علينا عيشنا، لقد انتهى الاستقلال، الجميع سيحشرون أنفسهم في الحي. وقد حصل هذا، يا ابن العم.
- ما من أبيض لا ينهي احتفالاته الآن في مشارب التشينتشا. قال خوسيه.
- . ألم تر كيف توسعت بيورا، يا ابن العم؟ الأبنية الحديثة صارت في كل مكان.
- رغم أن هذا لن يلفت انتباهك وأنت القادم من ليما.

³⁸ البونته نويبو: الجسر الجديد.

- سأقول لكما شيئاً. قال ليتوما. لقد انتهت الأسفار بالنسبة لي. طوال هذا الوقت وأنا أفكر، وخلصت إلى أن المصيبة حلت بي لأنني لم أبق مثلكما في بلدي. على الأقل تعلمت هذا، إنني أريد أن أموت هنا.
- قد يغير فكرته عندما يعرف ما يجري. قال خوسيفينو. تيشعر بالعار حين يشير إليه الناس بأصابعهم في الشارع. وعندئذ سيرحل.
- توقف خوسيفينو وأخرج سيجارة. شكّل ابنا آل ليون دريئة بأيديهما كي لا تطفئ النسيمة عود الثقاب. تابعوا سيرهم ببطء.
- وماذا لو لم يرحل؟ قال ألمونو. ستكون بيورا صغيرة على الاثني معاً، يا خوسيفينو.
- صعب أن يرحل ليتوما، لأنه صار بيروياً حتى نخاعه. قال خوسيه. لم يعد كما كان حين عاد من الجبل، حيث كان يزرع كل شيء فيه. في ليما استيقظ عنده حبّ الأرض.
- لا أريد مطاعم صينية. قال ليتوما. أريد صحوناً بيوروية، كأس شبابيلا مرّاً ولنبيذاً، بيكنو وكلاريتو بحرياً³⁹.
- لنذهب إذاً إلى حيث أنخليكا ميرثيس، يا ابن العم. قال ألمونو. فهي ما تزال ملكة الطهو. لم تتسها، أليس كذلك؟
- بل الأفضل إلى كاتاكاوس، يا ابن العم. قال خوسيه. على الكارو أونديدو⁴⁰ فالكلاريتو هناك من أفضل ما عرفت.
- ما أسعدكما بمجيء ليتوما. قال خوسيفينو. تبدوان وكأنكما في عيد.
- على كل حال هو ابن عمنا، أيها المنيع. قال ألمونو. والإنسان يفرح دائماً برؤية فرد من عائلته.
- علينا أن نأخذه إلى مكان ما. قال خوسيفينو. أن ندخله في الجو قبل أن نحدثه.

³⁹ تشابيلو.. بيكنو وكلاريتو: مشروبات روحية.

⁴⁰ لكازو أونديدو: العربة الغارقة.

- لكن انتظر، يا خوسيفينو . قال ألمونو. نحن لم ننته من الحديث معك بعد.
- غداً نذهب إلى حيث أنخليكا ميرثيدس . قال ليتوما. أو إلى كاتاكاوس إذا كنتما تفضلان. لكني أعرف اليوم أين يجب أن أحتفل بعودتي وعليكما أن تلبيا لي هذه الرغبة.
- إلى أي مكان خرائتي يريد أن يذهب؟ . قال خوسيفينو. على «الرينا»⁴¹، إلى «تريس استريلياس»⁴².
- إلى حيث تشونغا تشونغيتا. قال ليتوما.
- يا للغرابة . قال ألمونو. إلى البيت الأخضر، بالطبع. لاحظ، أيها المنيع.

⁴¹ لَرِينَا: الملكة.

⁴² تريس استريلياس: النجوم الثلاث.

-2-

- أنتِ الشيطان بعينه . قالت الأم أنخليكا وانحنت باتجاه بونيفاثيا، الممددة على الأرض مثل وحش قائم منيع . رجيمة واجادة .

- الجحود هو أسوأ شيء، يا بونيفاثيا . قالت رئيسة الدير . حتى الحيوانات تعترف بالجميل، ألم تشاهدي طيور الراهب عندما يلقون إليها ببعض الموز؟ كانت وجوه وعيون وأوشحة الأمهات تبدو مشعة في ظلمة غرفة المؤونة وبونيفاثيا ما تزال بلا حراك .

- ستعين يوماً ما فعلت وستندمين . قالت الأم أنخليكا . وإن لم تتوبي فسيكون مصيرك إلى الجحيم، أيتها الضالة .

تمام الربييات في غرفة طويلة، ضيقة، عميقة مثل بئر، في الجدران العارية ثلاث نوافذ تطل على نيبيا، بابها الوحيد يتصل مع فناء البعثة العريض . أسرة الخيش القابلة للطي على الأرض مسندة إلى الجدار، تطويها الربييات عند الاستيقاظ وتشرها وتمدها في الليل . تمام بونيفاثيا على سرير فردي خشبي، في الجانب الآخر من الباب، في غرفة صغيرة تشبه الإسفين، بين مهجع الربييات والفناء . فوق سريرها يوجد صليب، وجانباً يوجد صندوق . صوامع الأمهات في الطرف الآخر من الفناء، في مكان الإقامة: بناء أبيض، سمي السطح، نوافذه كثيرة ومتوازية وله درابزين خشبي مرتفع . إلى جانب مكان الإقامة قاعة الطعام وقاعة الأشغال، حيث تتعلم الربييات التكلم بالمسيحية، والتهجية والجمع والخياطة والتطريز . دروس الديانة والأخلاق تُعطى في المصلى . في إحدى زوايا الفناء محلٌ شبيه بالحظيرة، يتاخم بستان البعثة تبرز مدخته العالية والضاربة للحمرة بين أغصان الغابة الغازية: إنه المطبخ .

- كنت بهذا الحجم، لكن كان من الممكن التكهن بما قد تصبحين . كانت يد رئيسة الدير على ارتفاع نصف متر عن الأرض . تعرفين عما أتكلم، أليس كذلك؟ انحنت بونيفاثيا، رفعت رأسها، تفحصت عيناها يد رئيسة الدير . ثرثرة ببغاوات البستان كانت تصل حتى ذلك الركن من غرفة المؤونة . راحت أغصان الأشجار تبدو من النافذة قائمة ومتشابكة .

- أيضاً تجهلين كل ما فعلناه لأجلك، صحيح؟ . انفجرت الأم أنخليكا، التي كانت تمضي من جانب إلى آخر، شادة على يديها. أيضاً لا تعرفين كيف كنت حين التقطناك، أليس كذلك؟

- كيف تريدني مني أن أعرف . همست بونيفاثيا. كنت صغيرة جداً، أيتها الأم، لا أنكر.

- لاحظي الصوت الذي تصطنعه، أيتها الأم، كم تبدو وديعة . صرخت الأم أنخليكا. هل تعتدين أنك ستخدعيني؟ ألا أعرفك؟ ثم من أنن لك أن تتأديني بالأم. بعد صلوات الليل تنخل الأمهات إلى المطعم، وتتوجه الربييات تتقدمهن بونيفاثيا، إلى المهجع، ينشرن أسرتهن، وحين يستلقين، تطفئ بونيفاثيا مصابيح صمغ الصنوبر، تقفل الباب، تركع عند قدم الصليب، تصلي وتنام. -كُنْتُ تركضين إلى البستان وتتكشين الأرض، حتّى إذا وجدت دودة أخذتها في فمك . قالت رئيسة الدير. كنت دائمة المرض، ومن الذي كان يعالجك ويرعاك؟ أيضاً لا تنكرين؟

- وكنت عارية . صاحت الأم أنخليكا. ويرضى كُنْتُ أخيط لك الثياب، وكنت تخلعنيها وتخرجين كاشفة عن عورتك للعالم كلّه، وكان عمرك يتجاوز العاشرة. كانت لك غرائز سيئة، يا شيطانة، لا تحبين إلا الرذائل.

كان فصل الأمطار قد انتهى وصار الليل يحلّ سريعاً. كانت السماء، خلف هيجان أغصان وأوراق النافذة، مجرّة من الأشكال المكفهرة والوميض. كانت رئيسة الدير جالسة على عِندل، مستوية تماماً، والأم أنخليكا تروح وتغدو، تهزّ قبضتها فينزلق كم الرداء أحياناً ويظهر ذراعها، أفعى بيضاء صغيرة ودقيقة.

- لم أكن أتصوّر أبداً أنك قادرة على الإتيان بمثل هذا . قالت رئيسة الدير. كيف حدث، يا بونيفاثيا؟ لماذا فعلت ذلك؟

- ألم يخطر ببالك أنه من الممكن أن يمئن جوعاً أو غرقاً في النهر؟ . قالت الأم أنخليكا. أو أن ترتفع حرارتهم، ألم تفكري بشيء أبداً، أيتها اللصة؟

أجهشت بونيفاثيا. كانت غرفة المونة قد امتلأت برائحة ذلك التراب الحامض والنباتات الرطبة التي كانت تظهر مع العتمة وتزداد حدة. رائحة كثيفة، مخزشة وليلية كان يبدو أنها تعبر النافذة وقد اختلطت بصرير الجادج والزيزان، الحادة جداً الآن.

- كنت مثل حيوان صغير ومنحناك هنا مأوى وأسرة واسماً. قالت رئيسة الدير. كما منحناك أيضاً رثاً. ألا يعني لك هذا شيئاً؟

- لم يكن عندك ما تأكلينه أو ترتدينه. مدمت الأم أنخليكا. فرعيناك وألبسناك وربناك. فلماذا فعلت هذا مع الصغيرات، أينها الرجيمة؟

من حين لآخر كانت تسري رعشة في بونيفاثيا من خصرها وحتى كعفيها. كان الخمار قد انحلّ وكان شعرها السبط يخفي بعضاً من جبينها.

- كفي عن البكاء، يا بونيفاثيا. قالت رئيسة الدير. تكلمي وخلصينا.

تستيقظ البعثة مع الفجر، حين يعقب صدادح الطيور أصوات الحشرات. تتحل بونيفاثيا إلى المهجع وهي تفرع الجرس. تقفز الربيبات من أسرتهن ويصلين «السلام على مريم» ثم يفتحن ثياب العمل وينقسمن إلى مجموعات، في مقر البعثة، كل حسب التزاماتها: الصغيرات يكنمن الفناء ومكان الإقامة وقاعة الأشغال. خمس ربيبات ينقلن القمامة إلى الفناء وينتظرن بونيفاثيا. ينزلن بإرشاد منها عبر الدرب، يجترن ساحة سانتا ماريا ده نيبيا ويعبرن الزرع، ثم وقبل أن يصلن إلى كوخ الدليل نيبيس، يتوغّلن في طريق تتلوى بين أشجار الكاباناها⁴³ والتشونتا والتشامبيرة يؤدي إلى فج صغير، يشكل مزيلة البلدة. كل أسبوع يشعل خدم العمدة مانويل أغيلا النار مرة واحدة في القمامة، يأتي أغوارونيو الأطراف يطوفون كل مساء في المكان، بعضهم ينقب في القمامة بحثاً عن بقايا توكّل وعن أدوات منزلية، بينما يبعد بعضهم الآخر بالصراخ والعصي، الطيور الجارحة التي تحلق بجشع فوق الفج.

- ألا يهتك أن تعود الصغيرات ويعشن في الفحشاء والخطيئة؟ . قالت رئيسة الدير. وأن يفقدن كل ما تعلمنه هنا؟

⁴³ كاباناهاو: تشونتشا: اسمان لقبيلتين أمريكيتين.

- روحك ما زالت وثنية، رغم أنك تتكلمين المسيحية ولا تخرجين عارية .
قالت الأم أنخليكا. وهي ليست غير مهتمة فقط، أيتها الأم، بل هزيتن بنفسها
لأنها تريد لهن أن يعدن متوحشات.

- هنّ كن يردن الذهاب . قالت بونيفاثيا. خرجن إلى الفناء وجئن حتى
الباب، رأيت في عيونهن الرغبة بالذهاب مع الصغيرتين اللتين وصلتا البارحة.
- وأرضيتها! . صرخت الأم أنخليكا. كنت تكرهينهن! لأنهن كن يحملنك
على العمل وأنت تكرهين العمل، يا كسولة! شيطانة!

- اهمني، أيتها الأم أنخليكا . تنتصب رئيسة الدير على قدميها.
رفعت الأم أنخليكا إحدى يديها إلى صدرها ولا مست جبينها: كان الكذب
يذهب بعقلها. أيتها الأم، إنها آسفة جداً.

- الحق على الاثنتين اللتين أحضرتهما البارحة، أيتها الأم . قالت بونيفاثيا. لم
أكن أريد أن تذهب الأخريات، وإنما الاثنتان فقط، لقد ألمتاني، لا تصرخي بهذا
الشكل، أيتها الأم، وإلا فإنك ستمرضين، فأنت تمرضين دائماً عندما تغضبين.

حين تعود بونيفاثيا والريبيات من مكبّ القمامة إلى البعثة، تكون الأم
غريسيلدا ومساعداتها قد حضرن طعام الإفطار: فاكهة، قهوة وخبز حُضّر في
فرن البعثة. بعد الإفطار تذهب الريبيات إلى المصلّى، يتلقين دروس أصول
الدين والتاريخ المقدس ويتعلّمن الصلوات. عند الظهيرة يرجعن إلى المطبخ
ويحضرن بإشراف الأم غريسيلدا، المتورّدة والمتقلبة والمتشدقة دائماً، وجبة
الغذاء الخفيفة: حساء البقول، سمك، إبرة آم وقطعتي خبز صغيرتين، فاكهة
وماء مقطراً من جهاز التقطير. تستطيع الريبيات بعد ذلك أن يتجوّلن لساعة
في الفناء والبستان، أو أن يجلسن تحت ظلال أشجار الفاكهة، ثم يصعدن إلى
قاعة الأشغال. المستجدات منهن تعلّمن الأم أنخليكا اللغة القشتالية، الأحرف
الهجائية والأرقام. تقع دروس التاريخ والجغرافيا على عاتق رئيسة الدير،
والرسم والتدبير المنزلي على عاتق الأم أنخليكا، والرياضيات على عاتق الأم
باتروثينيو. عند حلول المساء تصلي الأمهات والريبيات صلاة المساء في

المصلى، ثم تعود الأخيرات فينقسمن إلى مجموعات عمل: المطبخ، البستان، غرفة المؤونة، قاعة الطعام. وجبة العشاء أخف من وجبة الصباح.
-كانتا تحدثانني عن شعبهما كي تقنعاني، أيتها الأم . قالت بونيفاثيا. وكانتا تقدمان لي كل شيء فأثارنا شفتي.

- أنت لا تعرفين حتى أن تكذبي، يا بونيفاثيا . أفلتت رئيسة الدير يديها اللتين حوّمتا بنصاعة في العتمة الزرقاء والتقيتا من جديد بشكل دائري . فالصغيرتان اللتان أحضرتهما الأم أنخليكا من تشيكاييس لم تكونا تتكلمان المسيحية، أرايت كيف تخطنين دون جدوى؟

- أنا أتكلم الوثنية، أيتها الأم، لكن أنت لا تعرفين ذلك . رفعت بونيفاثيا رأسها. شعلتان خضراوان ومضتا لثانية تحت خصلة الشعر. وقد تطمئنتا من كثرة ما استمعت للوثنيات الصغيرات، وهذا ما لم أقله لك أبداً.

- هذا كذب، أيتها الشيطانة . صرخت الأم أنخليكا فانقسم الشكل الدائري وحقق بنعومة تصوري ماذا تبتدع الآن، أيتها الأم. يا لك من لصاة!

لكن قاطعها قباع انبعث وكان حيواناً مخفياً في غرفة المؤونة هاج فجأة وتمطى عاويأ، شاخراً، هازأ، مصدرأ دويأ عالياً وصارأ في الظلمة من التحدي الرحشي:

- أرايت، يا أم . قالت بونيفاثيا. هل فهمت وثنتي؟

في كل يوم وقبل طعام الإفطار هناك صلاة يؤديها يسوعيو بعثة مجاورة، وغالبأ ما يكون الأب بنانثيو حاضرأ. وفي أيام الأحاد يفتح المصلى أبوابه الجانبية لسكان سانتا مازيا ده نيبيا لكي يتمكنوا من حضور الصلاة. السلطات لا تتغيب أبداً، وأحيانأ يحضر مزارعو وعمال مطاط المنطقة، وأغارونيون كثيرون يبقون عند الأبواب، شبه عراة، محتشدين ومرتبكين. في المساء تأخذ الأم أنخليكا وبونيفاثيا الربيبات إلى ضفة النهر وتتركانهن ييرطن في الماء، يصطدن السمك، يصعدن الأشجار. وطعام الإفطار أيام الأحاد يكون أكثر وفرة ويحتوي على اللحم عادة. يقارب عدد الربيبات العشرين وأعمارهن تتراوح

بين الستة والخمسة عشر عاماً، وجميعهن أغوارونيات. قد توجد بينهن أحياناً
هوامبيسية⁴⁴ بل وحتى شابرية⁴⁵. لكن هذا نادر.

- لا أحب أن أشعر بأنني عالة، يا أكيلينو. قال فوشيا. بودي لو أنني كما
في السابق. كنا نتأوب، أنتكر؟
- طبعاً أنكر، يا رجل؟ قال أكيلينو. فالفضل لك في أنني أصبحت على ما أنا عليه.
- فعلاً، فلو لم أصل إلى مويوياميا⁴⁶ لكنت ما تزال تبيع الماء من بيت
إلى بيت. قال فوشيا. كم كنت تخاف النهر، أيها العجوز.
- نهر المايو⁴⁷ فقط، لأنني عندما كنت شاباً كنت أغرق فيه. قال أكيلينو.
لكن في روميالك⁴⁸، كنت أسبح دائماً.
- روميالكو؟ قال فوشيا. وهل يمر في مويوياميا؟
- ذلك النهر الوديع، يا فوشيا. قال أكيلينو. الذي يمر بين الأتار، بالقرب
من المكان الذي يعيش فيه اللامبستيون⁴⁹. يوجد بساتين كثيرة فيها برنقال.
- أيضاً لا تنكر، أطلي برنقال في العالم؟

⁴⁴ هومبيسية: قبيلة من قبائل الأدغال.

⁴⁵ شابرية: أيضاً اسم قبيلة من قبائل الأدغال.

⁴⁶ مويوياميا: مدينة في الأدغال، ومركز مقاطعة سان مارتن.

⁴⁷ المايو: اسم نهر.

⁴⁸ روميالكو: اسم نهر.

⁴⁹ اللامبستيون: نسبة إلى قبيلة تحمل الاسم نفسه

- أخجل من نفسي عندما أراك تتصبب عرقاً طول اليوم وأنا هنا مثل ميت .
قال فوشيا .

- لا حاجة للتجفيف ولا لشيء، يا رجل . قال أكيلينو . ما عليّ إلا
المحافظة على الاتجاه . الآن ونحن نجتاز الممرات الضيقة فإن نهر المارانينون
هو الذي يقوم بالمهمة وحيداً . الشيء الذي يزعجني هو أن تلزم الصمت وتبدأ
التمعن في السماء كأنك ترى تشويهاً . تاكشي .
- لم أره قط . قال فوشيا . هنا في الغابة، رأه الجميع لمرة، إلا أنا، حظي في
هذا شيء أيضاً .

- بل قلّ حظك حسن . قال أكيلينو . هل تعلم أنه ظهر مرّة للسيد خوليو
رثاتيغي في أحد فجاج نهر نيبيا؟ هذا ما يقولونه . لكنه رأى أنه كان يعرج
كثيراً . في أحدها كشف له عن الساق الصغيرة فبادره بالرصاص . بالمناسبة،
فوشيا، لماذا تشاجرت مع السيد رثاتيغي؟ ستدبر له بالتأكيد واحدة من تلك .
هو كان قد نذر له الكثير منها، الأولى قبل أن يعرفه، كان قد وصل لثوه إلى
إيكيتوس، أيها العجوز، رواها له بعد ذلك بكثير، وكان رثاتيغي يضحك، إذ أنت الذي
طعن المسكين نون فابيو وأكيلينو السيد دون فابيو، حاكم سانتا ماريا ده نيبيا؟

- خادمك، يا سيد . قال نون فابيو . ماذا تريد، هل ستمكث طويلاً في إيكيتوس؟
قد يمكث زمناً طويلاً وربما نهائياً . تجارة أخشاب، هل كان يعرف؟ كان سيقم
منشرة بالقرب من ناوتا⁵⁰ وكان ينتظر بعض المهندسين . كان عليه القيام بأعمال
كثيرة متراكمة ويدفع له أكثر، لكنه يريد غرفة كبيرة ومريحة، ونون فابيو، على
الرحب والسعة، فهو هناك لخدمة الزبائن، أيها العجوز: بلعها كاملة .

- أعطاني أفضل ما في الفندق . قال فوشيا . غرفة بناوفاذ تطل على
الحديقة حيث أشجار البومبوناخ⁵¹ . كان يدعوني لتناول الطعام معه

⁵⁰ ناوتا: اسم مدينة .

⁵¹ البومبوناخ: اسم شعبي يطلق على نوع من النخيل، تصنع من سكه أنواع من القبعات .

ويحدثني كثيراً عن معلمه⁵². بصعوبة كنت أفهم عليه، فلغتي الأسبانية كانت وقتذاك سيئة للغاية.

- ألم يكن السيد رثاتيغي في إيكيتوس؟ قال أكيلينو. وهل كان آنذاك غنياً؟
- لا، بل أثري فعلاً فيما بعد، عن طريق التهريب. قال فوشيا. لكن كان يملك ذلك الفندق الصغير وبدأ التجارة مع القبائل، لذلك ذهب ودخل في سائنا ماريا ده نيبيا، كان يشتري المطاط والجلود ويبيعها في إيكيتوس. هناك جامعتي الفكرة، يا أكيلينو. لكن الأمر واحد دائماً: كنت بحاجة إلى رأسمال صغير ولم يكن بحوزتي قرش واحد.
- وحملت مطك مالاً كثيراً، يا فوشيا؟ قال أكيلينو.

- خمسة آلاف سول⁵³، يا دون خوليو. قال دون فايو. وجواز سفري وبعض أدوات المطبخ الفضية. إنني معذب، يا سيد رثاتيغي، وأعرف أنك تظن بي السوء، لكنني أقسم لك أنني سأرد لك كل شيء، بعرق جبينني، يا دون خوليو، وحتى آخر قرش.
- أو لم تشعر بالنعم أبداً، يا فوشيا؟ قال أكيلينو. منذ سنوات كثيرة أريد أن أسألك هذا السؤال.

- لأنني سرقت الكلب رثاتيغي؟ قال فوشيا. هذا كان ثرياً لأنه سرق أكثر مني، أيها العجوز. ولنا لم أكن أملك شيئاً. كان هذا هو حظي السيئ دائماً: علي أن أبدأ من الصفر.
- وما فائدة رأسك إذن؟ قال خوليو رثاتيغي. كيف لم يخطر لك أن تطلب منه أوراقه على الأقل.

لكنه طلبها منه، وجواز سفره كان يبدو جديداً، كيف كان باستطاعته أن يعرف أنه كان مزوراً، يا دون خوليو؟ إضافة إلى أنه جاءه بلباس حسن وكان يتحدث بلغة مقنعة. كما أنه كان يقول له: ما إن يعود السيد رثاتيغي من سائنا ماريا ده نيبيا حتى أقدمه لك لتقوموا معاً بصفقات عظيمة. كنا مغفلين، يا دون خوليو.

⁵² معطم: دائماً بمعنى رب العمل إلا حين تكون الإشارة إلى دون أنسيلمو.

⁵³ سول: عملة البيرو ومعاها الشمس.

- وماذا كنت تحمل في تلك الحقيبة وقتذاك، يا فوشيا؟ قال أكيلينو.

- خرائط منطقة الأمازون، يا سيد رناتيغي. قال دون فابيو. هائلة كتلك الموجودة في التكنة. ثبتها في غرفته وقال إنها لمعرفة من أين سنستخرج الخشب. وكان قد وضع خطوطاً وملاحظات بالبرازيلية، انظر، ما أغربه!

- لا غرابة فيه، يا دون فابيو. قال فوشيا. فأنا تهمني التجارة بالإضافة للخشب. من المفيد أحياناً أن يحتك المرء بالسكان الأصليين. لذلك تراني علمتُ مكان القبائل.

- حتى قبائل المارانينون والأوكايالي⁵⁴، يا دون خوليو. قال دون فابيو. وكنت أفكر، يا له من رجل أعمال، سيشكل مع السيد رناتيغي ثنائياً رائعاً.

- هل كنت تتنكر كيف أحرقنا خرائطك؟ قال أكيلينو. كانت محض قمامة، الذين يقومون بصنع الخرائط لا يعرفون أن منطقة الأمازون⁵⁵ مثل المرأة الحارة، لا تهدأ. كل شيء هنا يتحرك، الأنهار، الحيوانات، والأشجار. يا للأرض المجنونة التي وقعت في نصيبنا، يا فوشيا!

- هو أيضاً يعرف الغابة جيداً. قال دون فابيو. عندما يعود من الألتو مارانينون سأقدمه لك ومستصبحان صديقين حقيقيين، يا سيد.

- الجميع هنا في إيكيتوس يحدثونني عنه بشكل رائع. قال فوشيا. بي رغبة شديدة للتعرف عليه. ألا تعلم متى سيأتي من ساننا ماريا ده نيبيا؟

- عنده أعماله التجارية هناك، إضافة إلى أن الحكم يأخذ منه وقتاً، لكنه دائماً يسرق نفسه. قال دون فابيو. إرادة حديدية، يا سيد ورثها عن أبيه. وكان أيضاً رجلاً عظيماً. كان أحد كبار رجال المطاط في عهد ازدهار إيكيتوس. وحين حدث الانهيار أطلق النار على نفسه. فقدوا حتى القميص. لكن دون خوليو نهض وحده. أقول لك أن له إرادة حديدية.

⁵⁴ الأوكايالي: نهر يبلغ طوله 1800 كم.

⁵⁵ منطقة الأمازون: مقاطعة في البيرو، عاصمتها تشاتشابويا، يبلغ عدد سكانها أقل من نصف مليون نسمة، ومساحتها 4129712 كم.

- أقاموا له ذات مرّة عشاء في سانتا ماريا وسمعته يلقي كلمة . قال أكيلينو.
تحتت عن والده بكثير من الخيلاء، يا فوشيا.
- كان والده أحد موضوعاته . قال فوشيا. معي أيضاً كان يستشهد به في كل شيء عندما كنتُ نعمل معاً. يا لرناتيغي من كلب محظوظ. دائماً كنت أحسده، أيها العجوز.
- ما أودعه وما أرقه . قال دون فابيو. يفكر المرء أنه كان يضحكه، يلحس له قدميه، كان يدخل إلى الفندق فيرفع المسيح سبابته، بمنتهى السعادة. يا له من رجل رجيم، يا دون خوليو.
- في كامبو غرانده، ترفس الشرطة وفي إيكيتوس تقتل قطعاً . قال أكيلينو.
أي وداع وداعك، يا فوشيا؟
- الحقيقة، يا دون فابيو، إن هذا لا يبدو لي خطيراً إلى هذا الحد . قال دون خوليو. ما يؤسفني هو أن يضيع مالي.
- أما هو فقد كان يؤلمه، يا دون خوليو، أن يدخل إلى الغرفة وفجأة يراه مشنوقاً بملحفة ومعلقاً، يتراقص في الهواء، متيساً، وقد خرجت عيناه من محجريهما، والشّر للشر هو ما لم يكن يفهمه، يا دون رناتيغي.
- يفعل الإنسان ما يستطيع كي يعيش وأنا أتقهم سرقائك . قال أكيلينو. لكن لماذا فعلت هذا مع القط؟ هل كان بفعل الغضب، لأنك لم تكن تملك ذلك الرأسمال الصغير لكي تبدأ؟
- هذا سبب أيضاً . قال فوشيا. بالإضافة إلى أن هذا الحيوان كان يقرفني ويال في سريري كثيراً من المرّات.
- أيضاً خاصة من خواص الآسيويين، يا دون خوليو، فقد كانت عندهم عادات من أكثر ما يكون، لم يكن باستطاعة أحد أن يعرف. وكان هو قد تحقّق من أن الصينيين في إيكيتوس مثلاً، يربون القطط في أقفاص، يسمونها بالحليب ثم يضعونها في القدر ويأكلونها، يا سيد رناتيغي. لكن هو كان يريد

في تلك الساعة أن يتكلم عن عمليات الشراء، يا دون فاييو، فهو قد جاء من سانتا ماريّا ده نيبيا لهذا السبب. فليتموا الأمور المخزية، هل اشترى؟

- كل ما أوصيتني به، يا دون خوليو . قال دون فاييو، المرابا الصغيرة، السكاكين، الأقمشة، الخردل، ويحسوم جيدة. متى ستعود أنت إلى ألتو مارانيون؟

- لم يكن باستطاعتي أن أزع نفسي في الجبل وحدي للعمل في التجارة، كنت بحاجة لشريك . قال فوشيا. وكان عليّ بعد هذه الورطة أن أبحث عنه بعيداً عن إيكيتوس.

- لهذا أتيت حتى مويوبامبا . قال أكيلينو. واتخذتني صديقاً كي أرافقك إلى القبائل. هكذا بدأت تقلد رثائغي حتى قبل أن تراه وتصبح مستخدماً عنده. آه كيف كنت تتكلم عن المال، يا فوشيا. تعال معي يا أكيلينو، وستصبح غنياً خلال سنة واحدة، طيرت عقلي بهذه الأسطوانة.

- ها أنت ترى، كل شيء إرادة . قال فوشيا. ضحيت كثيراً، أكثر من أي شخص آخر، ما من أحد خاطر مثلي، أيها العجوز. هل من العدل أن أنتهي بهذا الشكل، يا أكيلينو؟

- هذا شأن الله، يا فوشيا . قال أكيلينو. ليس من شأننا أن نحكم عليه.

ذات صباح من صباحات كانون الأول الحارة وصل رجل إلى بيورا. ظهر على بغلة تجرجر نفسها بصعوبة بين كتبان الجنوب كطيف بقعة ذات إطار عريض، ملفع بدثار خفيف. عندما تبدأ السنة الشمس زحفها في الصحراء وعبر ضوء الفجر الضارب للحمرة، سيكتشف الغريب بفرح ظهور أول أيكات الكاكتوس⁵⁶ والخرنوب المتكلس ومساكن كاستيليا البيضاء التي تتزاحم

⁵⁶ الكاكتوس: صباريات.

وتتضاعف كلما اقتربت من النهر. عبر الجو الكثيف تقدم باتجاه المدينة التي بدأت تلوح له على الضفة الأخرى وتتلأأ مثل مرآة. قطع شارع كاستيليا الوحيد، الذي كان ما يزال مقفراً. وحين وصل إلى البوينته ببيخو⁵⁷ ترجل. بقي لثوان يتأمل أبنية الضفة الأخرى، الشوارع المرصوفة بالحجارة، البيوت ذات الشرفات، الهواء المتختر بحبات الرمل الدقيقة التي كانت تسقط بنعومة، برج الكانترائية المصمت بناقوسه الدائري الداكن اللون، وإلى الشمال، بقع المزارع الخضراء التي كانت تسابير النهر باتجاه كاتاكاوس. أخذ عنان البغلة، قطع البيخو بونته وطاف الحي الرئيسي من المدينة، ذاك الذي يمتد باستقامة وأناقة من النهر حتى لا يثاقله ده أرماس، وهو يضرب ساقيه من حين لآخر بالسوط. توقّف هناك، ربط البهيمة إلى شجرة تمر هندي وجلس على الأرض، أنزل أجنحة القبعة كي يقي نفسه من الرمل الذي كان يجرح عينيه بلا رحمة. يبدو أنه قام برحلة طويلة، فحركاته كانت بطيئة، منهكة. وحين انقطع سقوط الرمل أطل أول الجيران على الساحة المنارة أبدأ بالشمس، وكان الغريب نائماً. البغلة إلى جانبه ترقد وقد غطى فرطاسها لعاب ضارب للخضرة وغربت عينها. لم يجرؤ أحد على إيقاظه. انتشر الخبر في الأرجاء المحيطة به وفجأة كانت لا يثاقله ده أرماس مليئة بالفضوليين الذين كانوا يتهامون حول الغريب وهم يتلاكزون بالمرافق، كانوا يتدافعون للاقتراب منه. فبعضهم صعد إلى الفسحة وآخرون اعتلوا أشجار النخيل ليراقبوه. كان شاباً رياضياً، ذا منكبين مربعين ولحية تملأ وجهه، وكان قميصه الخالي من الأزرار ينكشف عن صدر مليء بالعضلات والشعر. كان نائماً وفمه مفتوح يشخر بنعومة، شفتاه تتكشفان عن أسنان كأسنان بزواس، صفراء، كبيرة، وحادة. كان ينطولونه وحذاؤه وبناره وقبعته بالين ومتسخين. ولم يكن مسلحاً.

⁵⁷البيخويوته: الجسر القديم.

عندما استيقظ، نهض قافزاً، بوضعية دفاعية. تحت جنبيه المتورمين كانت عيناه المليئتان بالقلق تسبران حشد الوجوه. تدفقت الابتسامات، الأيدي العفوية من كل جانب، وشق كهل طريقه إليه بالدفع وناوله قرعة من الماء البارد. وعندئذ ابتسم المجهول. شرب ببطء، ثم مثلنذاً بنهم، وعينين مطمئنتين. كان هناك لغط متنام، فالجميع كانوا يسعون للتحدث إلى القادم الجديد، كانوا يسألونه عن سفره، ويقدمون له العزاء لموت بغلته. وكان وقتذاك يضحك على هواه، يصافح أيدياً كثيرة. ثم لقف بشدة واحدة الخرج عن مرج البهيمة وسأل عن فندق. اجتاز لا بلاتاً ده أرماس محاطاً بالجيران الذين يودون خدمة، ودخل إلى «لا استريا دل نورته». كانت مليئة. طمأنه الجيران، وكثير منهم قدموا له ضيافتهم. نزل في بيت ميلتشور اسبينوثا، وهو عجوز كان يعيش وحده في الماليكون، قرب البييخو بونته. وكان عنده مزرعة صغيرة وبعيدة، على ضفة التشيرا، التي كان يذهب إليها مرتين في الشهر. في ذلك العام حطم ميلتشور اسبينوثا رقماً قياسيأ: استضاف خمسة غرباء. بشكل عام، كان هؤلاء يقضون في بيورا الزمن الضروري لشراء محصول من القطن، لبيع بعض المواشي ولتوظيف بعض المنتجات، أي أياماً، أسابيع على الأكثر.

غير أن الغريب مكث. عرف الجيران عنه أشياء قليلة، تكاد تكون جميعها سلبية: لم يكن تاجر مواش ولا محصل ضرائب ولا عميلاً متجولاً. كان يدعى أنسيلمو، ويقول إنه بيروي، إلا أن أحداً لم يستطع أن يتعرف على لهجته: ليست له لهجة أهل ليما المترددة والمتخنة، ولا ترنيم أهل تشيكلايا الصادح، ولم يكن ينطق الكلمات بالدقة المرضية لأهل تروخيليو، ولا يبدو جبلياً، فهو لا يلمظ بلسانه حين يلفظ الراء والسين. كانت لهجته مختلفة، موسيقية تماماً وفاترة قليلاً، والتعابير والعبارات التي كان ينطقها غير مألوفة، وحين كان يجادل يحمل على التفكير بأنه رئيس عصابة خيالة. ولا شك أن خرجه الذي كان يشكل كل أمتعته، كان مليئاً بالمال: كيف استطاع اجتياز الرملة دون أن يتعرض لهجمات قطاع الطرق؟ لم يستطع الجيران التحقق من المكان الذي جاء منه، ولا لماذا اختار بيورا.

ظهر في اليوم التالي لوصوله في لا بلاثا ده أرماس وقد حلق نقنه، ففاجأ الجميع بشباب وجهه. اشترى بنظروناً وحذاء جديدين من حانوت الإسباني ايوسيبيو روميرو ودفع نقداً. بعد يومين طلب من ساتورينا، خياطة كاتاكاوس الشهيرة، قبعة قش بيضاء، من النوع الذي يمكن أن يخبأ في الجيب دون أن تظهر فيها أي تجعيدة. كان أنسيلمو يخرج كل صباح إلى «لا بلاثا ده أرماس» ويجلس في شرفة «لا استراليا دل نورته» ويدعو المارة للشرب معه، هكذا كسب أصدقاء. كان متحدثاً مزاحاً، وجذب الجيران إليه بمدحه محاسن المدينة: ملاحه الناس، جمال النساء وغسقتها الرائع. وبسرعة تعلم تعابير اللغة المحلية ونبراتها الدافئة والمسترخية. بعد أسابيع قليلة كان يقول «غوا» كي يعبر عن الدهشة، ويدعو الأطفال «شورس» والحمير «بياخينوس» ويشكل صيغ تفضيل من صيغ تفضيل، وصار يعرف كيف يميز بين «الكلاريتو» و«التشيتشا» المركزة وبين مختلف أنواع البهارات الحارة، ويعرف عن ظهر قلب أسماء الأشخاص والشوارع ويرقص «التونديرو»، مثل «المانغاتشيين».

لم يكن لفضوله حدود. أظهر اهتماماً كبيراً بعادات المدينة وأعرافها، وكان يستعلم بنوع من الترف عن حياة وموت الناس. كان يريد أن يعرف كل شيء: من هم الأكثر ثراء ولماذا ومنذ متى؟ هل الحاكم والعمدة والأسقف مستقيمون ومحبيون؟ وما هي تسليات الناس؟ ما الخيانات وما الفضائح التي كانت تثير الروع والرهبان؟ كيف كان تعيد الجيران بالدين والأخلاق؟ ما الشكل الذي كان يتخذه الحب في المدينة؟

كان يذهب كل أحد إلى المصارع وينفعل أثناء مصارعة الديكة مثل عجوز هاو، وفي الليل كان آخر من يغادر حانة «لا استراليا دل نورته»، وكان أنيقاً في لعب الورق، ويراهن بجرأة ويعرف كيف يربح ويخسر دون أن يتبدل. هكذا كسب صداقة التجار والأثرياء وأصبح شعبياً. دعاه الوجهاء إلى حفلة صيد في تشولوكاناس وذهل الجميع من دقة تسديده. حين كان يعبر الفلاحون به في الشارع كانوا ينادونه باسمه، وكان يربت على أكتافهم بعنف ومودة. كان الناس يقدرون روحه المرحة، وبساطة تصرفاته وكرمه. لكن الجميع كانوا مشغولين بمصدر

أمواله ويماضيه. بدأت تروج بعض الأساطير حوله، وحين كانت تصل إلى مسمعه كان أنسيلمو يستقبلها مقهقهاً، دون أن يفنّدها أو يؤكّدها. كان أحياناً يجول مع أصدقائه على جميع مشارب التشيتشا المانغاتشية، وينتهي دائماً إلى بيت أنخليكا مرثيس لأنه كان يوجد هناك قيثارة. وكان هو عازف قيثارة دون منازع ولا يمكن محاكاته. وبينما كان الآخرون يقرعون الأرض بأحذيتهم ويشربون الأناجيب كان يداعب، قابلاً في إحدى الزوايا ساعة بعد ساعة، الأوتار البيضاء، التي كانت تتصاع له بوداعة، ويمكن أن تهمس، تضحك، وتجهش، طوع إرادته.

ولم يكن الجيران يتذمرون إلا لأنه كان فظاً، وينظر إلى النساء بجرأة عندما يكون ثملاً. فقد كان يتعرّض وصوته ملء حنجرتيه، ويرتجل الأشعار المفرطة باستهتارها، للخاديات الحافيات اللواتي يقطعن لا بلاتاً ده أرماس باتجاه السوق، وللبنائعات اللواتي يحملن الأباريق الفخارية أو الفسقيات على رؤوسهن، ويرحن يغنين وهن يقمن عصير اللوكوما والجبن الجبلي الطازج، وللسيدات اللواتي يلبسن القفازات والوشاحات ويحملن السباحات وهن في الطريق إلى الكنيسة. وكان أصدقاؤه ينبهونه قائلين: «حذار، يا أنسيلمو، فالبيوريون شديرو الغيرة. إن زوجاً مهاناً، وأباً لا يعرف المرح، سيحديانك ويطلبان نزالك في اليوم الذي لا تتوقعه. عليك أن تحترم النساء أكثر»، لكن أنسيلمو كان يرد عليهم مقهقهاً، كان يرفع كأسه ويشرب نخب بيورا. لم يحدث شيء خلال الشهر الأول من وجوده.

ليس إلى هذا الحد، إضافة إلى أن كل شيء في هذا العالم يُحل، تبرق الشمس في عيني خوليو رناتيغي والقناني في وعاء مليء بالماء. يملأ الكؤوس بنفسه، تقور الرغبة البيضاء وتنتفخ، تنفض عن الفوهات. كان عليهم ألا

يشغلوا، فكأس من البيرة قبل أي شيء. يشرب مانويل أغيلا، وبيدرو أسكابينو، وأريبالو بينثاس، ويجفون شفاههم بأيديهم. من شبك النافذة المعنى تلمح ساحة سانتا ماريّا ده نيبيا، مجموعة من الأغوارونيين تطحن إير آم في أوان واسعة، عدد من الصغار يطوفون حول جنوع أشجار الكاببيرونا. في الأعلى فوق الهضاب، مكان إقامة الأمهات، وهو عبارة عن مستطيل ناري، كان في المقام الأول وعلى المدى البعيد مشروعاً، والمشاريع هنا لم تكن تتجح، وكان خوليو رثاتيغي يعتقد أنهم عبثاً يُصابون بالذعر. لكن مانويل أغيلا، لا، لا شيء من هذا، أيها الحاكم، ينتصب واقفاً على قدميه، فهم كانوا يملكون الإثباتات، يا دون خوليو، رجل قصير وأصلح، عيناه وتأتان، هذا الثاني هو الذي كان يفسدهم، كذلك أريبالو بينثاس، يا دون خوليو، ينتصب واقفاً على قدميه، كان يؤكد على الأمر، وكان قد قال إنّ وراء هذه البيارق وهذه الكتيّات يوجد شيء آخر، وقد عارض قدوم المعلمين، يا دون خوليو، وبيدرو أسكابينو يطرق الطاولة بكأسه، يا دون خوليو: التعاونية كانت واقفاً قائماً، وكان الأغوارونيون يذهبون ويقومون بعملية البيع بأنفسهم في إيكيتوس، وكان شيوخ القبيلة قد اجتمعوا في تشيكاييس ليتداولوا هذا الأمر. وتلك كانت الحالة الحقيقية، وما عدا ذلك فهو عمى قلب. لكن خوليو رثاتيغي لم يكن يعرف أغوارونياً واحداً يعرف ما هي إيكيتوس أو ما هي التعاونية، فمن أين خرج بيدرو أسكابينو بمثل هذه الحكاية؟ كان يرجوهم أن يتحدثوا واحداً واحداً، يا سادة. ومن جديد يدوي الكأس جافاً وأخرس على الطاولة، يا دون خوليو، هو كان يقضي كثيراً من الوقت في إيكيتوس، وكان عنده أعمال تجارية كثيرة، فلم يكن ينتبه إلى أن المنطقة كانت مضطربة منذ أن جاء هذان العنصران. إن صوت خوليو رثاتيغي ناعم دائماً، يا دون بيدرو، فالحكم جعله يضيع الوقت والمال، لكن عينيه تصلبتا، ولم يكن يريد أن يقبل بهذه القصة، وبيدرو أسكابينو كان واحداً من الذين الحوا، ليعمل معروفاً ويزن كلماته. بيدرو أسكابينو كان يعرف كم كانوا مدينين له، ولا يريد أن يهينه، لكنه وصل لتوّه

من أوراكوسا. لأول مرة منذ عشر سنوات، يا دون خوليو، جافاً وأخرس مرتين على الطاولة، الأغوارونيون لم يكونوا يريدون أن يبيعوه كرة مطاط واحدة رغم الدفع مقدماً وأريبالو بينتاس: حتى أنهم أروه التعاونية. لا تضحك، يا دون خوليو، فقد كانوا، قد أقاموا كوخاً خاصاً وملؤوه بالمطاط والجلود، ورفضوا أن يبيعوه لاسكابينو، وقالوا له إنهم سيذهبون ويبيعونه في إيكيتوس. ومانويل أغيلا، القصير والأصلع وراء عينيه الوثابتين: هل رأى الحاكم؟ هذه العناصر كان يجب ألا تذهب أبداً إلى القبائل، كان أريبالو على حق، فكل ما كانوا يريدونه هو إفسادهم. لكنهم لن يبيعوا بعد الآن، أيها السادة وخوليو رثائخي يملأ الكؤوس. لم يكن هو يذهب إلى إيكيتوس لأمره الخاصة فقط وإنما لأمرهم هم أيضاً، والوزارة كانت قد ألغت خطة التوسع الثقافي الغابي، وانتهت حملات المعلمين. لكن بيدرو اسكابينو جاف وأخرس للمرة الثالثة: فهم قد جاؤوا والضرر أمر حاصل، يا دون خوليو، وهكذا إذا لا يستطيعون أن يتفاهموا مع التشينتشويين⁵⁸؟ كان ملاحظاً أنهم تفاهموا وهم الذين جاؤوه بالمرجم الذي حمله معهما ذلك العنصران إلى أوراكوسا، وهو نفسه سيروي لك ذلك، يا دون خوليو، وسترى.

ينهض الرجل النحاسي الحافي الذي كان يجلس القرفصاء بجانب الباب ويتقدم مرتبكاً باتجاه حاكم سانتا ماريا ده نيبيا ويونينو بيرث. بكم اشتروا منك كيلو المطاط؟ أسأله عن هذا. يبدأ المترجم. يزمجر ويحرك يديه كثيراً ويبصق، وخوم يصغي صامتاً وقد شبك ذراعيه فوق صدره العاري. إشارتا إكس رقيقتان وضاربتان للحمرة تزينان وجنتيه، وفي أنفه المربع الشكل وشم من ثلاثة خطوط أفقية ودقيقة مثل نيدان صغيرة، تقاسيم وجهه جدية، ووضعيته مهيبة: الأوراكوسيون المتزاحمون في المنطقة المكشوفة بلا حراك، والشمس تطحن أشجار وأكواخ أوراكوسا. بصمت المترجم بينما يتبادل خوم وعجوز الإيماءات

⁵⁸ التشينتشويين: تطلق على سكان منطقة في الأمازون تحمل الاسم نفسه. وهي صفة أيضاً

تعني غير متحضر.

ويتمتئمان بانزعاج، والمترجم: النوع الجيد بسولين والعادي بسول واحد، يا معلم، يقولان، وتيوفيلو كانياس هذا ما يقوله، يا معلم وتيوفيلو كانياس يطرف بعينه، يكلف، كلب ينبج في البعيد. يونينو بيرث كان يعرف، أيها الأخ، عاهرة الأم التي ولدتهم، يا لهم من ديوثين أولاد ديوثين، وإلى المترجم: بيرويون شريرون، فهم كانوا يبيعون الكيلو بعشرين، المعلمون يستغبونهم، يجب ألا يفسحوا لهم المجال، يا رجل، ليحملوا المطاط والجلود إلى إيكيتوس، يجب ألا يتعاملوا بعد الآن مع هؤلاء المعلمين: ترجم لهم هذا. والمترجم: أقول لهم هذا؟ ويونينو بلى، المعلمون يسرقونهم أقول لهم؟ وتيوفيلو نعم، أقول له بيرويون شريرون؟ نعم، نعم، نقول المعلم يستغيبهم؟ وهم بلى، بلى، يا أبله، بلى، شياطين، لصوص، بيرويون شريرون، يجب ألا يتركوهم يخذعونهم، بلى، يا أبله، لا تخف، ترجم هذا. يزمجر المترجم، ويزأر ويبصق وخوم يزمجر ويزأر ويبصق والهجوز يضرب على صدره، في جلده تجاعيد خشنة والمترجم إيكيتوس لا يأتي أبداً، المعلم اسكابينو يأتي، ويجلب سكاكين، أقمشة وتيوفيلو كانياس بكل سرور، يا أخي إنهم يعتقدون أن إيكيتوس رجل، لن يحصلوا على شيء، يا بنينو، والمترجم يقول، يبادل بالمطاط. لكن بنينو بيرث يقرب من خوم ويشير إلى السكن التي يحملها إلى خصره، لنر، كم كيلو مطاطاً كلفتك: أسأله هذا. يخرج خوم سكينه، يرفعها فتلهب الشمس شفرتها البيضاء وتذيب حوافها، وخوم يبتسم منتقشاً وخلفه الأوراكاسيون يبتسمون، وكثيرون منهم يخرجون سكاكينهم ويرفعونها والشمس تلهبها وتنيبها والمترجم: بعشرين سول سكين خوم وبعشرة السكاكين الأخرى، تكلف خمسة عشر وتيوفيلو كانياس كان يريد العودة إلى ليما، يا أخي. أصيب بالحمى، يا يونينو، وهذا الظلم وهؤلاء الذين كانوا لا يفهمون، من الأفضل أن ينسى المرء ويونيني بيرث يجمع وي طرح بأصابعه، يا تيوفيلو، لم يستوعب قط الأرقام. هل كانت سكين خوم تخرج معه بأربعين سول، أقول، أترجم وتيوفيلو آ، ويونينو خير أن تترجم هذا: المعلم شيطان، وهذه السكين لم تكن تكلف ولا حتى كرة واحدة،

تلتقط من القمامة، إيكيتوس لم تكن معلماً وإنما مدينة إلى الأسفل من النهر، في أسفل نهر المارانينون، ليحملوا المطاط إلى هناك، فيبيعونه أفضل بمئة مرّة، ويشتروا السكاكين التي يريدون، أو أي شيء آخر والمترجم، يا سيد؟ لم أفهم، لتعد ببطء، ويونينو معه حق: يجب أن يشرح لهم كل شيء، يا أخي من البداية، لا تثبط عزيمتي، تيوفيلو وربما كانوا على حق، لكن خوليو رناتيغي كان يلح: علينا ألا نغامر. ألم تذهب تلك العناصر؟ ولن يعودوا بعد الآن والأغوارونينون هم الوحيدون الذين تمردوا، فهو قد تاجر مع الشاربيين كما في كل مرة، إضافة إلى أنه لكل مشكلة حل. لكنه كان يعتقد أنه سينهي تحركه كحاكم بسلام، يا سادة، ولتروا، وأريبالو بينثاس: هذا ليس كل شيء، يا دون خوليو. ألم يكن يعرف ما جرى في أوراكوسا لعريف وخبير وخدام من تكتة بورخا؟ الأسبوع الماضي تماماً، يا دون خوليو وهو ماذا، ماذا حدث؟

- أفرحوا، فما نحن في لامانغاتشيريا . قال خوسيه .

- الرمل يحكّ، إنه يدغدغي. سأخلع حذائي . قال المونو .

في جادة ساننتشث ثيزو كان ينتهي الإسفلت، الواجهات البيضاء، الأبواب القوية والنور الكهربائي، وتبدأ جدران القصب وأسطحة القش والصفيح أو الكرتون، والغبار والبعوض والتعرجات. في نوافذ الأكواخ الصغيرة والمربعة الخالية من الستائر، كانت تضئ شموع شحم الخنزير والقناديل المانغاتشية، عائلات بكاملها كانت تتلقى رطوبة الليل في عرض الشارع. في كل لحظة كانت أيدي أبناء ليون ترتفع لتحيي الأصدقاء .

- لماذا يتباهون بهذا الشكل؟ لماذا يمتدحونه إلى هذا الحد؟ . قال

خوسيفينو. فرائحته كريهة. الناس فيه يعيشون مثل الحيوانات. على الأقل خمسة عشر شخصاً في كل كوخ.

- عشرون شخصاً، إذا عدنا الكلاب وصورة سانتشيث ثيرو . قال المونو.
وهذه ميزة أخرى جيدة في لامانغاتشيريا، لا يوجد تمييز . بشر، كلاب، ماعز،
كلهم متساوون، كلهم مانغاتشيون .

- ونحن نعتر بأنفسنا لأننا ولدنا هنا . قال خوسيه . ونمتكحها لأنها أرضنا .
وأنت في أعماقك تحسدنا، يا خوسيفينو .

- في هذه الساعة بيورا كلها ميتة . قال المونو . لكن هنا، ألا تسمع؟ الحياة تبدأ الآن .
- جميعنا هنا أصدقاء أو أقرباء وقيمتنا في ذاتنا . قال خوسيه . أما في
بيورا فهم يقيمونك بما تملك، وإذا لم تكن أبيض فأنت عبد للبيض .

- خرائي على لامانغاتشيريا . قال خوسيفينو . عندما يدمرونها كما فعلوا مع
لاغالينائيرا فإنني سأسكر فرحاً .

-أنت منفعل ولا تعرف من تواجه . قال المونو . لكن إذا كنت تريد أن نتناول
لامانغاتشيريا فتكلم بصوت منخفض، وإلا فإن المانغاتشيين سينتزعون روحك .

- كأنتنا أطفال . قال خوسيفينو . وكان هذه اللحظة لحظة نقاش .

- لنتصالح وننشد معاً النشيد . قال خوسيه .

كان الناس الجالسون على الرمل صامتين، وكل الضجة والغناء، والأنخاب،
وموسيقا القيثارات، والتصفيق، تصدر عن مشارب التشيتشا، وهي أكواخ أكبر من
غيرها وأفضل إضاءة، وفوق واجهاتها على قسبة ترفرف بيارق حمراء أو بيضاء .
كان الجو يعج بالروائح الخفيفة المختلفة، وبعد أن تفرغ الشوارع كانت تظهر
الكلاب والدجاج والخنازير التي تقلب الأرض باكفهرار ودمدمة، عنزات هائلة
العيون ربطت إلى وتد، وكانت الطيور التي تحوم فوق رؤوسها أكثر تواجداً
وتصويماً . كان المنيعون يتقدمون دون عجلة في الدروب المتعرجة في منطقة
المانغاتشيين، متجنبين العجائز الذين خرجوا بحصرهم إلى الهواء الطلق، ويطوفون
حول الأكواخ التي لا تحمي من عوامل الطبيعة، التي تتبثق وسط الطريق مثل
الحيتان في البحر . كانت السماء تلتهب بالنجوم، التي كان بعضها كبيراً جليل
النور وبعضها الآخر مثل لهب أعواد القباب .

- ها قد خرجت المسترجلات⁵⁹. قال ألمونو، يشير إلى ثلاث نقاط عالية جداً، للأداء ومتوازية. بالغمزاتها. كانت دوميتيلا يارا تقول إنه عندما تظهر المسترجلات واضحات تماماً، فمن الممكن طلب الصفح، استغل المناسبة، ياخوسيفينو.
- دوميتيلا يارا!. قال خوسيه. يا لها من عجوز مسكينة. كنت أخاف منها قليلاً، لكنني أُنكرها ومنذ أن ماتت، بمودة. لا بد أنها غفرت لنا مشادة ليلة السهر على جثمانها.

كان خوسيفينو يسير صامتاً ويداه في جيبه ونقته غائرة في صدره. وكان ابنا آل ليون يتمتمان معاً طول الوقت: «ليلة سعيدة، يا سيد»، «سعيدة، يا سيّدة». وكانت ترد لهم التحية من الأرض أصوات خفية ونصّة وتناديهم بأسمائهم. توقفوا أمام أحد الأكواخ، دفع ألمونو الباب. كان ظهر ليتوما إليه ويرتدي بدلة لوكومية اللون⁶⁰ وتتكتل سترته عند إبتيه، وشعره رطب لامع، وفوق رأسه كانت تتراقص قطعة صحيفة يومية علّقت إلى دبوس.

- ها هو المنيع رقم ثلاثة، يا ابن العم. قال ألمونو.
دار ليتوما مثل خذروف، اجتاز الغرفة باسمًا وسريعاً، مفتوح الذراعين، ويادر خوسيفينو للقائه. تصافحا بحرارة واستمرّا برهة طويلة، زمان طويل يا أخي، زمان طويل يا ليتوما، كم هو مفرح أنك هنا من جديد، تمرّغا مثل كلبى صيد.
- ما أجمل البدلة التي ترتديها، يا ابن العم. قال ألمونو.
تراجع ليتوما كي يتأمل المنيعون ثوبه البراق المتعدد الألوان كما يحلو لهم: قميص أبيض قاسي الياقة، ربطة عنق وريدية تتخللها بقع رمادية، جورب أخضر وحذاء نقيق الرأس، لامع مثل مرآة.

⁵⁹المسترجلات: تطلق في الأصل على النساء المسترجلات وهي هنا نجوم لم أستطع معرفة ما يقابلها في العربية.
⁶⁰Lucuma: نوع من الشجر يصل طوله إلى عشرة أمتار، خشبه قوي وثماره في نضجها تضرب إلى الصفرة.

- أيعجبكم؟ إنني أشنه على شرف بلادي. اشتريته في ليما منذ ثلاثة أيام مع ربطة العنق والحذاء.
- كأنك أمير. قال خوسيه. رائع، يا ابن العم.
- البدلة، البدلة فقط. قال ليتوما، عاقصاً طبيتي الجاكيت. فالمشجب بدأ يسوس.
لكن ما زال باستطاعتي أن أقوم ببعض الصيد. وبما أنني الآن أعزب فقد جاء دوري.
- لم أعرفك تقريباً. قال خوسيفينو. فأنا لم أرك باللباس المدني منذ زمن طويل أيها الزميل.
- بل قل لم ترني منذ زمن طويل. قال ليتوما وقد تجهم وجهه ثم عاد وابتسم.
- أيضاً نحن نسينا كيف كنت وأنت مدني، يا ابن العم.
- تبدو أفضل مما لو كنت ترندي زيّ بالشرطة. قال المونو. الآن أصبحت منيعاً بحق.

- ماذا تنتظر. قال خوسيه. هيا بنا.
- أنتم إخواني. ضحك ليتوما. من الذي علمكم بأن تلقوا بأنفسكم من فرق البييخو بونتته؟

- وأيضاً علمتنا السكر والجري وراء العاهرات. قال خوسيه. لقد أفسدنا، يا ابن العم.
كان ليتوما يحتضن ابني آل ليون ويهزهما بحرارة. وخوسيفينو بفرك يديه، ورغم أنه كان يبتسم ففي عينيه كان يلمع شيء خفي مقلق. وكانت وضعية جسمه، بكتفيه المشرعين إلى الخلف وصدرة البارز وساقيه المحنيتين قليلاً، متكلفة، قلقة ومترصدة.
- يجب أن نجرب هذا السول ده ايكا. قال المونو. أنت وعدت به والوعد دين.
جلسوا على حصيرين، تحت قنديل كيرومين معلق إلى السقف، وكان عندما يهتز يظهر في جدران الأجر المغمورة بالظلمة صدوعاً تختفي بسرعة ونقوشاً ومحراباً خراباً يحتوي، عند قنمي عذراء من جص بين نراعيها الطفل يسوع، قنديلاً فارغاً. أشعل خوسيه شمعة المحراب، فتكشفت قطعة الصحيفة تحت ضوئها عن صورة جنرال مصفرة، سيف وأوسمة كثيرة. كان ليتوما قد قزب حقيبة من الحصيرين. فتحها، أخرج قنينة، انتزع قنيتها بأسنانه وساعده المونو على ملء أربع كؤوس حتى أعلاها.

- يبدو لي مثل الكذب أنني بينكم من جديد، يا خوسيفينو . قال ليتوما.
- اشتقت إليكم كثيراً، أنتم الثلاثة وكذلك إلى بلدي. نخب لقائنا من جديد.
- قرعت الكؤوس وشربوا معاً حتى الثمالة.
- شظايا، نار خالصة . زمجر المونو وقد امتلأت عيناه بالدموع . هل أنت متأكد أن درجة كحوله ليست أربعين، يا ابن العم؟
- لكنه خفيف . قال ليتوما. فالبيسكو⁶¹ لأهل ليما والنساء والأطفال وهو ليس مثل الكانايثو⁶². هل نسبت يوم كنا نتناول الكانايثو كما لو أنه مرطب؟
- كان المونو دائماً ضعيفاً أمام المشروب . قال خوسيفينو. كأسان ثم يخز .
- سأسكر بسرعة، لكنني أقاوم أكثر من أي شخص آخر . قال المونو.
- استطيع أن أستمع هكذا أياماً كثيرة.
- دائماً كنت أول من يسقط، يا أخي . قال خوسيه . هل تذكر، يا ليتوما، كيف كنا نجرّه إلى النهر وننفضه بالتغطيس؟
- وأحياناً بصفعة نظيفة . قال المونو. لذلك ولكثرة الصفعات التي تلقيتها منكم للذهاب بالسكرات يجب أن أكون قد أصبحت أمرد.
- سأشرب نخباً . قال ليتوما.
- اتركني أملاً الكؤوس أولاً، يا ابن العم.
- أخذ المونو قئينة البيسكو وراح يصبّ بينما بدأ الحزن يعطو وجه ليتوما،
- تجعيبتان ارتسمتا على عينيه ويدا كأن نظرتة قد غربت .
- هات لنر هذا النخب، أيها المنيع . قال خوسيفينو .
- بصحة بونيفاثيا . قال ليتوما . ورفع الكأس ببطء .

⁶¹ البيسكو: مشروب روحي، شبيه بالماء الحار، يصنع في منطقة من البيرو لها الاسم نفسه.

⁶² الكانايثو: مشروب روحي يستخرج من قصب السكر.

- توقفي عن التظاهر بأنك طفلة . قالت رئيسة الدير . كان أمامك الليل بطوله لتبكي على هواك .

أمسكت بونيفاثيا بطرف رداء رئيسة الدير وقبلته .

- قولي لي إن الأم أنخليكا لن تأتي ، قولي لي أيتها الأم فأنت طيبة .

- عندما تؤذيك الأم أنخليكا تكون على حق . قالت رئيسة الدير . فقد أهنت

الله وخنبت ثقتنا بك .

- فقط كي لا تثور ، أيتها الأم . قالت بونيفاثيا . ألا ترين أنه كلما ثارت

مرض ؟ أنا لا يهمني أن تؤذيني .

تصفق بونيفاثيا صفقة واحدة فتخف مهممات الربييات لكنها لا تتقطع . صفقة

أخرى أقوى ويصمتن : ليس هناك الآن إلا احتكاك الصنادل بحجارة الفناء . تفتح غرفة

النوم وما إن تجتاز آخر ربيبة العتبة حتى تغلق الباب وتضع أذناً عليه : الضجة

ليست مثل بقية الأيام ، فبالإضافة إلى النشاط البيتي يوجد ذلك الهمس الأخرس ،

السري والمذعور ، هو نفسه الذي انبثق ، عندما رأينهن يصلن ، عند الظهر ، بين الأم

أنخليكا والأم باتروثينيو ، وهو الذي سبب غضب رئيسة الدير أثناء صلاة السبحة .

تصغي بونيفاثيا للحظة أخرى ثم تعود إلى المطبخ . تشعل عود ثقاب ، تأخذ صحناً

نحاسياً مليئاً بالموز المقلي وتسحب مغلاق غرفة المؤونة ، تدخل وفي العمق يوجد ما

يشبه سباق الفئران . ترفع الفتيل وتسبر الغرفة . إنها خلف أكياس النرة : رسغ نحيل ،

مززر بحلقة من جلد ، قهمان حافيتان تحتكان وتتقوسان ، هل تريدان أن تخفي إحداهما

الأخرى ؟ كانت المسافة بين الأكياس والجدار ضيقة جداً ، لا بد أن كل واحدة منهما

ملتصقة بالأخرى ، لا تسمعهما تكيان .

- من المحتمل أن الشيطان كان يراودني ، أيتها الأم . قالت بونيفاثيا . لكنني

لم أنتبه . كل ما حدث هو أنني أشفقْتُ عليهما ، صدقيني .

- لماذا أشفقْتُ عليهما ؟ قالت رئيسة الدير . وما علاقة هذا بما فعلت ، يا

بونيفاثيا ؟ لا تتغابي .

- على الوثيقتين، وثبتي تشيكاييس، أيتها الأم . قالت بونيفاتيا. أقول لك الحقيقة. ألم تريهما أنت تكيان؟ ألم تري كيف كانتا متعانقتين. إضافة إلى أنهما لم تأكلا شيئاً عندما أخذتهما الأم غريسيلدا إلى المطبخ. ألم تري.

- ليس نزيهما أنهما كانتا هكذا . قالت رئيسة الدير. فهما لم تكونا تعرفان أن وجودهما هنا كان لخيرهما. كانتا تعتقدان أننا سنؤذيهما. أليس هذا ما يحدث دائماً حتى تألف الربييات الجو؟ لم تكونا تعرفان، لكن أنت كنت تعرفين أنه لخيرهما، يا بونيفاتيا.

- لكن رغم ذلك كانتا تثيران شفقتي . قالت بونيفاتيا. ماذا كنت تريدني مني أن أفعل، أيتها الأم؟

تترك بونيفاتيا، تضيء الأكياس بالتعديل فإذا بهما هناك قابعتان مثل ثعباني ماء. رأس إحداهن غائص في صدر الأخرى وظهرها إلى الجدار، لا تستطيع أن تخفي وجهها عندما يغزو الضوء مخبأها، فتقتصر على إغماض عينيها والأعين. لا مقص الأم غريسيلدا مَرَّ حتى الآن من هناك ولا المطهر. شعرهما الذي يهطل فوق ظهريهما وأفخذهما العارية، منتشر، قائم، يغلي بالبخار والتين الدقيق، وبالصبيان دون شك، إنه مزابل صغيرة. بين الأسماك القفرة والمختلطة تظهر تحت وهج القنديل الأعضاء الهزيلة وخرق الجلد الضاربة إلى لون المتهمة، والأضلاع.

- حدث كما لو كان مصانفة، أيتها الأم، دون تفكير . قالت بونيفاتيا. لم أكن أنوي ذلك ولم يخطر أبداً ببالي.

- لم يخطر ببالك ولم تتصديده لكنك سهلت هريهما . قالت رئيسة الدير. وليس وحدهما بل ومعهما الأخريات. خططت لهذا معهن منذ زمن، أليس كذلك؟

- لا، أيتها الأم، أقسم لك لا . قالت بونيفاتيا. حدث ذلك ليلة أول أمس، عندما أحضرت لهما الطعام إلى غرفة المؤونة. أتذكر وأخاف، إذ صرت أخرى، وكنت أعتقد أنها شفقة، لكن ربما راودني الشيطان كما تقولين، أيتها الأم.

- هذا ليس عذراً . قالت رئيسة الدير. لا تتنرعي بالشيطان إلى هذا الحد. إذا كان قد راودك فلأنك تركته يراودك. ماذا يعني أنك صرت أحرط

بدأ الجسدان الصغيران المتداخلان يرتعدان تحت غابات الشعر، وأصابت الوحدة منهما الأخرى بعدوى الرعشات. وكان اصطكاك أسنانها مثل اصطكاك الماكيسابآت المذعورة⁶³ حين يدخلونها في الأقفاس. تنظر بونيفاثيا إلى باب غرفة المؤونة، تتحني وتقدم ببطء شديد ونشاز ويشكل مقنع. شيء يتبدل في الجو كما لو أن دفقة من هواء نقي رطبت فجأة ظلمة غرفة المؤونة. توقف الجسدان عن الارتعاد تحت المزيلتين، ويبدأ رأسان حركة حكيمة لا تكاد تكون ملحوظة وبونيفاثيا ما تزال تتعب وتزفر بنعومة.

- انزعجن منذ أن رأيتهما. قالت بونيفاثيا. كن يتهامسن فيما بينهن، وحين كنت أقترب منهن كن يتحدثن عن أشياء أخرى. كن يناقشن، أيتها الأم، لكنني كنت أعرف أنهن يقلن أشياء عن الوثيبتين. ألا تذكرين ماذا جرى لهن في المصلى؟
- وماذا الذي أزعجهن؟. قالت رئيسة الدير. هل كانت المرة الأولى التي يرين فيها طفلتين تصلان إلى البعثة؟

- لا أعرف، أيتها الأم. قالت بونيفاثيا. إنا أحكي لك ما كان يحدث، ولا أدري لماذا كان ذلك. ربما تتكرن وقت مجيئهن، ولا شك أنهن كن يتحدثن عن هذا.
- ماذا جرى في غرفة المؤونة مع هاتين المخلوقتين؟. قالت رئيسة الدير..
- عديني أولاً أنك لن تطرديني، أيتها الأم. قالت بونيفاثيا. طوال الليل وأنا أصلي كي لا تطرديني. ماذا سأفعل، أيتها الأم، أنا وحيدة؟ سأتبدل إذا وعدتني. وسأحكي لك عندئذ كل شيء.

- وتضعين لي شروطاً كي تتوبي عن أخطائك؟. قالت رئيسة الدير. هذا وحده ما كان ينقصنا. ثم لا أدري لماذا تريدان البقاء في البعثة. ألم تهزي الصغيرات لأنه أحرزك بقاوهن هنا؟ على العكس، يجب أن تكوني سعيدة برحيلك.

تقرب بونيفاثيا صحن النحاس منهما فلا ترتعدان. إنهما متخشبتان والشهيق يرفع صدريهما بإيقاع ممتائل ويطيء. تضع بونيفاثيا الصحن على ارتفاع

⁶³ ماكيسابا: لنظر الملاحظة رقم (15)

الصغيرة الجالسة، دائماً تقدم بنبرة متوسطة وبألفة. وفجأة ينتصب الرأس الصغير، وينبثق خلف شلال الشعر ضوءان قصيران، سمكتان تمضيان من عيني بونيفاثيا إلى الصحن النحاسي. تظهر ذراع وتمتد بحر مناه، يد ترتسم تحت ضوء القنديل، إصبعان متسختان تمسكان موزة وتخبئانها تحت الأوراق.

- لكنني لست مثلهن، أيتها الأم. قالت بونيفاثيا. فأنت والأم أنخليكا تقولان لي دائماً إنني خرجت من الظلمات وتحضرت. أين سأذهب، أيتها الأم؟ لا بد أن أعود وثنية مرة أخرى. كانت العذراء طيبة، أليس صحيحاً؟ وكانت تغفر كل شيء، أليس صحيحاً؟ أرافي لحالي، أيتها الأم، وكوني طيبة، فأنت بالنسبة لي كالعذراء. - لن تشتريني بتملّك، فأنا لست الأم أنخليكا. قالت رئيسة الدير. إذا كنت تشعرين بنفسك متحضرة ومسيحية، فلماذا إذن هربت الصغيرات؟ كيف لم تهتمي بأن يعدن إلى وثنيتهن؟

- لكنهم سيعثرون عليهن، أيتها الأم. قالت بونيفاثيا. سترين كيف سيحضرهن الحراس من جديد، لا تلقي عليّ بخطيئتهن، خرجن إلى القناء وأردن الذهاب، لم أكن أنتبه إلى الأمور جيداً، أيتها الأم، صدقيني أنني كنت قد صرت أخرى.

- كنت قد جننت. قالت رئيسة الدير. أو أصبحت بلهاء حتى لا تتنبهي إلى أنهن كن يخرجن على مرأى منك.

- بل أسوأ من هذا، أيتها الأم، وثنية مثل صغيرتي تشيكاييس. قالت بونيفاثيا. أفكر الآن بالأمر وأرتعب، يجب أن تصلي لأجلي، أريد أن أتوب، أيتها الأم. تمضغ الصغيرة دون أن ترفع يدها عن فمها وكلما بلعت أضافت قطعة صغيرة من الموز المقلي. أزاحت شعرها الذي يوطر وجهها من الجهتين. حين تمضغ يهتز قرط أنفها قليلاً. تتجسس عيناها على بونيفاثيا ويغتنم تمسك يدها الأخرى بشعر الصغيرة الجالسة القرفصاء إلى صدرها. تمتد يدها الطليقة إلى الصحن النحاسي وتأخذ الموزة ويدور الرأس المخفي، تجبره على ذلك اليد التي تمسك بالشعر: أنف هذه ليس منقوباً، أحفانها كيسان صغيران ملتهبان. تهبط

اليده، وتضع الموزة على مقربة من الشفتين المطبقتين، اللتين تقطبان أكثر،
بتحرّز وتصلّب.

- ولماذا لم تأتي لتخبريني؟ . قالت رئيسة الدير. اختبأت في المصلى لأنك
كنت تعلمين أنك ارتكبت خطأ.

- كنت خائفة، لكن ليس منك، أيتها الأم، بل من نفسي . قالت بونيفاتيا.
بدا لي أنه كان كابوساً عندما لم أعد أراهنّ، لذلك دخلت المصلى. كنت أقول
لنفسي، غير صحيح، فهن لم يذهبن، لم يحدث شيء من هذا، لقد حلمت.
قولي لي إنك لن تطرديني، أيتها الأم.

- أنت طردت نفسك بنفسك . قالت رئيسة الدير. فعلنا لأجلك ما لم نفعله
لأخرى، يا بونيفاتيا. لكن الآن إذا عادت الصغيرات فإنهن لن يستطعن رؤيتك
هنا. أنا أيضاً حزينة رغم تصرفك السيء. وأعرف أن هذا سيحزن الأم أنخليكا
أيضاً. لكن مصلحة البعثة تتطلب ذهابك.

- أبقيني كخادمة لا أكثر، أيتها الأم . قالت بونيفاتيا. لن أرى الربيبات.
ساكنس فقط وأحمل القمامة وأساعد الأم غريسيلدا في السطبخ. أرجوك، أيتها الأم.
تقاوم المستقلية متوترة، مغمضة العينين، وتعضّ على شفتيها، لكن أصابع الأخرى
تضغط بلا كلل، تلحّ ضدّ ذلك القم المزموم. كلاهما تتصبب عرقاً من العناد،
وخصلات شعرهما الصغيرة ملتصقة بالجلد اللامع. وفجأة تنفرجان: وبسرعة تدخل
الأصابع بقايا الموزة شبه الذائبة في الفم المفتوح وتبدأ الصغيرة بالمضغ. مع الموز
أنحلت في فمها أطراف الشعر. تشير بونيفاتيا بذلك لذات القرط بإيماءة وهي ترفع يدها
مرة أخرى، فتأخذ أصابعها الشعر العالق وتسحبه بركة. تبلع الصغيرة المستقلية الآن،
كرة صغيرة تصعد وتهبط في حنجرتها. بعد ثوان تفتح فمها من جديد وتستمر بهذا
الشكل وعيناها مغمضتان ومنتظرة. تنتظر بونيفاتيا وذات القرط الواحدة إلى الأخرى
تحت وهج القنديل الزيتي. يتبسمان في آن واحد.

- إلا تريد أكثر؟ . قال أكيلينو. يجب أن تتغذى قليلاً، يا رجل، أنت لا تستطيع أن تعيش من الهواء.

- كنت أتذكر تلك العاهرة طوال الوقت . قال فوشيا. أنت المسؤول، يا أكيلينو، قضيت ليلتين وأنا أراها وأسمعها. لكن كما كانت في صباحا عندما تعرفت إليها.
- وكيف تعرفت إليها، يا فوشيا؟ . قال أكيلينو، هل كان ذلك بعد أن افترقنا بزمان طويل؟

- منذ سنة، يا دكتور بورتيليو، تقريبا . قالت المرأة . كما نعيش وقتذاك في بيلين، ومع البدر كان الماء يدخل علينا في البيت.

- نعم، صحيح، يا سيدة . قال الدكتور بورتيليو . لكن دعينا نتحدث عن الياباني، هل تريدني؟

كان النهر قد خرج عن مجراه، وبدا حي بيلين بحراً، والياباني كان يقضي كل سبت أمام البيت، يا دكتور بورتيليو. وهي من تراه يكون، ثم ما أغرب أن يكون حسن الهندام ويحمل بضائعه بنفسه دون أن يكون عنده من يقوم بذلك. كانت تلك أفضل مرحلة، أيها العجوز. كان قد بدأ يجني المال في إيكيتوس، يعمل لصالح الكلب رثائغي، وذات يوم حدث أن فتاة لم تستطع اجتياز الشارع من الماء، فدفع لجمال كي يساعدها على عبوره وخرجت أمها لتشكره: قوادة رهبة، يا أكيلينو.

- كان يتوقف دائماً ويتحدث معنا، يا دكتور بورتيليو. قالت المرأة . قبل ذهابه إلى المرفأ أو بعده وفي كل المرات كان لطيفاً جداً.

- وهل كنت تعرفين التجارة التي كان يقوم بها؟ . قال الدكتور بورتيليو.
- كان يبدو محتشماً وأنيقاً جداً، رغم عرقه . قالت المرأة . كان يجلب لنا الهدايا، يا دكتور، الثياب والأحذية، حتى أنه جلب لنا مرة كناريًا.
- هذا لابنتك الناكرة للجميل، يا سيدة . قال فوشيا . كي تستيقظ على شذوه.

- كانا يتفاهمان على أحسن وجه رغم أنهما كانا ينتهيان إلى عدم التفاهم،
أيها العجوز، فلقواذة كانت تعرف ماذا يريد وهو يعرف أن القواذة كانت تريد
مالاً، وأكيلينو، لاليتا، ماذا كانت تقول عن كل هذا؟.

- كان شعرها قد طال كثيراً . قال فوشيا . ووجهها نظيفاً، خالياً من أية
بثور . آه، كم كانت جميلة، يا أكيلينو .

- جاء بحمل شمسية ويرتدي بنلة بيضاء وحذاء أبيض أيضاً . قالت المرأة
. كان يخرج بنا للأنزه وإلى السينما، وحمل مرة لاليتا إلى ذلك السيرك البرازيلي
الذي خيم هنا، ألا تتذكر؟

- وهل كان يعطيك مالاً كثيراً، يا سيدة؟ . قال الدكتور بورتيليو .

- قليلاً جداً، يناد لا يكون شيئاً، يا دكتور . قالت المرأة . وندراً جداً . كان
قط يقدم لنا هدايا .

كانت لاليتا كبيرة بحيث لم تذهب إلى المدرسة . قدم لها عملاً في مكتبه وشكل
الراتب مساعدة كبيرة للثنتين، ليس صحيحاً أن الفكرة كانت تعجب لاليتا؟ وهي
كانت قد فكرت بمستقبل ابنتها وفي حاجتهما يا دكتور بورتيليو، وأيضاً في
الضائقة التي كانتا تمران فيها . على كل حال فإن لاليتا ذهبت لتعمل مع الياباني .
- لتعيش معه، يا سيدة . قال الدكتور بورتيليو . لا تخجلي، فالمحامي مثل
المعترف بالنسبة لموكلية .

- أقسم لك أن لاليتا كانت تنام في البيت دائماً . قالت المرأة . اسأل
الجيران، إذا كنت لا تصدقني، يا دكتور .

- وفيما مشغل ابنتك، يا سيدة؟ . قال الدكتور بورتيليو .

- في عمل تافه، أيها العجوز، كان من الممكن أن يجعله غنياً إلى الأبد،
لو أنه استمر سنتين أيضاً . لكن هناك من وشى به وخرج رثائغي من المولد
كما تخرج الشعرة من العجين . وكان عليه هو أن يتحمل كل شيء ويهرب،
فهناك بدأ أسوأ ما في حياته . عمل من أتفه الأعمال، أيها العجوز: استلام
المطاط، وتخزينه ومعالجة راحته، وحزمه بالتبغ ثم تصريفه .

- وهل كنت عاشقاً للاليتا في تلك الفترة؟ قال أكيلينو.
- كانت عذراء صغيرة حين صادفتها . قال فوشيا. لا تعرف شيئاً عن الحياة.
- كانت تبكي فإذا كنت سيء المزاج صفعتها، وإذا كنت حسن المزاج اشتريت لها السكاكر. المسألة أنني كنت كمن يملك زوجة وابنة في آن واحد، يا أكيلينو.
- ولماذا ترمي بمسؤولية هذا على لاليتا؟ قال أكيلينو. أنا متأكد من أنها ليست هي التي وشت بهم، لا شك أنها الأم.
- لكنها لم تتر بالأمر إلا من الصحافة، يا دكتور، كانت تقسم له على ذلك بأفئس الأشياء. قد تكون فقيرة، لكنها شريفة أكثر من أية واحدة أخرى. ولم تتواجد في المستودع أكثر من مرة، وهي: ماذا يوجد هناك، أيها السيد؟ والياباني: تبغ، وهي مغفلة صدقته.
- لا وجود لأي تبغ، أيها السيدة . قال الدكتور بورتيليو. يمكنك أن تقولي إن هذا موجود في الصناديق لكن في الداخل مطاط.
- لم تكن القوادة تعرف شيئاً.. قال فوشيا. كان أحد أولئك الكلاب الذين كانوا يساعدونني في وضع حزم المطاط. وكانوا يقولون في الصحافة إنها إحدى ضحاياي، لأنني سرقت منها ابنتها.
- من المؤسف أنك لم تحتفظ بتلك الصحف ولا بصحف كامبو غرانده . قال أكيلينو. كم كان ظريفاً أن نقرأها الآن، ونرى كيف كنت مشهوراً، يا فوشيا.
- وهل تعلمت القراءة؟ قال فوشيا . عندما كنا نعمل معاً لم تكن تعرف القراءة، أيها العجوز.
- كنت قرأتها لي أنت . قال أكيلينو. لكن كيف لم يحدث للسيد رثاتيغي أي شيء؟ لماذا كان عليك أن تهرب ويبقى هو مرتاحاً؟
- تلك هي مظالم الحياة. رغم ذلك كان باستطاعتي أن أصبح غنياً، يا أكيلينو، فإلعمل كان دائرياً.
- لم تكن لاليتا تحكي لها شيئاً، هي كانت تلتهمها بالأسئلة، والفتاة لا أعرف، لا أعرف، تلك هي الحقيقة الخالصة، يا دكتور بورتيليو، لماذا كانت

- مستسيء الظن؟ فالياباني كان دائماً مسافراً، لكن أناساً كثيرين كانوا يسافرون، ثم لماذا كانت ستعرف أن شحن المطاط تهريب والتبغ لا؟
- التبغ ليس مادة استراتيجية، يا سيدة. قال الدكتور بورتيليو. بينما المطاط كذلك، نعم. علينا أن نبيعه لحلفائنا الداخليين في حرب مع الألمان فقط. ألا تعلمين أن البيرو في حالة حرب أيضاً؟
- لو كنت تباع المطاط للغرينغويين⁶⁴، يا فوشيا. قال أكيلينو. لما وقعت في مشاكل ولكننا دفعوا لك بالدولار.
- حلفاوتنا يشترون منا المطاط بسعر حربي، يا سيدة. قال الدكتور بورتيليو. وكان الياباني يبيعه خلسة ويدفعون له أكثر بأربع مرات. هل كنت تجهلين هذا أيضاً؟
- هذا حدّ علمي، يا دكتور. قالت المرأة. فأنا فقيرة ولا تهمني السياسة، ما كنت لأترك ابنتي تخرج مع مهزّب أبداً. هل صحيح أنه كان جاسوساً أيضاً، يا دكتور؟
- بما أنها كانت صغيرة فقد كان يحزنها أن تترك أمها. قال أكيلينو. كيف أقنعت لاليتا، يا فوشيا؟
- ربّما كانت لاليتا تحبّ أمها كثيراً، لكنها معه كانت تأكل وتنتعل، وفي بيلين كانت ستنتهي للعمل غسالة، عاهرة أو خادمة، أيها العجوز، وأكيلينو، حكايات، يا فوشيا، لا بدّ أنه كان عاشقاً لها وإلا لما حملها معه. إذ كان من الأسهل له أن يهرب وحده من أن يجزّ مع امرأة، ولو لم يكن يحبها لما سرقها.
- كانت لاليتا تساوي وزنها ذهباً في أعماق الغابة. قال فوشيا. ألم أقل لك إنها كانت جميلة آنذاك؟ كانت تغري أيا كان.
- وزنها ذهباً. قال أكيلينو. وكأنك كنت تفكر أن تتاجر بها.
- جعلتُ منها تجارة رائعة. قال فوشيا. ألم تحكي لك تلك العاهرة شيئاً؟
- الكلب رناتيغي ما كان ليغفر لي أبداً، هذا أكيد. هكذا انتقمْتُ منه.

⁶⁴ الغرينغويون: تطلق على الأمريكيين الشماليين وعلى المنحدرين من أصل أوروبي.

- وذات ليلة لم تأت، ولا في التي تلتها، ثم وصلت رسالة منها . قالت المرأة . تقول لي فيها إنها ذاهبة إلى الخارج مع الياباني وإنما سينتزوجان . لقد أحضرت لك الرسالة، يا دكتور .

- أنا سأحتفظ بها . قال الدكتور بورتيليو . ولماذا لم تعلمي الشرطة بأن ابنتك هربت، يا سيدة؟

- اعتقدت أنها مسألة حب، يا دكتور . قالت المرأة . وأنه متزوج ولذلك هرب مع ابنتي . بعد أيام فقط كتبت الصحافة أن الياباني لص .

- كم أرسلت لك لاليتا من المال في رسالتها؟ . قال الدكتور .

- أكثر مما تساوي هاتان الكلبتان . قال فوشيا . ألف سول .

- مئتا سول، تصوّر البخل، يا دكتور . قالت المرأة . لكنني صرفتها، سددت بها ديوناً .

- هو كان يعرف مكنون العجوز . إنها أبخل من التركي الذي أدخله السجن، يا أكيلينو، والدكتور كان يريد أن يعرف ما إذا كان ما صرّحت به للشرطة هو ما روت له نفسه، يا سيدة، بنقاطه وقواصله؟

- ما عدا المئتي سول، يا دكتور . قالت المرأة . وإلاً لكانوا أخذوها مني، فأنت تعرف كيف هم في القسم .

- دعيني أدرس المسألة بهدوء . قال الدكتور بورتيليو . وإذا استجدّ أي شيء سأناديك . وإذا استدعيت للمحكمة أو الشرطة فسأرافتك . لا تقمي أي تصريح ما لم أكن حاضراً، يا سيدة . ولا لأي شخص . مفهوم؟

- كما تأمر، يا دكتور . قالت المرأة . لكن والأضرار والأذى؟ الجميع يقولون إن لي الحق بذلك . خدعني وانتزع مني ابنتي، يا دكتور .

- عندما يقبضون عليه سنطلب تعويضاً . قال الدكتور بورتيليو . لا تهتمي، سأخذ ذلك على عاتقي . لكن إذا كنت لا تريدان تعقيدات، تعرفين، لا تأتي بكلمة واحدة ما لم يكن محاميك موجوداً .

- هكذا إن عنت ورأيت السيد خوليو رناتيغي . قال أكيلينو. اعتقدت أنك ذهبت مباشرة من إيكيتوس إلى الجزيرة.
- وكيف كان يريد أن يذهب: سباحة؟ أم يقطع الغابة كلها سيراً على قدميه، أيها العجوز؟ لم يكن بحوزته إلا بضعة سولات، ويعرف أن الكلب رناتيغي كان سيغسل يديه، لأن نكره غير وارد في أي شيء. لحسن الحظ أنه أخذ معه لاليتا وأن عند الناس نقاط ضعف، فخوليو رناتيغي كان هناك، وكان قد سمع كل شيء، لكن هل صحيح أن العجوز لم تكن تعرف شيئاً، فقد كان مظهرها غير مطمئن، أيها الصديق. إضافة إلى أنه كان يشغلها أن يحمل فوشياً امرأة معه، فالعشاق يرتكبون حماقات.
- هذا شأنه إذا ارتكب حماقات . قال الدكتور بورتيليو . وهو لا يستطيع توريطك حتى لو أراد ذلك. كل شيء مدروس بشكل جيد.
- لم يقل لي كلمة واحدة عن لاليتا تلك . قال خوليو رناتيغي . هل كنت تعرف أنه كان يعيش مع تلك الفتاة؟
- ولا كلمة واحدة . قال الدكتور بورتيليو. لا بد أنه شديد الخيرة ويضيق عليها كثيراً. المهم أن العجوز الشقية سرحانة. لا أعتقد أن هناك خطراً، وأتصور أن العروسين قد أصبحا في البرازيل. هل نأكل معاً هذه الليلة؟
- لا أستطيع . قال خوليو رناتيغي . طلبوني لأمر عاجل في أوتشامالا. جاعني نفر، لا أدري ماذا يجري. سأحاول أن أعود يوم السبت. أعتقد أن دون فابيو قد وصل إلى سانتا ماريا ده نيبيا، يجب أن نرسل ونخبره ألا يشترى مطاطاً أكثر في الوقت الحاضر، حتى تهدأ الأمور.
- وإلى أين ذهبت لتختبئ مع لاليتا؟ . قال أكيلينو.
- إلى أوتشامالا . قال فوشيا. إلى عقار لذلك الكلب رناتيغي في المارانينون.

تخرج القطعان من المزارع بعد الظهر وتدخل في الصحراء مع أول الظلام. عمال متلفعون بعباءاتهم ويعتمرون قبعات كبيرة لمقاومة سياط الريح والرمل، يتودون الحيوانات الثقيلة والبطيئة منها إلى النهر. في الفجر يلحمون بيورا كسراب رمادي على الجانب الآخر من الضفة، وتجمع ساكن. لا يصلون إلى المدينة عبر البيخو بونته فهو ضعيف. يعبرون المجرى عندما يكون جافاً مثيرين غباراً كثيراً. في شهور الفيضان ينتظرون عند الضفة النهر. كانت الحيوانات تسبر الأرض بخطومها العارية وتهوى على أشجار الخرنوب الرخصة بقرونها، وتطلق خواراً جنازياً. يتحدث الرجال بهدوء أثناء تناولهم طعام الإفطار البارد وجرعات الكانايثو، أو يغفون ملفسين بعباءاتهم. يبدو أنهم لا ينتظرون كثيراً، فكارلوس روخاس يصل أحياناً إلى رصيف المرفأ قبل الماشية. لقد مخر النهر من تخم المدينة الآخر حيث مزرعته. يحصي سائق الزورق الحيوانات ويقدر وزنها ويقرر عند الرحلات اللازمة لنقلها، في الضفة الأخرى رجال «الكمال» تجهزون الحبال والمناشير والسكاكين والبرميل الذي سيغلى فيه مرق رأس الغدان الكثيف، الذي وحدهم عمال المسلخ يستطيعون تناوله دون أن يُغى عليهم. وما أن ينهي كارلوس روخاس عمله حتى يربط الزورق إلى إحدى دعامات البيخو بونته ويتوجّه إلى حانة من حانات لاغالينيثيرا حيث يقد المبكرون.

في تلك الصباح كان ثمة عدد كبير من السقائين والكناسين وباعة الساحة وجميعهم غالينيثيون. قدموا له قرعة حليب ماعز، سأله لماذا كان وجهه ممتعضاً. هل كانت زوجته بخير؟ وابنه؟ بلى كانا بخير، والخوسيفينو صار بمشي ويقول بابا، لكنه اضطرّ إلى أن يحكي لهم شيئاً. وكان ما يزال فمه مفتوحاً وعيناه جاحظتين من الدهشة، وكأنه رأى المكّار لتوّه. عشر سنوات وهو يعمل في الزورق، ولم ير قط أحداً في الشارع عند استيقاظه، باستثناء أهل حيّ «الكمال». الشمس لم تظهر حتى الآن، كل شيء أسود، في هذا الوقت يسقط الرمل بشدة أكبر. من سيخطر له إذناً أن يتنزه في مثل هذه الساعات؟ كان الغالينيثيون على حق، يا رجل لا يخطر لأحد ذلك. كان يتكلم

بقوة، وكانت كلماته مثل الطلقات. وكان يعتمد على إيماءات شديدة. أثناء توقيه كان فمه يبقى دائماً مفتوحاً وعينه جاحظتين. كان هذا هو سبب خوفه، يا رجل، غرابة الأمر. ما هذا؟ وسمع مرة أخرى، طبعاً، وقع حوافر جواد. لم يكن ينخبل، بلى كان قد نظر إلى كل الجهات، لينتظروا، ليدعوه يحكي: كان قد رآه يدخل البيخو بونته وعرفه هناك بالذات. جواد ميلتشر اسبينوتا؟ الأبيض؟ نعم، يا سيد، لهذا السبب، لأنه كان أبيض كان يلعب في الفجر ويبدو شبحاً. الغاليناثيون، خائبون، قد بقلت، ليس هذا خبراً جيداً، أم أن خبل السفر في الظلام قد أصاب نون ميلتشر؟ هذا ما فكر به، كفى، هرب الحيوان منه ويجب الإمساك به. قفز من الزورق وصعد المنحدر بخطوات واسعة، من حسن الحظ أن المهر لم يكن مسرعاً، راح يقترب منه ببطء كي لا يخيفه، الآن ينتصب أمامه ويأخذه من عرقه ويفمه، هي، هي، هي، اهدأ، يمتطيه دون سرج ويعيده إلى صاحبه، كان وراءه تماماً، قريباً منه وكان لا يراه إلا بصعوبة لكثرة الرمل. دخلاً معاً إلى كاستيليا. أخذ الاهتمام الغاليناثيين من جديد. ماذا حدث يا كارلوس؟ ماذا رأيت. نعم يا سيد، دون أنسيلمو، الذي كان ينظر إليه من صهوة الجواد، كلمة رجل. في البداية وقف شعر رأسه: عفواً، يا دون أنسيلمو، اعتقدت أن الجواد قد هرب. والغاليناثيون وماذا كان يفعل هناك؟ إلى أين كان ذاهباً؟ هل كان هارباً من بيورا خفية مثل لص؟ ليتركوه يكمل، اللعنة. ضحك على هواه، كان ينظر إليه ويموت ضحكاً والجواد الذي كان يشب. هل تدرون ماذا قال له؟ أزع عن وجهك هذا الخوف، يا روخاس، لم أستطع النوم فخرجت أقوم بجولة. هل سمعوا؟ تماماً كما رواها لهم. كانت الريح ناراً خالصة قاسية، قاسية جداً، وكانت به رغبة أن يرد عليه إذ رأى الغباء على وجهه، هل كان يعتقد أنه سيصدقها؟ غاليناثي لكنه لم يقل له، يا كارلوس، فالناس لا تُعامل على أنها كاذبة. ثم ماذا يهيك أنت؟ لكن القصة لم تنته هناك. بعد برهة رآه من جديد، من بعيد، في الطريق إلى كاتاكاوس، وغاليناثية، في الرملة؟ مسكينة، لا بد أن وجهها متآكل وكذلك عيناها ويداها. إذا لم يتركوه يتكلم يسكت ويذهب. بلى، استمر على الجواد

وقام بجولات وجولات، كان ينظر إلى الفهر، البييخو بونتته وإلى المدينة. ثم ترجل وكان يلعب بعباعته. كان يبدو طفلاً مسروراً، كان يقفز وينط. مثل الخوسيفينو. أليس من الممكن أن دون أنسيلمو قد جن؟ سيكون شيئاً مؤسفاً، فهو شخص طيب، أليس من الممكن أن يكون سكراناً؟ وكارلوس لا، لا لم يبدو له مجنوناً ولا ثملاً، فقد مدّ له يده عندما ودّعته، سأله عن العائلة وكفّعه بتليغها تحياتة. ولكن ليروا ما إذا كان محقاً عندما جاء مذهولاً.

في ذلك الصباح ظهر دون أنسيلمو في لابلاتا ده أرماس في الساعة المعتادة، مبتسماً، ومكثراً من الكلام. كان يبدو في غاية السعادة، فقد كان يقدم نخبه لكل المارة الذين يعبرون أمام شرفة المقهى. كانت تمتلكه رغبة حادة جامحة للمزاح، وكان فمه يتفوه بالقصص ذات المعنى، والمزوجة، الواحدة تلو الأخرى، والتي كان خائنتو، نادل «لا استريليا دل نورته» يحتفل بها ملتوياً من الضحك. وكانت قهقهات دون أنسيلمو تكوي في الساحة. كان خبر رحلته الليلية قد دار في كل مكان. وكان البيوريون يحاصرونه بالأسئلة، وكان يجيبهم ساخراً وبعبارات غامضة.

كانت رواية كارلوس روخاس قد شغلت المدينة وصارت موضوعاً للحديث لأيام. وقد بعض الفضوليين على دون ميلنثور اسبينوثا بحثاً عن المعلومات. لم يكن المزارع العجوز يعرف شيئاً. إضافة إلى أنه ما كان ليسأل ضيفه أي سؤال، فهو لم يكن وقحاً ولا ناماً، فقد وجد جواده بلا سرج ونظيفاً. لم يكن يريد أن يعرف أكثر وليذهبوا ويتركوه بسلام.

عندما توقّف الناس عن الحديث عن تلك الرحلة جاء خبر مفاجئ أكثر. كان دون أنسيلمو قد اشترى أرضاً لمجلس البلدية تقع على الجانب الآخر من البييخو بونتته، بعد آخر أكواخ كاستيليا بكثير، وسط الرملة، هناك حيث وجده صاحب الزورق في ذلك الفجر وهو يقفز. لم يكن مستغرباً ما إذا كان الغريب قد قرر أن يقيم في بيورا وأن يبني بيتاً. لكن، في الصحراء! فالرمل سيلتهم ذلك البيت في وقت قصير، سيبتلعه كما يبتلع الأشجار الهمة المهترئة أو الغاليناثيين الميتين. الرمل متحرك، وطري. الكئبان تبدل أماكنها كل ليلة،

الريح هي التي تخلقها وتقضي عليها وتحركها على هواها، تصغرها وتكبرها. تظهر مهددة ومتعددة تحاصر بيورا مثل سور، أبيض عند الفجر، أحمر عند الضيق، أخضر في الليل. وفي اليوم التالي تكون قد هربت متفرقة بعيدة، مثل بثور خفيفة في جلد الصحراء. في المساءات، سيجد دون أنسلمو نفسه مقطوعاً عن العالم وتحت رحمة الغبار. كثيرون هم الجيران المندفعون الذين حاولوا أن يوقفوا تلك الجنون. أكثروا من البراهين كي يصرفوه عن ذلك. ليحصل على أرض في المدينة، ولا يكن عنيداً. لكن دون أنسلموا كان يحتقر كل النصائح ويجب بجمال كانت تبدو أغازاً.

يصل الزورق بالجنود عند الظهر، ويحاول أن يرسو رأسياً وليس جانبياً كما يأمر العقل، يروح الماء به ويغدو، تحملوا، أيها الرؤساء. كان أدريان نيبس يريد أن يساعدهم. يرمي بنفسه في الماء ويمسك بالمجذاف الطويل. يصف الزورق على الضفة، يكتبه الجنود بالأثسوطه ويتركونه مربوطاً ويهرعون إلى القرية دون أن يقولوا له كلمة شكر ولا السبب. الوقت متأخر، أيها السادة، وجميع المسيحيين، تقريباً، كان لديهم الوقت للهرب إلى الجبل، لا يقبضون إلا على نصف دزينة، وعندما يصلون إلى تكنة بورخا، يغضب النقيب كيروغا، كيف خطر لهم أن يأتوا بكسيح؟ أغرب عن وجهي، يا بيلانو، يا أعرج فأنت غير صالح للجيش. التدريب يبدأ في اليوم التالي: يوقظونهم باكراً، يحلقون لهم، ويعطونهم سراويل وقمصاناً خاكية وبعض الأحذية التي تضغط على أقدامهم. ثم يحتثمهم النقيب كيروغا عن الوطن ويقسمهم إلى مجموعات. يدرّبهم عريف: اجتمع، سلام خذ، أمام سر، منبطحاً، واقفاً، انتبه، يا أبله، استرح، يا أبله وهكذا كل يوم، وما من طريقة للهرب، فالحراسة

مشددة، والرفسات تأتي من كل حذب وصوب، والنقيب كيروغا ما من هارب لا يقع وتتضاعف خدمته عندئذ. وذات صباح يأتي العريف روبيرتو نيلغادو، يتقدم الغرّ خطوة، إنه لليل، وأدريان نيبيس، حاضر، حضرة العريف، كان هو. هل تعرف المنطقة، من النهر وإلى الأعلى جيداً؟ وهو مثل هذه اليد يا حضرة العريف، من النهر وإلى الأعلى ومنه وإلى الأسفل أيضاً، إذن ليجهز نفسه فإنهم سيذهبون إلى باغوا. وهو حانت اللحظة، يا أدريان نيبيس، الآن أو لا، ينطلقون في الصباح التالي، هم، الزورق وخدام أغواروني من التكنة، النهر فائض ويمضون ببطء، متجنبين المصاطب الرملية، النجيل، وجذوعاً مثل أعضاء مبتورة تقاجئهم. يسافر العريف روبيرتو نيلغادو فرحاً، يتكلم ويتكلم، وصل ملازم ساحلي أراد أن يعرف البونغو، وهم إنه خطير، يا سيدي الملازم، فقد أمطرت كثيراً، وهو يريد، وذهب وانقلب الزورق وغرق الجميع ونجا العريف نيلغادو لأنه ابتدع عذراً كي لا يذهب، ويتكلم ويتكلم. الخادم لم يكن يفتح فمه، يا حضرة العريف، هل كان النقيب كيروغا غائباً؟ أدريان نيبيس هو الذي كان يحدثه. ماذا كان سيحدث، لقد ذهبوا منذ شهرين في مهمة عبر نهر سانتياغو، وقد ورم البعوض ساقي النقيب، اللتين كانتا حمراوين، مليئتين بالبثور، وقد أدخلهما في الماء والعريف كان يخيفه: انتبه أن أليكوما مات⁶⁵، انتبه تجعلك أبتز كسيحاً، يا سيدي النقيب، فهذه الحيات تأتي دون أن يُشعر بها، تخرج خرطومها وتبتلع ساقاً بقضمة واحدة، والنقيب لتأتي وتأكلها. التهاب حاد انتزع منه متعة الحياة، ولا شيء غير الماء كان يهدئته، يا للهول، كم كان نجمه منحوساً، أيها الخراء، والعريف، ساقاك كانتا تتزفان، أيها النقيب، والدم يجذب سمك البيرانيا⁶⁶ وماذا لو انتزعت منه بعض القطع؟

⁶⁵ أليكومامات: نوع من الأفاعي السامة جداً، وهي جمع يكو ماما.

⁶⁶ البيرانيا: سمك يتغذى على اللحوم ويعيش في المناطق الهائثة من الأنهار.

لكن النقيب كيروغا ثار، اللعنة على أمك، كُفَّ عن تخويفي، والعريف كان يقرف من رؤيتهما، فقد كانتا ثخينتين ومليئتين بالدمل، التي كانت تتفتح ويخرج منها صديد أبيض مع كل احتكاك بغصن. وأدريان نيبس لذلك لم يأت سمك البيرانيا، يا حضرة العريف، إذ كان يشم الرائحة ويرى أنه لو امتص ساقه لمات مسموماً. يمضي الخادم صامتاً، وهو يقيس العمق بالمجذاف الطويل ويعد تلك بيومين يصلون إلى أوراكوسا. لم يمت أغواروني واحد، فالجميع دخلوا الغابة. وقد حملوا معهم حتى الكلاب، يا لهم من مجزيين.

العريف روبرتو ديلغانو موجود في وسط المنطقة المكشوفة وقمه مفتوح على مصراعيه، أوراكوسيون! أوراكوسيون! له أسنان جواد، قوية، بيضاء ناصعة، أليسوا مشهورين بأنهم فحول؟ شمس الغسق تفتتها إلى أشعة زرقاء، تعالوا، أيها اللواطيون، عودوا! لكنهم لم يكونوا بالنسبة للخادم فحولاً، يا حضرة العريف، إنهم مسيحيون يخيفون، والعريف ليفتسوا له في الأكواخ ويصنعوا له صرة مما قد يوجد فيها ويؤكل، يلبس أو يباع، الآن، حالاً وبسرعة. لم يكن أدريان ينصحه، يا حضرة العريف، فلا بد أنهم يرونهم وإذا سرقوهم فإنهم سينقضون عليهم، وهم كانوا ثلاثة فقط. لكن العريف لم يكن يريد نصيحة من أحد، اللعنة!، هل سألوه شيئاً؟ لتقضوا عليهم، وليروا، كان سيقضي على الأوراكوسيين دون أن يحتاج للمسدس، بالصفعات وحدها ويجلس على الأرض، يتربع ويشعل سيجارة. يذهبان هما إلى الأكواخ، يعودان وينام العريف نوماً هادئاً، عقب السجارة ينتهي على الأرض محاطاً بالنمل الفضولي. يأكل أدريان نيبس مع الخادم إبرة آدم وسمك البوغر، يخنان وعندما يستيقظ العريف يجز نفسه إلى جانبيهما ويشرب من القرية. يفحص بعد ذلك الحزمة: جلد ضبب صغير، زبالة، أطواق من الخردل والصدف. هل هذا كل ما كان موجوداً؟ أطباق صلصال، سوارات وماذا عمّا وعد به النقيب؟ الصبايا، التيجان، لا يوجد حتى قليل من الراتينج قاتل الحشرات؟ سلة شامبير وقرعة مملوءة بالماساتو، زبالة خالصة، يحك الحزمة بقدمه وكان يريد أن يعرف ما إذا كانوا قد رأوا أحداً أثناء نومه. لا، يا حضرة العريف، لا أحد أبداً. كان يعتقد أنهم قريبون

والخادم يشير بإصبعه إلى الجبل، لكن العريف لم يكن مهتماً إطلاقاً: ينامون في أوراكوسا وفي الصباح يتابعون سيرهم باكراً. ما يزال يمدم، ما معنى أنهم يختبئون وكأنهم موبؤون؟ ينهض واقفاً، يبول، يخلع الطماقين، ويمضي باتجاه أحد الأكواخ، هما يلحقان به. لا يوجد حرٌّ فالليل رطب ويعلو فيه الهمس، نسمة متناقلة تحمل إلى المنطقة المكشوفة رائحة نباتات متعفنة والخادم لنذهب، يا حضرة العريف، فالحالة هنا سيئة، يقول، لن يبقى، لا يعجبه وأدريان نيبس يهزُّ بكتفيه: من يعجبه، لكن لا تتعب نفسك، فالعريف لم يكن يسمع، فقد كان يغط في النوم.

- كيف كانت الحال هناك؟ قال خوسيفينو. أخك، يا ليتوما.

- وماذا تتوقع، أيها الزميل؟ قال ليتوما، والدهشة في عينيه. سيئة جداً.

- وهل كانوا يضربونك، يا ابن العم؟ قال خوسيه. هل عَشُوك على

الخبز والماء؟

- لا شيء من هذا، عاملوني معاملة حسنة. فالعريف كاريناس جعلهم

يقدمون لي طعاماً أكثر من أي شخص آخر. كان تحت إمرتي في الغاية. إنه

خلاسي من أطيب الناس، كنا نناديه بـ «الأسود». لكنها كانت حياة بائسة.

كان في يد المونو سيجارة، وفجأة أخرج له لسانه وغمزه بعينه. كان يبتسم

غير مبال بالآخرين، وكان يلمص ففتنفتح في خديه حفر وفي جبينه تجعيدات،

وبين الفينة والأخرى كان يصفق لنفسه.

- كانوا يكرهونني بعض الشيء. قال ليتوما. وكانوا يقولون لي إن لك

خصيتي واث، أيها الصاخب.

- معهم حق، يا ابن العم، طبعاً، من سيحك بذلك؟

- كانت بيورا بكاملها تتحدث عنك، أيها الزميل: قال خوسيفينو. الأطفال

والكبار. ظلوا يتجانلون حولك حتى بعد أن ذهبت بزمن طويل.

- ذهبت؟ قال ليتوما. أنا لم أذهب برغبة مني.

- عندنا الصحف، قال خوسيه . سوف ترى، يا ابن العم، في «التيمبو» شتموك كثيراً، وكانوا يدعونك لصاً، لكنهم في «ايكوس أي نوبيثياس» و«لا اندومستريا» اعترفوا على الأقل بأنك شجاع.
- كنت عظيماً، أيها الزميل . قال خوسيفينو. لقد شعر المانغاتشيون بالفخر .
- وماذا استفدت من ذلك؟ . هزّ ليتوما كتفيه، بصق وجاس البصقة : إضافة إلى أنه ناتج عن السكر. لو كنت صاحباً، لما تجزأت .
- نحن هنا جميعاً في لامانغاتشيريًا أوريون⁶⁷ . قال المونو وقد انتصب واقفاً بقفزة واحدة . متعصبون للجنرال سانتشث نيزو حتى أعماق الروح .
- ذهب إلى حيث قصاصة الصحيفة، حيا تحية عسكرية وعاد إلى الحصير وهو يضحك مقهقهاً .
- تعب المونو . قال ليتوما. هيا بنا إلى حيث لا تشونغا قبل أن ينام بين أيدينا .
- عندنا ما نحكيه لك، أيها الزميل . قال خوسيفينو .
- جاء في العام الماضي أبري⁶⁸ . ليعيش هنا، يا ليتوما . قال المونو. واحد من أولئك الذين قتلوا الجنرال . إنه يثير غيظي!
- في ليما تعرفت على أبريين كثر . قال ليتوما. كانوا قد سجنوهم أيضاً . كانوا يجرحون بسانتشث نيزو⁶⁹ على هواهم، ويقولون إنه كان طاغية . هل هناك ما ستقصه عليّ، أيها الزميل؟
- وكنت تسمح لهم بأن يجرحوا بهذا المانغاتشي العظيم أمامك؟ . قال خوسيه .

⁶⁷ أوريون: اسم تجمع سياسي أو حزب لم أتوصل إلى معرفة اتجاهه وفكره.

⁶⁸ أبري: منتم إلى حزب التحالف الثوري الشعبي الأمريكي، وهو حزب تأسس أثناء الحرب العالمية الثانية، مع ازدياد النفوذ الأمريكي الشمالي في البيرو، وكان حزباً قومياً وطنياً معادياً للإمبريالية.

⁶⁹ سانتشث نيزو: رئيس جمهورية البيرو عامي 1930 و 1931.

- بيوراني وليس مانغاتشياً . قال خوسيفينو . هذا واحد من اختراعاتكم الأخرى. أكيد أن سانتشث تيرو لم يطأ هذا الحي.
- ماذا كنت تحكي لي؟ . قال ليتوما . تكلم، يا رجل، فلقد أثرت فضولي.
- لم يكن شخصاً وإنما عائلة بكاملها، يا ابن العم . قال المونو. بنوا بيتاً على مقربة من المكان الذي كان يعيش فيه باتروثينيو نايا، ورفعوا فوق الباب علم حزب أبرا. أرايت الوقاحة؟
- عن بونيفاثيا، يا ليتوما . قال خوسيفينو. يبدو من وجهك أنك تريد أن تعرف، لماذا لم تسألنا أيها المنيع . كنت خجلاً؟ لكن نحن أخوة، يا ليتوما .
- هذا صحيح، لقد حَجَمناهم . قال المونو. جعلنا حياتهم مستحيلة. اضطروا إلى أن يذهبوا مولين الأديبار .
- دائماً يوجد متسع من الوقت للسؤال . قال ليتوما، انتصب قليلاً، أسند يديه إلى الأرض، وبقي بلا حراك. كان يتكلم بهدوء شديد . لم تكتب لي رسالة واحدة. ماذا عنها؟
- يقولون إن الشاب الخاندرو كان أبرياً منذ صغره . قال خوسيه بسرعة وأنه ما إن وصل آيا ده لاثورّه حتى عرض لافتة تقول، يا معلم، الشباب يهتفون لك .
- إشاعات، فالشاب شخص طيب، مجد من أمجاد لا مانغاتشيريا . قال المونو بصوت ضعيف .
- اسكتوا ألا ترون أننا نتكلم؟ . ضرب ليتوما الأرض براحة كفه وارتفعت غيمة غبار. توقف المونو عن الابتسام وخوسيه كان قد خفض رأسه، خوسيفينو متيسس يشبك يديه ويطرف بعينه دون توقف .
- ماذا حدث، أيها الزميل . قال ليتوما برقة تكاد تكون ودية. أنا لم أسأل شيئاً، لكنك شددنتي من لساني. والآن، تابع، لا تصمت .
- إن بعض الأشياء تحرق أكثر من الكانياتو، يا ليتوما . قال خوسيفينو، بصوت منخفض .
- أوقفه ليتوما بحركة منه.

- إذن، سأفتح قنينة أخرى . لم يكن صوته ولا حركاته توحي بتعكر صفوه، لكن جلده كان قد بدأ يرشح وراح يتنفس بعمق . إنَّ الكحول يساعد على تلقي الأبخار السيئة، أليس كذلك؟

فتح القنينة بنهشة واحدة وملاً الكؤوس . شرب كأسه بجرعة واحدة، احمرت عيناه وتبللتا، والمونو، الذي كان يشرب برشقات صغيرة وهو مغمض العينين وقد انكمش وجهه بكامله، ينزلق فجأة . راح يسعل ويضرب على صدره بيده المفتوحة .

- إنَّ المونو دائماً غامض . تمنم ليتوما . هيا، أيها الزميل، إنني أنتظر .

- البيسكو هو الجرعة الوحيدة التي تحرك العالم في العيون . رنم المونو . الجرعات الأخرى تحركه بالبول .

- صارت عاهرة، يا أخي . قال خوسيفينو . إنها في البيت الأخضر .

أصيب المونو بنوبة سعال أخرى، تخرج كأسه على الأرض فتجمعت بقعة رطبة على الأرض، واختفت .

- كانت أسنانها تصطك، أبتها الأم . قالت بونيفانثيا، تكلمت معهما بالوثنية كي أنزع الخوف عنهما. لو كنت حاضرة لرأيت حالتها.
- ولماذا لم تقولي لي إنك تتكلمين الأغرارونية، يا بونيفانثيا؟ . قالت رئيسة الدير .
- ألا ترين أن الأمهات يقلن عن كل شيء: لقد خرج الوحش منك؟ . قالت بونيفانثيا . ألا ترين كيف يقلن لي ها قد أصبحت تأكلين بيديك، أيتها الوثنية؟ كنت أستحي، أيتها الأم.
- تأتي بهن بأيديهن من غرفة المؤونة وحتى عتبة غرفتها الضيقة، تشير إليهن بأن ينتظرن. وهن يجتمعن، يشكلن لفيماً على الجدار: تدخل بونيفانثيا، تشعل القنديل، تفتح الصندوق، تفتشه، تخرج حزمة المفاتيح القديمة وتخر. تعود وتأخذ الصغيرات من أيديهن.
- أحقاً صعدوا بالوثني إلى الكاببرونا. قالت بونيفانثيا. وأنهم قصوا له شعره وصار رأسه أبيض؟
- كأنك مجنونة . قالت الأم أنخليكا. نجاهة تخرجين علينا بأشياء وأشياء.
- لكنها كانت تعرف، أيتها الأم، أحضر، الجنود في زورق، ربطوه إلى صارية العلم، صعدت الربيبات إلى سطح الإقامة كي يتقرجن، والأم أنخليكا تضربهن بالسوط. ألم تنتهي اللصات من تلك القصة؟ متى حكيتها لبونيفانثيا؟
- حكاها لي عصفور أصفر دخل طائراً . قالت بونيفانثيا. أحقاً أنهم قصوا له شعره؟ كما تقصه الأم غريسيلدا للوثنيات الصغيرات؟
- الجنود هم الذين قصوه له، يا غبية . قالت الأم أنخليكا. لا يمكن المقارنة، لأن الأم غريسيلدا تقصه للصغيرات كي لا يحزنهن، بينما قصوه له عقاباً.
- وماذا فعل الوثني، أيتها الأم؟ قالت بونيفانثيا.
- آثم، أشياء قبيحة . قالت الأم أنخليكا. كان قد ارتكب نكباً.
- تخرج بونيفانثيا والصغيرات على رؤوس أصابعهن. الفناء مشطور إلى شطرين: القمر يضيء الواجهة المثلثة للمصلى ومدخنة المطبخ، القطاع الآخر من البعثة عبارة

عن تراكم ظلال رطوبة. ينقطع جدار الطوب بشكل مبهم تحت العرائش والأغصان المظلمة. اختفى مكان إقامة الأمهات في الليل.

- طريقتك في رؤية الأشياء ظالمة . نالت رئيسة الدير. فالأمهات تهمهن روحك وليس لون جلدك ولا اللعنة التي تتكلمينها. أنت ناكرة للجميل، يا بونيفاثيا. لم تفعل الأم أنخليكا شيئاً منذ أن وصلت إلا تتليلك.

- أعرف أيتها الأم، لذلك أطلب ذلك أن تصلي لأجلي . قالت بونيفاثيا. المسألة أنني تحولت إلى متوحشة في ذلك الليلة، سترين ما أخشاه.

- كفي عن البكاء. وخلصينا . قالت رئيسة الدير. أعرف أنك تحولت إلى متوحشة. ما أريده هو أن أعرف ماذا فعلت.

تطلقهما، وتوميء لهما بأن تصمتا ثم تجري، دائماً على رؤوس أقدامها. تسبقهما في البداية لكن عند منتصف الفناء تجري الصغيرتان إلى جانبيها. يبلغن معاً الباب المغلق. تتحني بونيفاثيا وتجرب سفاتيح الحزمة الغليظة، الصدنة، الواحد بعد الآخر. يصرُّ القفل، الخشب مبلل ويدوي فارغاً عندما يضربنه بأيديهن المفتوحة، لكن الباب لا يفتح. كان تدفئ الثلاثة لهاثاً.

- وأنا هل كنت صغيرة وقتذاك . قالت بونيفاثيا. وبأي حجم، يا أم؟ أرني بيدك.

- هكذا، بهذا الحجم . قالت الأم أنخليكا. لكنك مع ذلك كنت شيطانة.

- وكم كان قد مضى علي في البعثة؟ . قالت بونيفاثيا.

- زمن قصير . قالت الأم أنخليكا . شهر قليلة فقط.

مفهوم، فالشيطان كان قد دخل الجسد، أيتها الأم. ماذا كانت تقول هذه المجنونة؟ لئر بماذا كانت تخرج علينا الآن، وكانوا قد أحضروا بونيفاثيا إلى سانتا ماريا ده نيبيا مع ذلك الوشي. كانت الربيبات قد قصصن ذلك عليها. وكان على الأم أنخليكا أن تذهب للاعتراف بالكذبة. وإلا فإنك ستذهبن إلى الجحيم أيتها الأم.

- ولماذا تسألينني، إنن، أيتها الماكرة؟ . قالت الأم أنخليكا. هذا قلة احترام

وإثم أيضاً.

- كانت مزحة، يا أم . قالت بونيفاثيا. أنا أعرف أنك ستذهبن إلى الجنة.

يدور المفتاح الثالث ، يذعن الباب. لكن يبدو أنه يوجد في الخارج كثافة من الجذوع والأجمات والنباتات المتسلقة، والأعشاش، ونسيج العنكب، والفطر ولفائف من الأعشاب التي تقاوم وتسد الباب. تلقي بونيفاثيا بكامل ثقل جسمها على الخشب وتدفع. تحدث تشققات كثيرة وخفيفة جداً وجلبة هشة إلى أن يصبح هناك فتحة كافية. تسند الباب المشقوق، تشعر باحتكاك شعيرات ناعمة في وجهها، تصغي إلى حفيف أوراق خفية ثم فجأة ضجة أخرى خلف ظهرها. - صرت مثلها، أيتها الأم. قالت بونيفاثيا. إن التي تضع الحلقة في أنفها أكلت وأطعمت الوثنية الأخرى بالقوة. كانت تدخل الموز في فمها بأصابعها، أيتها الأم. - وما علاقة هذا بالشیطان؟ قالت رئيسة الدير.

- كانت الواحدة منهما تمسك بيد الأخرى وتمص لها أصابعها. قالت بونيفاثيا. وهكذا بواليك ألا ترين الجوع الذي كانتا به، أيتها الأم؟

كيف لا تجوعان؟ فالمسكينتان لم تتناولوا لقمة واحدة منذ كانتا في تشيكاييس، يا بونيفاثيا، لكن رئيسة الدير كانت تعرف أنها تألمت لأجلهما. وبونيفاثيا، كانت تفهم عليهما بصعوبة، لأنهما كانتا تتكلمان بشكل غريب. هنا كانتا ستأكلان كل يوم، وهنا كانتا ستسعدان، وهنا تريد أن تمكثا، وبدأت تروي لهما تلك القصة عن يسوع الصغير التي كانت تعجب الوثنيتين، أيتها الأم. - هذا أفضل ما تفعلينه. قالت رئيسة الدير. أن تروي لهما القصة. ماذا

أكثر، يا بونيفاثيا؟ عيناها مثل سوزالين، أغريان، خضراوان، ومذعورتان، عدن إلى المهجع، تخطو خطوة باتجاه الربييات، بأي إذن تخرجن؟ وينطق الباب دون جلبة تدفعه الغابة. تراقبها الربييات بصمت، دزيتان من الحباب⁷⁰ ورشبح واحد مريض جداً ومشوه، تواري الظلمة وجوهاً ومعاطف واقية. تنظر بونيفاثيا إلى مكان الإقامة، لم يشتعل أي نور فيه. تأمرهن من جديد بالعودة إلى المهجع، لكنهن لا يتحركن ولا يجبن.

⁷⁰ دزيتان من الحباب: المقصود بها عيون الربييات.

- هذا الوثني كان والدي، أيتها الأم المبحلة . قالت بونيفاتيا .
- لم يكن والدك . قالت الأم أنخليكا. ربّما وُلدت في أوراكوسا لكنك ابنة آخر ولست ابنة هذا الأثم.
- ألم تكن تكذب عليها الأم؟ لكن الأم أنخليكا لم تكن تكذب أبداً، أيتها المجنونة، لماذا كانت ستكذب عليها؟ ألكي لا تأخذ الشفقة الأم فجأة؟ ألكي لا تخجل؟ ألم تكن تعتقد أيضاً أن والدها كان أتماً؟
- ولماذا سيكون كذلك؟ . قالت الأم أنخليكا. يمكن أن يكون ذا قلب طيب، فهناك وثنيون كثيرون هكذا. لماذا يشغلك هذا؟ أليس عندك الآن أب أعظم وأكثر طيبة بكثير؟
- لم تطيعاها هذه المرة أيضاً، اذهبا، عودا إلى المهجع، والصغيرتان عند قدميها ترتجفان، متعلقتين بثوبها. فجأة تلتفت بونيفاتيا نصف التقاتة وترجري نحو الباب، تدفعه، تفتح وتشير إلى ظلمة الجبل. الصغيرتان إلى جانبيها لكنهما لا تعقدان العزم على اجتياز العتبة. ينوس رأساهما بين بونيفاتيا والفتحة المظلمة، تتقدم الآن الحياجب وترسل أطرافهن خطوطها أمام بونيفاتيا، بدان يهمسن لها، وبعضهن يلمسناها.
- كانت الواحدة منهن تخرجه للأخرى، أيتها الأم . قالت بونيفاتيا. كن يخرجه ويقلته بأسنانهن، لكن ليس لأنهن سينات، وإنما للعب، أيتها الأم، وقيل أن بعضهن كن يُرينه لها وهن يقطن: انظري ماذا أخرجت منك. للعب وأيضاً للتسلية، أيتها الأم.
- طالما أنهن أصبحن يقطن بك، كان باستطاعتك أن تتصحيهن . قالت رئيسة الدير. أن تقولي لهن ألا يقمن بهذه القذارات.
- لكنها كانت لا تفكر إلا في اليوم التالي، أيتها الأم، حبذا لو أن غداً لا يصل، وأن الأم غريسيلدا لن تقص لهن شعورهن، يجب ألا تقصه لهن، يجب ألا تضع لهن المطهرات ورئيسة الدير ما هذه الحماقات؟
- ألا ترين ماذا يصير بحالهن، وأنا عليّ أن أمسكن وأرى . قالت بونيفاتيا. كذلك عندما يحتمنهن ويدخل الصابون في عيونهن.

هل كان يؤلمها أن تعمل الأم غريسيلدا على تخليصهن من تلك الحشرات التي تلتهم الرأس؟ تلك الحشرات التي يبلعها وتسبب لهن المرض وتتفخ بطونهن. المسألة أنها ما تزال تحلم بمقص الأم غريسيلدا. وهذا ما ألمها كثيراً، أيتها الأم، لا بد أن هذا هو السبب.

- لا تبدين نكية، يا بونيفاثيا. قالت رئيسة الدير. كان أحرى بك أن تشعرى بالآلم عند رؤيتك هاتين الصغيرتين وقد تحولتا إلى حيوانين، تعلان ما تفعله القردة.
- ستغضبين مني أكثر، أيتها الأم. قالت بونيفاثيا. ستكرهينني.

ماذا كن يبغين؟ لماذا لم يكن يطعنها؟ وبعد ثوان، رافعة صوتها، تذهبن أيضاً، تعدن وثنيات من جديد؟ وغمرت الربيبات الصغيرتين فلم يحد أمام بونيفاثيا إلا عجينة كثيفة من المعاطف الواقية والعيون الجشعة. ماذا كان بهما إذن، فانه يعلم وهن يعلمن، ليعدن إلى المهجع ويهرين أو يمتن. وتتنظر باتجاه مكان الإقامة: دائماً مظلم.

- قصوا له شعره كي ينتزعوا الشيطان الذي كان بداخله. قالت الأم أنخليكا. وكفى، لا تفكري أكثر بالوثى.

المسألة أنها دائماً تتنكر، أيتها الأم، عندما قصوه لها، وهل كان الشيطان مثل القمل؟ ماذا كانت تقول هذه المجنونة له كي يخرجوا الشيطان منه وللوثنيات الصغيريات كي يخرجن منهن القمل؟ وهل تريدن أن تقولي، أيتها الأم إن الاثنتين يدخلان في الشعر؟ والأم أنخليكا، ما أغباك، يا بونيفاثيا، يا لك من صغيرة غبية.

يخرجن الواحدة خلف الأخرى بنظام، كما في أيام الأحد، عندما يذهبن إلى النهر وعندما يعبرن أمام بونيفاثيا، تمط بعضهن ذراعها ويعتصرن بود ثوبها، وذراعها العاري وهي، هيا بسرعة، سيكون الله في عونهن ومستصلي لأجلهن. هو سيرعاهن، ويقاوم. الباب بظهرها. وكل ربيبة تتوقف في العتبة وتلتفت برأسها إلى مكان الإقامة المخفي، تدفعها وتجبرها على أن تغوص في الفتحة النباتية وتكوس في الأرض الموحلة وتضيق في الظلمات.

- وهجأة أفلتت من الأخرى وجاءت إلى حيث أنا . قالت بونيفاثيا. الصغرى، أيتها الأم، واعتقدت أنها كانت ستعانقني لكنها راحت أيضاً تبحث في بأصابعها، هذا هو السبب، أيتها الأم.

- ولماذا لم تحملي الصغيرتين إلى المهجع؟ . قالت رئيسة الدير.

- امتناناً، ولما أعطيتهما من طعام، ألا تلاحظين؟ . قالت بونيفاثيا. كانت

تطو وجهها علائم الحزن لأنها لم تجد، والمسكينة حبذا لو أنها وجدت واحدة.

- ثم تحتجبن عندما تقول لك الأمهات إنك متوحشة. . قالت رئيسة الدير.

هل أنت تتكلمين كمسيحية؟

هي أيضاً كانت تبحث في شعرها ولم تكن تعرف، أيتها الأم، وكانت تقتل كل واحدة تجدها بأسنانها. مرفقة؟ بلى، قد تكون ورئيسة الدير تتكلمين وكأنك فخورة بهذه القذارة. وبونيفاثيا كانت كذلك، وهذا هو المرعب في الأمر، أيتها الأم، والوثنية كانت تتظاهر كمن تجد وتكشف يدها وتضعها في فمها بسرعة، وكأنها سقتلها. وكذلك الأخرى بدأت، أيتها الأم، وهي مع الأخرى أيضاً.

- لا تكلميني بهذه النبوة، . قالت رئيسة الدير. إضافة إلى أنه يكفي فأنا لا

أريد أن تحكي لي أكثر، يا بونيفاثيا.

وهي لتدخل الأمهات ويشاهدنها، الأم أنخليكا وأنت أيضاً، أيتها الأم، فليسوف تستمها، كم كانت محتاجة، كم كانت حاقدة. أيتها الأم والصغرتان ذهبتا: لا بد أنهما خرجتا بين الأواثل تحبوان بسرعة. تعبر بونيفاثيا الفناء وتتوقف عند المرور بجانب المصلى. تدخل وتجلس على مقعد ويصل ضوء القمر منحرفاً حتى المنبج، ويتلاشى بجانب الشبك الذي يفصل الربييات عن المؤمنين في سانتا ماريا ده نيبيا في صلاة الأحد.

- وكانت إضافة إلى ذلك متوحشة صغيرة . قالت الأم أنخليكا. اضطررنا إلى

أن نظوف بك في البعثة كلها. أنا نفسي، عضضتني في يدي، أيتها اللصة.

- لم أكن أعرف ما أفعل . قالت بونيفاثيا. ألا ترين أنني كنت وثنية

صغيرة؟ إذا قبلتك هناك حيث عضضتك، هل ستغرين لي، أيتها الأم؟

- تقولين كل شيء بنبرة ساخرة وبنظرة خبيثة تبعثان عندي الرغبة لأن أسوطك . قالت الأم أنخليكا. هل تريدين أن أحكي لك قصة أخرى؟
- كلا، أيتها الأم . قالت بونيفاتيا. فمنذ برهة وأنا هنا أصلي.
- ولماذا ليس في المهجع؟ . قالت الأم أنخليكا.. بأي إذن أتيت إلى المصلى في هذه الساعة؟
- لقد هربت الربيبات . قالت الأم لئونور. والأم أنخليكا تبحث عنك، هيا، اركضي، فرئيسة الدير تريد أن تكلمك، يا بونيفاتيا.

- يبدو أنها كانت جميلة في صباها . قال أكيينو. وقد لفت شعرها الطويل انتباهي عندما عرفتها. من المؤسف أنه طلعت فيها بثور كثيرة.
- والكلب رثائيغي، هيا، اذهب، يمكن أن تأتي الشرطة فتتورط . قال فوشيا.
لكن العاهرة تلك كانت تحشر نفسها في أنفه طول الوقت وهكذا راحت تسقط.
- لكنك أنت كنت تأمرها بذلك، يا رجل . قال أكيينو. لم يكن عهداً وإنما طاعة. لماذا تشتمها؟
- لأنك جميلة . قال خوليو رثائيغي . سأشتري لك ثوباً من أفضل محلات إيكيتوس.
هل تودين؟ لكن ابتعدي عن هذه الشجرة، تعالي، اقتربي، لا تخافي مني.
شعرها بارز ومسترسل، إنها حافية، طيفها ينقطع أمام الجذع الهائل، تحت رأس شجرة تتقياً أوراقاً مثل الومض. قاعدة الشجرة جذع نو أهداب من قشور خشنة، كتيمة، رمادية اللون، بداخلها خشب صلب بالنسبة للمسيحيين وشياطين وبيلة بالنسبة للوثنيين.
- أيضاً تخاف اللوبونا، يا معلم؟ . قالت لاليتا. لم أكن لأصدق ذلك عنك.

تتظر إليه بعينين ساخرتين وتضحك ملقبة برأسها إلى الخلف: الشعر الطويل يكتم كتفيها المحمصين، وقدماه تلمعان بين السرخس الرطب، وهما أكثر دكنة من كتفيها وغلظها الكعبيين.

- وأيضاً حذاء وجوارب، يا صغيرة . قال خوليو رناتيغي . ومحفظة . وكل ما تطلبينه مني .

- وأنت ماذا كنت تفعل في تلك الأثناء؟ . قال أكيلىنو . فهي على كل الأحوال رفيقتك، ألم تكن تغار عليها؟

- كنت أفكر بالشرطة فقط . قال فوشيا . جنتته، أيها العجوز، كان صوته يرتجف عندما يكلمها .

- السيد خوليو رناتيغي . تسيك لعابه مسيحية . قال أكيلىنو . لالايئا! حتى الآن لا أصدق، يا فوشيا . وهي لم تحك لي ذلك أبداً مع أنني كنت عزافها ومنديل دموعها .

- حكيمات عتيقات أولاء القدرات . قال خوليو رناتيغي . ما من طريقة لمعرفة كيف يحضرن الأصبغة . انظري كم هو فاقع الأحمر والأسود . مع أنه مضى عليهما عشرون عاماً أو ربما أكثر . هيا، يا صغيرة، ارتديه، دعيني أرى كيف هو عليك .

- ولماذا كان يريد من لالايئا أن ترتدي الدثار؟ . قال أكيلىنو . يا لها من فكرة، يا فوشيا! لكن ما لا أفهمه أن تبقى ساكناً . أي شخص آخر كان سحب سكينه .

- كان الكلب في أرجوحة نومه وهي في النافذة . قال فوشيا . كنت أسمع جميع حكاياته وكنت أموت من الضحك .

- ولماذا لا تفعل الشيء نفسه الآن؟ . قال أكيلىنو . لماذا كل هذه الكراهية للالايئا . الأمر مختلف . قال فوشيا . هذه المرة ذهبت دون إذن مني، خلسة ويخبث .

- لا تحلم بذلك، يا معلم . قالت لالايئا . حتى لو صليت ويكيت . لكنها ترتديه والمروحة الخشبية التي تعمل باهتزاز الأرجوحة تصدر صوتاً

مقطعاً، نوعاً من التلعثم العصبي، تظل لالايئا، الملقعة بالدثار، بلا حراك . منخل النافذة المعدني مرصع بغمام خضراء، وخبازى صفراء، وفي البعيد

يبين البيت والغابة، شجيرات البن تلمح غضة، وبالتأكيد فواحة .

- تبدين مثل الدودة في شرنقتها . قال خوليو رثاتيغي . واحدة من فراشات النافذة . ماذا يكفك، يا لاليتا؟ لبي رغبتى، اخلعيه .
- عمل مجنون . قال أكيلينو . في البداية يطلب إليها أن تضعه، ثم أن تخلعه . يا للخواطر التي تخطر لهذا الغني الدميم!
- ألم تكن شهوانياً أبداً، يا أكيلينو؟ . قال فوشيا .
- سأعطيك ما تريدن . قال خوليو رثاتيغي . اطلبي، يا لاليتا، أي شيء، تعالي، اقتربي .
- الندار الآن على الأرض، زهرة فكتورنة دائرية عظيمة ينبثق منها جسد الفتاة الضامر، بثدييه المشرّبين وتويجاته البنية ويرعمية اللذين مثل سهمين، وكأنه سحلية نبتة مائية . يشف القميص عن بطن أملس وفخذين صليبين .
- دخلت متظاهراً أنني لا أرى . قال فوشيا . وضاحكاً كي لا يشعر الكلب بالخلج . فنهض واقفاً بقفزة واحدة من الأرجوحة ولاليتا وضعت الندار عليها .
- ألف سول مقابل فتاة ليس عمل مسيحين عقلاء . قال أكيلينو . إنه ثمن محرك، يا فوشيا .
- تساوي عشرة آلاف سول . قال فوشيا . لكنني في ضائقة وأنت تعرف جيداً لماذا، يا دون خوليو لا أستطيع أن أحمل معي نساء . أود لو أرحل هذا اليوم بالذات .
- لكن هذا وحده لم يكن كافياً كي ينتزع منه ألف سول، ألا يكفي أنه خبّاه، بالإضافة إلى أن فوشيا كان يرى أن تجارة المطاط في طريقها إلى الشيطان وأنه من المستحيل، بسبب الفيضانات، الحصول على الخشب، وفوشيا أنت تعرف يا دون خوليو هؤلاء اللوريتيات: براكين تلهب كل شيء . كان يحزنه تركها فهي لم تكن جميلة فحسب، بل كانت تطهو وتملك قلباً طيباً . هل عزمت، يا دون خوليو؟
- هل حقاً كان يحزنك بقاء لاليتا في أوتسامالا مع السيد رثاتيغي . قال أكيلينو . أم أنه مجرد كلام؟
- أنا أحزن لها . قال فوشيا . لم أحب تلك العاهرة قط .

- لا تخرجي من البحيرة . قال خوليو رثاتيغي . سأستحم معك . لن تكوني عارية تماماً، وماذا لو جاءت الكانبيروات⁷¹؟ ضعي عليك شيئاً، يا لاليتا، أو لا، انتظري، الآن لا.

لاليتا جالسة القرفصاء في الماء الراكد ويبدأ الماء بغمرها، تتبثق حولها أمواج دوائر متحدة المركز . مطر من النباتات المتمسقة التي تغطي وجه الماء . كان خوليو رثاتيغي يشعر بها، يا لاليتا، تغطي، كانت دقيقة جداً، لها أشواك، تدخل في الفجوات، يا صغيرة في الداخل تخدش، تعفن كل شيء وستضطرين لتناول نقيع البوريك وتحمل أسبوع من الإسهالات.

- ليست كانبيروات، يا معلم . قالت لاليتا . ألا ترى أنها أسماك صغيرة؟ النباتات التي في القاع هي التي تشعر بها . كم هي دافئة، ما الأذها، اليس صحيحاً؟
- يدخل الاثنان في الماء عاريين . قال أكيلينو . لم يخطر لي ذلك قط وأنا شاب، والآن يحزنني . لا بد أنه رائع، يا فوشيا .

- سأدخل إلى الأكوادور عبر نهر سانتياغو . قال فوشيا . إنها سفرة صعبة، يا دون خوليو، لن يرى واحدنا الآخر بعد الآن . هل فكرت بذلك؟ لأنني سأرحل هذه الليلة . عمرها خمسة عشر عاماً فقط وكنت أول من لمسها .
- أفكر أحياناً لماذا لم أتزوج . قال أكيلينو . لكن لم يكن في الحياة الني عشتها سبيل لذلك . كنت في سفر دائم ولم أعر في النهر على امرأة . أما أنت فلا تستطيع أن تشكو . لم ينقصك ذلك .

- متفقان . قال فوشيا . زورقك والمعلبات . إنها تجارة رابحة بالنسبة لكلينا، يا دون خوليو .
- إن نهر سانتياغو بعدد جداً ولن تصل أبداً دون أن يروك . قال خوليو رثاتيغي . إضافة إلى أنك ستذهب مبحراً، وفي هذا الموسم متأخر شهراً، ثم لماذا لا تذهب إلى البرازيل؟

⁷¹ الكانبيروات: اسم نوع من السمك يعيش في نهر الأمازون، لونه زهري ضارب إلى السواد ويصل طوله إلى عشرين سنتيمتراً . وهو خطير يتغذى على دم ولحم الحيوانات البرية ويهاجم الإنسان .

- هناك ينتظرونني . قال فوشيا . على هذا الجانب من الحدود وعلى ذلك، المسألة تتعلق بكامبو غرانده. لست غيباً إلى هذا الحد، يا دون خوليو.
- لن تصل إلى الأكوادور أبداً . قال خوليو رثاتيغي .
- وفعلاً لم تصل . قال أكيلينو . لم تخرج من البيرو .
- دائماً كان يحدث هكذا، يا أكيلينو . قال فوشيا . جميع مشاريعي سارت بالعكس .
- وإذا كانت هي لا تريد؟ . قال خوليو رثاتيغي . عليك أن تتفحصها بنفسك، قبل أن أعطيك الزورق .
- هي تعرف أن حياتي ستكون حياة ترحال من مكان إلى آخر . قال فوشيا . وأنه من الممكن أن تحدث لي آلاف الأشياء . ما من امرأة تحب أن تمضي خلف رجل متهتك . ستكون سعيدة لو بقيت با دون خوليو .
- ومع ذلك فما أنت ترى . قال أكيلينو . لحقت بك وساعدتك في كل شيء .
- عاشت عيشة بؤس، مثلك ودون أن تشكو . مهما يكن فإن لالينا كانت امرأة طيبة معك ، يا فوشيا .

هكذا ظهر البيت الأخضر . استغرق بناؤه أسابيع كثيرة، وكان لا بد أن تُجر الألواح الخشبية، والدعامات والأجر من الطرف الآخر للمدينة . وكانت البغال التي استأجرها دون أنسيلمو تنقل على الرمال بشكل محزن . كان العمل يبدأ في الصباح بعد توقف الأمطار الجافة وينتهي عند اشتداد الريح . في المساء كانت الصحراء تلتهم الإسمنت وتطمر الجدران، وكانت الأغوانات⁷² تقرض الأخشاب، والنسور الأميركية تبني أعشاشها في البناء الجديد . وفي كل صباح كان لا بد من إعادة بناء ما بُدئ به، وتصحيح المخططات وإصلاح المواد في معركة خرساء راحت تغري المدينة . «في أية لحظة سيستسلم الغريب للهزيمة»؟ هكذا كان

⁷² الإغوانات: نوع من العطاءات.

الجيران يسألون. لكن الأيام كانت تمرّ ودون أنسيلمو يتابع بذل جهوده المذهلة، دون أن يترك الوهن ينال منه أو أن يصاب بعدوى القنوط من معارفه وأصدقائه. كان يدير الأعمال شبه عار، وقد رطب العرق صدره. كان يوزع الكانيثو والتشيتشا على العمال، وينقل الطوب بنفسه ويثبت الدعامات. وكان يروح ويغدو إلى المدينة يسوق البغال. وذات يوم سلّم أهل بيورا بأن دون أنسيلمو قد ينتصر، وذلك حين لمحوا على الجانب الآخر من النهر، مقابل المدينة، هيكلاً خشبياً صلباً ومتماسكاً بدا كأنه رسول لها على عتبة الصحراء. ومذاك، سار العمل بسرعة. وصار أهالي كاستيليا وأكواخ «الكمال» يأتون كل صباح ليتفرجوا على العمل ويقدموا النصائح، وليساعدوا العمال أحياناً بشكل عفوي، ودون أنسيلمو يقدم المشروعات للجميع. كان يخيم حول المكان في الأيام الأخيرة جو مهرجان شعبي: بائعات تشيتشا، وفاكهة وجبن وحلوى ومرطبات، يتقدّم من العمال والفضوليين ويعرضن عليهم بضاعتها. وكان الملاك يتوقفون أثناء مرورهم هناك ويوجهون كلمات التشجيع لدون أنسيلمو. وذات يوم قدم دون تشابيرو سميناريو، المزارع القوي، ثوراً وديزينة من شراب التشيتشا. حضر العمال باتشاماكاً⁷³.

حين انتهى بناء البيت، أمر دون أنسيلمو بطلائه كاملاً بالأخضر. حتّى الأطفال كانوا يضحكون عندما كانوا يرون كيف كانت تلك الجدران تُغطى بجلد زمردى تتحطم عليه الشمس وترتد انعكاسات حرشفية. شيوخ وشبان، أغنياء وقراء، رجال ونساء، كانوا يتبادلون النكات بفرح حول مزاج أنسيلمو وطلاء بيته بتلك الطريقة المتفاهرة. وعلى الفور عمدوه باسم «البيت الأخضر». ولم يكن اللون هو الوحيد الذي كان يضحكهم وإنما أيضاً تفاصيل البيت الغريب. فقد كان مؤلفاً من طبقتين، الأولى منهما لا تكاد تستحق هذا الاسم: قاعة فسحة تقطعها أربع دعائم، هي بدورها خضراء وتحمل السقف، فناء مكشوف، مرصوف بحجارة صغيرة صقلها النهر، وجدار دائري بارتفاع رجل. أما الطبقة الثانية فقد كانت

⁷³ باتشاماكاً: طعام محلي يطبخ بحفر مُتحة في الأرض ويغطى بالحجارة الساخنة.

تحتوي على ست غرف صغيرة، في صف أمام ممر بدرابزين خشبي يطل على قاعة الطابق الأولى. وكان للبيت الأخضر، إضافة إلى المدخل الرئيسي، بابان خلفيان واصطبل وغرفة مؤونة كبيرة.

اشترى دون أنسيلمو من مخزن الإسباني أيومبيو روميرو، حصائر وقناديل زيت وستائر قاعة اللون وكراسي كثيرة. وذات صباح قال تاجران من لاغالييناثيرا: «إن دون أنسيلمو قد كلفنا بصنع مكتب وموسترادور مشابه لموسترادور بار لا استريليا دل نورته، ونصف دزينة من الأسرة». وعندئذ اعترف دون أيومبيو روميرو: وأنا كلفني بست مغاسل وست مرايا وست مياول. اكتسح الأحياء جميعها نوع من الغليان والفضول الهامس والمضطرب.

ظهرت الشكوك. والتقيّات رحن يتهايمن من بيت إلى بيت ومن صالون إلى آخر، وكانت السيدات ينظرن إلى أزواجهن بارتياب والجيران يتبادلون الابتسامات الخبيثة. وفي يوم من أيام الأحد أكد الأب غارثيا من على المنبر، في صلاة الساعة الثانية عشرة: «هناك عدوان ضد الأخلاق في هذه المدينة». كان أهل بيورا ينفضون على دون أنسيلمو في الشارع ويطالبونه بالإفصاح. لكن دون جدوى. فقد كان يقول لهم: «إنه سر»، ومبتهجاً مثل تلميذ مدرسة: «قليلاً من الصبر، وستعرفون». واستمر يتردد في الصباحات على «لا استريليا دل نورته» غير مبال بشائعات الأحياء، يشرب ويمزح ويوزع الأنخاب ويغازل النساء اللواتي كن يعبرن الساحة. وفي المساءات كان ينغلق على نفسه في البيت الأخضر، إلى أن انتقل بعد أن أهدى دون ميلنتشور اسبينوزا، صندوقاً من قناني البيسكو وسرجاً من الجلد المشغول.

وبعد زمن قصير رحل دون أنسيلمو. غادر المدينة على ظهر جواد اشتراه مجدداً، تماماً كما وصل، وذات صباح في الفجر، دون أن يراه أحد، قاصداً اتجاهاً مجهولاً. تحدث الناس في بيورا كثيراً عن البيت الأخضر البدائي، ذلك المسكن الأصلي الذي لم يجد أحد يعرف تماماً كيف كان فعلاً، ولا التفاصيل الصحيحة عن تاريخه. فالذين ما يزالون على قيد الحياة من تلك الحقبة، وهم قليلون جداً، اختلط عليهم الأمر وتناقضوا، صاروا يخلطون بين ما رأوه

وسمعه وبين تلقفاتهم ذاتها. والعارفون صاروا في أرذل العمر، وصمتهم فيه إصرار شديد يجعل من غير المجدي استنطاقهم. على أي حال لم يعد للبيت الأصلي وجود. حتى سنوات قليلة مضت كان يُعثر في الموضع الذي شُيّد فيه، وهو تلك المنطقة من الصحراء الممتدة من كاستيليا حتى كاتاكاوس، على قطع خشب، وأدوات منزلية متفحمة، لكن الصحراء والطريق التي شُقّت والمزارع التي ظهرت حولها، محتّ جميع تلك البقايا، لم يعد هناك بيوري واحد يستطيع أن يحدد بدقة في أي قطاع من الرملة الصفراء ارتفع بأنواره وموسيقاه وضحكاته وتألّق جدرانه النهاري ذاك، الذي كان يحوله من بعيد، وأثناء الليل، إلى حيوان زاحف وهاج. تقول القصص المانغاشية إنه كان على مقربة من الضفة الأخرى للبيخو بونته، وأنه كان كبيراً جداً، أكبر أبنية ذلك الوقت. وكانت فيه مصابيح كثيرة ملونة عُكّت إلى نوافذه وأن أنواره كانت تجرح البصر وتصبغ الرمل حوله بل وكانت تضيء الجسر أيضاً. لكن خاصته الرئيسية كانت الموسيقى، التي كانت تنتجر في موعدها في الداخل عند حلول المساء، وتستمر طول الليل، وتُسمع حتى في الكانترائية نفسها. ويقولون إن دون أنسلمو كان يجوب بلا كلل مشارب التشينثا في الأحياء بل وحتى في القرى المجاورة، بحثاً عن الفنانين، وكان يُحضر من كل مكان عازفي قيثارات وإيقاع، وضاربي نفوف، وعازفي ناي، ومعلمي البومبو والبوق. لكنه لم يحضر قط عازف قيثارة، ذلك لأنه كان يعزف على تلك الآلة. وكان قيثاره يتقدم موسيقى البيت الأخضر بلا منازع.

- كان كما لو أن الهواء قد تسمّم ، كان يقول شيوخ المالكون، فقد كانت الموسيقى تدخل من كل مكان، ورغم أننا كنا نغلق الأبواب والنوافذ، كنا نسمعها ونحن نأكل ونصلي وننام.

- لو كان المرء يرى وجوه الرجال وهم يسمعونها . كانت تقول التقيّات . ولو أن المرء يرى كيف كانت تقلمهم من بيوتهم وتخرجهم إلى الشارع وتنفعهم نحو البيخو بونته.

- ولم تقد الصلاة شيئاً . كانت تقول الأمهات، الزوجات والخطيبات .
وكذلك بكاونا وتوسلاتنا وغطات الآباء والصلوات التساعية ونشيد التلثيث .
- الجحيم على أبوابنا . كان يرتل الأب غارثيا . أي شخص كان يراه، لكنهم
عميان . بيورا هي سدوم وعمورة .

- ربما كان البيت الأخضر قد جاء بالشموم فعلاً . كان يقول الشيوخ بفخر .
لكن آه كيف كانوا يستمتعون في البيت الملعون !

بعد أسابيع قليلة من عودة دون أنسيلمو بقافلة القاطنات⁷⁴ إلى بيورا، كان البيت
الأخضر قد فرض هيمنته . كان زواره في البداية يخرجون من المدينة خلسة،
ينتظرون حلول الظلام ويعبرون البيخو بونته بحشمة ويغوصون في الرمال . ثم
ازدادت الغزوات، ولم يعد يهم الشباب، الذين كانوا في كل مرة أقل تعقلاً، أن تراهم
السيدات الرابضات خلف مشربيات المالكين . صار الناس في الأكواخ والصالونات
والمزارع لا يتحدثون عن شيء آخر . ضاعفت المناير من تحذيراتها وتحريضاتها .
ودحض الأب غارثيا الترخيص بآيات من الكتاب المقدس . شكّلت لجنة لأعمال البر
والأخلاق الحسنة . وزارت السيدات اللواتي شكّلت منهن هذه اللجنة المحافظ والعمدة .
وكانت السلطات توافهن برؤوس خفيضة . كنّ على حق فعلاً، فالبيت الأخضر كان
يشكل تحدياً لبيورا، لكن ما العمل؟ فالقوانين الصادرة في هذه العاصمة العفنة، ليماء،
كانت تحمي دون أنسيلمو، ووجود البيت الأخضر لم يكن يتعارض مع الدستور . كما
أن التشريع لا يُعاقب عليه . لم تعد السيدات يسلّمن على السلطات، وأغلقت في
وجوههم الصالونات . أثناء ذلك كان الشبان والرجال بل وحتى الشيوخ المصالمون
يتسربون جماعات إلى البناء الصاخب المتالكى .

سقط أكثر البيوريين أنفةً وعملاً واستقامة . وحلّت في المدينة التي كانت
هادئة في السابق، كوابيس الصخب والحركة الليلية . وفي الفجر، حين كانت

⁷⁴ القاطنات: هن بنات الهوى للمقيمات في البيت الأخضر وتطلق في الأصل على للراهبات

المقيمات في الأديرة .

القيثارات تسكت، كان يرتفع من المدينة إلى السماء إيقاع نشاز صاخب: فالنّين كانوا يعودون، فرلدى وجماعات، كانوا يطوفون في الشوارع مقهقهين مغنّين. وكان الأرق يظهر على وجه الرجال، التي أتلّفها لمع الرمال. في «لا استريليا دل نورته» كانوا يروون النكات الرنيّلة التي كانت تنتقل من فم إلى فم ويردها الصغار.

- ها أنتم ترون، ها أنتم ترون . كان الأب غارثيا يقول مرتجفاً. لم يعد ينقصنا إلا أن تمطر فوق بيورا ناراً، لأن شرور العالم كله تسقط فوقنا.

ترامن كل ذلك مع كوارث حقيقيّة: ففي العام الأول فاض نهر بيورا واستمر فيضانه، فحطمّ دفاعات المزارع وأتلف مزروعات الوادي، وتسبب بنفوق بعض الحيوانات غرقاً. تجمعت المياه في مساحات واسعة من صحراء سيّشوراك. وكان الرجال يجنّفون والأطفال بينون بالرمّل المويوء القلاع. في السنة التالية وكرد انتقامي على التجديفات التي أطلقها أصحاب المزارع المغمورة، جفّ النهر. غطت مجرى نهر بيورا الأعشاب والأشواك، لكنها ما لبثت أن ماتت بعد وقت قصير من ظهورها، ولم يتبق إلا شقّ طويل منقّح: مزارع القصب جفّت والقطن نبت قبل أوانه. في العام الثالث أهلكت الأريئة الموسم.

- إنها كوارث الخطايا . قال الأب غارثيا . ما زال أمامكم متسع من الوقت. اقتلوا العدو الذي في عروقكم بالصلوات.

ريش سحرة الأكوخ المزروعات بدم الجدايا الغضة، وتمزغوا في خطوط الحراثة مطلعين التعازيم لجذب الماء وإفزاز الحشرات.

- يا إلهي، يا إلهي . كان الأب غارثيا يتنمر. يوجد جوع وفاقّة ويدل أن يقرموا أنفسهم يرتكبون المعاصي تلو المعاصي.

غير أنه لا الفيضان، ولا القحط ولا الأريئة أوقفت مجد البيت الأخضر المتنامي. تغير مظهر المدينة. امتلأت تلك الشوارع الريفية بالغرباء، الذين كانوا يأتون في نهايات الأسابيع من سوليانا وبايتا وهوانكامابايا، وحتى من تومبس وتشيكلايو إلى بيورا، وقد أغرتهم أساطير البيت الأخضر التي انتشرت عبر الصحراء. كانوا يقضون فيه الليل، وحين كانوا يأتون إلى المدينة، يظهرون

بمظهر السفلة والأفراط يتزّهون سكارى في الشوارع كما لو أنهم في مأثرة. كان الجيران يكرهونهم. وكانت تحدث أحياناً مشاجرات، ليس في الليل وفي مسرح الأحداث، في السهل الموجود تحت الجسر فحسب، وإنما أيضاً في وضح النهار وفي لايلثا ده أرماس وشارع غراو وفي كل مكان، انفجرت مشاجرات جماعية. أضحت الشوارع خطيرة.

وعندما كانت تغامر إحدى القاطنات وتذهب إلى المدينة، رغم تحذيرات السلطات، كانت السيدات تجرّ بناتهن إلى داخل البيوت ويسلن الستائر، والأب غارثيا يخرج للقاء الدخيلة مما يضطر الجيران للتدخل كي يمنعوا الاعتداء.

في العام الأول آوى المحل أربع قاطنات فقط، لكن في العام التالي عندما رحلن، سافر دون أنسيلمو وعاد بثماني. ويقولون إن البيت الأخضر في أوجه ضم عشرين قاطنة. كن يصلن مباشرة إلى أبنية الضواحي. كانوا يشاهدونهم يصلن من البيخو بونتة، ويسمعون زعيقهن وتهتكهن. كانت ملابسهن ومناديلهن الملونة وزيناتهن تبرق مثل الحيوانات القشرية في الطبيعة القاحلة. بالمقابل كان دون أنسيلمو يتردد على المدينة. يجوب الشوارع على جواد أسود، درّبه على حركات الدلال: بهزّ نيله فرحاً حين تمر امرأة، يحيى ساقه للتحية. يقوم بخطوات راقصة عندما يسمع موسيقا. كان دون أنسيلمو قد سمن وصار يرتدي ثياباً فاقعة اللون أكثر من اللازم، قبة قش طرية، لفاعاً حريراً، قمصان تيل، زناراً مرصعاً، بنطلوناً ضيقاً، جزمة عالية الكعيبين بمهمازين. وكانت يدها تعجان بالخواتم. يتوقّف أحياناً في «لا استريليا دل نورته» لتناول بعض الجرعات، حيث أن كثيرين من الوجهاء لم يترددوا في الجلوس إلى طاولته والتحدث إليه ومراقبته بعد ذلك حتّى الضاحية.

وقد تقنن دون أنسيلمو في التوسعات الجانبية والشاقولية للبيت الأخضر، وككائن حي راح هذا ينمو وينضج. كان التجديد الأول سوراً حجرياً، مكللاً بالحراشف والأفقاظ والمسامير والأشواك ليثبط من عزيمة اللصوص، يحيط بالطبقة الأولى ويحجبها. كان الفناء المحصور بين السور والبيت في البداية

وعراً، ثم أصبح رواقاً مستويّاً فيه أصص من الصباريات، وبعدها صالة دائرية بأرضٍ وسطح من الحصر، وأخيراً حلّ الخشب محلّ القش، يُلطّ الصالون وغُطّي السقف بالقرميد، وفوق الطبقة الثانية ارتفعت طبقة أخرى، صغيرة وأسطوانية مثل برج مراقبة. كل حجر أضيف وكل قرميدة أو خشبة كانت تُطلّى بشكل آلي بالأخضر. وأضفى اللون الذي اختاره دون أنسيلمو على المنظر طابعاً منعشاً، نباتياً، يكاد يكون سائلاً من بعيد. كان المسافرون يلمحون البناء، الجدران الخضراء، نصف المشعشعة في نور الرمل الأصفر الحيّ، فيتوآد لديهم إحساس بأنهم يقتربون من واحة نخيل وجوز هند مضيافة ومياه بلورية، وكان ذلك الحضور البعيد كان يعد بكل أنواع التعويض للجسد المنهك والإغراءات التي لا نهاية لها للنفس التي أغمّها قيظ الصحراء.

يقولون إن دون أنسيلمو كان يقطن الطبقة الأخيرة. تلك العلية الضيقة، التي لم يكن مسموحاً ولا حتى لأفضل زبائنه، وبينهم تشابيرو سميناريو، الحاكم، ودون ايوستينو روميرو، والدكتور بيدرو ثيباليو، الدخول إليها. لا شك أن دون أنسيلمو كان يراقب من هناك قدوم الزوار عبر الرمال ويرى أطيافهم وقد محتها زوابع الرمال، تلك البهائم الجائعة التي تحوم حول المدينة منذ مغيب الشمس.

بالإضافة إلى القاطنات، استضاف البيت الأخضر في أيام ازدهاره أنخليكا مرثيس، الشابة أمانغاشية التي ورثت عن أمها المعرفة وفن المأكولات الحارة. كان دون أنسيلمو يذهب معها إلى السوق وإلى المخازن لشراء المؤونة والمشروبات. وكان للتجار والبائعات الجوالات ينحنون لها عند مرورها كما القصب للريح. وقد أصبحت الجدايا والأرانب الأميركية والخنازير والخرفان التي كانت تطهوها أنخليكا مرثيس من مغريات البيت الأخضر، حتى أنه وُجد شيوخ كانوا يقسمون: «نحن لا نذهب إلى هناك إلا من أجل أن نتنوّق تلك المأكولات اللذيذة».

كان محيط البيت الأخضر عامراً بحشود الصعاليك والمتسولين ويائعي التزهات والقواكه الذين كانوا يضيّقون الخناق على الزبائن الذين يدخلون ويخرجون. كان أطفال المدينة يهربون من بيوتهم في الليل ويتجسسون،

متخفين بين الأجمات، على الزوار، يستمعون إلى الموسيقى والقهقهات. بعضهم كان يتسلق الجدار خائشاً يديه وساقيه، ويلقي على الداخل نظرات نهماة. وذات يوم، وكان عيد الواجب، ظهر الأب غارثيا في الرملة على بعد أمتار من البيت الأخضر، وواجه الزوار وحثهم على العودة إلى المدينة والتوبة واحداً واحداً. لكنهم كانوا يبتعدون الحجج: موعد أعمال تجارية، حاجة يجب إطفائها وإلا فإنها تسمم الروح، رهان يطعن بالشرف. بعضهم كان يسخر ويدعو الأب غارثيا لمرافقته وآخر يشعر بالإهانة ويشهر معنمه.

ظهرت أساطير جديدة حول دون أنسيلمو. فهو بالنسبة لبعضهم كان يقوم بأسفار سرية إلى ليما، حيث كان يحفظ أمواله المتراكمة ويشترى العقارات. وكان بالنسبة لآخرين ليس أكثر من واجهة عرض لشركة، كان من بين أعضائها، الحاكم والعمدة والأثرياء. وكان ماضي دون أنسيلمو يصبح في الخيال الشعبي لكثير غني، ففي كل يوم كانت تُضاف إلى حياته أعمال سامية أو دامية. كان عجايز مانغاتشيون يؤكدون أنهم تبنوا فيه مراهقاً اقترب منذ سنين خلت جرائم سطو في الحي. وكان آخرون يؤكدون أنه سجين فار من رجال العصابات القنماء، سياسي منكوب. وحده الأب غارثيا كان يجرو على القول: لجسده رائحة الكبريت.

ينهضون في الفجر كي يتابعوا سفرهم، يهبطون الوهدة فلا يجدون الزورق. يبدؤون البحث عنه، أدريان نيبس، والعريف روبيرتو ديلغادو والخادم، كل من جهة، وفجأة: صيحات، حجارة، وعراة. وها هو العريف، يحيط به الأغوارونيون، يأخذونه تحت ضرب العصي وكذلك الخادم. والآن رأوه، ويجري الأطفال نحوه، يا للهول! يا أدريان نيبس، لقد جاء دورك، ويلقي بنفسه إلى الماء: بارد، سريع، داكن، لا تخرج رأسك، اهبط إلى الداخل أكثر، لياخذك التيار، سهم أصابك؟

لينتزعه في أسفل النهر، رصاص؟ حجارة؟ باللهول! فالرئتان تتردان هواً، رأسه مصاب بالدوار مثل خذروف، حذار من التشنج. يخرج وما تزال أوراكوسا ولباس العريف الأخضر الموحد مرتباً، الأطفال والتشيتشويون ينهالون عليه ضرباً، تلك خطيئته، فلقد حذره هو والخادم. هل يهرب؟ هل يقتلونه؟ يترك نفسه طافياً على الماء المنحدر متعلقاً إلى جذع، وعندما يزحف إلى الضفة اليمنى من النهر يكون موجوعاً. ينام هناك على الشاطئ، يستيقظ ولما يستعد قواه بعد، وعقرب يلدغه على هواه. عليه أن يشعل ناراً ويضع يده فوقها، وهكذا يتعرق قليلاً حتى لو التهب كثيراً. امتصّ الجرح، ابصق، تمضمض، لا أحد يعرف أبداً ما ينتج عن اللدغ، اللعنة على فرج أمك، أيها العقرب. يتابع فيما بعد في الجبل: ليس هناك تشيتشويون أبداً، لكن من الأفضل الخروج باتجاه نهر سانتياغو. وماذا لو ألفت دورية القبض عليه وعادت به إلى تكنة بورخا؟ أيضاً لا يستطيع العودة إلى البلدة، فقد يكتشفه الجنود غداً أو بعد غد، وفي الحال عليه أن يصنع معبراً. يحتاج إلى وقت طويل، أه لو كنت تحمل مدينة، فيداك متعبتان ولا تقويان على الإطاحة بالجنوع. يختار ثلاث أشجار مينة، بيضاء، نخرها الدود، تنهار من أول دفعة، يسندها بخيزران، يصنع مرتبين، أحدهما احتياطي يحمله معه. والآن لن يخرج إلى النهر الكبير، إنه يبحث عن مجار وبحيرات، يسلكها. وهذا ليس صعباً، المنطقة كلها مستنقعات. المسألة هي فقط في كيف سيحدد الاتجاه، فهذه الأراضي المرتفعة ليست أرضه، والمياه ارتفعت كثيراً، هل سيصل بهذا الشكل إلى نهر سانتياغو؟ أسبوع آخر، يا أدريان نيبس، فقد كنت دليلاً جيداً، افتح خياشيمك كثيراً، جيداً، فالرائحة لا تخدع، ذلك هو الاتجاه الصحيح، والعزيمة، يا رجل، العزيمة الشديدة. لكن أين هو الآن؟ فالرافد يبدو بشكل دائري، يبحر فيما يشبه الظلام. الغابة كثيفة والشمس والهواء لا يكادان ينفذان، تقوح رائحة خشب متعفن ووحل. ويوجد خفافيش كثيرة أيضاً، ألمته يدها ويحث حنجرته من إفزاعها، ثم أسبوع آخر. لا يتقدم ولا يتراجع. لا يعرف كيف يعود إلى المارانبيون ولا كيف يصل إلى نهر سانتياغو، فالتيار يجرفه على هواه، وجسده لا يستسلم للتعب.

والأنكى من ذلك أنها بدأت تمطر، ليلاً ونهاراً تمطر. لكن الرافد ينتهي أخيراً وتظهر بحيرة، تشامبيرا صغيرة، وليس هناك غير الشوك على الضفاف، السماء تتجهم. ينام في جزيرة، وحين يستيقظ يمصغ بعض الأعشاب المرّة، يتابع سفره وبعد يومين يقتل سانتشاباكا⁷⁵ ضامرة، يأكل لحمأ نصف نيئ، وعضلاته لم تعد تستطيع ولا حتى تحريك المردي، لدغه البعوض بحرية كبيرة، احترق جلده وساقاه صارتا مثل ساقى النقيب كيروغا، الذي كان يحكي عنه العريف، تُرى ماذا حلّ به؟ هل سيطلق الأوراكوسيون سراحه؟ فقد كانوا مهتاجين، هل سيقتلونه فجأة؟ ربما كان من الأفضل له لو عاد إلى تكنة بورخا. خير له أن يكون جندياً من أن يصبح جثة. من المحزن، يا أدريان نيببسن أن يموت الإنسان في الجبل جوعاً أو بالحمى. يبقى على بطنه في المعبر، لعدة أيام. وعندما ينتهي الرافد ويصل إلى بحيرة ضخمة، يا للهول، كم تبدو البحيرة كبيرة! أتراها بحيرة ريماتشه؟ مستحيل أن يكون قد استطاع أن يصعد كل هذا. وفي الوسط تقع الجزيرة. وفي أعلى الوهدة جدار من أشجار اللويونا. يدفع المجذاف الطويل دون أن ينهض. ثم وأخيراً بين الأشجار المليئة بالأطياف العارية، يا للهول، أتراهم أغارونيون؟ ساعدوني، أتراهم يعاشرون؟ يحييم بكلتا يديه، وهم يهتاجون، يزعمون، ساعدوني، يقفزون، ويشيرون إليه، وحين يرسو يرى المسيحي، المسيحية، كانا ينتظرانه، فيدوخ، يا معلم، أنت لا تعرف سعادة أن يرى الإنسان مسيحياً، لقد أنقذ حياته، يا معلم، وكان يعتقد أن كل شيء قد انتهى وهو يضحك، ويقدمان له جرعة أخرى، طعم الأنيسادو الحلو والحريف، وخلف المعلم فتاة مسيحية، جميلٌ وجهها، جميلٌ شعرها الطويل، بدا كأنه في حلم، يا معلم، أنت أيضاً أنقذتني: كان يشكره باسم السماء. وحين يستيقظ يرى أنهما ما يزالان إلى جانبه، والمعلم، هيا حان الوقت، يا رجل، لقد نمت يوماً بكامله. يفتح أخيراً عينيه، أتراه كان يشعر بنفسه مرتاحاً؟ وأدريان

⁷⁵ سانتشاباكا: تدعى أيضاً بقرة الجبل وتابير، وهو الحيوان الغابي الثديي الذي يعتبر من أضخم

الثدييات، يشبه خنزير الجبل البري.

نبيس، طبعاً، مرتاح تماماً، يا معلم، لكن ألا يوجد جنود هنا؟ لا، لا يوجد، لماذا كان يريد أن يعرف؟ ماذا كان قد فعل؟ وأدريان نبيس، لا شيء سيء، يا معلم. لم أقتل أحداً، لا شيء سوى أنه قر من الجندية، لم يكن يستطيع أن يعيش حببياً في تكتة، فبالنسبة له لم يكن يوجد مثل الهواء الطلق. كان يُدعى نبيس وقبل أن يربطه الجنود كان دليلاً. دليل؟ إذا فهو يعرف الجبل جيداً، ويعرف كيف يقود زورقاً إلى أي مكان وفي أي وقت، وهو طبعاً كان يستطيع، يا معلم، فقد عمل دليلاً منذ ولادته. وقد تاه الآن، لأنه دخل في المستنقعات وقت الفيضانات، لم يكن يريد أن يراه الجنود. ألا يستطيع، أيها المعلم؟ والمعلم، طبعاً يستطيع أن يبقى في الجزيرة، وسيؤمن له عملاً. فهو هنا سيكون في أمان، إذ لا جنود ولا حراس يأتون أبداً: هذه كانت زوجته، لاليتا، وهو فوشياً.

- ماذا حدث، أيها الزميل؟ قال خوسيفينو. لا تكن ملحاحاً.
- أنا ذاهب إلى حيث لاتشونغا. زمجر ليتوما. هل تأتون معي؟ لا؟ أنا أيضاً لست بحاجة إليكم، سأذهب وحدي.
- لكن ابنتي آل ليون أمسكاه من ذراعيه وبقي ليتوما في مكانه، محتقناً، يتصبب عرقاً، يدور عينيه الصغيرتين في الحجرة بضيق.
- لماذا، يا أخي. قال خوسيفينو. طالما أننا مرتاحون هنا، اهدأ.
- فقط لأسمع عازف القيثارة، صاحب الأصابع الفضية. أن ليتوما. فقط من أجل هذا، أيها المنيعون. أقسم لكم، نتناول جرعة ونعود.
- كنت دائماً رجلاً، أيها الزميل. لا تضعف الآن.
- أنا أكثر رجولة من أي كان. تتمم ليتوما. لكن لي قلباً كبيراً.
- حاول أن تبكي. قال المونو برقة. فهذا يخفف عنك، يا ابن العم، لا تخجل.

راح ليتوما ينظر إلى الفراغ. وكانت ثيابه قد امتلأت ببقع التراب واللعاب. بقوا صامتين برهة طويلة، يشرب كل واحد منفرداً، دون أنخاب، وكانت تصلهم أصداة التونديرو والغالس والجو قد عبق برائحة التشيششا والقلي. وكان اهتزاز المصباح يُضخّم ويصغّر، بإيقاع دقيق، الأطياف الأربعة الواقعة على الحصر. وكانت شعة المحراب التي اضمحلت وبدأت تصدر دخاناً لوليبيا أسود يلتف حول العنقاء الجصية مثل شعر طويل. نهض ليتوما على قدميه بجهد كبير، نفخ ثيابه، نظر بعينيه الشاربتين على ما حوله، ودون توقّع رفع إصبعاً إلى فمه، بقي يعالج حنجرته على مرأى من الآخرين المشدودين، الذين رأوه يشحب، وأخيراً تقياً، محدثاً ضجة، بانحناءات كانت تهزّ جسده. ثم عاد وجلس. نظف وجهه بالمنديل، وأشعل سيجارة بيدين مرتجتين وهو منهك وقد ازرق ما حول عينيه.

- أنا الآن أفضل، أيها الزميل، تابع روايتك.

- ما نعرفه قليل، يا ليتوما. بمعنى كيف حدث الأمر. عندما سجنوك قررنا أن نبذل أماكن إقامتنا، فقد كنّا شهوداً وكان باستطاعتهم توريطنا. أنت تعرف أن آل سميناريو أغنياء وأصحاب نفوذ كبير. أنا ذهبتُ إلى سوليانا وأبناء عمك إلى تشولوكاناس. عندما عدنا، كانت هي قد تركت البيت في كاستيليا وما عاد أحد يعرف أين مكانها.

- وهكذا بقيت المسكينة وحيدة. تمتم ليتوما. وليس معها سنتيم واحد وهي ما تزال حليى.

- لا تهتم لهذا، يا أخي. قال خوسيفينو. فهي لم تلد بعد وقت قصير. عرفنا أنها تتردد على مشارب التشيششا، وذات ليلة وجدناها في «ريو بار» مع شخص ولم تكن حليى.

- وماذا فعلت عندما رأيتكم؟

- لا شيء، سلمت علينا بوقاحة عجيبة. ثم صادفناها هنا وهناك وبرفتها دائماً شخص ما. حتى أننا رأيناها ذات يوم في البيت الأخضر.

مرّر ليتوما المنديل على وجهه، مَحّ السيجارة بقوة ونفث من فمه كمية كبيرة من الدخان الكثيف.

- ولماذا لم تكتبوا لي؟ . كان صوتته في كل مرة أكثر بحة.
- كان يكتبك سجنك بعيداً عن أرضك. لماذا تنتقص عليك حياتك أكثر،
أيها الزميل؟ إن الأخبار لا تثقل لمن هو في وضع صعب.
- كفى، يا ابن العم، يبدو كأنك تحب أن تعاني. قال خوسيه: غيروا الموضوع.
كان خيط من اللعاب اللامع يجزي من شفتي ليتوما حتى رقبته. كان رأسه
يتحرك، بطيئاً، ثقيلأً، آلياً، يتبع اهتزاز الظلال على الحصر تماماً. ملأ
خوسيفينو الكؤوس. تابعوا الشرب، دون كلام، إلى أن انطفأت شمعة المحراب.
- لقد مضى علينا ساعتان هنا. قال خوسيه، مشيراً إلى القنديل. وهو
الوقت الذي يدومه الفتيل.

- أنا سعيد لأتلك عدت، يا ابن العم. قال ألمونو. انزع عنك هذا الوجه.
اضحك، كل المانغاشيين سيفرحون لرؤيتك. اضحك، يا ابن العم.
ترك نفسه يقع على ليتوما، ضمّه وراح ينظر إليه بعينيه الكبيرتين المغممتين
بالحياة والمشتعلتين، إلى أن ربت ليتوما على رأسه ربتة خفيفة وابتسم.
- هكذا أحب أن تكون، يا ابن العم. قال خوسيه. عاشت لا مانغاشيريا،
لنشيد النشيد.

ورفأة بدأ الثلاثة يتكلمون، كانوا ثلاثة صغار ويقفزون من فوق جدران
المدرسة الدينية، ليستحموا في النهر أو يركبوا حماراً غريباً ويجوبوا دروباً
رملية، بين المزارع وحقول القطن باتجاه قبور ناريهوالا. وهناك كانت
الكرنفالات وقذائف البيض والبالونات تنهال فوق المازة المغتاظين. وكان هؤلاء
بدورهم يتكلمون برجال الشرطة الذين لم يتجرأوا على الذهاب لإخراجهم من
مخابئهم على الأسطحة والأشجار. والآن وفي الصباحات الحارة يتبارون
بحماس بكرة قدم من الخرق في ميدان الصحراء الفسيح. كان خوسيفينو
يصغي إليهم بصمت وعينه مليئتان بالحسد والمانغاشيون يعاتبون ليتوما، هل
حقاً أنك دخلت سلك الحرس المنني؟ يا لك من ناكر للجميل، يا لك من
أصفر، وابنا ليون يضحكان. فتحوا قنينة أخرى. كان خوسيفينو الصامت دائماً

يشكل حلقات بالدخان، وخوسيه يصفر وألمونو يوقف البيسكو في فمه ويتظاهر بأنه يمضغه، يغرغر به ويتحايل، لا يشعر بغثيان ولا بنار، وإنما فقط بحرارة، لا تختلط على أحد.

- على رسلك، أيها المنيع . قال خوسيفينو. أين أنت ذاهب؟ أمسكوه.

أدركه ابنا آل ليون على العتبة، كان خوسيه يمسكه من كتفيه وألمونو يحتضنه من خصره ويهزه بحنق، لكن صوته كان مشوشاً ومنتهباً.

- لماذا يا ابن العم؟ لا تذهب، فيدعى قلبك. اسمع مني، يا ليتوما، يا ابن العم.

دغدغ ليتوما وجه ألمونو بارتباك، خرب له شعره الكث، أبعدته دون فظاظة وخرج مترجأً. هناك، في الخارج وعند حواف بيوتهم المصنوعة من القصب كان المانغاتشيون ينامون تحت النجوم، يشكلون عناقيد بشرية على الرمل. كانت ضوضاء مشارب التمشيشا قد ازدادت وألمونو يردد بين أسنانه الألكان. وحين كان يسمع قيثاراً، يفتح نراعيه: لا يوجد مثيل لدون أنسيلمو! كان يسير هو وليتوما في المقدمة. يأخذ الواحد منهما بذراع الآخر، متلويين. وكان يرتفع في الظلمة أحياناً احتجاجاً: «انتبها، لا تكوسا علي» وهما معاً: «عفواً، يا دون»، «ألف عفو، يا دوني».

- إن القصة التي رويتها له، تبدو فيلماً . قال خوسيه.

- لكنه صتقها . قال خوسيفينو. لم يخطر لي أخرى. أنتما لم تساعداني،

ولم تنبسا بكلمة.

- من المؤسف ألا نكون في بايتا، يا ابن العم . قال ألمونو. إذن لكنت

نزلت إلى الماء بشبابي وبكل شيء. لا بد أنه رائع.

- في ياثيلا يوجد موج، ذاك بحر فعلاً . قال ليتوما. أما في بايتا فليس

أكثر من بحيرة صغيرة، إن نهر المارانبيون أكثر هديراً من هذا البحر، سنذهب يوم الأحد إلى ياثيلا، يا ابن العم.

- لندخله إلى حيث فيلييه . قال خوسيفينو. معي نقود. لا نستطيع أن نتركه

يذهب، يا خوسيه.

كانت جادة سانتشث ثيرو مقفرة، وفي ظلّة الضوء الزيتي اللون لكل مصباح كانت الحشرات تتزّز. كان المونو قد جلس على الأرض ليربط حذاءه. اقترب خوسيفينو من ليتوما:

- انظر، يا زميل، فمحل فيلييه مفتوح. لنا الكثير من ذكريات في هذا المشرب. تعال، سأدعوك لتناول جرعة.

أقلت ليتوما من نراعي خوسيفينو. تكلم دون أن ينظر إليه.
- فيما بعد، يا أخي، عند العودة. والآن إلى البيت الأخضر. كم من الذكريات لنا هناك أيضاً. أكثر من أي مكان آخر. أليس كذلك، أيها المنيعون؟

بعد ذلك وعندما مزوا أمام «تريس استيلياس»، قام خوسيفينو بمحاولة أخرى. أسرع إلى باب البار المضاء، صارخاً:

- وأخيراً وقعنا على مكان نطفئ فيه ظمأنا، هيا، أيها الزملاء، أنا أدفع. لكن ليتوما تابع سيره بلا تأثر.

- ماذا نفعل، يا خوسيه؟

- وماذا سنفعل يا أخي سوى أن نذهب إلى حيث لاشونغا تشونغيتا؟

الجزء الثاني

-II-

يتوقف زورق، شاخراً، بملاصقة الرصيف ويقفز خوليو رثائغي إلى البر. يصعد حتى ساحة سانتا مازيا ده نيبيا. رجل من الحرس مدني يرمي بخشبة في الهواء فيلتقطها كلب وهي في الجرو ويأتيه بها. وحين يصل إلى مستوى جنوع الكابيرونا تخرج مجموعة من الأشخاص من كوخ الحكومة. يرفع يده ويسلم: يراقبونه، يتشجعون ويهرعون لملاقاته، يا للسعادة، إنها مفاجأة، يشدّ خوليو رثائغي على يدي فابيو كويستا، لماذا لم يخبر بأنه قائم؟ وعلى يدي مانويل أغيلا، لم يغفروا له ذلك، وعلى يدي بيدرو اسكابينو، لكنوا استعدوا للقائه، وعلى يدي أريبالو بينثاس، كم يوماً سيبقى، هذه المرة، دون خوليو. ولا لحظة. كانت زيارة خاطفة وسيتابع سفره في هذه اللحظة، فهم يعرفون الحياة التي يحياها. يدخلون إلى كوخ الحكومة، يفتح دون فابيو بعض قناني البيرة، يشربون النخب. هل كانت الأمور تسيير بشكل جيد في نيبيا؟ في إيكيتوس؟ مشاكل مع الوثيين؟ على أبواب ونوافذ الكوخ يوجد أغوارونيون أفواههم عريضة وعيونهم باردة وخنودهم بارزة. بعد ذلك يخرج خوليو رثائغي وفابيو كويستا، في الساحة ما يزال الحارس يلعب مع الكلب، يصعدان باتجاه البعثة، مراقبين من كل المساكن، آه يا دون فابيو، يا للنساء! يضع المرء يوماً من أجل هذه المسألة. يصل إلى المعسكر ليلاً ودون فابيو، ولماذا وُجد الأصدقاء، يا دون خوليو؟ كان باستطاعتك أن تكتب له رسالة فيأخذ على عاتقه كل شيء، لكن، طبعاً، يا دون فابيو، الرسالة تستغرق شهراً ومن يتحمل السيدة رثائغي خلال ذلك. ما أن يطرقا باب الإقامة حتى يفتح، كيف حالك؟ وزرة ملطخة بالدهن، الأم غريسيلدا، انظري من جاء، وجه متورد، ألم تعرفيه؟ إنه السيد رثائغي، صيحة خافتة، ادخل، يد ناعمة، ادخل، يا دون خوليو، يا للسعادة، وهو لم يكن يستغرب ألا يعرفه بالهيئة التي جاء بها، أيتها الأم غريسيلدا وهي تعرج وتتكلم دون انقطاع، عبر ممر مظلل، تفتح لهما باباً وتشير إلى بعض كراسي الخيش. يا للفرحة بالنسبة للأم رئيسة الدير، ورغم أنه مستعجل، يا دون خوليو، فعليه أن يزور المصلى. سيرى كم من التغييرات أدخل، ستعود في

الحال. في المكتب صليب وسراج وحقيبة من ألياف التشامبيرا. وعلى الجدار صورة للعنقاء. ومن النوافذ تدخل السنة شمس جليظة جذابة تعلق دعامات السقف. كان خوليو رثائغي حين يجد نفسه في كنيسة أو دير تتناهب مشاعر غريبة، يا دون فابيو، الروح، الموت، تلك الأفكار التي تقصّ مضجع الإنسان في الصبا، الشيء نفسه كان يحدث للحاكم، يا دون خوليو، فقد كان يزور الأمهات ويخرج ورأسه مليئاً بالأفكار العميقة: وماذا لو كان كلاهما متديناً في أعماقه بعض الشيء؟ لقد فكّر هو بالشيء نفسه، يداعب دون فابيو صلغته، يا للطرافة، متدين قليلاً، لو سمعتهُم السيدة رثائغي لضحكت، هي التي كانت تقول دائماً: ستذهب إلى الجحيم، يا خوليو، بسبب إحدائك، بالمناسبة فقد أرضاها أخيراً في العام الماضي، ذهبا إلى ليما في تشرين الأول، إلى الموكب الديني؟ بلي، إلى موكب سيد المعجزات. كان دون فابيو قد شاهد صوراً، لكن وجود المرء هناك أفضل بكثير. أليس صحيحاً أن جميع الزوج كانوا يرتدون اللون البنفسجي؟ وكذلك الخلاسيون والهنود المتحضرون والبيض؟ نصف ليما باللون البنفسجي، شيء مرعب، يا دون فابيو، ثلاثة أيام في ذلك الزحام، يا للإزعاج، يا للروائح، السيدة رثائغي أرادت أن يرتدي هو أيضاً الإسكيم، لكن حبه لم يصل إلى ذلك الحد. تغزو الغرفة أصوات، ضحكات، سباقات وهما ينظران باتجاه النوافذ: أصوات، ضحكات، سباقات. أكيد أنهم الآن في استراحة، هل هنّ كثيرات الآن؟ الضجة توحى بأنهن مئة ودون فابيو، عشرون تقريباً. يوم الأحد كان هناك عرض فأنشد النشيد الوطني. متحمسات تماماً، يا دون خوليو، وباللغة الإسبانية المطلوبة. ما من شك أن دون فابيو كان سعيداً في سانتا مازيا ده نيبيا، يا للفخر الذي كان يروي به أحداث المنطقة. هل كان هذا أفضل من إدارة الفندق؟ لو أنه استمرّ هناك، في إيكيتوس، لكان وضعه الآن جيداً، يا دون فابيو، بالمعنى الاقتصادي طبعاً. لكن الحاكم كان قد أصبح عجوزاً، وحتى لو بدا ذلك للسيد رثائغي كنبأ، فإنه لم يكن رجلاً طموحاً. إذن لن يستطيع أن يتحمّل شهراً واحداً في سانتا مازيا ده نيبيا؟ يا

دون خوليو، ها قد رأيت أنه يتحمل، وإذا سمح الله فإنه لن يخرج بعد الآن من هنا أبداً، لماذا كل تلك التصميم على هذا المنصب؟ لم يفهم خوليو رثائغي الحالة، لماذا أراد أن يحل محله، يا دون فابيو؟ عمّ كان يبحث؟ ودون فابيو عن أن يكون محترماً، لا تضحك، فسنواته الأنيمة في إيكيتوس كانت تعيسة جداً، يا دون خوليو، لا أحد يستطيع أن يعرف مدى العار والذل اللذين حلّا به، إذ عندما حمله إلى الفندق كان يعيش على الإحسان. لكن لا تحزن، فالجميع هنا في نيبيا كانوا يحبونه كثيراً، يا دون فابيو، ألم يحصل على ما كان يبحث عنه؟ بلى، كانوا يحترمونه، الراتب قد لا يكون شيئاً مهماً، لكن مع ما كان يمنحه له السيد رثائغي من مساعدة كان يكفيهِ ليعيش بهدوء، بهذا أيضاً كان مديناً لك، يا دون خوليو، هه، لم تكن تسعفه الكلمات. وبين الضحكات والأصوات والسباقات في البستان كانت تنزلق نباحات وثرثرات ببغاوات. يغمض خوليو رثائغي عينيه، يغرق جون فابيو في التفكير ويمرر يده البطيئة على صلته بودّ: هل عرف دون خوليو بموت الأم أسونثيون؟ هل تلقى رسالتها؟ لقد استلمها وقد كتبت السيدة رثائغي إلى الأمهات تعزيهن. أضاف هو بعض الأسطر، طيبة كانت الراهبة ودون فابيو كان قد قام بعمل غير شرعي، نكس العلم فوق دار الحكومة، يا دون خوليو، كي يشارك في الحداد بطريقة ماء، هل كانت الأم أنخليكا بخير؟ وهل هي دائماً قوية كصخرة، تلك العجوز؟ تُسمع خطوات فينهضان على أقدامهما، يمضيان للقاء رئيسة الدير، دون خوليو، أيتها الأم، يد بيضاء، شرف لهذا البيت أن يضمّ من جديد السيد رثائغي، كم كانت سعيدة برؤيته، رجاء، ليجلسا، وهما كانا في تلك اللحظة تماماً يتكلمان ويتذكران الأم المسكينة أسونثيون. مسكينة؟ لم تكن مسكينة أبداً فهي في السماء، والسيدة رثائغي؟ متى سيرين من جديد عزابة المصلّى؟ السيدة رثائغي كانت تحلم بالمجيء، لكن الوصول إلى هنا من إيكيتوس كان شديد التعقيد، فسانتا ماريّا ده نيبيا كانت خارج العالم، ثم ألم يكن السفر عبر الغابات مرعباً؟ لكن ليس بالنسبة لدون خوليو رثائغي، تبتسم

رئيسة الدير، والذي كان يروح ويجيء في منطقة الأمازون كما لو كان في بيته، لكن خوليو رناتيغي لم يكن يفعل ذلك من أجل المتعة، ذلك أنه إذا لم يشرف المرء على أعماله بنفسه فإن الشيطان يضيعها، ولتحذره الأم على هذا التعبير. لم تقل شيئاً ينم عن قلة أدب، يا دون خوليو، فهنا أيضاً إذا غفلت الواحدة جعلها الشيطان من أتباعه، والآن الربيبات يتشدن في جوقة. يوجد من يقودهن، وأثناء كل صمت يصفق دون فاييو برؤوس أصابعه، يبتسم ويوافق: هل استلمت الأم رسالة السيدة رناتيغي؟ بلى الشهر الماضي، لكنها لم تكن تعتقد أن دون خوليو سينقلها بهذه السرعة. كانت تفضل، بشكل عام، أن يخرجوا من البعثة في نهاية العام وليس في منتصف الفصل، لكن ربما أنه أتعب نفسه وجاء شخصياً فسيمنحه استثناء، طبعاً لأن الأمر يخصه هو. والحقيقة أنه كان يصيب عصفورين بحجر واحد، أيتها الأم، عليه أن يلقي نظرة على معسكر نيبيا، كان رجال المته قد عثروا على بالو ده روسا⁷⁶، وبدا كأنه استفاد بهذا الشكل ليقفز قفزة إلى الأمام، ورئيسة الدير توافق: هل كانا سيوكلان إليها أمر الصغيرتين، قالت السيدة رناتيغي شيئاً من هذا القبيل. آه، يا للصغيرتين، لو رأيتهما، أيتها الأم، كانتا رائعتين. كان دون فاييو يتصور ذلك والأم كانت تعرفهما، فقد أرسلت لها السيدة رناتيغي صورتها، كانت الكبيرة نمية والصغيرة جميلة العينين. كان هناك من لهما صورتها، بالمناسبة كانت السيدة رناتيغي جميلة جداً، وكان دون فاييو يقول هذا بكل احترام، يا دون خوليو. منذ زمن انسجما روحياً، أيتها الأم، وهي لم تكن لتتصور كم كانت السيدة رناتيغي موسومة، وكانت تضع في كل فتاة عيباً، فهن متسخات، وسيصيبهن بعدوى الأمراض، دائماً أسوأ الأشياء، وها هي هناك مربية للأطفال منذ شهرين. يتقدم دون فاييو في المقعد، من هذه الناحية

⁷⁶ بالو ده روسا: خشب شجرة تحمل الاسم نفسه، وهو ذو لون أحمر به عروق سوداء، يستخدم في

أنواع الأثاث الفاخر جداً.

تستطيع أن تكون السيدة رثائغي مطمئنة، يريت ربة صغيرة، لا، ما من واحدة تخرج من هنا مريضة أو متسخة، بيتسم، أليس صحيحاً، أيتها الأم؟ يطأطأ رأسه، إن رؤيتهن بهذه النظافة تولد السرور في النفس ورثائغي، فعلاً، أيتها الأم، زوجة الدكتور بورتيليو. أيضاً هناك صعوبات في الخدمة. بلى، يا دون فابيو، في كل مرة يصبح العثور على أناس عقلانيين في إيكيتوس أكثر صعوبة، هل من الممكن أن يحمل له شابة صغيرة أيضاً، أيتها الأم؟ بلى، كان ممكناً، ترمّ رئيسة الدير شفيتها، يا دون خوليو، لا لا تكلمها بهذه الطريقة، يرقّ صوتها: ليست البعثة وكالة خادمت، ودون خوليو الآن جديّ وبلا حراك، يد تربت على ذراع المقعد، لم تفسر كلماته بشكل سيء، أليس كذلك؟ تتفحص رئيسة الدير الصليب، يحكّ دون فابيو صلعته، يتهدد في الكرسي، يرفّ جفناه، أيتها الأم، بمعنى أنك لم تفسري كلمات دون خوليو بسوء؟ هو كان يعرف من أين كنّ تلك الفتيات يأتين، وكيف كنّ يعشن قبل أن يدخلن البعثة، دون خوليو كان يؤكد لك، أيتها الأم، أنه قد حدث خطأ، لم تفهمه، وبعد أن يصبح هنا لا يعود لهنّ مكان يذهبن إليه، فقري السكان الأصليين لم تكن مستقرة، لكن حتّى ولو وجدن عائلتهن، فالصغيرات لن ينسجمنّ بعد الآن، كيف كنّ سيعشن عاريات من جديد، تقوم رئيسة الدير بحركة لطيفة: ليعبدن الأفاعي؟ لكن ابتسامتها جليدية، لياكلن القمل؟ كانت خطيئته، أيتها الأم، أساء التعبير وهي فهمت كلماته بمعنى آخر، لكن أيضاً لم يكن باستطاعة الصغيرات الاستمرار في البعثة، يا دون خوليو، وليس عدلاً، أليست هذه هي الحقيقة؟ عليهن أن يفسحن مكاناً لأخريات. كانت الفكرة أن يساعدهم في ضمّ الصغيرات إلى العالم المتمدن، يا دون خوليو، ويسهلوا عليهن الدخول إلى المجتمع. تماماً بهذا المعنى كان السيد رثائغي يتكلّم، ألم تكن تعرفه؟ كن يأخذن في البعثة أولاء الصغيرات ويؤدبنهن ليكسبن بعض الأرواح لله، لا ليجعلنّ منهنّ خادمت للعائلات، يا دون خوليو، ولتعذره على صراحتها. كان هو يعرف ذلك تماماً، أيتها الأم، لذلك تعاون دائماً وزوجته مع البعثة، وإذا كان هناك مانع، فليس همّاً، لم يقل شيئاً، أيتها الأم، لا تتشغلي. رئيسة الدير لم تكن تتشغل بسببهم، يا

دون خوليو، فهي كانت تعرف أن السيدة رثائغي كانت ورعة جداً، وأن الصغيرة ستكون في أيد أمينة. كان الدكتور بورتيليو أفضل محام في إيكيتوس، أيتها الأم وهو نائب سابق، ولو لم تكن عائلة محتشمة ومعروفة، فهل كان خوليو رثائغي سيجرؤ على القيام بهذه المبادرة؟ لكنه يكرر كلامه لها بأن لا تفكر في هذا أكثر، أيتها الأم، وتبتسم رئيسة الدير من جديد: هل زعل منها؟ لا يهم، فالعظة تفيد الجميع من حين لآخر، وخوليو رثائغي يتخذ وضعية مريحة في المقعد. كانت قد شدته من أننيه، أيتها الأم، وجعلته يشعر بأنه أخلّ بالأدب، ولذا كان هو، دون خوليو، يضمن لها ذلك السيد، فهي كانت تصدقه، ويمكنها أن تسأله بعض الأسئلة، كل الأسئلة التي تريد الأم أن تطرحها، وهو كان يتفهم حذرها، شيء منطقي، لكن يجب أن تصدقه، فالدكتور بورتيليو وزوجته كانا من أفضل الناس، وكانا سيعاملان الفتاة معاملة حسنة، ويقدمان لها الثياب والطعام، بل وحتى مرتباً، ورئيسة الدير لم تشك في ذلك، يا دون خوليو، ترمّ شفّتها الرقيقتين من جديد: والموضوع الآخر؟ هل يهمهم أن تحتفظ بما تريحه هنا؟ أن يخبروا بإهمالهم ما منحنا إياه في البعثة؟ هذا ما كانت تعنيه، يا دون خوليو، وفي الحقيقة لم تكن الأم تعرف آل بورتيليو، كانت أنخليكا تنظم في كل عام عيد الميلاد للفقراء، وكانت تذهب بنفسها لتطلب الصدقات من الحوانيت وتوزعها في الضواحي، أيتها الأم تستطيعين أن تطمئني إلى أن أنخليكا ستحمل الفتاة إلى كل المواكب الدينية التي يمكن أن توجد في إيكيتوس. لم تكن رئيسة الدير تريد أن تزججه أكثر، لكن يوجد شيء، هل يتحمل مسؤولية الاثنين؟ عند أي استدعاء أو شيء يحدث، أيتها الأم، كل ما تريدينه، يتحمل المسؤولية ويوقع كل ما هو ضروري ويكل سرور، باسمه وباسم الدكتور بورتيليو. اتفقوا إذاً، يا دون خوليو، ورئيسة الدير ذهبت في طلبهما: ثم، إضافة إلى ذلك فإن الأم غريسيلدا بالتأكد حضرت لهما بعض المرطبات، وستكون في مكانها، أليس كذلك، في ذلك القبط الشديد، ويرفع دون فابيو يديه الفرحتين: كنّ لطيفات دائماً.

تخرج رئيسة الدير من الغرفة، لم تعد مزق الشمس التي تعانق الدعائم براقاً وإنما كثيفة، والريبيات ما يزلن يغنين في البستان، يا رجل، ماذا كان يعني هذا؟ يا للحظة الحرجة التي وضعته فيها الراهبة، يا دون فابيو، وهو يا دون خوليو، مجرد شكليات، كانت الأمهات يحبين أولاء اليتيمات كثيراً، ويؤلمهن أن يذهبن، هذا هو كل ما في الأمر، ولكن هل كن يسألن ضباط بورخا الأسئلة نفسها؟ وهل ينصحن المهندسين الذين يمرون من هنا النصائح نفسها؟ على رسلك معه، يا دون فابيو. وجه الحاكم محزون، والأم لا بد أن هناك ما يعكر مزاجها، لذلك يجب ألا تولي انتباهاً، يا دون خوليو، عليهم ألا يقولوا لرتاتيغي إن العسكر سيعاملونهن بشكل أفضل منهم، فهم يشغلونهن مثل الحيوانات، ويستمررن، ولن يدفعوا لهن مليماً واحداً، هل كان دون فابيو يعرف بؤس ما يكسبه العسكر؟ إضافة إلى أنهم كن يعرفنه أكثر من اللازم، فإذا كان قد زكى لهن بورتيليو فئمة سبب، يا دون فابيو، رجاء، أين شاهد أحد مثل هذا. يتوقف كورس البستان فجأة والحاكم لا يفهم ورئيسة الدير دائماً شهمة، مهتبة، مرت الأزمة، يا دون خوليو، لا تنزعج، وهو لم يكن ينزعج، لكن الظلم كان يثيره كأى إنسان آخر. كانت الاستراحة قد انتهت، عقد أصابع دون فابيو تضرب على المقعد، هو أيضاً أثارت الأم أعصابه، يا دون خوليو، شعر أنه على كرسي الاعتراف. يلتفتان والباب يُفتح. تحضر رئيسة الدير طبقاً فيه هرم من البسكويت الخشن، والأم غريسيلدا تحضر صينية فخارية، كؤوساً وإبريقاً مليئاً بسائل كثير الرغوة، تبقى الريبيتان بجانب الباب، هيابتين، نفورتين في معطفيهما الحليبي اللون: عصير بابايو، عظيم! هذه الأم غريسيلدا دائماً تتللهما، يقف دون فابيو على قدميه والأم غريسيلدا تضحك واضعة يدها على فمها، توزع مع رئيسة الدير الكؤوس وتملأنها. من الباب، تنظر الريبيتان الواحدة إلى الأخرى شبراً، فم إحداهما نصف مفتوح يتكشف عن أسنان صغيرة مصقولة الرؤوس. يرفع خوليو رتاتيغي كأسه، أيتها الأم، إنه يشرك فعلاً، كان ميتاً من العطش، لكن يجب أن يجربا البسكويت، لن يحزرا، ولنر، دون

فابيو، لم يكن يخطر لهما ما هو، أيتها الأم، ما ألدّه، من الذرة؟ أرق، بطاطا حلوة؟ وتطلق الأم غريسليدا قهقهة: من إبرة أم! وقد اخترعتها هي بنفسها، عندما تأتي بالسيدة رثاتيغي ستعطيهما الوصفة، ودون فابيو يشرب مطبقاً عينيه. كان للأم غريسليدا يدا ملك، ولهذا وحده كانت تستحق الجنة، وهي، اسكت، اسكت، يا دون فابيو، صباً عصيراً أكثر. يشربون، يخرجون مناديلهم، ينظفون شفاههم الرقيقة البرتقالية اللون، تلعو جبين رثاتيغي قطرات من العرق، صلعة الحاكم تلمع. تأخذ الأم غريسليدا أخيراً الصينية والإبريق والكؤوس، وفي الباب تبتمس لهما بخبث. تخرج، ينظر رثاتيغي والحاكم إلى الربيبتين، اللتين تخفضان رأسيهما في الحال. مساء الخير أيتها الصيبتان. تخطو رئيسة الدير خطوة باتجاههما، هيا، اقتربا، لماذا أنتما هناك؟ تجرّ ذات الأسنان المصقولة قدميها وتتوقف دون أن ترفع رأسيها، وتبقى الأخرى في مكانها، وخوليو رثاتيغي وأنت يا ابنتي، ليس هناك ما يجب أن يخيفها منه، فهو لم يكن عفريناً. لا تجيب الربيبة وتتخذ رئيسة الدير فوراً تعبيراً محيراً، ساخراً. تنظر إلى رثاتيغي، في عيني هذا يبرز نور كيد طفيف، الحاكم يشير بيده إلى الصغيرة التي تقترب، ورئيسة الدير، يا دون خوليو، ألم تعرفها؟ تشير إلى التي بجانب الباب وتشدّ ابتسامتها، إشارة إيجابية وخوليو رثاتيغي يلتفت إلى الصغيرة، يتفحصها وهو يرفرف أحفانه، يحرك شفتيه، يطقق أصابعه، آه، أيتها الأم، كانت هي، بلى. يا للمفاحة، لم تخطر ببالي، هل تغيرت كثيراً، يا دون خوليو؟ كثيراً أيتها الأم، تذهب معه، وستكون السيدة رثاتيغي سعيدة. لكنهم كانوا أصدقاء قديمين، أيتها الابنة، تراها لم تذكره؟ تنظر ذات الأسنان المصقولة والحاكم إلى هذا وذاك بفضول، ترفع الصغيرة التي في الباب رأسها قليلاً، عيناها الخضراوان تتناقضان مع بشرتها الداكنة، رئيسة الدير تنتهّد، يا بونيفاثيا: كانوا يتحدثون معك، ما هذه الطرق؟ خوليو رثاتيغي يتفحصها دائماً، أيتها الأم، يا للهول، تلك كانت السنة الرابعة، الحياة كانت تطير، أيتها البنية، آه كم كبرت، كانت جزءاً من امرأة والآن انظروا إليها. تشير رئيسة الدير مؤكدة. هيا، يا بونيفاثيا، لتسلمي على السيد رثاتيغي، تنتهد من

جديد، كان عليها أن تحترمه كثيراً وكذلك زوجته، فهما سيكونان طبيين معها. ورناتيغي، لا تخجلي أيتها البنية، فقد كنا سيتحدثان لحظة، صارت تتكلم الإسبانية جيداً، أليس كذلك؟ ويقفز الحاكم قفزة صغيرة في مقعده، الأوراكوسية، يلمس جبهته، طبعاً، أه ما أغباه لقد تذكر. ورئيسة الدير، دعك من التبله، فدون خوليو كان سيعتقد أنهم قطع لسان بونيفاثيا. لكن، أيتها البنية، إنها كانت تبيكي، ماذا كان يحدث لها، لماذا هذا البكاء وبونيفاثيا رأسها مرفوع، دموعها تبأل خديها، شفتاها الغليظتان مطبقتان بعناد، ودون فابيو، باه، باه، بلهاء، منحن ومشفق، يحب أن تكون مسرورة جداً وسيكون عندها ماوى، ثم إن ابنتي السيد رناتيغي جميلتان جداً. شحب لون رئيسة الدير، ما هذه الطفلة! وجهها الآن أبيض مثل يديها، ما هذه الغيبة! ما الذي كان يبكيها؟ تفتح بونيفاثيا عينيها الخضراوين، الرطبتين، المتحديتين، اجتازي الحصير يا ابنتي، تسقط على ركبتيها أمام رئيسة الدير، بلهاء تتعلق بإحدى يديها، تقربها من وجهها، تضحك ذات الأسنان المصقولة لثائية، تتمم رئيسة الدير، تنظر إلى رناتيغي، اهدني، يا بونيفاثيا: كانت قد وعدتها هي والأم أنخليكا بذلك. يدها تعارك كي تتخلص من الوجه الذي يحتك بها. يبتسم رناتيغي ودون فابيو محتارين، تقبل الشفتان الأصابع الشاحبة والرافضة وتضحك الآن ذات الأسنان المصقولة دون مداراة: ألم تكن ترى أن ذلك لصالحها؟ أين ستلقى معاملة أفضل؟ يا بونيفاثيا، ألم تكوني قد وعدتها منذ ما لا يزيد عن نصف ساعة؟ وكذلك للأم أنخليكا، هل بتلك الطريقة كانت تقي بعهداها؟ ينهض دون فابيو على قدميه، يفرك يديه، هكذا كانت الصغيرات، الحساسات، يبكين من كل شيء، يا بنيتي، حاولي، وسترين كم هي جميلة إيكيتوس، وكم هي طيبة وقديسة السيدة رناتيغي، ورئيسة الدير ترجوه، يا دون خوليو، وتأسف. لم تكن تلك الفتاة قط صعبة. تشك بأنها تعرفها. اهدأي، يا بونيفاثيا وخوليو رناتيغي، كما تريدان أيتها الأم، فقد أحببت البعثة، وهذا ليس غريباً، وكان من الأفضل عدم إكراهها، ويقاؤها مع الأمهات. سيأخذ الأخرى وليبحث الدكتور بورتيليو عن خادمة في إيكيتوس، لكن المهم ألا تهتمي، أيتها الأم.

-1-

- انظروا . قال «الثقيل» لقد توقّف المطر .

كانت تقطع السماء صدوع طولية زرقاء والعاصفة المحمومة ما تزال تدوي بين الكتل الرمادية، توقّف المطر . وكانت الغابة تتلف حول الرقيب والحراس ونيبيس: قطرات كبيرة تتدحرج من الأشجار وأطراف الخيمة والجذور العرضية إلى شاطئ الحصى الذي تحول إلى بحيرة، وكان الطين حين يتلقاها ينفث عن فوهات براكين صغيرة فيبدو كأنه يظلي . كان الزورق يترنّح على الضفة .
- لنتنظر إلى أن يذهب الماء قليلاً، أيها الرقيب . قال الدليل نيبس .
فالممرات النهرية الضيقة في المطر تكون مهتاجة .

- نعم، صحيح، يا دون أدريان، لكن لا داعي لأن نبقي كالمريدين . قال الرقيب . هيّا ننصب الخيمة الأخرى، أيها الفتيان . نستطيع النوم هنا .
كانت قمصاتهم وينظفوناتهم مبللة وطبقات من الوحل تطو طماقاتهم والجدد اللامع . وكانوا يملكون أجسامهم ويعصرون ثيابهم . تقدّم الدليل نيبس مبربطاً في الشاطئ وحين وصل إلى القارب صار مثل صورة من قار صغيرة .
عراة أفضل . قال «الأشقر» . لأن الوحل سيلوتنا .

كان «الثقيل» بلا سروال داخلي، ضحكوا من إليته الغليظتين . خرجوا من الخيمة، ترنّح «الصغير» وسقط جالماً ثم نهض مجدفاً . قطعوا البحيرة ممسكين بأيدي بعضهم بعضاً . كان نيبس يناولهم التاموسيات والصفائح والترامس . وكانوا يحملون الصرر على أكتافهم إلى الخيمة . وفجأة اهتاجوا . ركضوا صائحين مبريطين في الوحل، ناثرين خلفهم كرات من الطين، حضرة الرقيب، لم تبقَ قطعة بسكريت واحدة لم تبطل، إليك بهذه، وربما فسد الأنيسانو أيضاً، و«الصغير» كان قد وصل حد الإشباع من الغابة، أيها «الأسود»، بلغ السيل عند الزبي . غسلوا بقع الطين في النهر، كدسوا الحمولة تحت إحدى الأشجار وثبتوا الأوتاد هناك، نشروا الخيمة، شدوا الحبال إلى الجنور التي كانت تقحم الأرض بنية ملتوية . كانت تظهر أحياناً ديدان وردية ملتوية تحت حجر .
كان الدليل نيبس بعدّ صلاء من النار .

- انصبوا الخيام تحت الشجرة تماماً . قال الرقيب . ستهطل العناكب فوقنا طول الليل.

كانت كومة الحطب تطلق، بدأت تدخن وبعد برهة ارتفع لهب أزرق وآخر أحمر، اشتعال مفاجئ. جلسوا حول النار. كان البسكويت مبتلاً والآنيسادو ساخناً.

- لم نتحرر بعد، يا حضرة الرقيب . علينا أن نتحمل فترة عصبية وطويلة في نيبيا .
- كان الخروج بهذا الشكل ينم عن جنون . قال «الأشقر» . كان على الملازم أن يكون قد لاحظ ذلك.

- هو كان يعرف أنه لا جدوى . هزّ الرقيب كتفيه . لكن ألم تروا حالة الأمهات ودون فابيو . أرسلنا كي يرضيون، ليس إلّا.

- أنا لم أدخل في الحرس المنني لأصبح حاضن أطفال . قال «الصغير» .
ألا تزعجك أنت هذه الأشياء، يا حضرة الرقيب؟

لكن الرقيب كان قد أمضى عشر سنوات في السلك، كان متمرساً، يا «صغير»، وما عاد هناك ما يزعجه. كان قد أخرج سيجارة وجفها بالقرب من اللهب مدوراً إياها بين أصابعه!

- ولماذا دخلت أنت سلك الحرس المنني؟ . قال «الثقيل» . فأنت ما تزال صغيراً .
بالنسبة لنا كل هذا التعب ليس أكثر من شربة ماء، يا «صغير» . سوف تتعلم.

- لم يكن هذا هو الموضوع، فقد بقي «الصغير» سنة في خولياكا والصحراء أقصى من الجبل، يا «ثقيل» . فالحشرات والأنواء لم تكن تزعجه مثلما لو أرسلوه إلى الجبل لملاحقة الصغيرات . عظيم لو أنهم لا يمسون بهن .

- ربما عدن وحدهن، الجسورات . قال «الأسود» . وربما وجدناهن في ساننا ماريا ده نيبيا .

- يا لهن من غيباب . قال «الأشقر» . قادرات على ذلك . سأضربهن بالسوط .
كان «الثقيل» سيمارس معهن الحب، وضحك، يا حضرة الرقيب: هل رأيتم

الكبيرات أيام الأحاد، عندما كنّ يذهبن إلى النهر ليستحممن؟

- أنت لا تفكر في أي شيء آخر، يا «ثقل». قال الرقيب . منذ أن تستيقظ وحتى تنام إلا بالنساء.

- لكن هذا صحيح، أيها الرقيب. فهن يبلغن هنا بسرعة كبيرة، في الحادية عشرة من عمرهن يكنّ ناضجات لعمل أي شيء. لا تقل لي إنّه لو أتيت لك فرصة فلن تمارس معهن الحب.

- لا تفتح لي شهيتي، يا «ثقل». نثأب «الأسود». تصوّر أنني سأنام الآن مع «الصغير».

كان الدليل نيببس يغذي النار بالأغصان الصغيرة. وكان الظلام قد بدأ يخيم، والشمس تحتضر في البعيد، وتخفق بين الأشجار مثل طائر أحمر وكان النهر مكواة معدنية لا حراك فيه. وفي حراج الضفة كانت الضفادع تنقّ، وفي الجو بخار ورطوية واهتزازات كهربائية. لهب النار كان يقتصر أحياناً حشرة طائرة ويلتتهما محدثاً طقطقة خرساء. وكانت الغابة ترسل مع الظلمة روائح إنتاش وموسيقا جادج.

- لا أستحب ذلك، في تشيكاييس كنت أمرض . كزر «الصغير» وقام بحركة اشمئزاز. ألا تذكرون العجوز ذات الأتداء. ليس عملاً مرضياً ملاحقة صغيراتهم بهذا الشكل. حلمت بهن مرتين.

- هذا مع العلم أنهن لم يخدمنك كما فعلن معي . قال «الأشقر»، لكنه عاد جدياً وأضاف . كان هذا لخيرهن، يا «صغير». لتعليمهن ارتداء الملابس والقراءة وتكلم المسيحية. - أم أنك تفضل أن يبقين همجيات؟ قال «الأسود».

- ثم إنهن يقمن لهن الطعام واللقاحات وينمن في أسرة. قال «الثقل» . في نيببا يحسن كما لم يحسن قط.

- لكن بعيداً عن أهلن . قال «الصغير». الا يولمك ألا ترى مرة ثانية عائلتك أبداً؟ كان الأمر مختلفاً، وهزّ «الثقل» رأسه إشفافاً: فهم كانوا متمننين بينما التشونتشيات كن لا يعرفن حتى ماذا تعني العائلة. حمل الرقيب السجارة إلى فمه وأشعلها منحنيّاً نحو الصلاء.

- إضافة إلى أنهم سيتألمن في البداية فقط . قال «الأشقر» . لهذا الغرض وُجِدَت الأمهات، الرائعات فعلاً.

- ومن يدري ماذا يحدث داخل البعثة . دمدم «الصغير» . ربما كن سيئات جداً .
يكفي يا «صغير»: ليغسل فمه قبل أن يتكلم عن الأمهات . كان «الثقيل»
يسمح بكل شيء، لكن شرط احترام المعتقدات . أيضاً رفع «الصغير» صوته:
طبعاً كان كاثوليكيّاً، لكنه كان يتحدّث بسوء عمن يريد، ماذا في ذلك؟

- وماذا لو تارت حفيظتي؟ . قال «الثقيل» . ونلت صفة؟
- دعكم من الشجار . ونفت الرقيب حلقة نخان . كفاك تجحاً، يا «ثقيل» .
- أنا أفهم بالمنطق لا بالتهديدات، يا حضرة الرقيب . قال «الصغير» .
تري ليس لي الحق في أن أقول ما أفكر به؟
- لك الحق . قال الرقيب . وأنا متفق معك إلى حد ما .

نظر «الصغير» إلى الحراس بتهمك: رأيتم؟ وبظاظة لـ «الثقيل»: من كان على حق؟
- إنه أمر قابل للنقاش . قال الرقيب . أنا أعتقد أنه إذا كانت الصغيرات قد
هرين من البعثة فذلك لأنهن لم يعتنن على ذلك .

- لمن، يا حضرة الرقيب؟ ما علاقة هذا؟ . احتد «الثقيل» . ألم ترتكب أنت
حماقات في صغرك؟

- أنت أيضاً تفضّل، يا حضرة الرقيب أن يبقين متوحشات؟ . قال «الأسود» .
- شيء جيد أن يحضرنهن . قال الرقيب . لكن لماذا بالقوة .
- وماذا تفعل الأمهات المسكينات، يا حضرة الرقيب . قال «الأشقر» . أنت
تعرف الوثنيين . يقولون، نعم، نعم، لكن عندما تحين ساعة إرسال بناتهم إلى
البعثة، ما من طريقة لذلك، ويختفون .

- وإذا كانوا لا يريدون أن يتحضروا، ما علاقتنا . قال «الصغير» . كلُّ له
عاداته، فسحقاً لذلك .

- تتألم على الصغيرات لأنك لا تعرف كيف يعاملونهن في قراهم . قال
«الأسود» . يفتحون فتحات في أنوف وأفواه الحديثات الولادة .

- وعندما يسكر التشونتشويون فإنهم ينقضون عليهم أمام جميع الناس .
قال «الأشقر» . نون أن يههم السن الذي هن فيه، ينقضون على الأولى التي
تقع في أيديهم، على بناتهم، على أخواتهم.

- إن العجائز يمزقن الفتيات الصغيرات بأيديهن . قال «الأسود» . ثم
ياكلن غشاءتهن استجلاباً للحظ، أليس صحيحاً، يا «ثقيلاً»؟
- صحيح، بأيديهن . قال «الثقيلاً» . أنا الذي يعرف . لم أقع حتى هذه
الساعة على واحدة عذراء . علماً بأنني جريت تشونتشويات .
هز الرقيب يديه . كانوا يحاصرون الصغير وهذا لا يجوز .
- أنت لأنك معهم، يا حضرة الرقيب . قال «الأشقر» .

- الذي يحدث هو أن نتشو يؤلمني . اعترف الرقيب . جميعاً، اللواتي في
البعثة لأنهن بعيدات عن أهلهن . والأخريات، للحياة السيئة التي يعشنها في قرأهن .
- يلاحظ أنك بيورى، يا حضرة الرقيب . قال «الأسود» . جميع أهل
منطقتكم عاطفيون .

- ويفخر عظيم . قال الرقيب . والويل، الويل، الويل للذي يتكلم بالسوء عن بيورا .
- عاطفيون واقليميون أيضاً . قال «الأسود» . لكن الأريكيبيين يتفوقون
عليكم في هذا، يا حضرة الرقيب .

كان الوقت ليلاً والنار تطفق والدليل نيبس ما يزال يلقي بالأغصان
الصغيرة والأوراق الجافة فيها . ينتقل ترمس الأنيسادو من يد إلى أخرى ويشعل
الحراس سجاثر . كانوا جميعاً يتعرفون و كانت تتكرر في عيونهم السنة
الصلاء صغيرة متراقصة .

- لكنهن من أنظف الموجودات . قال «الصغير» . بالمقابل، هل رأيتم
الأمهات يستحمن ولو مرة واحدة أثناء السفر إلى تشيكاييس؟

غصن «الثقيلاً»: عدنا للأمهات؟ بدأ يسعل بشدة، اللعنة!، مرة أخرى يذكر الأمهات؟
- أنت تطعنني بشرفي، لا تجيبني بل تطعنني بشرفي . قال «الصغير» .
صحيح ما أقوله أم لا؟

- يا لك من فظاً . قال «الأشقر» . هل كنت تريد من الراهبات أن يستحمنن أمامنا؟
- ربما كن يستحمنن خفية . قال «الأسود» .
- لم ترهنّ أيضاً يقضين حاجاتهن . قال «الأشقر» . وهذا لا يعني أنهن يتحملن البراز والبول طول السفر .
- كان «الثقل» قد رآهن عندما كانوا نياماً، نهضن دون ضجة وذهبن إلى النهر كالأشباح . ضحك الحراس والرقيب، هل كان يتجسس عليهن؟ تراه كان يريد أن يراهن عاريات؟
- من فضلك، يا حضرة الرقيب . قال «الثقل» بارتباك . لا تقل أشياء همجية، كيف يخطر لك ذلك؟ المسألة أنني كنت أرقاً فرأيتهن .
- لتغير الموضوع . قال «الأسود» . يجب ألا نمزج بهذه الطريقة مع الأمهات . أنت بعناد البغل، يا «صغير» .
- ويليدي . قال «الثقل» . أقسم لك أنك تحزنني عندما تقارن بين التشوننشيات والراهبات .
- الآن كفى فعلاً . قال الرقيب مقاطعاً «الصغير» الذي كان سيتكلم . هيا ننام كي ننطلق باكراً .
- خيم عليهم الصمت وأعينهم معلقة باللهب . دار ترمس الأنيسادو دورة أخرى . ثم نهضوا، دخلوا إلى الخيام، لكن عاد الرقيب بعد لحظة إلى النار وفي فمه سيجارة . ناوله الدليل نيبيس قشة مشتعلة .
- أنت دائماً صامت، يا دون أدريان . قال الرقيب . لماذا لم تتناقش مثلهم؟
- كنت أستمع . قال نيبيس . أنا لا أحب المناقشات، أيها الرقيب . كما أنني أفضل ألا أتدخل في أمورهم .
- مع الفتان؟ . قال الرقيب . هل أزعجوك بشيء؟ لماذا لم تخبرني، يا دون أدريان؟
- إنهم متكبرون، ويحتقروننا، نحن الذين ولدنا هنا . قال الدليل بصوت منخفض . ألم تر كيف يعاملونني؟

- إنهم مغرورون مثل جميع أهل ليما . قال الرقيب . لكن يجب ألا توليهم انتباهاً، يا دون أدريان، وإذا توافقوا معك ذات مرة، فأخبرني وأنا أضع لهم حداً .
- بالمقابل، أنت شخص طيب، يا حضرة الرقيب . قال نيبيس . منذ زمن وأنا أريد أن أقول لك هذا . الوحيد الذي يعاملني باحترام .
- لأنني أوقرك كثيراً، يا دون أدريان . قال الرقيب . دائماً كنت أقول إنني أودّ لو أصبح صديقاً لك . لكنك لا تخالط أحداً، أنت دائماً منعزل .
- الآن أصبحت صديقي . ابتسم نيبيس . ستذهب ذات يوم إلى بيتي وتأكل فيه وسأعرفك على لا ليتا . وتلك التي هزيت الصغيرات .
- ماذا؟ بونيفاثيا، تلك، تعيش معكم؟ . قال الرقيب . كنت أظن أنها خرجت من البلدة .
- لم يكن عندها مكان تذهب إليه فأويناها . قال نيبيس . لكن لا تحك ذلك، لا أريد أن يعرفوا أين هي، لأنها ما تزال نصف راهبة، وتموت خروفاً من الرجال .

- هل عددت الأيام أيها العجوز؟ . قال فوشيا . لم يعد عندي فكرة عن الزمن .
- وماذا يهمك الزمن؟ ما فائنته؟ . قال أكيلينو .
- كأننا خرجنا من الجزيرة منذ ألف عام . قال فوشيا . ثم إنني أعرف أنك تفعل هذا بدافع من محبة يا أكيلينو، لكنك لا تعرف الناس في سان بابلو . سيستدعون الشرطة وينتزعون منك المال .
- مرة أخرى يحزنونك؟ . قال أكيلينو . أعرف أن السفر طويل، ولكن ماذا تريد؟ علينا أن نذهب بحزر . لا تشغل ذهنك بسان بابلو، يا فوشيا، قلت لك إنني أعرف شخصاً من هناك .
- المسألة أنني منهك، يا رجل، فهذا السفر المضني ليس مزاحاً، ربحت معي . قال الدكتور بورتيليو . انظر التعب على وجه المسكين دون فابيو . لكننا أصبحنا على الأكل في وضع نستطيع أن نخبرك فيه . والآن، اجلس على الكرسي حالياً، لأن الأخبار ستجعلك تسقط .

- المزروعات ممتازة، وجميلة، يا سيد رثاتيغي . قال فابيو كويستا. المهندس لطيف جداً وقد انتهى من تسوية الأرض وزراعتها. يقول الجميع إنها منطقة مثالية لزراعة أشجار البن.

- من هذه الناحية كل شيء يسير على ما يرام . قال الدكتور بورتيليو. ما لم تُوفَّق به هو تجارة المطاط والجلود. إنها قضية لصوص، يا صديقي.

- بورتيليو؟ لا أنكر هذا الاسم إطلاقاً، يا فوشيا . قال أكيلينو. هل هو طبيب من إيكيتوس؟

- محام . قال فوشيا. هو الذي كان يُكسب رثاتيغي كل الدعاوى. إنه متكبر ومتعال.
- ليس ننب أرباب الغمل، أقسم لك، يا سيد رثاتيغي . قال فابيو كويستا. إنهم مستأورون أكثر من أي شخص آخر. ألا ترى أنهم الأكثر تضرراً؟ يبدو أن اللصوص موجودون فعلاً.

اعتقد الدكتور بورتيليو أيضاً، في البداية، أن أرباب العمل يتاجرون خفية، يا خوليو، وأنهم ابتدعوا اللصوص كي لا يبيعوه المطاط. لكن لم يكونو هم، والصحيح هو أن حصولهم على البضاعة كان يكلفهم في كل مرة أكثر، يا صديقي، دخل هو ودون فابيو إلى كل الأماكن، تحققوا، هناك لصوص، ودون فابيو تصرّف كسيد، مرض من كثرة السفر ورغم كل شيء تابع معه، يا خوليو، وطبعاً كان مفيداً الذهاب برفقة السلطة، فحاكم سانتا ماريا كان يفرض الاحترام هناك.

- طالما أن الأمر يخص السيد رثاتيغي، فلکم ما تريدون . قال فابيو كويستا. سأقدم لكم هذا وأكثر منه بكثير، يا دون خوليو. لكن أكثر ما يؤلمني هو موضوع اللصوص، فكم كلّفنا إقناع أرباب العمل بأن يبيعوك البضاعة بدل أن يبيعوها للبنك.

- لو رأيت كيف كان يعاملني . قال فوشيا. من أي برج عال. هل تعتقد أنه دعاني ولو مرة واحدة إلى بيته في إيكيتوس؟ أنت لا تعرف الكراهية التي أضمرها لهذا المحامي الوغد، يا أكيلينو.

- أنت دائماً مفعم بالكراهية، يا فوشيا . قال أكيلينو. يحدث لك شيء ثم تكره أحداً ما. سيعاقب الله على هذا أيضاً.

- أكثر مما يحزني؟ . قال فوشيا. أنه يعاقبني قبل أن أكون قد ارتكبت شيئاً، أيها العجوز .

- لقد ساعدونا في تكتة بورخا كثيراً . قال الدكتور بورتيليو. قتموا لنا أدلاء ومرشدين . عليك أن تشكر العقيد، يا خوليو، أن تكتب له بعض الأسطر .

- العقيد شخص رسيم جداً، يا سيد رناتيغي . قال فابيو كريستا. خدم جداً، وحيري جداً. كان باستطاعتهم أن يتحركوا ضد اللصوص لو أنهم كانوا يتلقون أوامر بذلك من ليما، أيها الصديق، يفضل أن يخطف رناتيغي رجله إلى العاصمة ويقوم ببعض الاتصالات ليتدخل العسكر فُسوى كل الأمور . طبعاً، طبعاً يا رجل إن الأمور وصلت إلى هذا الحد .

- لم تكن نريد أن نصدقهم يا سيد رناتيغي . قال فابيو كريستا. لكن أرباب العمل جميعاً كانوا يقسمون حول الأمر نفسه. لم يكن ممكناً أن يكونوا قد اتفقوا .

كان أمراً بسيطاً جداً، أيها الصديق: فأرباب العمل لم يكونوا ليجدوا شيئاً عندما كانوا يصلون إلى القبائل، لا مطاطاً ولا جلوداً، لا شيء إلا التشوتشوبين بيكون ويقرعون الأرض بأقدامهم، سرقونا، سرقونا، لصوص، شياطين، إلخ .

- صعد عبر نهر سانتياغو مع دون فابيو، الذي كان حاكماً لسانتا ماريّا ده نيبيا وجنود بورخا . قال فوشيا. قبل ذلك كانوا يحققون في منطقة الأغوارونيين وكذلك حيث الأنشواليون .

- لكنني التقيت بهم في نهر المارانبيون . قال أكيلينو. ألم أحك لك؟ قضيت يومين معهم . كانت الرحلة الثانية أو الثالثة التي قمتُ بها إلى الجزيرة . ودون فابيو، وذاك الآخر، هل قلت بورتيليو؟ كانوا يلتهمونني بالأسئلة وكنت أفكر وقتها: الآن تنفع الثمن كاملاً، يا أكيلينو. كنت أشعر بالخوف .

- من الموسف أنهم لم يصلوا . قال فوشيا. آه كيف سيصبح وجه المحامي القذر لو رأيته؟ وماذا يمكن أن يكون قد حكي للكلب رناتيغي؟ ماذا عن دون فابيو، أيها العجوز . هل مات؟

- كلا، ما يزال حاكماً في سانتا ماريّا ده نيبيا . قال أكيلينو .

- لست غيباً إلى هذا الحد . قال الدكتور بورتيليو . إن أول ما فكرت به هو أنه إذا لم يكن أرباب العمل من يكرر مزاح أوراكوسا، بإقامة التعاونية، فإنهم التشونتشويون . لذلك ذهبنا إلى حيث القبائل . لكن أيضاً لم يكونوا التشونتشويين .
- كانت النسوة تستقبلننا بالبناء، يا سيد رناتيغي . قال كويستا . لأن اللصوص لا يحملون المطاط والليثيكاسبي⁷⁷ . والجلود فحسب، وإنما أيضاً الفتيات الصغيرات، طبعاً .

- لم تكن، كتجارة، فكرة سيئة، أيها الصديق: فرناتيغي كان يدفع لأرباب العمل مقدماً، وأرباب العمل كانوا يدفعون مقدماً للتشونتشويين، وعندما كان التشونتشويون يعودون بالمطاط والجلود من الجبل كان السئلة ينقضون عليهم ويستولون على كل شيء . دون أن يكونوا قد وظفوا سنتيماً واحداً، أيها الصديق، ألم تكن تجارة رابحة؟ لتذهب إلى ليما ولتبدل بعض المساعي، يا خوليو، وبأسرع ما يمكن، أفضل .
-ولماذا كنت دائماً تبحث عن الصفقات الفكرة والخطيرة؟ . قال أكيلينو .
وكانها لوثة عندك، يا فوشيا .

- إن جميع الصفقات فكرة، أيها العجوز . قال فرشيا . المسألة هي أنه كان عندي رأسمال صغير كبدائية، وإذا كان عندك مال فإنك تستطيع أن تقوم بأسوأ تجارة دون خطر .
- لو لم أساعدك لذهبت إلى الأكوادور، ليس أكثر . قال أكيلينو . لا أدري لماذا ساعدتك . لقد جعلتني أقضي سنوات رهيبة . عشت مذعوراً، يا فوشيا، وقلبي في يدي .
- ساعدتني لأتأكد إنسان طيب . قال فوشيا . أطيب من عرفت، يا أكيلينو .
لو كنت ثرياً لتركت لك كل مالي، أيها العجوز .
- لكنك لست ثرياً ولن تكون أبداً . قال أكيلينو . وماذا سأستفيد من مالك، إذا كنت ساموت بين لحظة وأخرى؟ نحن في هذا متشابهان قليلاً، يا فوشيا، إذها نحن نصل إلى النهاية فقيرين تماماً كما ولدنا .

⁷⁷ ليتشيكاسبي Lechecaspi، شجرة أصلها من أدهال الأمازونفي البيرو، تستخدم ثمارها ويذورها كمنظف للأعضاء، تشبه ثمرتها الزعرور الهندي .

- صار هناك أسطورة بكل معنى الكلمة حول اللصوص . قال الدكتور بورتيليو. حتى في البعثات حدثونا عنهم. لكن لا الرهبان ولا الراهبات يعرفون شيئاً يستحق الذكر.

- في قرية أغوارونية في ثينينا قالت لنا امرأة إنها رأتهم . قال فاييو كويستا. وإنه كان بينهم هومبيسيون. لكن معلوماتها لم تعد كثيراً. أنت تعرف التسونكويين، يا سيد رناتيغي.

- إن وجود هومبيسيين بينهم حقيقة . قال الدكتور بورتيليو. الجميع يقولون بذلك، عرفهم من اللغة واللباس. لكن الهومبيسيين موجودون لإثارة البلبله، فأنت تعرف أنهم يحبون المشاكل. المسألة أنه ما من طريقة لمعرفة من هم البيض الذين يقودونهم. يقولون إنهم اثنان، أو ثلاثة.

- واحد منهم جبلي، يا دون خوليو . قال فاييو كويستا. هذا ما قاله لنا الأثسواليون، الذين كانوا يعرفون الكيتشوية قليلاً.

- لكن حتى لو لم تعترف، فقد حالفك الحظ، يا فوشيا، فهم لم يقبضوا عليك أبداً . قال أكيينو. لولا هذه المصائب لكان باحظا عتك أن تقضي العمر في الجزيرة. - أنا مدين به للهومبيسيين . أقال فوشيا، هم أكثر من ساعدني بعدك، أيها العجوز . وها أنت ترى كيف أردّ لهم الجميل.

- لكنك تملك التبريرات الكثيرة، إذ لم يكن لصالحك ولا لصالحهم بقاوك في الجزيرة . قال أكيينو. آه . كيف أنت، يا فوشيا . تحزن من أجل كل بانانتشا وللهومبيسيين، بينما تكثر بمصائبك.

- كان هذا مثبتاً أيضاً كما يجب، أيها الصديق، فمشتريات المطاط لم تتخضض في المنطقة، بل ازدادت في باغرا، رغم أنهم لم يبيعوا نصف ما كانوا يبيعونه من قبل، لأن اللصوص كانوا نشطين جداً، يا سيد رناتيغي. هل تعرف ماذا كانوا يفعلون؟ كانوا يبيعون مسروقاتهم بعداً، بواسطة أشخاص آخرين. ولم يكن يهمهم أن يبيعوا المطاط رخيصاً طالما أنهم كانوا يحصلون عليه مجاناً. لا، لا، أيها

الصديق فإداريو بنك الهيبوتيكاريو⁷⁸ لم يروا وجوهاً جديدة، ومتعهو التوريد كانوا أنفسهم. كان الأوغاد يتقنون عملهم، فلا يخاطرون. لا شك أنهم عثروا على زوج من أرباب العمل كانوا يشترون منهم مسروقاتهم بأسعار زهيدة وكانوا يبيعونها بدورهم إلى البنك، وبما أنهم كانوا معروفين، فلم تكن توجد رقابة ممكنة عليهم.

- هل كان ذلك الريح البخس يستحق تلك الأخطار؟ قال أكيلينو. الحقيقة أنني لا أعتقد ذلك يا فوشيا.

- لكن لم يكن نبيي. قال فوشيا. فأنا لم أكن أستطيع أن أعمل مثل الآخرين، الذين لم تكن تلاحقهم الشرطة، بينما كان عليّ أن أتمسك بالعمل الذي أصادفه.

- كنت أتعرق برداً في كل مرة كانوا يكلمونني عنك. قال أكيلينو. ماذا كانوا سيفعلون لو أمسكوا بك عند القبائل، يا فوشيا؟ ربما فعلوا أسوأ من ذلك لو أن أرباب العمل ألقوا القبض عليك. لا أدري من منهم كانت لديه رغبة أكبر للإمساك بك.

- هناك شيء واحد، يا رجل، ومن رجل لرجل. قال فوشيا. الآن تستطيع أن تكون صريحاً معي، ألم تحصل على عمولات؟

- ولا سنتيماً واحداً. قال أكيلينو. أقسم بالمسيح.

- هذا شيء مناف للعقل، أيها العجوز. قال فوشيا. أنا أعرف أنك لا تكذب علي، لكن صدقاً كلامك لا يدخل في رأسي. لو كنت أنا لما فعلت ذلك من أجلك، هل تدري؟

- طبعاً أدري. قال أكيلينو. لو كنت أنت لسرقت روجي مني.

- أبلغنا عنهم في جميع مخافر المنطقة. قال الدكتور بورتيليو. لكن ليس لهذا أية قيمة. خذ الطائرة إلى ليما ولينتلخ الجيش، يا خوليو. فهذا سيخيفهم.

- قال العقيد إنه سيساعد بكل سرور، يا سيد رثاتيخي. قال فابيو كويستا.

كان ينتظر الأوامر فقط وأنا سأساعد في سانتا ماريا ده نيبيا وفي أي شيء.

بالمناسبة، يا دون خوليو، الجميع يذكرونك بمحبة.

- لماذا وقفت؟ قال فوشيا. الوقت ليس ليلاً بعد.

⁷⁸ البنك الهيبوتيكاريو: المصرف العقاري.

- لأنني متعب . قال أكيلينو. سننام على هذا الشاطئ. ثم ألا ترى السماء؟ سيتساقط المطر الآن.

في أقصى شمال المدينة توجد ساحة. إنها ساحة قديمة جداً، كانت أفتيتها في وقت من الأوقات من الخشب المصقول والمعدن اللامع. تسقط فوقها ظلال أشجار الخرنوب السامقة، وكان شيوخ الأحياء القريبة يتزّهون فيها ملتسقين دفء الصباحات، وينظرون إلى الأطفال يطوفون حول البركة: دارة حجرية في وسطها سيدة على رؤوس أصابعها، يداها إلى الأعلى وكأنها مستطير، ملفعة بالمسوح ينبثق الماء من شعرها. إن الأفتية متصدعة الآن والبركة فارغة والمرأة الجميلة تقطع وجهها ندبة، وأشجار الخرنوب تتحنى فوق ذاتها، محتضرة.

كانت أنطونيا تذهب إلى تلك الساحة الصغيرة لتلعب عندما كان يأتي آل كيروغا إلى المدينة. كانوا يعيشون في مزرعة لا هواكا إحدى أكبر مزارع بيورا، عند سفح الجبل. كان آل كيروغا يسافرون مرتين في العام إلى المدينة، واحدة في رأس السنة وأخرى أثناء موكب حزيران. وكانوا ينزلون في بيت القرميد الكبير القديم الذي كان يشكل زاوية مع تلك الساحة تماماً، والتي تحمل الآن اسمهم. كان لروبيرتو شاربان غليظان يعرض عليهما بنعومة عندما يتكلم وله سمات أرسقراطية. وكانت شمس المنطقة العدوانية قد احترمت أسارير دونيا لوثيا، المرأة الشاحبة، الهشة، شديدة الورع. كانت تحرك بنفسها أكاليل الزهر التي تضعها على حاملة العذراء حين كان الموكب يتوقف عند باب بيتها. كان آل كيروغا يقيمون احتفالاً في ليلة عيد الميلاد يحضره كثير من الوجهاء. وكان هناك هدايا لجميع المدعوين. وفي منتصف الليل كانوا يمطرون من النوافذ المتسولين المتجمعين في الشارع بالنقود. وكان آل كيروغا بثيابهم القاتمة يرافقون الموكب بساعاته الأربع الشديدة البطء، في الأحياء والضواحي. كانوا

ياخذون أنطونيا من يدها ويوخونها يتحفظ عندما تتهاون بالتراتيل. كانت أنطونيا، خلال وجودهم في المدينة، تظهر باكراً في الساحة وتلعب مع أطفال الجيران لعبة اللصوص والخفراء ولعبة الرهان، وتتسلق أشجار الخرتوب وتغذف السيدة الحجرية بالطوى أو تستحم في البركة عارية مثل سمكة.

من كانت تلك الطفلة ولماذا كان آل كيروغا يحمونها؟ لقد جاؤوا بها، ذات شهر من شهر حزيران من لا هواكا، قبل أن تعرف الكلام، وقد حكى دون روبيرتو قصة لم تقنع كل الناس. كانت كلاب المزرعة قد عوت ذات ليلة، وحين خرج مستغفراً إلى الدهليز اكتشف الطفلة على الأرض تحت بعض البطانيات، نصحهم الأقرباء الطماعون بإدخالها مأوى الأيتام كما تطوّر آخرون لتربيتها. لكن دون ألبرتو ودونيا لوثيا لم يأخذا بالنصائح، ولم يقبلا بالعروض ولم يبد أن التثرة أزجتهما. وذات صباح وفي منتصف لعبة الروكامبو في المركز البيوري أعلن دون روبيرتو بشرود أنهم قرروا تبني أنطونيا.

لكن هذا لم يحصل، لأن عائلة كيروغا لم تصل في نهاية ذلك العام إلى بيورا. الشيء الذي لم يحدث من قبل أبداً. حدث تملل، وتحسّب من حادث ماء، خرجت دورية خيالة في الخامس والعشرين من كانون الأول عبر الطريق إلى الشمال. وجدوهم على بعد مئة كيلو متر من المدينة، هناك حيث تمحو الرمال الآثار وتخزّب كل علامة ولا يهيمن سوى الوحشة والقيظ. كان قطاع الطرق قد ضربوا آل كيروغا بوحشية وجردوهم من الثياب والجياد والمتاع، كما أن الخادمتين كانتا ترقدان ميتتين، تغلي الديدان في جراحهما الموبوءة. كانت الشمس ما تزال تقوّر الجثث العارية، وقد اضطر الخيالة إلى إطلاق النار لإبعاد العقبان التي كانت تقوّر الصغيرة. عندئذ تبينوا أنها كانت حية.

- لماذا لم تمت؟ . كان يقول الجيران . كيف استطاعت أن تعيش طالما أن العقبان انتزعت لسانها وعينيها؟

- من الصعب معرفة ذلك . كان الدكتور ثيبانيو يردد وهو يحرك رأسه مرتبكاً. ربما كانت الشمس والرمل هي التي لأمت جراحها ومنعت النزيف.

- العناية الإلهية . كان الأب غارثيا يردد . إنها إرادة الله السرية .
لم يتم العثور على قطاع الطرق . فقد جاب أفضل الخيالة الصحراء ، وسبر
أمهر رجال التحري الغابات ، والكهوف ووصلوا حتى جبال أيايلكا دون أن
يعثروا عليهم . وقد نظم الحاكم والحرس المدني والجيش ، مزة بعد أخرى ،
حملات فتشت أكثر القرى بعداً ، لكن دون جدوى .

تدفق سكان الأحياء إلى الموكب الذي كان يسير في الجنازة خلف توابيت
آل كيروغا ، وُضع الحرير الأسود على الشرفات ، وحضر الفن الأسقف
والسلطات . انتشرت فاجعة آل كيروغا في المقاطعة وخُلدت في حكايات
وخرافات المانغانتشيين والغاليناثيون⁷⁹ .

قُسمت لا هواكا إلى أقسام كثيرة ، قام على كل منها قريب لدون روبيرتو أو
لدونيا لوثيا . وعندما خرجت أنطونيا من المستشفى التقطتها غسالة من
لاغاليناثيرا ، وهي خوانا باورا ، التي كانت تخدم عند آل كيروغا . وعندما كانت
الصغيرة تظهر في لا بلاثا ده أرماس كانت النسوة يداعبها ويكرمنها بالحلوى ،
والرجال يصعدون بها على الجواد ويتزهون بها في المالكون . وأصببت ذات مرة
بمرض فأجبر تشابيرو سميناريو وآخرون كانوا يشربون في لا استريليا ديل نورته
فرقة البلدة الموسيقية على الذهاب معهم إلى لا غاليناثيرا وعزف لحن العود إلى
الثكنة أمام كوخ خوانا باورا . وفي أيام المواكب كانت أنطونيا تسير خلف الحاملة
مباشرة وتشكل متطوعتان أو ثلاث حلقة كي يبعدا الزحام عنها . كان ظلّ الفتاة
وديعاً وسموتاً يحرك عاطفة الناس .

⁷⁹ المانغانتشيين والغاليناثيون: المنتمون إلى الحيين اللذين يحملان كل الاسم نفسه.

كانوا قد رأوهم، ياسيدي النقيب، يشير العريف روبيرتو ديلغادو إلى أعلى الوحدة، لقد ذهبوا ليخبروا. ترتطم الزوارق بالشط، واحداً بعد آخر، يقفز الرجال الأحد عشر إلى البر، ويربط جنديان المراكب إلى بعض الصخور، يشرب خوليو رثاتيغي جرعة من مطرته، يخلع النقيب أرتيميو كيروغا قميصه، يبلل العرق كتفيه، ظهره، يعصره، هذا الحر سوف يشوي نخاعنا، يا تون خوليو. يحاصر الذباب المجموعة ويُسمع نباح في الأعلى: هاهم قادمون من هناك، يا سيدي النقيب، لنتظر إلى الأعلى. يرفع الجميع بصرهم. ظهرت غيوم من الغبار ورؤوس كثيرة في قمة الوهدة. أطياف جذوع بشرية شاحبة تتزلق الآن في المنحدر الرملي، تثب كلاب صاحبة كَثْرَتٍ عن أنيابها بين أرجل الأوراكوسيين. يلتفت خوليو رثاتيغي إلى الجنود، هيا، لتلوحوا لهم مودعين، وأنت، أيها العريف، اخفض رأسك، قف في الخلف، يجب ألا يعرفوك والعريف ديلغادو، بلى، سيدي الحاكم، لقد رأيتَه، لقد كان خوم هناك، يا سيدي النقيب. يحرك الرجال الأحد عشر أيديهم وبعضهم يبسم. ومرة بعد أخرى يزداد الأوراكوسيون في المنحدر، يهبطون بما يشبه القرفصاء، وهم يومنون ويصرخون، وكانت النسوة أكثر صراخاً. والنقيب هل يخرجون للقائهم، يا تون خوليو؟ فهو لم يكن يثق أبداً. لا، أيها النقيب، قطعاً لا، ألم يكن يرى كيف كانوا يهبطون مسرورين؟ كان خوليو رثاتيغي يعرفهم. كان المهم أن يحافظوا على معنوياتهم، ليتركوه، أيهم خوم؟ الذي في المقدمة، يا سيد، الذي كان يرفع يده وخوليو رثاتيغي انتباه: كانوا سيركضون مثل الجدايا، أيها النقيب، يجب ألا يفلتوا جميعاً منهم، خاصة خوم، راقبوه جيداً، ينظر الأوراكوسيون إلى رجال الحملة، متكومين عند الجرف على حافة الوهدة شبه عراء، هائجين مثل الكلاب التي تقفز وتحرك أنيابها وتنبح ويشيرون إليهم متهامسين. هناك الآن رائحة لحم بشري وجلود موشومة بالأنثيوتة⁸⁰. تختلط بروائح النهر والأرض والأشجار. يضرب الأوراكوسيون على أذرعهم وصدورهم بشكل إيقاعي. وفجأة يعبر رجل الحاجز الغباري،

⁸⁰ أنثيوتة: شجرة أمريكية، لها أزهار كبيرة، يستخرج منها صباغ أحمر يحمل الاسم نفسه، والكلمة في

النص تعني هذا الصباغ.

إنه هو، يا سيدي النقيب، إنه هو، يتقدم ثقيلًا قوياً نحو الضفة يتبعه الآخرون وخروليو رثائغي، إنه حاكم سانتا ماريا ده نيبيا، أيها المترجم وقد جاء ليتكلم معه. يتقدم جندي يدمدم ويومئ بطلاقة فيتوقف الأوراكوسيون. يقبل «الثقيل» ويرسم بيده خطأ بطولاً ودائرياً وهو يشير إلى رجال الحملة بأن يقتربوا، فيفعلون وخروليو رثائغي: خوم ده أوراكوسا؟ يفتح «الثقيل» ذراعيه، خوم! يستشق الهواء: بيبريون! ينظر النقيب والجنود بعضهم إلى بعض، يومئ خروليو رثائغي بالإيجاب، يتقدم خطوة أخرى نحو خوم، كلاهما يتوقف على مسافة متر عن الآخر. بلا عجلة وعيانه عالقتان بهدوء بالأوراكوسي، يحرر خروليو رثائغي المصباح الكهربائي المعلق إلى زناره، يمسكه بكامل قبضته، يرفعه بهدوء، بمد خوم يده ليستلمه منه، رثائغي يضرب: صياح، جري، غبار يغطي كل شيء، صوت النقيب المدوي. بين النباح والسحب السوداء، أجسام خضراء صفراء تدور، تسقط، تنهض، والمصباح يضرب مرة، مرتين، ثلاث مرات، مثل طائر فضي. يكشف الهواء بعدها الشاطئ، يكتس الغبار ويحمل الصياح. الجنود منتشرون دائرياً، بنادقهم مصوية إلى الأوراكوسيين الملتحمين والمتراصين والمجدولين بعضهم إلى بعض. تنتحب طفلة متعلقة إلى ساق خوم، الذي يغطي وجهه، تتجسس عيانه من بين أصابعه على الجنود ورثائغي والنقيب، والجرح في جبينه يبدأ بالنزيف، يرقص النقيب كيروغا، المسدس في يده، هل سمعت أيها الحاكم بماذا صاح لهم؟ ترى هل بيبريون، كانت تعني بيبريين⁸¹؟ ويتصور خروليو رثائغي أين سمع هذه الكلمة، يا لهذا النقيب من رجل. من الأفضل أن يدفعوا بهم نحو الأعلى، فوجودهم في القرية خير لهم من هنا، والنقيب، بلى، البعوض هناك أقل. لقد سمعت، أيها المترجم، أعطهم أمراً، اجعلهم يصعدون. يدمدم الجندي ويومئ، فتفتتح الدائرة وتبدأ المجموعة بحركة ثقيلة وهي متراصة فترتفع سحب الغبار من جديد. راح العريف روبرتو ديلغادر يضحك: كنت قد عرفته، يا سيدي النقيب، بدا وكأنه يريد أن يأكله

⁸¹ بيبريون.. بيبريون: خوم، شيخ القبيلة، لا يتقن الإسبانية ولذلك نراه هنا لا يفهم في النطق بين

بعينه. والنقيب كذلك خوم، أيها العريف، ماذا ينتظر ليصعد. يدفع العريف خوم فيتقدم هذا متخسباً ويده دائماً على وجهه. ما تزال الصغيرة متعلقة بساقيه، تترك حركاته، يمسكها العريف من شعرها، اتركه، يحاول أن يفصلها عن شيخ القبيلة، اتركه، وتقاوم، تخدش، تزق مثل بطة الصخور، الخراء، يضربها العريف بيده المفتوحة وخوليو رثائغي، ويحك ما هذا؟ ويحك كيف تعامل طفلة بهذا الشكل؟ ويحك، بأي حق؟ يتركها العريف، يا سيد، لم يكن يريد أن يضربها، فقط كان يريد أن تقلت خوم، لا تنزعج، يا سيد، ثم إنها خدشته.

- ها هو القيثار صار مسموعاً . قال ليتوما. أم إنني أظلم، أيها المنيعون.
- جميعنا نسמע، يا ابن العم . قال خوسيه . أو إننا جميعا نحلم.
كان ألمونو يصغي، مائل الوجه، كبير العينين، مندھشاً.
- إنه فنان! من الذي يقول إنه ليس الأعظم؟
- من المؤسف فقط أن يكون في أرذل العمر . قال خوسيه . لم تعد عيناه تقيده في شيء، يا ابن العم. فهو لا يسير وحده أبداً، يضطر الشاب وبولاس أن يأخذه من نراعه.
يقع بيت لا تشونغا خلف المضمار، قبل الخلاء الذي يفصل المدينة عن ثكنة غراو، بقليل، غير بعيد عن أجمة البنادق الصغيرة هناك، في ذلك المكان ذي الأعشاب المتكلسة والأرض الرخوة، تحت أغصان الخرنوب المعقدة يريض الجنود الثملون عند الفجر والغروب. يقنصون الغاسلات العائدات من النهر، وخادمات حي بويونس آيرس، اللواتي يذهبن إلى السوق، يرمونهن فوق الرمل، يردون تنوراتهن على وجوههن ويفتحون سيقانهن ويرتمون الواحد بعد الآخر فوقهن ويهرون. يسمي البيوريون الضحية بالموطوءة، والعملية البنديقية الصغيرة، والولد الناتج بابن الموطوءة والبنديقية الصغيرة وابن أبيه.

- ملعونة الساعة التي ذهبت فيها إلى الجبل . قال ليتوما. فلو أنني بقيت هنا، لكنت تزوجت من لاليرا ولأصبحت رجلاً سعيداً.

- ليس كثيراً، يا ابن العم . قال خوسيه . لو رأيت ماذا تشبه لاليرا الآن .

- بقرة حلوباً . قال ألمونو. كرشها يشبه الطبل.

- وولادة مثل أرنب . قال خوسيه . عندها الآن ما يقارب عشرة أطفال .

- واحدة عاهرة وأخرى بقرة حلوب . قال ليتوما. نظرتك للنساء ثاقبة، أيها المنيع.

- وعدتني، أيها الزميل وها أنت تخلف بوعدك . قال خوسيفينو. ما فات

مات، وإلا فإننا لن نرافقك إلى حيث لاثشونغا. ستكون عاقلاً، أليس كذلك؟

- إنني كمن أجريت له عملية، كلمة شرف . قال ليتوما. أنا الآن أمزح فقط.

- ألا ترى أن أقل عمل جنوني يودي بك، يا أخي؟ . قال خوسيفينو. لك

سوابق، يا ليتوما. يحبسونك من جديد، ومن يدري كم من الزمن هذه المرة.

- آه . كيف تهتم بي، ياخوسيفينو. قال ليتوما.

بين المضممار والخلاء، على بعد نصف كيلو متر من الطريق الذي يخرج

من بيورا وينفرع فيما بعد إلى سطحين مستقيمين وقامين يجتازان الصحراء، واحد

إلى بايتا وآخر إلى سوليانا، يوجد تجمع أكواخ من الطوب والتنك والصفيح

والكرتون، إنها ضاحية لا تملك عمر ولا اتساع لا مانغاتشيريا، كما أنها أكثر

بؤساً، وضعفاً، وهناك يرتفع، فريداً، مركزياً، مثل كاتدرائية، بيت لا تشونغا،

المسمى أيضاً بالبيت الأخضر. يلمح من المضممار شاهقاً، متماسكاً، جدرانته من

الطوب وسطحه من الكالامين. وفي أيام السبت، ليلاً، كان المشاهدون لحفلات

الملاكمة يسمعون صنجات بولاس وقيثار دون أنسيلمو وقيثارة الشاب أليخاندرو .

- أقسم لك إنني كنت أسمعها، يا ألمونو. قال ليتوما. وطبعاً كانت تمزق

الروح. تماماً كما أسمعها الآن.

- يا للحياة السيئة التي سيجعلونك تعيشها، يا ابن العم . قال ألمونو .

- أنا لا أتكلم عن ليما، بل عن سانتا ماريا ده نيبيا. قال ليتوما. كانت ليالي

كالموت أثناء الحراسة يا ألمونو. لم يكن هناك من تتحدث معه. كان الفتيان

يشخرون وفجأة لا أعود أسمع الضفادع ولا الجداجد وإنما القيثارة. لم أسمعها في ليما أبداً.

- كان الليل رطباً، صافياً. وعلى الرمل كانت ترسم هنا وهناك الصور الجانبية لأشجار الخرنوب المعوجة. كانوا يتقدمون في صف واحد، خوسيفينو وهو يفرك يديه وأبنا آل ليون وها يصفران، وكان ليتوما يسير حذر الرأس، يدها في جيبه وبين الفنية والأخرى يرفع رأسه ويشير إلى السماء بنوع من الحق.

- سباق، كما كنا نفعل عندما كنا صغاراً. قال المونو. واحد، اثنان، ثلاثة. انطلق كالسهم واختفت هيئة القرد الصغير بين الضلال. يجتاز خوسيه حواجز غير مرئية، يمضي جازياً، يروح ويغدو، يواجه ليتوما وخوسيفينو.

- إن الكانيانو نبيل والبيسكو غدار. كان يدمم. في أية ساعة سننشد النشيد؟ التقوا قرب الحي بالمونو، ممدداً على ظهره، يزفر مثل فنان. ساعده على النهوض.

- قلبي يخرج مني، باللهول، يبدو كنبأ.

- السنوات لا تمر عبثاً، يا ابن العم. قال ليتوما.

- لكن عاشت لا مانغاشيريا. قال خوسيه.

بيت لا تشونغا مكعب الشكل وله بابان: الرئيسي، ويؤدي إلى قاعة الرقص المربعة والواسعة، التي حفرت على جدرانها أسماء وشعارات: قلوب، سهام، أعضاء أنثوية بشكل الهلال، تخترقها أعضاء نكور وكذلك صور فنانين، ملاكمين، وموديلات، تقويم وصورة بانورامية للمدينة. الباب الآخر ضيق ومنخفض، يؤدي إلى البار، المفصول عن حلبة الرقص بطاولة شرب «موسترادور» خشبية وخلفها لاشونغا، كرسي هزاز من قش، وطاولة مليئة بالفقناني والكؤوس والأباريق الفخارية. وأمام البار، في زاوية، يوجد الموسيقون. يستخدم دون أنسيلمو، الجالس على مقعد صغير الجدار مسنداً ويسند القيثارة بين ساقيه. إنه يضع نظارة، شعره يكنس جبهته، من بين أزرار القميص وعلى رقبتة وأذنيه تطل خصلات من الشعر رمادية. الذي يعزف على القيثارة ويملك صوتاً رخيماً هو الشاب أليخاندرو، النفور والقصير، الذي يؤلف الأغاني

إضافة إلى أنه -مازف. أما الذي يشغل كرسي الليف ويعزف على الطنبور وبعض الصنجات، والأقل مهارة، والذي يمتلك العضلات الأكبر بينهم، فهو بولاس، سائق الشاحنة سابقاً.

- لا تمسكوا بي هكذا، لا تخافوا . قال ليتوما. أنا لا أفعل شيئاً، ألا ترون؟ أنا أبحث عنها فقط. ما الشيء في أنني أريد أن أنظر إليها؟ أفلتوني.
- شيء وينقضي، يا ابن العم . قال ألمونو. ماذا يهمك؟ فكر بشيء آخر.
هيا بنا نفرخ ونحتفل بعودتك.

- أنا لا أفعل شيئاً . كزر ليتوما. أنا أتذكر فقط، فلماذا تمسكون بي بهذا الشكل، أيها المنيعون؟

- كانوا على عتبة حلبة الرقص، تحت الضوء الكثيف الذي يتدفق من ثلاثة مصابيح ملفوفة بالميلوفان الأزرق والأخضر والبنفسجي مقابل جمهور مضغوط من الأزواج. كانت مجموعات ضبابية تشغل الزوايا، التي كانت تصدر منها أصوات وقهقهات وقرع كؤوس. دخان ساكن، شفاف، كان يطفو بين السقف ورووس الراقصين، وكانت نفوح رائحة بيرة وعرق وتبع أسود. كان ليتوما يترنح في المكان وخوسيفينو يمسك به دائماً من نراعه، لكن ابني آل ليون كانا قد أفلتاه.

- أين هي الطاولة، يا خوسيفينو؟ تلك؟
- هي نفسها يا أخي، لكنه شيء وانقضى، والآن أنت تبدأ حياة أخرى، الس.
- هيا سلم على عازف القيثارة، يا ابن العم . قال ألمونو. وعلى الشاب وبولاس الذين دائماً يذكرونك بمودة.

- لكنني لا أراها . قال ليتوما. لماذا تختبئ مني؟ لن أفعل لها شيئاً. أريد أن أنظر إليها فقط.

- اتركها لي، يا ليتوما . قال خوسيفينو. كلمة شرف سأتيك بها، لكن عليك أن تفي، ما فات مات. هيا، اذهب وسلم على العجوز. أنا ذاهب لأبحث لك عنها.
كانت الفرقة الموسيقية قد توقفت عن العزف وصار الأزواج في الحلبة عجيبة متراصة هامدة. شخص يناقش بصوت عال عند البار. تقدم ليتوما من

الموسيقيين، متعثرًا، حيًا دون أنسيلمو بذراعين مفتوحين، أيها العجوز، يا عازف القيثارة، يحيط به ابنا آل ليون، ألا تذكرني؟

- إنه لا يراك، يا ابن العم . قال خوسيه . قل له من أنت . احزز، يا دون أنسيلمو .

- ماذا؟ . جاءت لاتشونغا واقفة بقفزة واحدة والكرسي الهزاز تابع ترنحه .

الرقيب؟ هل جئت به أنت؟

- لم يكن هناك من وسيلة، يا تشونغا . قال خوسيفينو . وصل اليوم بالذات وبيس رأسه، ولم نستطع منعه . لكنه يعرف ولا فرق عنده .

كان ليتوما بين نزاعي دون أنسيلمو، وكان الشاب ويولاس يريتان على ظهره . كان الثلاثة يتكلمون في وقت واحد ويسمعون من البار، مهتاجين، مذهولين، متأثرين . كان المونو قد جلس أمام الصنجات يدقّ عليها وكان خوسيه يتفحص القيثارة .

- أخرجه فوراً وإلا سأستدعي الشرطة . قالت لاتشونغا . أخرجه على الفور .

- إنه سكران تماماً، يا تشونغا، ولا يكاد يستطيع السير، ألا ترينه؟ قال خوسيفينو . نحن نعتي به . لن تحدث أية ورطة، كلمة شرف .

- أنتم حظي السيء . قالت لاتشونغا . خاصة أنت، يا خوسيفينو . لكن لن يتكرر ما حدث في المرة السابقة، أقسم لك أنني سأطلب الشرطة .

- ما من مشكلة، يا تشونغيتا . قال خوسيفينو . كلمة شرف . هل لا سيلفاتيتيكا في الأعلى؟

- وأين ستكون . قالت لاتشونغا . ولكن إذا حدث ووقعت ورطة، فالتويل لأمك الجاهرة . أقسم لك .

- أشعر بالراحة هنا، يا دون أدريان . قال الرقيب . هكذا هي ليالي بلدي .
دافئة وصافية .

- لا يوجد مثل الجبل . قال نيبيس . كان باريدس في العام الماضي في
سلسلة الجبال وعاد وهو يقول إنه حزين، إذ ليس هناك شجرة واحدة وما من
شيء إلا الصخور والغيوم .

كان القمر الشاهق بضياء الشرفة، وفي السماء والنهر نجوم كثيرة،
وخلف الغابة سياج الظلال الناعمة، كانت الجبال الملاصقة للسلسلة كتلاً
بنفسجية . كانت الضفادع تنقُ عند قدم الكوخ بين الخيزران والسرخس ويُسمع
في الداخل صوت لاليتا وطققة النار . في المزرعة كانت الكلاب تتبع
بعنف: تتعارك مع الجرذان، يا حضرة الرقيب، آه لو رأيت كيف تصطادها،
كانت تكمن تحت أشجار الموز وتتظاهر بالنوم، وحين يقترب واحد منها
تنقضُ وتمسكه من رقبتة . إنَّ الدليل هو الذي علمها ذلك .

- في كاخامار كان الناس يأكلون الكويات⁸² . قال الرقيب . يقدمونها
بأظافرها وعيونها وشواربها . انها مثل الجرذان تماماً .

- قمنا ذات مرة أنا ولاليتا بسفر طويل في الجبل . قال نيبيس . اضطررنا
إلى أن نأكل جرداناً . لحمها كريه الرائحة لكنه طري وأبيض مثل لحم السمك،
أصيب أكيلىنو بالتسمم وكاد يموت بين أيدينا .

- الكبير يدعى أكيلىنو؟ . قال الرقيب . ذو العينين الصغيرتين الصينيتين؟
- هو نفسه، أيها النقيب . قال نيبيس . وفي بلدتكم، ألا توجد أطباق تقليدية؟
رفع الرقيب رأسه، آه، يا دون أدريان، بقي لثوان مسلوب العقل، لو دخل
إلى أحد مطاعم المأكولات الحارة المانغاشية وجرب التشابيلو المز، لمات

⁸² الكويات: ويدعى أيضاً لكا وخاكا وأرنب بلاد الهند (أمريكا) وهو حيوان قارض صغير، سهل
الإكثار، يتحمل جميع أنواع المنلخات وهو لا يحفر في الأرض عندما يدجن، ويستخدم غذاء في جميع
الأحوال الخاصة والعامة والدعوات في تلك البلاد .

فرحاً، كلمة شرف، ما من شيء في العالم يمكن مقارنته به، والدليل نيبيس يوافق: كل يرى أن لا مثل لبلده. ألم يكن الرقيب يتوق أحياناً للعودة إلى بيورا؟ بلى وكل يوم، لكن المرء لا يعمل برغباته عندما يكون فقيراً، يا دون أدريان. وهل وُلد هو هنا في سانتا ماريا ده نيبيا؟

- إلى الأسفل منها . قال الدليل . إن نهر المارنيون هناك عريض جداً، والضباب يخفي الضفة الأخرى لكنني اعتدت على نيبيا.

- الطعام جاهز. قالت لاليتا من النافذة وكان شعرها المسترسل يتساقط شلالات فوق الحاجز، ونراعاها المكتزتان القويتان كانتا تبدوان مبلّتين . هل تريد أن تأكل عندك في الخارج، أيها الرقيب؟

- حبذا، إذا لم يكن هناك إزعاج . قال الرقيب . في بيتك أشعر وكأنني في بلدي، يا سيدة. والفارق هو أن نهرنا أقل عرضاً وليس فيه ماء طول العام، وبدلاً من الأشجار هناك رملات.

- إذن لا يوجد أي شبه . ضحكت لاليتا. لكن لا شك أن بيورا جميلة أيضاً.
- يريد أن يقول إن فيهما القبط نفسه والضجيج نفسه . قال نيبيس . البلد لا يعني شيئاً للنساء، أيها الرقيب.

-كنت أمزح . قالت لاليتا. لكنك لم تتزعج، أيها الرقيب، أليس صحيحاً؟
لماذا خطر له هذا؟ هو كان يحب المزاح، لأنه كان يدخل الثقة في نفسه، وبالمناسبة، السيدة من إيكيتوس، أليس صحيحاً؟ نظرت لاليتا إلى نيبيس، من إيكيتوس؟ لحظة وكشفت عن وجهها: جلد معدني، عرق، حبيبات، بدا للرقيب ذلك من طريقة الكلام، يا سيدة.

- خرجت من هناك منذ أعوام كثيرة . قال نيبيس . نادراً ما تلاحظ لكتنها.
- المسألة أن لي سمعا مرهفاً، ككل المانغاشيين . قال الرقيب . في فتوتي كنت أغني جيداً، يا سيدة.

كانت لاليتا قد سمعت أن أهل الشمال يعزفون على القيثارة جيداً وأنهم طيبو القلب، ليس صحيحاً، والرقيب، طبعاً: ما من امرأة كانت تستطيع أن تقاوم أغاني بلده، يا

سيدة، في بيورا عندما كان يعشق رجل، كان يذهب ويبحث عن أصدقائه، فيخرج الجميع فيناراتهم وتسقط الفتاة على وقع الألحان. كان هناك موسيقيون عظماء، يا سيدة، وكان يعرف الكثيرين منهم. كان يعرف عجوزاً يعزف القيثارة وكان رائعاً، وآخر ملحن فالمسات، وأدريان نيبس أشار للايتا إلى داخل الكوخ: ألن تخرج تلك؟ هزّت لايتا كتفها.

- إنها تستحي، لا تريد أن تخرج. قالت. لا تعمل بكلامي. بونيفاتيا مثل أيل صغير، أيها الرقيب، تصغي إلى كل شيء وتخاف.

- لتأتي ولو لتسلم على الرقيب على الأقل. قال نيبس.

- اتركها، كفى. قال الرقيب. لا تخرج إذا كانت لا ترغب.

- لا يمكن أن يغير الإنسان حياته بهذه السرعة. قالت لايتا. لم تعرف إلا النساء

- والمسكينة تخاف الرجال. تقول إنهم مثل الأقاعي، لا شك أن الأمهات

هن اللواتي علمنها هذا. ذهبت الآن لتختبئ في المزرعة.

-إنهن يخفن الرجل حتى يجزئته. قال نيبس. عندئذ يبذلن موقفهن، ويصبحن نهمات.

غاصت لايتا في الغرفة وعاد صوتها بعد برهة. لم تقتنع، غضبت قليلاً، هي لم تحف

من الرجل قط، لكنها لم تكن أبداً شقية. من كان أدريان يقصد بكلامه؟ ضحك الليل مفتحاً

وانحنى نحو الرقيب: لايتا كانت امرأة جيدة، لكنها فعلاً كانت قوية الشخصية. خرج أكيلينو

إلى المصطبة وكان صغيراً، ناحلاً، لون جلده صاف وعينه متغصنتان كثيرتا الحركة، مساء

الخير، كان يصل القنديل فالظلمة كانت مخيمة في هذا الوقت. وضعه على الدرايزين، كان

خلفه صبيان آخران يرتديان سروالين قصيرين، شعرهما سبط، وأقدامهما حافية، أخرجوا طاولة

صغيرة. ناداهما الرقيب وبينما كان يداعبهما ويضحك معهما، أحضرت لايتا ونيبس

فاكهة، وسمكاً مطهواً على الدخان، إبرة آدم، كم كان يبدو هذا كله رائعاً، يا سيدة، قنينة

أنيسادو، وزع الليل حصص الطعام على الصبية الصغار فانطلقوا باتجاه درج المزرعة:

ظرفاء تشورتاك⁸³ جداً، يا دون أدريان، هكذا كانوا ينادون الصبية في بيورا، يا سيدة،

والرقيب كان يحب الصبية، بشكل عام.

⁸³ تشورات: تطلق على الأطفال وتعني طفل في اللغة المحلية.

- نخبك، أيها الرقيب . قال نيببس . نخب وجودك هنا .

- تخاف بونيفاثيا من كل شيء، لكنها متفانية في العمل . قالت لاليتا .

تساعدني في المزرعة وتتنقن الطهي . وتخطب بشكل جميل . هل رأيت سراويل الصغار؟ هي التي خاطتها، أيها الرقيب .

- لكن عليك أن تتصحيحها . قال الدليل . إذا بقيت خائفة هكذا فلن تجد زوجاً أبداً .

أنت لا تعرف كم هي صموتة، أيها الرقيب، لا تفتح فمها إلا عندما نسألها شيئاً .

- يبدو لي هذا حسناً . قال الرقيب . أنا لا أحب البيغاوات .

- إذاً بونيفاثيا ستعجبك كثيراً . قالت لاليتا . تستطيع أن تقضي حياتها كلها دون أن تقول حتى آه .

- سأبوح لك بسر، أيها الرقيب . قال نيببس . لاليتا تريد أن تزوجك من بونيفاثيا، هذا ما قالت له لي، ولذلك جعلتني أدعوك، انتبه لنفسك، فما زال أمامك متسع من الوقت .

ارتسمت على وجه الرقيب علامات كانت بين الحالمة والشغوفة، يا سيده، فقد كاد في إحدى المرات أن يتزوج . كان قد دخل سلك الحرس المتني لتوه والتقى بامرأة أحبته وأحبها قليلاً، ماذا كان اسمها؟ ليرا، وماذا حدث؟ لاشيء، يا سيده، نقلوه من بيورا ولم ترض اللحاق به، وهكذا انتهت القصة .

- إن بونيفاثيا تذهب مع رفيقها إلى أي مكان . قالت لاليتا . هكذا نحن نساء الجبل، لا نضع شروطاً . يجب أن نتزوج من واحدة من عندنا، أيها الرقيب .

- ها أنت ترى، فعندما يدخل رأسها شيء لا تهدأ حتى تنفذه . قال نيببس .

اللوريتيات لصات، أيها الرقيب .

- ما أخف ظلكم . قال الرقيب . في سانتا ماريا ده نيبيا يقولون عنكم: كم أنتم انزاليون يا آل نيببس، لا تختلطون بأحد أبداً، ومع ذلك، فأنتم، أيها السيدة، كنتم أول من دعاني إلى بيته أثناء هذا الوقت الطويل الذي قضيته هنا .

- المسألة أنه لا أحد يحب الحراس، أيها الرقيب . قالت لاليتا . ألا تلاحظ أنهم شديداً التعسف، يعصفون بالنساء، يعشقونهن، يتركونهن حبالى ثم يطلبون نقلهم .

- إذا كيف تريدن أن تزوجي بونيفاتيا للرقيب . قال نيبيس . هذا يتناقض مع ذلك .
- ألم تقل لي إن الرقيب مختلف؟ . قالت لاليتا. لكن من يدري ما إذا كان هذا صحيحاً .

- صحيح، يا سيدة . قال الرقيب . فأنا، كما يقولون هنا، رجل مستقيم ومسيحي صالح، وصديق لا مثيل لي، سوف ترين . أنا شاكر لكم جداً، يا دون أدريان، فعلاً، لأنني أشعر بالسعادة التامة في بيتكم .

- تستطيع أن تعود متى شئت . قال نيبيس . تعال وزر بونيفاتيا، لكن لا تتعرض للاليتا فأنا شديد الغيرة .

- مطك حق، يا دون أدريان . قال الرقيب . فالسيدة امرأة رائعة، لذلك ساكون غيوراً أيضاً .

- التفاتة طيبة منك، أيها الرقيب . قالت لاليتا. لكنني أدري أنك تقول ذلك مجاملة، لأنني لم أعد امرأة رائعة كما في السابق، عندما كنت شابة، كنت فعلاً كذلك .

- لكنك ما تزالين صبية . احتج الرقيب .

- لم أعد أتق . قال نيبيس . بفضل ألا تأتي في غيابي، أيها الرقيب .

كانت الكلاب ما تزال تنبح في المزرعة وأصوات الصبية تُسمع، وكانت الحشرات تتخبط حول قنديل الراجينج وعائلة نيبيس والرقيب، بشريون، يتحدثون، يمزحون . الدليل نيبيس! التفت الثلاثة نحو دغلة الضفة: كان الليل يخفي الدرب الذي يصعد باتجاه شانتا ماريا ده نيبيا . الدليل نيبيس! والرقيب: لقد كان «الثقيل»، آه، ما أنقله، ماذا كان يحدث له؟ لماذا جاء ليزعجه في تلك الساعة، يا دون أدريان؟ غزا الصبية الثلاثة المصطبة . مضى أكيلىنو نحو الدليل وكلمه بصوت منخفض: ليصعد .

- يبدو أن علينا أن نخرج للسفر، أيها الرقيب . قال الدليل نيبيس .

- لا بدّ أنه سكران . قال الرقيب . يجب ألا نعير «الثقيل» أهمية، فهو عندما يشرب تخطر له أشياء وأشياء .

صرّ السلم، وبرز طيف «الثقيل» خلف أكيلىنو، عجباً، أيها الرقيب، لقد وجدناك أخيراً . كان الملازم والفتية يبحثون عنه في كل مكان، ولتكن ليلتهم سعيدة .

- أنا مغفى . دمدم الرقيب . ماذا تريدون مني؟

- لقد عثروا على الربيبات . قال «الثقيل» . زمرة من رجال المنة بالقرب من أحد المعسكرات من النهر وإلى الأعلى، منذ ساعتين وصل ساع إلى البعثة. وقد استنفرت الأمهات الجميع، أيها الرقيب. يبدو أن إحدى الصغيرات محمولة.

كان «الثقيل» يرتدي قميصاً فقط ويهوى بالقبعة، وتحاصره لاليتا بالأسئلة. وكان الدليل والرقيب قد انتصبا واقفين، بلى، يا للحماقة، أيتها السيدة، كان يجب الذهاب للبحث عنهم في اللحظة نفسها. وهم كانوا يريدون الانتظار حتى الصباح، لكن الراهبات أقتعن دون فاييو والملازم، لكن الرقيب: وهل كانوا سيذهبون ليلاً؟ بلى، يا حضرة الرقيب، فالأمهات خفن أن يغتصب رجال المنة الكيبرات منهم بقوة السلاح.

- الأمهات على حق . قالت لاليتا. فالمسكينات في الجبل منذ أيام كثيرة. أسرع يا أدريان، هيا.

- وماذا سنفعل . قال الدليل . اشرب جرعة مع الرقيب ريثما أضع بنزينا للزورق.

- شكراً، ستريحي . قال «الثقيل» . عكرن علينا حياتنا، أليس كذلك، أيها الرقيب؟ آسف أنني قطعت عليكم الطعام من منتصفه.

- وهل عثروا عليهن جميعاً؟ . قال صوت من الحاجز. وهم نظروا: شعر قصير، صورة جانبية مغبشة، جذع امرأة مقطوع إلى جانب النافذة. ضوء المصباح يصل واهناً إلى هناك.

- ما عدا اثنتين . قال «الثقيل» . وقد مال نحو النافذة . ما عدا اللتين من تشيكاييس.

- ولماذا لم يأتوا بهن بدل أن يرسلوا كبراً؟ . قالت لاليتا. ومع ذلك فمن حسن الحظ أنهم عثروا عليهن، الحمد لله أنهم وجدوهن.

لكن لم يكن عندهن ما ينقلونهن فيه، يا سيدة، و«الثقيل» والرقيب يمدان رأسيهما نحو الحاجز، إلا أن الطيف كان قد انسحب، وليس هناك الآن جزء من وجه يطل، وظل شعر... في الطرف الآخر من الشرفة كان أدريان نيبيس

يعطي أوامر ويُسمع تحريك الصبية للماء، وسيرهم، ذهاباً وإياباً بين السراخس،
قمت لاليتا الأنياسو فشرىوا نخب السيدة، أيها الخراء.

- أعرف أن الملازم قد وضع العمل على كاهلي . قال الرقيب . أعتقد أنني
لن أذهب وحدي للبحث عن الصغيرات، أليس كذلك؟ من سيرافقني؟

- «الصغير» وأنا . قال «الثقيل» . وراهبة أيضاً .

- الأم أنخليكما؟ . قال صوت الحاجز وعادا هما فلوريا عنقيهما .

- أكيد لأن الأم أنخليكما تفهم في الطب . قال «الثقيل» . لكي تعالج

المریضة الصغيرة.

- أعطوها خلاصة الكينا . قالت لاليتا . لكن رحلة واحدة لا تكفيكم، لن
يسعكم الزورق جميعاً، ستضطرون للقيام برحلتين أو ثلاث.

- من حسن الحظ أن القمر طالع . قال الليل نيبس من على السلم
الصغير . خلال نصف ساعة أكون جاهزاً .

- هيا، وأخبر الملازم أننا ذاهبون، يا «ثقیل» . قال الرقيب .

وافق «الثقيل»، ودعهم وابتعد عبر المصطبة . حين مرّ بالنافذة تراجع
الطيف واختفى ثم عاد وظهر بينما كان «الثقيل» يهبط السلم وهو يصفر .

- تعالي، يا بونيفاثيا . قالت لاليتا . سأقدمك للرقيب .

أخذت لاليتا الرقيب من نراعه ومضت به إلى الباب، بعد ثوان انبتق هيكل
امرأة في العتبة . بقي الرقيب ممدود اليدين، يراقب بارتباك بعض الشرر
الساكن، إلى أن قطع شبة الظلّ شكل قائم ولامست أصابع أصابعه، تشرّفنا،
وهربت، بأمرك، يا أنستي . لاليتا كانت تضحك .

- اعتقدت أنه كان مثلك . قال فوشيا . وما أنت ترى، أيها العجوز، كم هي خطيئة رهيبة .

- أنا خُدت قليلاً به أيضاً . قال أكيلينو. لم أكن أصدق أن أدريان نيبس كان قادراً على ذلك. كان يبدو غير مبال بشيء.. أما من أخذ انتبه إلى كيف بدأ الأمر؟
- ما من أحد . قال فوشيا. لابانتاتشا ولا خوم ولا الهوامبمبيون. اللعنة على السباع التي ولد فيها هؤلاء الكلاب، أيها العجوز .

- ها هي الكراهية تملأ فمك من جديد، يا فوشيا . قال أكيلينو .

وعندئذ رآها نيبس قابعة بين جرة الصلصال والحاجز : كبيرة، بالية الثياب، شديدة السواد. نهض من الفراش ببطء وحذر شديد، بحثت يده في المكان، ثياب، بعض الأحذية المطاطية، حبل، بورونغات⁸⁴، سلة تشامبيرا، أشياء غير مفيدة. كانت هي ما تزال في الزاوية، قابعة، لا شك تترصد من تحت ساقها الدقيقتين والداكنتين المنعكستين، وكأنهما نبتة متسلقة في متن الجرة الضارب للحمرة. تقدم خطوة، أخذ السكين المعلقة وهي لم تهرب، كانت ما تزال مترصدة، لا شك أنها كانت تراقب بعينها الفاسنتين كل حركة منه، كرشها الوردي كان ينتفض. تقدم على رؤوس أصابعه من الزاوية، فانسحبت هي بضيق شديد، ضرب فحدث ما يشبه خشخشة الأوراق اليابسة، وحدث في الحصر شق ويقع سواد وحمراء، كانت الساقان سليمتين، وكان شعره أسود، طويلاً وحريراً. علّق نيبس السكين وبقي يدخن قرب النافذة، بدل أن يعود إلى الفراش. كان يتلقى في وجهه وشوشة الأدغال ويحاول أن يحرق بجمرة السجارة أجنحة الخفافيش التي كانت تحوم حول النسيج المعنني .

- ألم يبقيا في الجزيرة وحيدين أبداً؟ . قال أكيلينو .

- مرة واحدة، لأن الكلب مرض . قال فوشيا. لكن كان هذا في البداية. في ذلك الوقت لم يكن من الممكن أن تبدأ القصة، لم يمتلكا الجرة، كانا يخافان مني .

- وهل هناك ما يخيف أكثر من جهنم؟ قال أكيلينو. ومع ذلك ترتكب الناس الشرور. الخوف لا يكبح الناس في جميع الأمور، يا فوشيا .

- ما من أحد رأى الجحيم . قال فوشيا. لكن هذين كانا يشاهدانني

باستمرار .

⁸⁴ بورونغت: وعاء فخاري

- مهما يكن، فإنه عندما يشتهد مسيحي ومسيحية بعضهما بعضاً ما من شيء يوقفهما . قال أكيلينو . فالجسد يحرقهما، كما لو كان في داخلهما نار . ألم يحدث معك مثل هذا؟

- ما من امرأة جعلتني أشعر بذلك . قال فوشيا . لكن الآن نعم، أيها العجوز، الآن نعم . كما لو أن جمرأ تحت جلدي .

إلى اليمين كان نيبس يلح بين الأشجار صلاءات، أطياف هومبسيين فجائية، بينما كان كل شيء في الجانب الأيسر، حيث أقام خوم كوخه، ظلاماً . في الأعلى وفي مواجهة السماء النيلية كانت تتمايل رؤوس أشجار اللوبونا، والقمر يبيض الدرب الذي بعد أن يهبط منحدرأ بشجيرات ومراخس كان يدور حول مستنقع التشارابات⁸⁵ ويستمر حتى الشاطئ الصغير . لا بد أن البحيرة زرقاء، ساكنة ومقفرة، هل ما تزال مياه المستنقع تغور؟ هل جفت الأوتاد والشبكة؟ قريباً تظهر التشارابات مرتظمة بالرمل وأعناقها المجعدة تتناول نحو السماء، عيونها مليئة بالاختناق والمرض، كان من الضروري نزع أقاصها بحد السكين وتقطع لحمها الأبيض إلى قطع مربعة وتمليحه قبل أن تفسده الشمس والرطوبة . رمى نيبس سيجارته وكان يهم بنفخ المصباح حين طرقت الحائط . رفع رتاج الباب ودخلت لالينا ملتفة بعباءة هومبسية⁸⁶، وشعرها إلى خصرها، كانت حافية .

- لو كان لي أن أختار واحداً من الاثنين لأنتقم لنفسي، لاخترتها هي، يا أكيلينو . قال فوشيا، الكلبة . لأنها هي التي بدأت، ولا شك عندما رأيتي مريضاً .

- كنت تعاملها معاملة سيئة، تضربها، علماً بأن للنساء كبرياءهن، يا فوشيا . قال أكيلينو . أية مسيحية كانت ستحمل؟ في كل رحلة كنت تأتي بامرأة وتحضرها في مناخيرها . هل تعتقد أنها كانت محتاظة من التشنونثشيات؟ . قال فوشيا . هذا هراء، أيها العجوز فالكلبة كانت ملتبهة لأنني لم أعد أستطيع معها .

⁸⁵ تشارابات: نوع من السلاحف، صغير الحجم يؤكل ويعيش في بحيرات وأنهار منطقة الأمازون .

⁸⁶ إيتباك هومبسي: نوع من العبائة الأمريكية .

- يفضل ألا تتكلم في هذا الموضوع، يا رجل . قال أكيلينو. أعرف أن الحزن يسيطر عليك.

- لكن الموضوع بدأ بهذا، بأني لم أعد أستطيع مع لاليتا . قال فوشيا. لكن ألا ترى أية مصيبة هذه، يا أكيلينو، وكم هو أمر رهيب!

- ألم أوقظك، قل؟ . قالت لاليتا بصوت حالم.

- لا، لم توقظيني . قال نيبيس . ليلة سعيدة، مزي، لا أكثر.

أرتج الباب، سوى بنظونه وشبك ذراعيه فوق جذعه العاري، لكنه ما لبث أن فكهما في الحال واستمر واقفاً متردداً. أخيراً أشار إلى جزة الصلصال: كانت قد دخلت إحدى البيلودات⁸⁷ فقتلها. منذ أسبوع واحد فقط كان قد سدّ النقوب. جلست لاليتا في الفراش لكن البيلودات كانت تفتح في كل يوم تحباً جديداً.

- المسألة أنها جائعة . قالت لاليتا. دائماً هكذا في مثل هذا الوقت. استيقظت ذات مرة وأنا لا أستطيع تحريك ساقي، أقول لك فعلاً. كان فيها لطفة صغيرة ثم تورّمت. كان الهوامبيسيون يضعون ساقي فوق مجرة كي تتعرق. ما تزال آثارها في. نزلت يداها حتى كنف الرداء ورفعته، ظهر فخذاها، أملسين، بلون المتة، مشدودين، وندبة مثل دودة صغيرة:

- ما الذي يخيفك؟ . قالت لاليتا. لماذا ترتعد، قل؟

- لست خائفاً . قال نيبيس . المسألة لا تتعدى أنك عارية وأنتي رجل.

ضحكت لاليتا وأفلتت الرداء، قدمها اليمنى تلاعب قرعة برية وتداعبها بشرود بأصابعها وكعبها.

- كلبة، عاهرة، وأسوأ من ذلك إن أردت . قال أكيلينو. لكنني أحب لاليتا ولا يهمني. إنها مثل ابنتي.

- إن امرأة تفعل هذا لأنها ترى زوجها يموت أسوأ من كلبة، وأسوأ من عاهرة . قال فوشيا. لا توجد كلمة تعبر عما هي.

⁸⁷ بيلودات: نوع من العناكب.

- تموت؟ الغالبية العظمى في سان بابلو يموتون شيوخاً لا مرضاً، يا فوشيا. قال أكيلينو.

- أنت لا تقول هذا لتوأميني وإنما لأنه يثيرك أن أشتمها. قال فوشيا.

- قاله لك في حضوري. همس نيبيس. مرة أخرى دون أي شيء تحت الرداء وأجعل التارانغانات⁸⁸ تأكلك، أما عدت تذكرين؟

- وقال مرات أخرى سأقدمك هدية للهوامبيسين، وأنزع عينيك. قالت لاليتا. وللبناتاشا طول الوقت أفتلك، إنك تتجسس عليها. وعندما يطلع الفجر لا يفعل شيئاً، احتياجه يذهب مع كلماته، قل هل كنت تتألم عندما كان يضريني؟

- وكنتُ أغضب أيضاً. يحرك نيبيس رتاج الباب. خاصة عندما يشتمك.

وحين كان يخلو بها كانت للحال أسوأ، أخ، أسنانك تتساقط، أخ وجهك مليء باللسع، أخ، جسدي لم يعد كما كان، إنه يذهب منك، قريباً ستكونين مثل عجانز الهوامبيسين، أخ، وكل ما كان ببالك، هل كنت تتألم لها؟ ونيبيس اسكت.

- لكنها كانت تثق بك مع أنها كانت تعرفك. قال أكيلينو. أصل إلى الجزيرة ولاليتا قريباً سيخرجني من هنا. وإذا كان موسم المطاط هذا العام جيداً سنذهب إلى الأكوادور وسنتزوج. كن طيباً، يا دون أكيلينو، بع البضاعة بسعر جيد. مسكينة لاليتا.

- لم تذهب من قبل لأنها كانت تنتظر أن أصبح ثرياً. قال فوشيا. كم هي قاسية، أيها العجوز. لم أتزوج منها عندما كانت متماسكة وخالية من البثور، واعتقدت أنني كنت سأتزوج منها عندما لم تعد تكفي أحداً.

- لكنها دفأت أديان نيبيس. قال أكيلينو. وإلا لما حملها معه.

- وهل سيحملهن المعلم معه أيضاً إلى الإكوادور. قال نيبيس. وهل سيتزوج منهن أيضاً.

⁸⁸ تارانغانات: شجر وارف، خشبه ليفي أبيض تخترق جذعه وأغصانه فراغات أسطوانية قاسية وقائمة لها فتحات تؤدي إلى الخارج ويعيش فيها نوع من النمل يحمل الاسم نفسه، ويتميز بأنه إذا ما وضع شخص يده على جذع هذه الشجرة خرج إليه ولدغه لدغاً مؤلماً يسبب الحمى.

- وحدي زوجته . قالت لاليتا . الأخرى خادمات .
- لتقولي ما تشائين، فأنا أعرف أن هذا يولمك . قال نيبيس . لن يكون فيك روح إذا كان لا يولمك أن يحشر في بيتك نساء أخريات .
- لا يحشرون في بيتي . قالت لاليتا . إنهن ينمن في الحظيرة مع الحيوانات .
- لكنه يبطحنَ أمامك . قال نيبيس . لا تتظاهري بأنك لا تفهمين .
- عاد ونظر إليها ولاليتا اقتربت من حافة الفراش، ملتصقة الركبتين، خافضة العينين ونيبيس لا يريد إهانتها، تلثم ونظر من جديد عبر النافذة، كانت قد أغضبته عندما قالت إنها ستذهب مع المعلم إلى الإكوادور . السماء نيلية اللون، الصلعات، السيزال يومض بين السراخس: كان يعتكر منها، لم يبغ إهانتها، ورفعت لاليتا عينيها .
- ألا يعطيك إياهن وللبانئاتنا أيضاً عندما لا يعجبته . قال . أنت تفعل ما يفعله تماماً .
- أنا وحدي . تلثم نيبيس . والمسيحي بحاجة لأن يعيش مع النساء، لماذا تقارنين بيني وبين البانئاتنا؟ ثم إنني أحب أن تخاطبيني بلا مجاملة .
- في البداية فقط، مستغلة أسفاري . قال فوشيا . كانت تخدشهن، وقد تركت واحدة منهن وهي تتزف . لكن أخيراً اعتادت وأصبحت صديقات لها . كانت تعلمهن المسيحية، وتتسلى معهن . ليس كما تظن أيها العجوز .
- وما تزال تشكو . قال أكيلينو . جميع المسيحيين يحلمون بأن يكون لهم ما كان لك . كم منهم بكل نساء مثلك، يا فوشيا؟
- لكنهن كن تشونتشييات . قال فوشيا . تشونتشييات، يا أكيلينو، أغوارونيات، أتشواليات، تشاريبات، محض قانورات، يا رجل .
- ثم إنهن مثل حيوانات صغيرة . قالت لاليتا . يتوادذن معي . بالأحرى أتألم اخوفهن من الهوامبيسيين . لو كنت المعلم لصرت مثله، ولشتمتني أيضاً .
- وهل تعرفيني كي تحكمني علي؟ . قال نيبيس . أنا لا أفعل هذا مع رفيقتي . خاصة إذا كانت أنت .

- إن أجسامهن هنا تتهدل بسرعة . قال فوشيا . وهل ذنبي أنا أن لاليتا شاخت؟ ثم لو أضعت الفرصة لكنت غيباً .
- لذلك كنت تسرقهن وهن صغيرات هكذا . قال أكيلينو . لكي تكون أجسادهن صلبة، أليس كذلك؟
- ليس لهذا فقط . قال فوشيا . أنا كأى رجل أحب الفتيات الصغيرات، المسألة أن أولئك الكلاب الوثنيين لا يتركوهن يكبرن سالمات، وقد مزقوا أغشية من كَنّ أصغر منهن، وتشاريا هي الوحيدة التي كانت سليمة .
- الشيء الوحيد الذي يؤلمني هو أن أتذكر كيف كنت في إيكيتوس . قالت لاليتا . الأسنان بيضاء متساوية دون أية بثور في الوجه .
- تحبين أن تختري أشياء كي تتعني . قال نيبس . لماذا لا يترك المعلم الهواميسيين يقتربون من هذا الجانب؟ لأن عيونهم تطير منهم جميعاً عندما تمرين .
- وكذلك البانتاتشا وأنت . قالت لاليتا . لكن ليس لأنني جميلة وإنما لأنني المسيحية الوحيدة .
- أنت أفضل من البانتاتشا . قالت لاليتا . لذلك جئت لزيارتك . هل شفيت من الحمى؟
- ألا تذكر أنني لم أهبط إلى الميناء لاستقبالك؟ . قال فوشيا . وأنت جئت ووجدتني في كوخ المطاط؟ حدث ذلك في تلك المرة، أيها العجوز .
- بلى أنكر . قال أكيلينو . كنت تبدو نائماً ومستيقظاً في آن . اعتقدت أن البانتاتشا أعطاك مغلياً .
- ألا تذكر أيضاً أنني سكرت من الأنيسادو الذي أحضرته معك؟ . قال فوشيا .
- أيضاً أتذكر . قال أكيلينو . كنت تريد أن تحرق أكواخ الهواميسيين . كنت تبدو إيليماً، واضطررنا لأن نربطك .
- المسألة أنني حاولت عشرة أيام تقريباً ولم أفرّ على تلك الكلبة . قال فوشيا . لا على لاليتا ولا على التشونتشويات، أيها العجوز، شيء يجنن، أيها العجوز . كنت أبكي وحدي، أيها العجوز، وكنت أريد أن أقتل نفسي، أو أن أقوم بأي عمل آخر، عشرة أيام ولم أفرّ عليهن، يا أكيلينو .

- لا تبك، يا فوشيا . قال أكيلينو. لماذا لم تحك لي ما كان يحدث؟ ربما كنت شفيت وقتها. ولكننا ذهبنا إلى باغوا وكان أعطاك الطبيب حقناً.
- كانت رجلاي قد بدأتا تتملآن، أيها العجوز . قال فوشيا. وكنت أضربهما دون نتيجة، وأشعل بهما الثقاب وكانهما ميتين، أيها العجوز .
- لا تتغص عيشتك الآن بهذه الأشياء المحزنة . قال أكيلينو. انظر، اقترب من الحافة، انظر إلى الأسماك الطائرة، هذه التي فيها كهرباء. انظر كيف تتبعنا، ما أجمل ومضاتها في الهواء وتحت الماء.
- وفوق ذلك البثور، أيها العجوز . قال فوشيا. لم أعد أستطيع أن أنزع ملابسني أمام تلك الكلبة. كان علي أن أوارب طول النهار، وطول الليل، دون أن يكون عندي من أحكي له وضعي، يا أكيلينو، كنت أعاني وحيداً.
- وأثناء ذلك خربشوا على الجدار فانتصبت لاليتا على قنميتها.
- ذهبت إلى النافذة وبدأت تدمم ووجهها ملتصق بالنسيج المعدني في الخارج. كان أحد ما يدمم أيضاً لكن بنعومة.
- أكيلينو مريض . قالت لاليتا. المسكين يتقيأ كل ما يأكله. سأذهب لرؤيته. وإذا لم يعد غداً فسأتي وأعد لك الطعام.
- ليتهم لا يعودون . قال نيبيس . لست بحاجة لكي تطبخي لي، يكفيني أن تأتي لرؤيتي.
- إذا كنت أستطيع أن أكلمك بألفه فباستطاعتك أن تكلمني بالطريقة نفسها . قالت لاليتا. على الأكل عندما لا يكون هناك أحد.
- لو كان معي شبكة لجمعت منها أكراماً، يا فوشيا . قال أكيلينو. هل تريد أن أنهضك كي تراها.
- ثم هناك القدمان . قال فوشيا. أسير عارجاً، أيها العجوز، ويخرج جلدي مني مثل الأفاعي التي ينبث لها جلد جديد، أما أنا فلا، أيها العجوز، أنا كلي قروح، يا أكيلينو، ليس عدلاً، ليس عدلاً.

- أعرف أنه ليس عدلاً . قال أكيلىنو. لكن تعال، يا رجل وانظر ما أجمل هذه الأسماك الكهربائية.

كانت خوانا باورا وأنطونيا تخرجان كل يوم من لا غالييناثيرا في الساعة نفسها وتقومان بقطع المسافة نفسها دائماً، ربع كيلو متر مستقيم ومغبر ثم السوق. كانت بائعات الساحة يبدأن في نشر بطانياتهن عند جذوع أشجار الخروب وترتيب بضاعتهن. عند دكان لاس مارابيلياس⁸⁹. أمشاط، عطور، بلوزات، أقفاص دجاج، شرائط وأقراط. كانتا تتعطفان نحو اليسار، فتظهر على بعد منتهي متر لابلاتا ده أرماس، وهي دوار محاط بأشجار النخيل والتمر الهندي، تقتربان منها من ناحية مفرق الشارع المعاكس للاستريليا دل نورته. في الطريق كانت يد خوانا باورا تلوح بالدواع لمعارفها بينما اليد الأخرى في زراع أنطونيا. كانت خوانا باورا عند وصولهما إلى الساحة تراقب المقاعد المصنوعة من القضبان وتختار للشابة ما كان مظللاً منها. إذا كانت الفتاة هادئة الأعصاب، تعود الغاسلة إلى بيتها وهي تخب بنعومة، تقلت صبيصانها، تجمع غسيلها لتبدأ مشوارها إلى النهر. أما إذا حدث العكس فإن يدي أنطونيا تمسكان بيديها بلهفة وخوانا تتخذ مكاناً لها إلى جانبها وتهدها مدلعة. وكانت تردد تساؤلاتها الصامتة إلى أن تتركها الفتاة تذهب. كانت تعود في طلبها عند الظهيرة وقد غسلت الثياب، وكانت أنطونيا تعود أحياناً إلى لاغالييناثيرا على الحمار. يقول لها أحياناً ماسح أذنية أو شحاذ أو خائفتو: أخذوها إلى حيث فلان، إلى الكنيسة، إلى المالىكون فتعود خوانا باورا وحيدة إلى لاغالييناثيرا، وحين تعود أنطونيا مساء تأخذها من يدها إحدى الخادمت أو أحد المحسنين الوجهاء.

⁸⁹ لاس مارابيلياس: الروائع.

خرجنا في ذلك اليوم ميكرتين أكثر. كان على خوانا باورا أن تحمل ثياب العرض الموحدة إلى تكتة غراو. كان السوق مقفراً وترقد بعض الغاليناثوات على سطح لاس مارابيلياس، وعمال التنظيفات لم يَمروا بعد، وتصدر رائحة كريهة عن القمامة والأعمار الأسنة. كانت نسمة خجولة تهبّ في لابلاتا ده. أرماس، والشمس تطل من سماء بلا غيوم. كان الرمل قد توقّف عن التساقط. نظفت المقعد بفستانها، وجدت يدي الفتاة هاننتين فربت على خدها ومضت. في طريق العودة التقت بزوجة اريموخينس لئاندرو، صاحب «الكمال» وتابعتا معاً طريقهما والشمس تلو في السماء، تسوّط أسطح المدينة العالية. كانت خوانا تسير منضية وتفرك، بين الحين والآخر، خاصرتها، وصديقتها هل أنت مريضة، وهي منذ مدة وأنا أعاني من بعض التشنجات، خاصة في الصباح. تحدثنا عن الأمراض والعلاجات، عن الشيخوخة ومدى زحمة الحياة بالأعمال. ودعتها خوانا ثم دخلت إلى بيتها، وخرجت تجر كيس الثياب المتسخة وتحمل تحت إبطها البدلة الملفوفة بأعداد قديمة من «ايكوس» و«نوتيثياس». ذهبت إلى تكتة غراو، تسير على أطراف الرمال، كانت الأرض حارة وفجأة تجري بين قدميها عظامات سريعة. تقدم عسكري للقائنا. فالملازم كان سيغضب لأنها لم تحضر البدلة في وقت أبكر. انتزع منها الصرة. دفع لها الأجرة. وتوجّهت إلى النهر. لكن ليس إلى «البونته ببيخو» حيث كانت تغسل عادة وإنما إلى شاطئ دائري صغير في أعلى «الكمال». التقت بغامستين أخريين. ظلت الثلاث طوال الصباح على ركبهن في الماء يفركن الغسيل ويتحدثن. انتهت خوانا أولاً فذهبت وكانت الشوارع المبهرة تحت الشمس العمودية مزدحمة بالأهالي والغرباء. لم تكن أنطونيا في الساحة، كما أن الشحاذين وخائنتو لم يروها، فرجعت خوانا باورا إلى لا غاليناثيرا، يداها كانتا تضريان الحيوان وتفركان خصرها بالتأوب. بدأت بنشر الغسيل ثم تركت العمل دون أن تنهيه وذهبت لتستلقي في فراشها المصنوع من القش. وحين فتحت عينها كانت الرمال تتساقط. خرجت إلى الفسحة المكشوفة متممة لاعة: فبعض الثياب كان قد اتسخ. سحبت الظلة التي كانت تحمي حبال الغسيل، نشرت ما كان قد

تبقى من غسل، عادت إلى غرفتها، بحثت تحت الفراش عن الدواء حتى وجدته. بللت خرقة بالمائل، رفعت تنورتها وراحت تدلك وركبها وبطنها بقوة. كان للدواء رائحة بول وقية. انتظرت خوانا مغلقة أنفها إلى أن جف جلدنا. حضرت بعض البقول وعندما همت بتناول طعامها طُرق الباب. لم تكن أنطونيا وإنما خادمة تحمل سلة ثياب. تحدثتا وقوفاً في العتبة. كانت تُمطر رملًا والرمل غير مرئي بل محسوس في الوجه والذراعين مثل دبيب العنكبوت. تحدثت خوانا عن التشنجات والأدوية السيئة والخادمة تحتج: ليغطك أخرى أو ليعذ إليك نقودك. ثم ذهبت بملاصقة الجدار، تحت كنف الأسطحة. بقيت خوانا وحيدة في فراشها، سأذهب إلى كوخك يوم الأحد، هل تعتقد أنك ستخدعني لأنني عجوز؟ دواوك يرجف خصري، أيها اللص، ثم استلقت، وحين استيقظت كان الظلام قد خيم. أشعلت شمعة. أنطونيا لم تعد. خرجت إلى أرض الدار. زَم الحمار أذنيه ونهق. أخذت الدثار وحين أصبحت في الشارع نشرته على كتفها: كان الشارع أسود، وكانت تظهر من نوافذ لاغالييناثيرا قناديل، مصابيح وصلاوات. كانت تسير بسرعة كبيرة، شعناء الشعر وقرب السوق صاح شخص من أحد الأروقة: إنه شبح. كانت تخب، إما أن تعطيني دواء آخر منوماً أو أعد إليّ نقودي. كان الناس الذين في الساحة قليلين. اقتربت من الجميع ولا أحد كان يعرف. كان الرمل يتساقط كثيفاً، مرثياً. غطت خوانا فيها وأنفها. طافت شوارع كثيرة، قرعت أبواباً كثيرة وكررت عشرين مرة السؤال نفسه، وعندما عادت إلى لا بلاتا ده أرماس كانت تجري مجهدة، تستند إلى الجدران. رجلان بقبعتين من قش كانا يتحادثان على مقعد. هي قالت أين أنطونيا والدكتور بيدرو ثيباليو، ليلة سعيدة، يا دونيا خوانا، ماذا تغلطين في الشارع في هذه الساعة، والرجل الآخر وبصوت رجل غريب، الرمل من الكثرة بحيث أنه سيحطم مجمعتنا. رفع الدكتور ثيباليو قبعته وناولها لخوانا فاعتمرتها، كانت كبيرة إذ غطت أذنيها. قال الدكتور إن التعب لا يتركك تتكلمين، اجلسي قليلاً، يا دونيا خوانا، احكي لنا، وهي أين أنطونيا. نظر الرجلان الواحد للآخر، وقال الآخر من المستحسن أن نحملها إلى بيتها والدكتور بلى، أنا أعرفه، إنه في

لاغالبيناثيرا. أخذها من ذراعيها وكانا يحملانها في الهواء تقريباً وخوانا باورا تتمم تحت القبة، تلك، العمياء، هل رأيتماها؟ والدكتور ثيباليو، هوني عليك، يا دونيا خوانا، الآن عندما نصل تحكين لنا والآن ما هذا الذي يصدر هذه الرائحة والدكتور ثيباليو، علاجات طبيب شعبي يا لها من مسكينة.

ينظف خوليو رثائغي جبينه، ينظر إلى المترجم، لم يحترم المنطقة وهذا عمل سيء ثمنه غال: ترجم له هذا. كانت فسحة أوراكوسا صغيرة ومثلثة الشكل والغابة تعانقها عن قرب، أعصان ونباتات متسلقة تنترنح وتتمايل فوق الأكواخ القائمة على دعامات من البونا⁹⁰ والمنتھية بدارات مهدبة مثل نيل بطة. يزمجر المترجم ويؤشر وخوم يصغي بانتباه، يوجد ما يقارب العشرين مسكناً متماثلاً: الأسطح من الياريننا⁹¹ والجدران من قند النشونتا المربوطة إلى بعضها بالخيزران، سلام منحوتة بشكل بدائي في جذوع شجر. يتحدث جنديان أمام الكوخ المليء بالأوراكوسيين السجناء، ينصب آخرون الخيام قرب الودة، يقاتل النقيب البعوض والصغيرة ما تزال هامة بجانب العريف روبيرتو ديلغادو، تنظر بين الفينة والأخرى إلى خوم، عيناه فاتحتا اللون وفي جذعه الفتى بدأت تظهر بقعتان داكنتان. خوم يتكلم الآن، وشفتاه الغليظتان تقنقان أصواتاً خشنة وبصاقاً وخوليو رثائغي يحني رجليه ليتجنب دقات اللعاب، والمترجم عريف سارق، يعني يريد، ما هذا، ثم ذهب ولم يعد بعدها أبداً، أعطاه زرقه، زورق خوم نفسه، واللليل ذهب دون أن يراه. رمى بنفسه إلى الماء، قال، يا سيد. والعريف ديلغادو يتقدم خطوة من خوم: كذاب.

⁹⁰ بونا: نوع من النخيل يستخدم خشبه لصناعة للرماح ورووس السهام.

⁹¹ ياريننا: أنظر الملاحظة رقم (11).

يقفه النقيب كيروغا بإيماءة: كذاب، يا سيدي، فهو كان ذاهباً ليرى عائلته في باغوا، هل كان سيقي يضيع وقته ويسرق أشياء من هؤلاء؟ ثم حتى لو أراد ماذا كان سيمسرق منهم؟ ألم تكن ترى كم كانت أوراكوسا فقيرة؟ والنقيب: إذاً ليس صحيحاً أنهم قتلوا العسكري الغز. كان صحيحاً أنه ألقى بنفسه في المارانينون أم لا؟ لأنه إذا لم يكن ميتاً فهو هارب، والعريف يصلب أصابعه ويقبلها: لقد قتلوه، يا سيدي النقيب، ومساءلة السرقة كذبة كبيرة. لم يفتشوا إلا قليلاً، لكنه حين كان يبحث عن ذلك الدواء المضاد للبعوض الذي كان قد حدثه عنه، ربطه هؤلاء وضربوه بالعصا، وكان من الممكن أن يقتلوه هو والخادم والدليل ويقبروهم كي لا يكتشفهم أحد، أيها النقيب. بيتسم خوليو رثاتيغي للصغيرة فتتظر هذه إليه شزراً، خائفة؟ فضولية؟ ترتدي سترة الوسط الأغوارونية وشعرها الكثيف والمغبر يهتز بنعومة حين تحرك رأسها. لا يوجد زينة في وجهها ولا ذراعيها بل فقط في ساقها: قرعتان صغيرتان، وخوليو رثاتيغي: لماذا لم تتاجر مع بيدرو اسكابينو؟ لماذا لم تبعه المطاط هذا العام كما في كل مرة؟ ترجم له هذا، والمترجم يدمم ويومي، وخوم يصغي متشابك الذراعين والحاكم يشير إلى الصغيرة بأن تقترب، فتدير ظهرها، والمترجم، يا سيّد، لن يكون ذلك أبداً، يا سيد، يقول: اسكابينو شيطان، لا أوراكوسا ولا تشيكاييس ولا أية قرية أغوارونية، المعلم يستغينا يا سيد، وخوليو رثاتيغي ماذا كان سيفعل الأوراكوسيون بالمطاط الذي لم يرضوا ببيعه للمعلم اسكابينو؟ بهدوء، وهو ينظر إلى الصغيرة دائماً، والجلود؟ ترجم له هذا. يدمم المترجم وخوم، يبصقان ويومنان والآن يراقبهما رثاتيغي، منحنيّاً قليلاً نحو الأوراكوسي والصغيرة تتقدم خطوة، تنظر إلى جبهة خوم: الجرح يتورم لكنه توقف عن النزيف، عين شيخ القبيلة اليمنى ملتجة جداً، وخوليو رثاتيغي تعاونية؟ إن هذه الكلمة لم تكن موجودة في الأغوارونية، يا ابني، هل قلت له تعاونية، والمترجم: قلتها له بالإسبانية، يا سيدي والنقيب كيروغا، بلى سمعه يقولها له. أية ورطة هذه، يا سيد رثاتيغي؟ لماذا كانوا لا يريدون أن يبيعوا المطاط لاسكابينو؟ من أين جاؤوا بالذهب إلى إيكيتوس لبيع المطاط إذا كانوا لم يعرفوا قط ما هي

إيكيتوس؟ يبدو خوليو رثاتيغي شارد الذهن، ينزع قبعته، يمسد شعره وينظر إلى النقيب: كان بيدرو اسكابينو يأتيهم بالقماش والبنادق والسكاكين، أيها النقيب، وكل ما كانوا يحتاجونه للذهاب إلى الغابة لاستخراج المطاط. ثم كان اسكابينو يعود فيسلمونه ما جمعه من المطاط فيدفع لهم الباقي قماشاً وطعاماً وكل ما كان ينقصهم، هذا العام تلقوا أيضاً سلفة، لكنهم رفضوا أن يبيعوه له.

هذه هي القصة، أيها النقيب. اقترب الجنود الذين نصبوا الخيام، مدّ واحد منهم يده ولمس الصغيرة التي قفزت، فتراقصت القركات وأحدثت جلبة صنجات والنقيب: هاها، خانوا الثقة. لم يكن على علم بذلك، ضربوا عسكرياً، احتالوا على مدني، إذا لا يستغرب أن يقتلوا عسكرياً غزاً. والحاكم أمسكوا بها، لا تدعوها تهريب. يجري ثلاثة جنود خلف الصغيرة، الرشيق، والسريعة التملص. يمسكون بها وسط المنطقة الخالية من الأشجار ويحملونها إلى الحاكم الذي يمرر يده على وجهها: كانت نظرتها متيقظة وحركاتها رشيق، ألا يبدو لك ذلك، أيها النقيب؟ كان مؤسفاً أن تكبر هنا والضابط: فعلاً، يا دون خوليو وكانت عينها خضراوين: هل كانت ابنته؟ ليسألها ذلك، والنقيب: أيضاً لم يكن بطنها منتفخاً، لأن هذا كان شيئاً رهيباً عند هؤلاء الصغار، لكثرة الطفيليات التي يبلعونها، والعريف روبيرتو ديلغادو: صغيرة ومعتى بها، إنها جيدة للمعاشرة، سيدي النقيب والجنود يضحكون. هل كانت ابنته، والمترجم، ليست كذلك، يا سيد، كما أنها ليست أوراكوسية، لكنها أغرواونية، وُلدت في باتو هواتسانا، يقول يا سيد، وخوليو رثاتيغي، ينادي جنديين: احملها إلى الخيام وخذار أن تتشاطرا عليها. يمسك عسكري بذراعها فتسير دون مقاومة. يعود خوليو رثاتيغي إلى النقيب الذي يصارع من جديد أعداء غير مرتبين وربما أعداء أثريين وهميين: كان هنا بعض من كانوا يقولون عن أنفسهم إنهم معلمون، أيها النقيب. دخلوا في القبائل بحجة أنهم يعلمون الإسبانية للوثيين وقد رأيت النتيجة، لقد صفعوا عريفاً ودمروا تجارة بيدرو اسكابينو. هل كان يتصور النقيب ماذا كان سيحدث لو أن جميع الوثيين قرروا أن يخدعوا

المعلمين الذين دفعوا لهم سلفاً؟ يحك النقيب نفته بشدة: كارثة اقتصادية؟ يشير الحاكم بالإيجاب: إنَّ الذين أتوا من الخارج هم الذين جلبوا المشاكل، أيها النقيب. وكانوا في المرة السابقة إنكليزاً، أتوا بحجة دراسة النباتات، دخلوا الجبل وحملوا معهم بذور المطاط وبعدها امتلأ العالم بالمطاط المنتج في المستعمرات الإنكليزية، وهو أقل ثمناً من المطاط البيروي والبرازيلي، هذا ما دمر بلاد الأمازون، أيها النقيب، والنقيب: هل حقاً كانت تأتي فرق أوبرا إلى إيكيتوس، ورجال المطاط كانوا يشعلون سيجاراتهم بالأوراق المالية؟ يتسم خوليو رناتيغي، أبوه كان يملك طاهياً لكلابه، تصوّر، والنقيب يضحك والجنود يضحكون، لكن خوم يبقى جهماً وذراعاه متصالبان، ومن حين لآخر يتجسس على الكوخ المليء بالأوراكوسيين السجاء، وخوليو رناتيغي يتنهد. كان العمل آنذاك قليلاً والريح كثيراً، أما الآن فالإنسان يتعرق دماً كي يحصل على بعض الأشياء الثاقفة، بل وعليه كذلك أن يواجه هؤلاء الناس ويحل مشاكل سخيفة جداً. النقيب الآن جِدِّي، كان يعتقد ذلك، يا دون خوليو، فالحياة كانت قاسية بالنسبة لرجال الأمازون، ورناتيغي للمترجم بصوت صارم فظ الأغواروني لم يكن يستطيع أن يبيع في إيكيتوس، إذ أن عليه أن يقوم بالتزاماته، وهؤلاء الذين جاؤوا إنما خدعهم، فلا تعاونيات ولا خراء. سيعود المعلم اسكابينو فليمارسوا تجارتهم كالمعتاد، تزجّم هذا، لكن المترجم سريع جداً، يا سيد، أعد، يُفضّل أن تعيد، والنقيب كلّمك ببطء، لا يوجد مزاح. لم يكن خوليو رناتيغي على عجلة، أيها النقيب، وكان سيفعل ما يسره. يدمم المترجم ويومي، خوم يصغي. تهبّ نسمة فوق أوراكوسا فتوشوش أغصان الغابة واهنة، تُسمع ضحكة. الصغيرة تلعب مع الجندي أمام الخيام. ينفذ صبر النقيب، إلى متى؟ يهزّ كتف خوم، أيضاً لم يفهم هذا هذه المرة؟ هل كان يضحك منهم؟ يرفع خوم رأسه، عينه السليمة تتفحص الحاكم. يده تشير وفمه يدمم وخوليو رناتيغي: ماذا قال؟ والمترجم: إنه يشتم، يا سيدي، أنت شيطان، يقول، يا سيدي.

كان الممر خالياً، لا شيء غير ضجة القاعة، وكان للمصباح المعلق في السقف سيلوفان أزرق، ورق الجدران الحائل اللون والأبواب المزدوجة تستحم بنور الفجر. اقترب خوسيفينو من الباب الأول وأصغى ومن الثاني ثم من الثالث فكان هناك من يلهث، وسرير يصرّ خفيفاً، طرقة خوسيفينو بعقد أصابعه فأتاه صوت لاسيلباتيكا: من هناك؟ وصوت نكوربي مجهول: من هناك؟ ركض إلى عمق الممر وهناك لم يكن الفجر هو الموجود وإنما الغسق. وقف بلا حراك، مختبئاً في شبه الظل الرصين، بعدها صرّ قفل وغزا النور الأزرق شعر أسود، يد تلتقطه مثل ستارة، برقت عينان خضراوان. أظهر خوسيفينو نفسه، قام مترنماً، عبر الممر ودخل الغرفة. كانت لاسيلباتيكا تزرر بلوزة صفراء.

- وصل ليثوما هذا المساء . قال خوسيفينو وكأنه يعطي أمراً . إنه في الأسفل مع ابني آل ليون.

هزّت رعشة فجائية جسد لاسيلباتيكا، جمدت يداها اللتان انقبضتا بين العروات. لكنها لم تلتفت ولم تتكلم.

- لا تخافي . قال خوسيفينو. لن يفعل معك شيئاً. عنده علم ولا يبالي بذلك إطلاقاً. تعالي ننزل معاً.

لم تقل شيئاً أيضاً وتابعت تزرير بلوزتها، لكن الآن بيضاء شديدة، فاتلة بارتباك كل زر قبل أن تتخله في عروته، كما لو أن برداً قد كبل أصابعها. رغم ذلك كان وجهها كان يرشح عرفاً وكانت بقع رطبة تصبغ بلوزتها وتحت الإبطين. كانت الغرفة بلا نوافذ يضيئها مصباح ضارب للحمرة وكالامين السقف يلامس رأس خوسيفينو. ارتنت لاسيلباتيكا تتورط طحينية اللون وتصارعت قليلاً مع السحاب قبل أن ينصاع. انحنى خوسيفينو، أخذ حذاء أبيض عالي الكعبين وناولته للاسيلباتيكا.

- تتصبين عرقاً من الخوف . قال . نظفي وجهك . لا داعي للخوف .
عاد ليطلق الباب وعندما دار من جديد كانت لاسيلباتيكا تنظر إلى عينه، دون
أن ترف أهدابها، وشفاتها نصف مفتوحتين وفتحاً أنفها تتكشمان وتتفحان بسرعة
كبيرة، كما لو أن التنفس يكلفها جهداً أو أنها كانت تشم فجأة روائح نقتة.

- هل أنت ثمل؟ قالت فيما بعد وصوتها هَيَّاب مرتعش بينما كانت تفرك
فمها بعصبية بمنشفة صغيرة

- قليلاً . قال خوسيفينو. كنا نحتفل بعودته عند ابني آل ليون. أحضر معه
بيسكو رائعاً من ليما.

خرجاً، وفي الممر كانت لاسيلباتيكا تسير ببطء ويدها مستندة إلى الجدار .
- يبدو كذباً أنك لم تعتادي الكعب العالي حتى الآن . قال خوسيفينو. أم أنه

التأثر يا سيلباتيكا؟

لم تجبه. كانت شفاتها المستقيمتان والكثيفتان تبدوان في النور الأزرق
الخفيف مثل قبضة مشدودة، وكانت تقاسيم وجهها قاسية ومعنوية. هبطا
الدرج، فهرعت للقائهما نقات من الدخان الفاتر والكحول، كان النور يخف،
عندما انبثقت عند أقدامهما قاعة الرقص المعتمة، والصاخبة والمكتنزة. توقفت
لاسيلباتيكا وقيت شبه منحنية فوق الدرايزين، وجحظت عيناها وهامتاً فوق
الأطراف المضطربة ببريق وحشي. أشار خوسيفينو إلى البار.

- بجانب طاولة البار، أولئك الذين يشربون النخب. لا تعرفينه لأنه هزل

كثيراً. بين عازف القيثارة وابني آل ليون، صاحب البيلة التي تلمع.

كان وجه لاسيلباتيكا، المتخشبة الممسكة بالدرايزين، نصف مغطى بالشعر،
وتنفسها المهتاج والصارف ينفخ صدرها. أخذها خوسيفينو من ذراعها وغاصا بين
الأزواج المتعاقبة، كما لو في مياه موحلة، أو كما لو كان عليهما أن يشقا طريقهما
عبر جدار من اللحم الراشح والأوبئة والضجيج الذي لا يُعرف كنهه. كان طبل
وصنجات بولاس تعزف مقطوعة شعبية، وبين الحين والآخر تتدخل قيثارة الشاب
أليخاندرو فتتعش الموسيقى، لكن حين كانت تصمت الأوتار تعود لتصبح فاترة

وذات إيقاع حدادي. خرجا من حلبة الرقص، أمام البار. أفلت خوسيفينو لاسيلباتيكا، انتصبت لاشونغا في كرسياها الهزاز، التفتت أربعة رؤوس لتنتظر إليهما فتوقفا. بدا ابنا آل ليون سعيدين جداً، كان شعر دون أنسيلمو مشوشاً، ونظارته نازلة قليلاً، وفم ليتوما المليء بالزبد يلتوي، ويده تبحث عن طاولة البار كي تضع الكأس وعيناه لا ترتفعان عن لاسيلباتيكا، ويده الأخرى تمسك شعره وتسويه بسرعة وبشكل آلي. وجد فجأة طاولة البار فأبعدت يده الحرة المونو وتقدم بكل جسمه، لكنه لم يتقدم سوى خطوة واحدة حتى راح يترنح في مكانه خائر القوى مثل دوامة وزائغ العينين. سنده ابنا آل ليون عندما كان يهوي. لم يتبدل وجهه، كان ما يزال ينظر إلى لاسيلباتيكا. تنفس بعمق، فقط عندما تقدم منهما بطيئاً جداً واللعب يسيل من فمه، يسنده ابنا آل ليون، انتشر شيء حرون، شاق ومولم، تكلف ابتسامة على شفتيه وارتجفت ذقنه. سعيد لرؤيتك، أيتها الصنيئية، اكتسح الاعوجاج كامل وجهه وأظهرت عيناه الصغيرتان الآن انزعاجاً لا يُحتمل، سعيد لرؤيتك يا ليتوما، قالت لاسيلباتيكا، وهو سعيد لرؤيتك، أيتها الصنيئية، مترنحاً. ابنا آل ليون وخوسيفينو يحيطون به، في العينين الصغيرتين بريق، نوع من الانعتاق، وليتوما انحنى واقترب من خوسيفينو، مرحباً، أيها اللزيميل العزيز، سقط بين ذراعيه، كم أنا سعيد برؤيتك، يا أخي. بقي حاضناً خوسيفينو، وهو ينطق بجمل غير مفهومة، وبين الفينة والأخرى يطلق جنيراً أخرس، لكنه بدا حين انفصل عنه أكثر هدوءاً. كانت قد توقفت تلك الرقصة العصبية الداخلية في عينيه الصغيرتين وكذلك اللمس. وكان يضحك فعلاً. كانت لاسيلباتيكا ساكنة، ويداها متشابكتان أمام تنورتها ووجهها كامن خلف خصلات الشعر الأسود والبراق.

- ها نحن نلتقي، يا صنيئية. قال ليتوما، متلثماً وبصعوبة، وابتسامته في كل مرة عريضة أكثر. تعالي لنشرب النخب، يجب أن نحقل بعونتي، أنا المنيع رقم أربعة.

تقدمت لاسيلباتيكا خطوة نحوه، تحرك رأسها، ابتعد شعرها، لهبان صغيران وأخضران برقاً من جديد بعنوية في عينيهما. مد ليتوما يده، أمسك لاسيلباتيكا

من كتفها، وحملها بهذا الشكل حتى طاولة البار وكانت هناك عينا لاثسونغا الخامتان الوقحتان. كان دون أنسيلمو قد سوى من وضعية نظارتيه، ويدها تبحتان في الهواء حين وقعتا على ليتوما ولاسيلباتيكا فربتتا عليهما بحنان، هكذا أحبكما، أيها الشابان، أبوياً.

- إنها ليلة اللقاءات، أيها العجوز العزيز . قال ليتوما. ها أنت ترى كيف تصرفت جيداً. املاي الكؤوس، يا تشونغا تشونغيتا، وآخر لك أيضاً.
ويجرعة واحدة ذهب بالكأس، وراح يلهث والبيرة تبلى وجهه، ولعابه كان يسيل حتى طيتي السترة المتسختين.

- يا لقلبك، يا ابن العم . قال ألمونو. كبير كالشمس!
- روح وقلب وحياة، أريد أن أسمع هذا الفالس، يا دون أنسيلمو . قال ليتوما. كن طيباً ولبّ لي هذه الرغبة.

- هيه، لا تهمل الجوقة . قالت لاثسونغا. في العمق يحتجون، إنهم يطلبونك.
- دعيه برهة معنا، يا تشونغيتا . قال صوت خوسيه، نبقاً، حلواً ومذاباً.
ليتناول هذا الفنان العظيم بعض الكؤوس معنا.

لكن دون أنسيلمو كان قد دار نصف دورة وعاد بوداعة إلى زاوية الموسيقيين، متمسماً الجدار، جازاً قديمه، وليتوما يعانق لاسيلباتيكا دائماً، ويشرب دون أن ينظر إليها.

- لِنَعْنُ النشيد معاً، يا ابن العم . قال ألمونو. قلب كالشمس، يا ابن العم!
بدأت لا تشونغا تشرب أيضاً، عيناها المترخيتان والكئيبتان وشبه الميتين كانتا تراقبان هؤلاء وأولئك، المنيعين ولاسيلباتيكا، خليط الرجال والقاطنات الذي كان يترنج بين الهمس والضحكات في حلبة الرقص، والأزواج الذين كانوا يصعدون السلم ومجموعات الزوايا الضبابية. خوسيفينو، المنكئ على طاولة البار لم يكن يشرب، بل ينظر عرضاً إلى ابني آل ليون اللذين يقرعان كأسيهما. وفجأة دوى صوت القيثارة والطبل والصنجات، واجتاحت حلبة الرقص رعشة. التهبت عينا ليتوما الصغيرتين حماساً.

- روح وقلب وحياة. يا لهذه الفالسات التي تأتي بالذكريات. تعالي نرقص،
أيتها الصبيبية.

جَزْ لاسيلباتيكا دون أن ينظر إليها، ضاعا بين الأجساد المكسمة والظلال
بينما ابنا آل ليون يتابعان الإيقاع بأيديهما ويغنيان. كانت نظرة لاتشونغيتا ما
تزال على خوسيفينو ساكنة كريهة وكأنها تود أن تصيبه بعدوى ارتخائها
اللامتاهي.

- ياللمعزة، يا تشونغيتا . قال خوسيفينو. أنت تشررين!

- كم أنت خائف . قالت لاتشونغفا وظهر لثانية وميض ساخر في عينيها.
آه كم أنت خائف، أيها المنيع.

- لا داعي للخوف . قال خوسيفينو. ها أنت ترين كيف أقي بوعدتي، لم
تحدث أية ورطة.

- خوف فيض عنك . ضحكت لاتشونغفا دون رغبة، يرتجف له صوتك،
يا خوسيفينو.

كانت ساقا الرقيب العاريتان تتكلمان من سلم محرسه وكان كل شيء يتموج حوله. الهضاب المغطاة بالغابات، أشجار الكايبيرونا ساحة سانتا ماريا ده نيبيا، وحتى الأكواخ كانت تهتز كالدوي عند مرور الريح الحارة والصارفة. كانت البلدة في ظلمة خالصة والحراس يشخرون، عراة تحت الناموسيات. أشعل الرقيب سيجارة، وكان يمخّ آخر أنفاس السيجارة عندما ظهر فجأة الزورق صامتاً وراء أدغال الخيزران، تحرفه مياه نهر نيبيا، الكوخ مخروطي في المقدمة، أطراف تتحرك على ظهره. لم يكن هناك ضباب والمرفاً يلمح من مركز الحراسة بوضوح تحت ضوء القمر. هبط جسم صغير من الزورق وركض متقادياً أوتاد الشاطئ الصغير. اختفى في ظلال الساحة وبعد لحظة ظهر بالقرب من مركز الحراسة، حيث أصبح باستطاعة الرقيب أن يتعرف على وجه لاليتا ومشيئتها الواثقة وشعرها وذراعها القويتين اللتين تجذفان حول وركبها الضخمين. انتصب نصف انتصاب وانتظر وصولها إلى حافة السلم.

- ليالك سعيد، أيها الرقيب . قالت لاليتا. من حسن حظي أنني وجبتك مستيقظاً.

- نويتني في الحراسة، يا سيدة . قال هو. ليالك سعيد. اعذريني.

- الأنتك في السروال الداخلي؟ . ضحكت لاليتا. لا تهتم، أليس لباس التشونتشويين أسوأ؟

- معهم حق في أن يخرجوا عراة في هذا القبط . ينستر الرقيب، وهو في وضعية شبه جانبية، بالدرايزين . لكن الحشرات تنقض على المرء، كامل جسدي يلتهب الآن.

كان رأس لاليتا مائلاً إلى الخلف وضوء مصباح مركز الحراسة يضيء وجهها ذا البثور الجافة التي لا تحصى وشعرها المسترسل الذي كان يتموج أيضاً خلفها مثل عباءة ياغوية دقيقة الألياف.

- إننا ذاهبون إلى باتو هواتشانا . قالت لاليتا. يوجد عيد ميلاد والاحتفالات تبدأ صباحاً. لم نتمكن من الخروج قبل.

- وماذا تريدون أكثر من هذا، يا سيدة . قال الرقيب . اشربوا بعض الكؤوس على نخبي.

- يذهب الأطفال معنا أيضاً . قالت لاليتا. لكن بونيفاتيا لم ترض الذهاب معنا. لا يفارقها الخوف من الناس، أيها الرقيب.

- إنها فتاة تافهة . قال الرقيب . تضع فرصة مثل هذه، رغم ندرة الاحتفالات هنا.

- سنبقى هناك حتى يوم الأربعاء . قالت لاليتا. تراك تساعدنا، إذا احتاجت المسكينة لشيء؟

- بكل سرور، يا سيدة . قال الرقيب . لكن المشكلة الوحيدة هي أنها في المرات الثلاث التي ذهبت فيها إلى بيتكم، لم تخرج حتى إلى الباب.

- النساء مزاجيات دائماً . قالت لاليتا. ألم تنتبه حتى الآن؟ هي الآن وحيدة ولا خيار أمامها إلا أن تخرج. قم غداً بجولة هناك.

- على أي حال، . قال الرقيب . هل تدرين، يا سيدة أنني اعتقدت عندما ظهر الزورق أنه المركب الشبح، مركب الهياكل العظمية الذي يقتل جوالي الليل. لم أكن أو من سابقاً بالأشباح، لكنني أصبت هنا بالعدوى منكم.

رسمت لاليتا إشارة الصليب وأسكته بيدها، ألم تر، أيها الرقيب أنهم كانوا في سفر ليلي؟ كيف تتحدث عن هذه الأشياء. إذاً إلى اللقاء يوم الأربعاء، أه.

وأدريان كان يرسل إليه بتحياته. ابتعدت مثلما جاءت راكضة والرقيب انتظر قبل أن يدخل ليرتدي ملابسه أن ترتسم هيئتها بين الأوتاد وأن تقفز إلى الزورق: أيها الرقيب، كانوا يعدون لك السرير. ارتدى القميص والبنطلون والحذاء ببطء وهو محاصر بتنفس الحراس الهادئ، وكان الزورق يبتعد باتجاه المارانينون بين زوارق الجنوح⁹² ومراكب النقل، وأدريان في المقدمة يفوّص مجذافه الطويل ويخرجه. يا لهؤلاء الغائبين، يسافرون حاملين بيوتهم وكلّ شيء، مثل ذلك العجوز أكيلينو.

⁹² زوارق الجنوح: زورق مصنوع من جذع محفور.

أحقاً أمضى عشرين عاماً في الأنهار؟ يا لها من عادات. سمع المحرك يشخر، زئير قوي يطغى على خفق الأجنحة وصرير الجدادج، ثم راح يتلاشى ويبتعد. وانبعثت أصوات الجبل، الواحد تلو الآخر وهيمنت على الليل: ومرة أخرى هيمنت ضجة النباتات والحيوانات. هبط الرقيب السلم مشمراً عن زنديه وسيجارة بين شفثيه وهو ينظر في الاتجاهات كلها، وذهب إلى كوخ الملازم: تنفس مخنوق وشبه متهدج كان يعبر النسيج المعدني. تقدّم مسرعاً في الدرب بين أنواع من الزعيق. لا يمكن التمييز بينها وحدقات بوهوات⁹³ ويوم مضينة وإيقاعات الجدادج المتكررة والهائجة، شعر على جلده بلامسات خفية ووخز كوخز الإبر، وهو يسحق الشجيرات الغضة التي تخشخش والأوراق الجافة التي تطلق تحت قدميه. عندما وصل أمام كوخ الدليل نيبس التفت: غشاوات ضاربة للبياض تغطي المدينة، لكن في أعلى التلال كان مكان إقامة الأمهات يسطع بجدرانه البيضاء الناصعة بزهر وكذلك كالامينها البراق. كما كانت تلمح واجهة المصلى وبرجه الرقيق والرمادي المتسامق نحو قبة السماء الزرقاء الشاسعة. وكان سور الغابة الدائري، الذي تهزه دائماً ارتعاشة ناعمة، يطلق صريراً رتيباً، نوعاً من التثاؤب الحلقى اللامتناهي. وفي الغمر حيث كانت قنما الرقيب غائستين اصطدم بكعبيه علق دافئ الجسم لزج وخفي. انحنى، بلل جبينه وتسلق السلم. كان داخل الكوخ مظلماً وتخرج منه رائحة كثيفة، مختلفة عن رائحة الغابة، تتبعث من زوايا، كما لو كان هناك بقايا طعام أو جثة منسخة وعندئذ نبج كلب في الغمر. يمكن أن يكون هناك من يراقب الرقيب من الفتحة التي تفصل الجدار عن السقف، نوران صغيران يمكن أن يكونا عيني امرأة وليس حبابيين: هل كان مانغاشياً أم لا؟ أين ذهبت شجاعته؟ كان يجوب الشرفة على رؤوس أصابعه وهو ينظر إلى جميع الجهات، كان الكلب ما يزال يعوي في البعيد. والستارة مرفوعة ومن فتحة الكوخ السوداء تخرج روائح قوية.

- أنا الرقيب، يا دون أدريان. صرخ. اعذرني على إيقاظي لك.

⁹³ بوهوات: نوع من البوم

شيء نزق، حركة فجائية أو أنين ثم الصمت من جديد. وصل الرقيب حتى العتبة، رفع المصباح الكهربائي وأشعله، قمر أصفر ودائري كان يتجول عصبياً فوق أباريق من صلصال وقدر ودلو ماء ودون أدريان: أنت هنا؟ أريد أن أكلّمك، يا دون أدريان. وبينما كان الرقيب يتلثم راح القمر يتسلق الجدار، رشيقاً وشاحباً، كاشفاً عن معلبات، يزحف فوق الألواح الخشبية ويمضي بجثع من مجرة مطفاة إلى مجاذيف، من بعض الأثرة إلى لفة أوتار ومن رأس يغوص، إلى ركب وذراعين تنتهي: ليلة سعيدة أليس هنا دون أدريان؟ يتوقف القمر فوق الكتلة التي كانت تشكلها المرأة المنكمشة، ويرتجف نوره الزنخ فوق وركين لا حراك فيهما. لماذا كانت تتظاهر بالنوم؟ يكلمها الرقيب فلا تجيب، لماذا كانت هكذا، يتقدم خطوتين فيغرق الرأس أكثر قليلاً بين الذراعين، لماذا، يا أنسة؟ كانت البشرية ببياض هالة النور التي تجوبها. رداء فاقع اللون كان يغطي جسدها من الركبتين إلى الكتفين. كان الرقيب يعرف كيف يعامل الناس فلماذا كانت خائفة منه، وهل جاء ليسرق؟ مَرَّ الرقيب يده على جبينها القمر، اهتاج، اختفت المرأة والهالة الصفراء كانت تبحث عنها فتبرز قدمين وكعبين. كانت ما تزال في الوضعية نفسها، تدبّ القشعريرة في جسدها الممدد، وكانت تُكرر حركة على دفعات قصيرة جداً. هو لم يكن لصاً، والرقيب لم يكن شيئاً يُستهان به، إذ يملك بيتاً وطعاماً، وليس بحاجة لأن يسرق أحداً، كما أنه لم يكن مريضاً. لماذا أنت هكذا، يا أنسة؟ لنتهض، فهو فقط كان يريد أن يتبادل معها الحديث قليلاً، كي يتعارفا بشكل أفضل، موافقة؟ تقدم خطرتين أخريين وجلس القرفصاء. كانت قد توقفت عن الارتعاش وأصبحت شكلاً متخشباً. لم يكن يلحظ تنفسها. لماذا كانت خائفة منه؟ هيا، ومدّ الرقيب يداً، هيا، بخوف إلى شعرها، لم يكن هناك ما يدعو للخوف، أيتها الصينية، احتكاك شعيرات خشنّة برؤوس الأصابع، وكثور في الظلمة، ارتفع شيء قاس وضرب وسقط الرقيب جالساً، يتلمس في العتمة. رسم القمر، لثانية، طيفاً كان يعبر العتبة، وفي الشرفة كانت ألواح الخشب تططق تحت قدمي الهاربة السريعين. خرج الرقيب راكضاً وكانت في الطرف الآخر، منحنية فوق

الدرابزين، تهز رأسها مثل مجنونة، يا صينية احذري أن تلقي بنفسك إلى النهر، انزلق للرقيب، اللعنة، وتابع جريه، ماذا ظننت، لكن لتأتي، يا صينية وهي تتابع رقصها ووثيها بمواجهة الدرابزين، متخبطة مثل حشرة سجينة في زجاج القنديل. لم تكن لتلقي بنفسها إلى النهر ولا لتجيبه، لكنها، وعندما أمسك بها الرقيب من كتفيها، راحت تتنفس وتواجهه مثل نمر صغير، صينية، لماذا كانت تخدشه؟ راح الجدار والدرابزين يقطعان، لماذا كانت تعضه؟ ويهدم لهاث الجسدين اللذين كانا يتعاركان، لكن لماذا كانت تخدشه، الصينية؟ إضافة إلى صوت المرأة الصارخ والمتلطف.. كان قميص الرقيب وينطلونه رطبين، وكان تنفس الغابة موجة شمسية تزيد الحالة وتبلله، يا صينية. استطاع أخيراً أن يثبتها من يديها فراح يسحبها بكامل جسده على الجدار، وفجأة يرفسها ويرميها ويسقط معها، ألم تتأذ للبلهاء؟ كانت تدافع عن نفسها بصعوبة على الأرض، لكن أنينها كان أشد. وكان الرقيب يبدو مشتتاً، أي صينية، أي صينية، ويلعن صائراً على أسنانه، أرايت؟ وراح يعتلها شيئاً فشيئاً، يا أماء. هو جاء ليتحدث معها ليس إلا، هي السبب، يا للصينية، هي التي حملته على هذا التصرف، يا للصينية، وكان جسدها ينزلق تحت الرقيب، لكنه كان مستسلماً. تحركت قليلاً عندما صحبت يد الرقيب الرداء وانتزعت منه، ثم بقيت ساكنة، بينما كان يداعب كتفيها المبللين، ثدييها، خصرها، يا للصينية: سلبت عقله، كان يحلم بها منذ اليوم الأول، لماذا هربت؟ يا للبلهاء، ألم تكن راضية؟ كانت تطلق أحياناً جھيشاً، لكنها لم تعد تقاوم، وبقيت قاسية وساكنة، أو مرتخية وساكنة، لكنها كانت تطبق فخذها بعناد، يا للبلهاء، يا للصينية، لماذا كانت تقبل هذا، لنر؟ لتعانقه قليلاً وفم الرقيب يجهد من أجل أن يفصل الشفتين الملتحمتين وراح جسدها، كل جسدها يتموج، يضرب الآخرين. يا للصينية، ما أخبثها، ماذا كان يفعل لها، لماذا كانت لا تريد فتح فمها الصغير وساقها، يا أماء: كان يحلم بها منذ اليوم الأول. ثم هذا الرقيب وابتعد فمه عن الشفتين المطبقتين وانزاح جسده جانباً وبقي ممدداً على ظهره على الألواح الخشبية، يتنفس بتعب. عندما فتح عينيه كانت هي واقفة تنظر إليه وعيناها تبرقان

في الظلمة، بلا عدوانية، وبنوع من الاندهاش الهادئ. نهض الرقيب مستنداً إلى الدرابزين، مد يده فتركته يلمس شعرها، وجهها، آه، يا صينية، كيف تركته، يا لها من بلهاء، شاداً إياها من خصرها، تركته، وعانقها بعدوانية وقبلها. لم تقاوم، ثم وبعد لحظة توضع يداها بخجل على ظهره، بلا جهد وكأنها ترتاح، يا للصينية، تراك لم تعرفي رجلاً حتى تلك الساعة، قولي؟ انحنيت قليلاً وألصقت فيها بأذن الرقيب: لم أعرفه، حتى هذه الساعة، يا معلم، لا.

- كنتا في نهر أباجا ووجد الهوامبيسيون بعض الآثار . قال فوشيا. وخاطرت مع هؤلاء الكلاب. يجب تقّي هذه الآثار، يا معلم، لا بدّ أنهم محملون بالمطاط، ويذهبون لتسليم ما جمعه خلال العام. استجبت لهم واقفينا الآثار، لكن الكلاب لم يكونوا يبحثون عن المطاط وإنما عن المشاكل.

- إنهم هوامبيسيون . قال أكيلينو. من المفترض أنك تعرفهم، يا فوشيا. وهل بهذا الشكل التقيتم بالشابريين؟

- بلى، وعلى ضفاف البوشاغا . قال فوشيا. لم يكن بحوزتهم كرة مطاط واحدة وقتلوا لنا هوامبيسياً قبل أن نهبط إلى البر، أما الآخرون فقد أخذهم الهياج ولم نستطع إيقافهم. لا يمكن أن نتصوّر يا أكيلينو.

- طبعاً أتصوّر، لا شك أنهم ارتكبوا منبحة رهبة . قال أكيلينو. إنهم أكثر الوثنيين انتقاماً. هل قتلوا كثيرين؟

- لا، استطاع جميع الشابريين تقريباً أن يلونوا بالجبل . قال فوشيا. لم يكن هناك إلا امرأتان عندما دخلنا. قطعوا رأس واحدة والأخرى تعرفها. لكن لم يكن سهلاً حملي لها إلى الجزيرة. اضطررت إلى أن أشهر عليهم المسدس، فقد كانوا يريدون قتلها أيضاً. هكذا بدأت مسألة الشاربية أيها العجوز.

وهل كان قد وصل هوامبيسيان؟ هرعت لاليتا إلى البلدة وأكيلينو يمسك بتورتها وبعض النسوة يبكين صارخات: لقد قتلوا واحداً في البوشاغا، أيتها المعلمة، قتله الشابريون بسهم مسموم. وماذا عن المعلم والآخرين؟ لم يحدث لهم شيء، سيصلون فيما بعد، كانوا قادمين على مهل ومنعهم حمل كبير جمعه من قرية أغارونية على نهر الأبأغا. لم تعد لاليتا إلى الكوخ، وإنما بقيت إلى جانب أشجار اللبونا تنتظر إلى السهل وفم المجرى، بانتظار أن يظهروا. لكنها تعبت من الانتظار وراحت تمشي في الجزيرة وأكيلينو مميمك دائماً بتورتها: بحيرة السلاحف، أكواخ المسيحيين الثلاثة والقرية الهوامبيسية. كان الوثنيون قد تخلصوا من الخوف من أشجار اللبونا، يعيشون بينها، يلمسونها. وكان أقرباء الميت ما يزالون يبكون، متمرغين على الأرض. ركض أكيلينو إلى حيث كانت العجائز يجدن أوراق لاونغورابي⁹⁴. كانوا يقولون يجب تبديل الأسطحه إلا فإن المطر سيدخل ويبلأنا.

- كم كان عمر الشابرية عندما حملتها معك إلى الجزيرة؟ قال أكيلينو.
- كانت صغيرة، وعمرها بحدود الاثني عشر عاماً. قال فوشيا. وكانت بكراً، يا أكيلينو، لم يكن قد لمسها إنسان، لم تكن تتصرف كحيوان، أيها العجوز، كانت تتجاوب مع الدغدغة، كانت مغفاجاً، مثل جرو صغير.
- مسكينة لاليتا. قال أكيلينو. بأي وجه ستستقبلك عندما تراها تصل معك، يا فوشيا!
- لا تشفق على تلك الكلبة. قال فوشيا. يحزنني أنني لم أعذب هذه الكلبة الناكرة للجميل كفاية.

هل كانوا مقاتلين أشداء؟ ربما، لكنهم طيبون مع أكيلينو، علموه صناعة السهام، وجراب الصيد، كانوا يتركونه يلعب بالأوتاد التي كانوا يصقلونها ليصنعوا سبطانات قذف السهام، التي قد تكون ضعيفة بالنسبة لبعض الأشياء، لكن، ألم يصنعوا بأنفسهم الأكواخ ومزارعهم الصغيرة والدنارات؟ ألم يحضروا الطعام حين كانت تنفذ معلبات دون أكيلينو؟ وفوشيا من حسن الحظ

⁹⁴ لاونغورابي: نبات أمريكي.

أن يكونوا وثنيين ويقتنعون بالعراك والانتقام. إذ لو كان علينا تقسيم الأرباح معهم، لكنا فقراء الآن، ولاليتا يا فوشيا، إذا صارنا غنيين في أحد الأيام فسيكونان مدينين بذلك للهوامبيسين.

- في صغري، عندما كنت في ميوبامبا، كنا نذهب في مجموعة لتجسس على النساء اللامتسيين. قال أكيلينو. أحياناً كانت تبتعد إحداهن وكنا ننقض عليها، دون أن ننظر إلى ما إذا كانت عجوزاً أم صبية، جميلة أم قبيحة. لكن لا يمكن أن تتساوى أبدأ التشونتشية بالمسيحية.

- المسألة أنه حدث لي شيء مختلف، أيها العجوز. قال فوشيا. لم أكن أحب أن أبطحها فقط وإنما أن أبقى معها مستلقياً في السرير المعلق وأضحكها. وكنت أقول يا للأسف إنني لا أعرف شابرية لأتكلم معها.

- عجباً، يا فوشيا، إنك عندما تتذكرها تبتسم وينشرح صدرك. قال أكيلينو. ما الأشياء التي كنت تحب أن تقولها لها؟

- أي شيء. قال فوشيا. ما اسمك؟ أديري ظهرك، اضحكي أيضاً مرة أخرى. أو أن تسألني هي عن حياتي فأحكي لها.

- أنظر، أنظر. قال أكيلينو. وقعت في غرام التشونتشية.

في البداية بدا وكأنهم لا يرونها أو أنها غير موجودة. كانت لاليتا تمر فيتابعون هرس التشمابيرا، يخرجون الألياف ولا يرفعون رأسهم. ثم بدأت النسوة يلتفتن إليها ويضحكن معها، لكنهن لا يجبنها، تراهن كن لا يفهمن ما تقول؟ هل كان فوشيا يمنعهن من الكلام معها؟ لكنهن كن يلعبن مع أكيلينو، وذات مرة ركضت هومبيسية خلفهما وأدركتهما ووضعت لأكيلينو طوقاً من بذور وأصداف، تلك الهومبيسية التي ذهبت دون وداع ولم تعد أبداً. وفوشيا: هذا أسوأ شيء، كانوا يأتون حين يريدون ويذهبون عندما يخطر لهم ذلك، وكانوا يعدون بعد أشهر وكان شيئاً لم يكن. كان التعامل مع الوثنيين ملعوناً، يا لاليتا.

- كانت المسكينة ترتعب منهم، يقترب هومبيسي فترتمي على قدمي، تحتضنني مرتعدة. قال فوشيا. كانت تخاف الهومبيسين أكثر مما تخاف الشيطان، أيها العجوز.

- ربما كانت المرأة التي قتلوها في البوشاغا أمها . قال أكيلينو . ثم ، ألا يكره الوثنيون جميعاً الهوامبيسي؟ فهم متكبرون ، ويحتقرون الجميع وأخبث من أية قبيلة أخرى .

أنا أفضلهم على الآخرين . قال فوشيا . ليس فقط لأنهم ساعدوني . أحب طريقتهم في الحياة . هل رأيت ذات مرة هوامبيسياً يعمل خادماً أو عاملاً تابعاً؟ لا يسمحون بأن يستغلهم المسيحيون . فقط يحبون الصيد والقتال .

- لذلك سينهونهم جميعاً ، لم تبق عينة واحدة منهم . قال أكيلينو . لكنك استغليتهم على هواك ، يا فوشيا . فجميع الأضرار التي أوقعوها في المورونا والباساتا والسانتياغو كانت في سبيل أن تكسب أنت المال .

- أنا الذي كنت أزودهم بالبنائق وأقودهم إلى حيث أعداؤهم . قال فوشيا . لم يكونوا يرون فيّ معلماً وإنما حليفاً . ماذا سيفعلون الآن بالشابرية؟ أعرف . لا بد أنهم انتزعوها من البانتاتشا ، هذا أكيد .

كانت قريبات الميت ما يزلن يبكين ويخزن أنفسهن بالشوك إلى أن يتدفق الدم ، أيتها المعلمة ، كي يرتحن ، فمع خروج الدم الفاسد تزول الأحران والعذابات ، ولاليتا ، ربما كان هذا صحيحاً ، في أي يوم تعاني فيه ستخر نفسها وترى . وفجأة ينهض رجال ونساء ويركضون باتجاه الوهدة . كانوا يتسلقون أشجار اللوبونا ويشيرون إلى البحيرة ، هل كانوا يصلون؟ بلى ، من قم المجرى خرج زورق ، مركب استطلاع يا فوشيا ، حمولات كثيرة ، زورق آخر ، بانتاتشا ، خرم ، حمولات أخرى ، هوامبيسيون والدليل نيبس . ولاليتا ، انظر يا أكيلينو ، هذه الكمية الهائلة من المطاط ، لم أر قط مثل هذه الكمية . كان الله يساعدهم ، قريباً سيصبحون أثرياء ويذهبون إلى الإكوادور وأكيلينو يزعم ، تراه كان يفهم؟ لكن يا للهوامبيسي الذي قتلوه من مسكين .

- لا بد أنه أضحى بلا زوجة ولا معلم . قال فوشيا . وكان يبحث عني في كل مكان ، يا للمسكين ، كما لا بد أنه بكى وصرخ من الألم .

-لا يمكنك أن تشفق على البانتاتشا . قال أكيلينو . إنه مسيحي حتى الجنون ، فالمظليات ذهبت بعقله . لن ينتبه إلى أنك ذهبت . عندما وصلت إلى الجزيرة هذه المرة الأخيرة لم يعرفني .

—وماذا تعتقد أنه قدم لي لأكل منذ أن ذهب أولئك الأشرار؟ قال فوشيا.
كان يطبخ لي، يذهب ليصطاد لي صيداً برياً ونهرياً. لم أكن أستطيع النهوض
أيها العجوز، وكان يقضي اليوم كله إلى جانب فراشي، مثل كلب، لا بد أنه
بكى، أوكد لك ذلك.

— حتى أنا تناولت ذات مرة مغلياً. قال أكيلينو. لكن البانتاتشا أمن عليه
وسيموت قريباً.

كان الهوامبيسيون يُنزلون الكرات السوداء والجلود ويربطون الزوارق، وكانت
لاليتا تلوح بالوداع من الوهدة حين ظهرت هي: لم تكن هوامبيسية ولا أغارونية.
كانت تبدو في ثياب احتفالية: أطواق خضراء، وصفراء وحمراء، تاج من ريش،
أقراط دائرية في الأذنين، ورداء طويل برسوم سوداء. كان هوامبيسيو الوهدة
ينظرون إليها: أيضاً شابرية؟ شابرية، تمتوا. وأخذت لاليتا أكيلينو وجرت إلى
الكوخ وجلست على السلم الصغير. استغرق العمل وقتاً. في البعيد كان يظهر
الهوامبيسيون وهم يمرون، والمطاط على أكتافهم، والثانتاتشا الذي كان يجعلهم
ينشرون الجلود في الشمس. أخيراً جاء اللليل نيبيس وقبعة قش في يده: كانوا قد
توغلوا كثيراً، أيتها المعلمة وصادفوا دوامات مائية كثيرة، لذلك استغرق السفر وقتاً
طويلاً، وهي: أكثر من شهر. لقد قتلوا هوامبيسياً في البوشانغا، وهي كانت تعرف،
فالذين وصلوا هذا الصباح رويوا لها ذلك. وضع اللليل القبعة ودخل إلى الكوخ.
فيما بعد جاء فوشيا وكانت تلحق به. كان وجهها أيضاً احتفالياً، كثير الزينة،
وحين تمشي كان القرطان والأطواق تخشش. يا لاليتا: كان قد جاء بهذه
الخادمة، الشابرية من البوشانغا. كانت مذعورة من الهوامبيسيين، لا تفهم شيئاً،
وكان عليها أن تعلمها قليلاً من اللغة المسيحية.

— أنت دائماً تتكلم بالسوء عن البانتاتشا. قال فوشيا. قلبك طيب مع
الجميع، أيها العجوز، إلا معه.

— أنا لمته وحملته إلى الجزيرة. قال أكيلينو. لولاي لكان ميتاً منذ زمن طويل. لكنني أرف
منه، يتصرف مثل حيوان، يا فوشيا، وأسوأ من هذا، ينظر دون أن ينظر ويسمع دون أن يسمع.

- أنا لا أقرّف منه لأنني أعرّف قصته . قال فوشيا. ليس للبانئاتشا شخصية،
وحين يحلم يشعر بنفسه قوياً، وينسى بعض الفجائع التي حدثت له وصديقاً له
مات في الأوكايالي. أين وجدته، أيها العجوز؟ في هذه المنطقة، تقريباً؟
- إلى الأسفل، على شاطئ صغير . قال أكيينو. كان يحلم، نصف عار
وميتاً من الجوع. لاحظت أنه كان هارياً، أطعمته، فعلقّ يدي، مثل كلب، كما
كنت تقول أنت سابقاً.

- صُئِب لي كأساً . قال فوشيا. والآن سأنام أربعاً وعشرين ساعة. كان سافراً
سيناً جداً، انقلب زورق التانئاتشا قبل أن ندخل في المجرى. وفي التوشاغا
وقعت مواجهة بيننا وبين الشابريين.

- أعطها للبانئاتشا أو إلى الدليل . قالت لاليتا. عندي خادمات ولا أحتاج
لهذه، لماذا جئت بها؟

- كي تساعدك . قال فوشيا. ولأن هؤلاء الكلاب أرادوا قتلها.
لكن لاليتا راحت تبكي، ألم تكن امرأة صالحة؟ ألم ترافقه دائماً؟ هل كان يعتقد
أنها غبية؟ ألم تفعل ما كان يريد؟ وفوشيا يتعرى، هادئاً، ويقذف بثيابه مبعثراً، من
الذي كان يأمر هنا؟ منذ متى كانت تجادله؟ ثم أخيراً أي خزاء هذا: الرجل ليس
مثل المرأة، يجب أن ينزع قليلاً، فهو لم يكن يحب التباكي. ثم لماذا كانت تتشاكى
إذا كانت الشابرية لن تنتزع منها شيئاً، وقد قال لها، إنها ستكون خادمة لها.
- تركتها مغمى عليها، حممتها بالدم . قال أكيينو. وصلت بعد شهر ولايتا
كانت ما تزال مليئة بالكدمات.

- قالت لك إنني ضربتها، لكنها لم نقل لك إنها كانت تريد قتل الشابرية .
قال فوشيا. عندما كنت نائماً، رأيتها تمسك بالمسدس فأخذني الغيظ. ثم إن
الكلية انتقمت من كل ضربة ضربتها إياها.

- إن لللايتا قلباً من ذهب . قال أكيينو. وإذا كانت قد ذهبت مع نيببس
فليس كي تنتقم منك وإنما لأنها تحبك. وإذا أردت أن تقتل الشابرية، فغيره،
وليس كراهية. ثم ألم تصبح صديقة لها فيما بعد؟

- أكثر مما للأسئواليات . قال فوشيا . ألم تر؟ لم تكن تريد أن أعطيها لنبييس، وكانت تقول من الأفضل أن تبقى، فهي التي تساعدني. وعندما أعطها نبييس للبانئاتشا بكت معها. علمتها التحدث بالمسيحية وكل شيء.

- غريب أمر النساء، من الصعب فهمهن أحياناً . قال أكيلينو. والآن هيا نأكل قليلاً. إن المشكلة الوحيدة هي أن النقاب مبلل، ولا أدري كيف سأشعل هذا الموقد. كانت قد أصبحت عجوزاً، تعيش وحيدة ورفيقها الوحيد هو الحمار، ذلك الجحش ذو الشعر الضارب للصفرة والمشية البطيئة والرزينة، الذي كانت تحمل عليه، كل صباح، الثياب المجمععة في اليوم السابق من بيوت الوجهاء. حين كانت الرمال تتوقف عن السقوط، حتى كانت خوانا باورا تخرج وفي يدها قضيب الخروب الذي تحت به الحيوان بين الفينة والأخرى. كانت تتعطف حيث كانت تنقطع شرفة المالكين وتهبط منحدرأ ترابياً بقفزات قصيرة، تمر تحت دعامات جسر البييخو بونته المعدنية وتتوضع هناك حيث كان نهر البيورا قد عض الضفة وشكل بقعة صغيرة راكدة. كانت تبدأ بدعك الغسيل وقد جلست على حجر في النهر والماء إلى ركبتيها، بينما كان الحمار يلقي بنفسه، مثل إنسان كمول أو منهك، على الشاطئ الوثير، يتشمس وينام. وكان يتواجد أحياناً غاسلات أخريات تتبادل معهن الحديث. أما إذا كانت وحدها، فقد كانت خوانا باورا، تعصر غطاء طاولة، تترنم، تعصر ثياباً داخلية، إنك طبيب محال، لص، كنت تقتلني، تقع ملحفة في الصابون، غداً أول جمعة، أيها الأب غارثيا، إنني أتوب عما ارتكبت من معاصي. كان النهر قد بيض كعبيها ويديها، وحافظ عليها لمساء، طرية وشابة، لكن الزمن كان يجدها ويجعل بقية جسمها في كل مرة أكثر قتامة. وكانت عند دخولها في النهر قد اعتانت قدمها على الغوص في القاع الرمل، وبدلاً من المقاومة الطرية الخفيفة، كانت تجد أحياناً مادة قاسية أو شيئاً لزجاً زلقاً، مثل سمكة محاصرة في الوحل. كانت تلك هي الاختلافات الصغيرة التي تطعم رتابة صباحاتها المتماثلة. لكن في ذلك الصباح سمعت نحيباً خلفها. كان يمزق القلب وقريباً جداً: فقدت توازنها. سقطت جالسة في الماء واندلقت السللة التي كانت

تحملها على رأسها ومضت الثياب طافية. مدممة، محزكة ذراعيها، استطاعت خوانا أن تستعيد السلة، والقمصان والسرراويل الداخلية والملابس ورأت أثناءها دون أنسيلمو. كان رأسه يدور بين يديه وماء الضفة يبلل جزمته. سقطت السلة من جديد في النهر. وقبل أن يملأها التيار ويغرقها كانت خوانا قد أصبحت على الشاطئ، إلى جانب ذلك. تمتمت مرتبكة، ببعض الكلمات المعبرة عن الدهشة والسلى لكن دون أنسيلمو استمر في بكائه دون أن يرفع رأسه. «لا تبك»، قالت خوانا بينما كان النهر يستولي على الثياب ويبعد بها بصمت. «يا الله عليك، اهدأ، يا دون أنسيلمو، ماذا حدث لك، هل أنت مريض؟ الدكتور ثيباليو يعيش مقابلنا، هل تريد أن أستدعيه، لا تعلم مدى الخوف الذي سببته لي». كان الحمار قد فتح عينيه وراح ينظر إليهما ازوراراً. بدا أنه كان قد مضى على دون أنسيلمو هناك برهة طويلة وكان بنظونه وقميصه وشعره مغمورين بالرمل، وقبعته ملقاء عند قدميه، تكاد تكون مغمورة بالتراب. «أحلفك بأعز ما عندك أن تقول لي يا دون أنسيلمو، ماذا بك»، كانت تقول له خوانا، «لا بد أنه شيء محزن جداً حتى أنك تبكي مثل النساء». وعندما رفع رأسه رسمت خوانا إشارة صليب. كان جفناه متورمين وحول عينيه دارتان مزرقتان ولحيته طويلة ومسخة. وخوانا: «دون أنسيلمو، قل لي إذا كان باستطاعتي أن أساعدك»، وهو: «يا سيدة، كنت أنتظر»، وتهذج صوته. فقالت خوانا وقد جحظت عيناها: «تتظرنى، أنا، يا دون أنسيلمو؟» فهز بالإيجاب وأعاد رأسه إلى ما بين يديه وأجهش وهي: «لكن، دون أنسيلمو»، فعوى: «ماتت تونيبنا، يا دونيا خوانا، وهي: «ماذا تقول، يا إلهي، ماذا تقول؟»، وهو: «كانت تعيش معي، لا تكرهيني»، وانكسر صوته. ومد ذراعاً وأشار إلى الرملة: «كان البناء الأخضر يبرق تحت السماء الزرقاء. لكن خوانا باوراً لم تره. أدركت المالكين متعثرة، كانت تجري وتصيح مذعورة، ويمرورها كانت تتفتح نوافذ وتطل وجوه مذهولة».

يرفع خوليو رثاتيغي يده: كان يكفي، وليذهب. يعدّل العريف جلسته، يفكّ سيره، ينظف وجهه المحتقن والمتعرق والنقيب كيروغا: لقد تجاوزت الحد، تراه كان أطرش أم أنه لم يكن يفهم الأوامر؟ يقترب من الأوراكوسيّ الممدد، يحركه بقدمه، فيئن الرجل بوهن. كان يتظاهر، يا سيدي النقيب. كان يريد أن يتشاطر علينا، لكن سوف يرى. يطلق العريف اللعنات، يفرك يديه، يشد على أعصابه ويرفص ويعد الرفسة الثانية يقفز الأغواروني مثل سنور، عجباً، لقد كان العريف على حق، إنه عنصر مقاوم، والنقيب، يجري سريعاً، نحاسي اللون، قابع، كان يعتقد أنه استعرضهم. لم يبق إلا واحد، يا سيد رثاتيغي، إضافة إلى خوم، أينظر في أمره أيضاً؟ لا، فهذا العنيد كانوا سيعملونه إلى سائنا ماريًا ده نيبيا، يا نقيب. يشرب خوليو رثاتيغي جرعة من مطرته ويصق: ليأترا بالآخر ولينتهوا، أيها النقيب، ألم يكن متعباً؟ هل كان يريد جرعة؟ بيتعد العريف روبيرتو ديلغادو وسط الفسحة ومعه جنديان باتجاه كوخ السجناء. إجهاش يمزق صمت القرية، فينظر الجميع باتجاه الخيام: تتعارك الصغيرة وجندي على قدميه يضع يديه على فمه بشكل بوق: ماذا قلت لك أيها الجندي؟ لبتك لا ترى، لماذا لم يدخلها إلى الخيمة والنقيب وقبضته مرفوعة، اللعنة، ليلعب منها ويسليها. يسقط مطر فوق أكواخ أوراكوسا وتصعد من الوهدة غيوم من البخار بينما ترسل الغابة دفقات من الهواء الساخن إلى الفسحة العارية وتمتلئ السماء بالنجوم. يختفي الجندي والصغيرة في خيمة بينما يأتي العريف روبيرتو ديلغادو وجنديان وهم يجرون أوراكوسياً. يقف أمام النقيب ويدمدم، يرمي خوليو رثاتيغي للمترجم: معاقب لعدم احترامه للسلطات، يجب ألا يضرب جندياً أبداً، ألا يخدع المعلم اسكابينو والأعادوا وكانت العقوبة أسوأ. يمدد المترجم ويومئ، بينما يتنفس العريف بعمق ويفرك يديه، خذ الحزام، يا سيد. هل أنت مترجم، بلى، مفهوم، بلى، والأوراكوسي، القصير والأكرش يمضي من جهة إلى أخرى، ينط مثل جدجد، ينظر مفتولاً، يحاول أن يخترق الدائرة والجنود يحومون، إنهم إعصار، يتقافون. يهدم الرجل أخيراً، يغطي وجهه وينكمش. يصبر بثبات برهة طويلة، مزمجراً مع كل ضربة حزام، ثم يخز ويرفع الحاكم يده: ليذهب، هل

كانت الناموسيات جاهزة؟ بلى، يا دون خوليو، كل شيء جاهز، لكن الناموسيات لا تتفع، فقد التهمت وجه النقيب طوال السفر، وكان يحرقه والحاكم حذار من خوم، أيها النقيب، لا تتركوه وحيداً، يضحك العريف ديلغادو: لن يهرب حتى لو كان ساحراً، يا سيد، فقد كان مربوطاً، إضافة إلى أنه توجد عليه حراسة طوال الليل. ينظر الأوراكوسي شزراً إلى هؤلاء وأولئك وهو جالس على الأرض. توقّف المطر، يحضر الجنود حطباً جافاً، ويشعلون ناراً فيرتفع اللهب عالياً إلى جانب الأغواروني، الذي يفرك صدره وظهره بنعومة. ماذا كان ينتظر؟ سيأطأ أخرى؟ تنتشر ضحكة بين الجنود والحاكم والنقيب ينظران إليهم. يجلسون القرفصاء حول النار. يصبغ الشرر وجوههم بالحمرة ويشوهها: لماذا هذا الضحك؟ لنر، هيه أنت. ويقترّب المترجم: يبقى زوج⁹⁵، يا سيدي النقيب. لم يفهم الضابط، ليتكلم بوضوح أكثر فيبتسم خوليو رثائغي: لقد كان زوج إحدى نساء الكوخ، والنقيب هاها، لذلك لم يذهب للصل، لقد فهم الآن. صحيح، أيضاً أنّ خوليو رثائغي نفسه كان قد نسي أولاء السيدات، أيها النقيب. ينهض الجنود حذرين، في وقت واحد ويقترّبون من الحاكم متزاحمين: عيون جاحظة، أفواه فاغرة ونظرات ملتبهة. لكن الحاكم كان هو السلطة، وعلى عاتقه تقع القرارات، يا دون خوليو، والنقيب مجرد منفذ. يتخصص خوليو رثائغي الجنود المتداخلين بعضهم ببعض، وكانت الرؤوس فوق الأجساد التي لا يمكن التمييز بينها، ممطوطةً باتجاهه، ونار الصلاء تتلألأ على الخدود والجباه. لا يبتسمون ولا يخفضون عيونهم، بل ينتظرون بلا حراك وبأفواه فاغرة: طيب، ويهزّ الحاكم كتفيه، طالما أنهم يصرون إلى هذا الحد. ضجة مبهمة وغير معروفة المصدر ترتعش فوق الرؤوس، ودورية الجنود تنقسم إلى أطياف وأشباح تعبر الفسحة العارية، وقع خطوات، ويسعل النقيب ويورب خوليو رثائغي فمه بفتور: لقد أصبح هؤلاء نصف متحضرين، أيها النقيب، وكيف كانوا يتصرفون أمام

⁹⁵ يبقى للزوج: أي لأنه زوج لإحدى النساء في الكوخ فهو لن يذهب.

بعض الأثمال المليئة بالقمل؟ لن يتوصل أبداً إلى فهم الرجال. يأتي السعال، النقيب لكن ألا يُحرمون في الغابة من أشياء كثيرة، يا دون خوليو؟ ويحرك يده حول وجهه بحنق، لم يكن هناك نساء في الغابة، لذلك كان يتمسك بما يصادفه، يضرب براحة كفه على جبينه، ثم يضحك أخيراً بعصبية: كان للشابات الصغيرات أنداء زنجيات. يرفع خوليو رثاتيغي وجهه. يبحث عن عيني النقيب، الذي يتخذ وضعية جدية: طبعاً كان ذلك صحيحاً أيها النقيب، فرما كان بشيخ، وربما لو كان أكثر شباباً لذهب مع الجنود إلى حيث أولاء النقيات. يضرب النقيب الآن وجهه وذراعيه، يا نون خوليو، وكان ذاهباً لينام، فالحشرات كانت تلتهمهما، بل لقد اعتقد أنه بلع واحدة منها، كانت تأتيه أحياناً كوابيس، يا دون خوليو، كان يرى في الأحلام أفرجاً من البعوض تنقض عليه. يربت خوليو رثاتيغي رتبة صغيرة على ذراعه: سجد له في نيبيا علاجاً، والوضع هناك كان أسوأ مما في الخارج. كانت تكثر في الليل، لينم نوماً هائلاً. يتعد النقيب كيروغا باتجاه الخيام بخطوات واسعة، يضع سعاله بين القهقهات، اللعنة، والنحيب الذي ينفجر في ليل أوراكوسا مثل أصداء احتفال ذكوري. يشعل خوليو رثاتيغي سيجارة: الأوراكوسي ما يزال جالساً أمامه، يراقبه شزراً. يفر رثاتيغي الدخان نحو الأعلى، هناك نجوم كثيرة والسماء بحر من الحبر، الدخان يرتفع، ينتشر، يتلاشى، والنار عند قدميه تلهث مثل كلب عجوز. يتحرك الأوراكوسي الآن، يمضي مبتعداً زاحقاً، يدفع نفسه بقدميه، يبدو وكأنه يسبح تحت الماء. يُسمع فيما بعد زعيق، تراه من جانب الكوخ؟ إنه قصير جداً، لا، وإنما من الخيام وينطلق خوليو رثاتيغي راكضاً، يسند الخوذة بيد ويرمي عقب السيارة في الهواء، يعبر عتبة الخيمة دون أن يتوقف فينقطع الزعيق، يصر سرير ويسمع في العتمة تنفساً مذعوراً: من هناك؟ هذا أنت، أيها النقيب؟ كانت الصغيرة مذعورة، يا دون خوليو، وقد جاء ليرى ما بها، يبدو أن الجندي قد أخافها، لكن النقيب أرفاه حقه. يخرجان من الخيمة ويقدم النقيب سيجارة للحاكم، فيرفضها: هو سيأخذها على عاتقه، أيها النقيب، عليك ألا تتشغل ولتذهب إلى خيمتك لتنام، هذا كل شيء. يدخل النقيب في الخيمة المجاورة ويعود خوليو رثاتيغي باللمس إلى السرير

الميداني، يجلس على حافته. تلمس يده جسماً صغيراً منكماشاً برقة وتجوب ظهراً عارياً وشعراً جافاً: كفى، كفى، لم يكن هناك ما يدعو للخوف من ذلك الوحش، فقد ذهب ذلك الوحش، لحسن الحظ أنها صرخت، ستكون سعيدة جداً في سانتا ماريا ده نيبيا، سوف ترى، فالراهبات سيكنن طبيبات معها وسيرعينها كثيراً، وكذلك السيدة رثائغي سترعاها جيداً. تداعب يده الشعر، الظهر، إلى أن يرتخي جسم الصغيرة ويهدأ تنفسها. الصياح وصرخات الغضب في الفسحة العارية أكثر اشتعالاً وكذلك الألعاب البهلوانية وهناك أيضاً جري وفترات صمت قاسية: كفى، كفى، يا لها من مخلوقة مسكينة، لتتم الآن، فهو سحرسها.

كانت الموسيقا قد توقفت وابنا آل ليون يصفقان، وليتوما عاد مع لاسيلباتيكا إلى طاولة البار، ولاتشونغا تملأ الكؤوس وخوسيفينو ما يزال يشرب وحده. كان ما يزال بعض الأزواج في الحلبة تحت دفقات النور الزرقاء والخضراء والبنفسجية، الخفيفة، يؤدون حركات آلية وترتيبية على وقع إيقاع الهمهمات والحوارات من حولهم. لم يبق إلا القليل من الناس وكذلك على طاولات الزوايا. تجتمع الصفقاء من الرجال والقاطنات وكل متع الليل حول البار. وراحوا بشربون البيرة متكومين، صاخبين، وكانت فهقهات الخلاسية ساندرنا تبدو زعيماً، وكان بدين ذو شارب ونظارة يرفع رأسه الأصفر مثل علم، كان قد ذهب في حملة الإكوادور كجندي عادي، بلى يا سيد، وهو لم يكن ينسى الجوع، والقمل وبطولة الخلاسيين، ولا البراغيث الأميركية التي كانت تدخل تحت الأظافر ولا تريد أن تخرج حتى بالمدافع، بلى يا سيد، وفجأة يصيح المونو بأعلى صوته: تحيا الإكوادورا سكت الرجال والقاطنات بينما راحت عينا المونو الباسمتان توزعان الغمزات الخبيثة يمنة ويسرة، ويعد ثوان من التردد والخفر أبعد البدين خوسيه وأمك المونو من طية

سترتيه وهزّه مثل خرقة، لماذا كان يتحرّش به؟ ليكررها إذا كان يرتدي بنطلوناً، وإذا كان فحلاً، فيقول المونو بابتسامه هائلة: تحيا البيرو! ضحك الجميع، وساندرا مثل عسبر⁹⁶، وكان البدين يعض على شاربه، وخوسيفينو وخوسيه يختلطان بالمجموعة والمونو يصلح من وضعية ثيابه.

- لا أقبل المزاح في المسائل الوطنية، أيها الصديق . كان البدين يربت على المونو، دون حقن . سخرت مني، دعني أدعوك إلى جرعة.
- آه كم أحب الحياة . قال خوسيه . لننشد النشيد.

انخرطوا جميعاً في حلقة تكويت وتبكيك واحدة مستدين إلى طاولة البار، وطلبوا بيرة أكثر، وهكذا شربوا وبتختوا وناقشوا متهللين، متكزّمين، أصواتهم صارخة وعيونهم نشوانة يتصيبيون عرقاً. وكان هناك أيضاً شاب أحول، جاسئ الشعر مثل مكنتسة يعانق الخلاسية ساندرا، أعرفك على امرأة المستقبل، أيها الرفيق. وكانت هي تفتح فمها، الذي يتكشف عن لثة حمراء نهمة وأسنان ذهبية ترتعش من الضحك. تنقّض فجأة على الشاب مثل سنور كبير وثقله على فمه بشراة بينما يتخبط بين نراعيها الأسودين، لقد كان كذباباً في نسيج عنكبوت، وكان يحتج. تبادل المنيعون نظرات تواطؤ وسخرية، أمسكوا الأحول وثبتوه: هو لك، يا ساندرا، هدية منا لك، كليه نيناً وهي تقبله، تعضه بينما سرى في المجموعة نوع من الحماس المرتعش وانضم إليها أزواج جدد، حتى الموسيقيون غادروا ركنهم. من بعيد كان الشاب أليخاندرو بيتسم بفتور ودون أنسيلمو الذي يتبعه بولامس، يمضي من جانب إلى آخر، مثاراً يشتم الأخبار في الضوضاء: ماذا حدث؟ ماذا يوجد، أخك. أفلتت ساندرا فريستها، الأحول، الذي اصطبغ وجهه بالحمرة عندما مرّ بالمندبل عليه، بدا مثل مهرج، ناولوه كأس بيرة فسكبها على نفسه، صنفقوا له، ثم فجأة راح خوسيفينو يفتش في الحشد الصاخب. كان ينفع، ينحني، ثم انتهى بالخروج من الدائرة، جاب القاعة كلها وهو يقلب الكراسي ويلوص وينبري في الهواء، تالفاً، لاهثاً. عاد إلى طاولة البار راكضاً.

* كتابة عن الرجولة
⁹⁶ العسبر: النمر. م.

- كان معي الحق، أيها المنيع . قال فم لاتشونغا الذي لا شفاه له . فقد تحولت إلى كتلة من الأعصاب.

- أين هما، يا تشونغيتا؟ هل سعدا؟

- وماذا يهملك . كانت عينا لاتشونغا الجامدتان تتفحصانه وكأنه حشرة . هل بك غيرة؟

- إنه يقتلها . قال خوسيه وكأنه شبح، وهو بهزّ خوسيفينو من ذراعه بعنف . طر .
اخترقوا المجموعة دفعا، كان ألمونو في الباب يشير بيده الممدودة في الظلمة باتجاه تكنة غرار . خرجوا هابطين بين أكواخ الحي التي بنت مقفرة ثم دخلوا الرملة،
تعثر خوسيفينو، سقط، نهض، تابع جريه، وصارت الأقدام تغوص الآن في التراب .
كان هناك ربح معاكسة وزوابع رملية قاتمة . وكان من الضروري أن يجري المرء مغمض العينين، كاتم الأنفاس كي لا ينفجر صدره . «أنت المسؤول، يا وغد»، زمجر خوسيفينو، «لقد غفلوا»، وبعد لحظة وبصوت مهشم، «لكن حتى أين، يا وغد»،
وهناك بزغ أمامهم طيف في الوسط بين الرملة والنجوم، شبح مرتفع وانتقامي:

- إلى هنا، ليس أكثر، أيها البائس، أيها الكلب وصديق السوء .

- مونو! . صاح خوسيفينو . خوسيه!

لكن ابني آل ليون هجما عليه أيضاً وانها لا عليه، قَبَلْ ليتوما، ضرباً بقبضاتهما وأقدامهما ورأسيهما . كان على ركبتيه وكل شيء حوله أعمى وضار . وعندما أراد أن يستجمع نفسه ويهرب من ثلة الاصطدام المدوّخة، رمته رفسة من جديد، وقبضته وقلصته لكمة، اعتصرت شعره يد وكان عليه أن يرفع وجهه ويقدمه للضربات ولوخز الرمل، الذي كان يبدو أنه يدخل بوفرة في أنفه وفمه . ثم بدا وكأن قطيعاً من الكلاب الهائجة المنهكة كانت تحوم هناك حول فريستها المغلوبة، التي ما تزال ساخنة، تشتمها وتهتاج للحظات، تعضّها دون رغبة .

- إنه يتحرك . قال ليتوما . كن رجلاً، يا خوسيفينو، أريد أن أراك، انهض!

- لا بدّ أنه يرى المسترجلات عن قرب أكثر، يا ابن العم . قال ألمونو .

- كفى، اتركه، يا ليتوما . قال خوسيه . فقد شفيت غليلك . وهل من انتقام أشد من هذا؟ ألا ترى أنه من الممكن أن يموت .

- سيرسلونك إلى السجن من جديد، يا ابن العم . قال ألمونو . بكفى، لا تكن عنيداً .

- اضربه، اضربه . كانت لاسيلباتيكا قد اقتربت ولم يكن صوتها عنيفاً وإنما أحرص . اضربه، يا ليتوما .

لكن ليتوما وبدلاً من أن يعمل بكلامها، استدار نحوها، زماها على الرمل بدفعة واحدة، وراح يرفسها، عاهرة، حقيرة، ابنة قحبة، وبقي يشتمها إلى أن فقد صوته وقواه . وعندئذ ارتمى على الرمل وبدأ يبكي مثل طفل صغير .

- اهدأ، يا ابن العم، بحق أغلى ما عندك .

- أنتما عليكما حق أيضاً . كان ليتوما يئن . الجميع خدعوني أشقياء، خونة، يجب أن تموتوا ندماً .

- ترانا لم نخرجه لك من البيت الأخضر، يا ليتوما؟ ترانا لم نساعدك في ضربه؟ ما كنت لتقدر عليه وحدك .

- نحن انقمنا لك، يا ابن العم، وحتى لاسيلباتيكا، ألم تر كيف هيسته؟

- أتكلم عن الماضي . قال ليتوما بين فراق وافترار . كان الجميع متقين وأنا كنت هناك مثل أبله، لا أعرف شيئاً .

- الرجال لا يبكون، يا ابن العم . لا تبتئس . فنحن دائماً كنا نجبك .

- ما فات مات، يا أخي . كن رجلاً، كن مانغاشياً، لا تبك .

كانت لاسيلباتيكا قد ابتعدت عن خوسيفينو، المنكمش على الأرض وهو يئن بوهن، وراحت تواسي ليتوما ومعها ابنا آل ليون، كن قوي الشخصية، فالرجال يكبرون أمام الشدائد . كانوا يعانقونه، يهزونه من ثيابه، نسينا كل شيء؟ بدأنا من جديد؟ يا أخي، يا ابن العم، يا ليتوما . وهو يتلثم، نصف مؤاسى، وأحياناً يثر، فيرفس الممدد على الأرض، يبتسم، يكتب .

- هيا بنا، يا ليتوما . قال خوسيه . فلربما رأونا من الحي . إذا استدعوا الشرطة سنقع في ورطة .

- هيا بنا إلى لامانغاشيريا، يا ابن العم . قال ألمونو. لننه البيسكو الذي أحضرته، فهو يرفع المعنويات.

- لا . قال ليتوما. لنعد إلى حيث لاشونغا.

راح يسير في الرملة بخطوات سريعة وثابتة، وعندما أدركته لاسيلباتيكا وابنا آل ليون بين أكواخ الحي، كان ليتوما يصفر بحق وكان خوسيفينو يلمح في البعيد وهو يعرج ويئن ويتمتم.

- الجو هنا حريق . أسند ألمونو الباب كي يدخل الآخرون أولاً. لا ينقصه سوانا.

خرج البدين ذو الشوارب والنظارة لاستقبالهم:

- سلام أيها الرفاق. لماذا اختفيتم بهذا الشكل؟ تعالوا، فالليلة الآن بدأت.

- موسيقا، يا عازف العيثار . قال ليتوما. فالسات، تونديرا، مارينزا.

ذهب متعثراً إلى ركن الفرقة الموسيقية وارتمى بين ذراعي بولاس والشاب أليخاندر، بينما كان البدين والشاب الأحول يشدان ابني آل ليون نحو البار ويقدمان لهما كؤوس البيرة. كانت لاساندرا تصلح شعر لاسيلباتيكا ولاريتا ولاماريل لتلثمانيها بالأستلة، وأربعتهن بهيمن مثل دبابير. بدأت الفرقة العزف، وبقيت طاولة البار خالية. نصف نزيهة من الأزواج كانوا يرقصون في الحلبة بين هالات النور الأزرق والأخضر والبنفسجي. جاء ليتوما إلى طاولة البار ميتاً من الضحك:

- يا تشونغا تشونغيئا، الانتقام عذب. هل تسمعينني؟ إنه في حالة يرثى لها، لا يجرؤ على الدخول. تركناه نصف جثة.

- أنا لا تهمني قضايا أحد . قالت لاشونغا. لكن أنتم حظي السيء. بسببكم كتبوا لي مخالفة في المرة السابقة. لحسن الحظ أن الورطة لم تقع في بيتي. ماذا أقدم لك؟ من لا يستهلك هنا فليول.

- ما أوقحك في الإجابة، يا تشونغيئا . قال ليتوما. لكنني سعيد، صبي ما حلا لك، لي ولك، فأنا أدعوك.

كان البدين يريد أن يحمل لاسيلباتيكا إلى حلبة الرقص لكنها كانت تقاومه وتكشر له عن أسنانها.

- ماذا يحدث لهذه، يا تشونغا . قال البدين نافحاً .
- ماذا يحدث لك أنت . قالت لاشونغا. إنهم يدعونك للرقص، لا تكوني
ناكرة للجميل، لماذا لا تقبلين السيد؟
لكن لاسيلباتيكا بقيت مقطبة الجبين:
- يا ليتوما، قل له، يا ليتوما، أن يفلتني.
- لا تفلتها، يا رفيق . قال ليتوما. وأنت قومي بعملك، يا عاهرة.

الجزء الثالث

-III-

يتوقف الملازم عن التلويح مودعاً حين يصبح المركب مجرد بقعة نور بيضاء صغيرة في النهر. يرفع الجنود الحقايب على أكتافهم ويصعدون إلى الرصيف، يتوقفون في ساحة سانتا ماريا ده نيبيا ويشير الرقيب إلى التلال: بين الهضاب الحراجية تتلألأ بعض الجدران البيضاء والكالامين، ذاك كان مقر البعثة، يا سيدي الملازم، كان المنحدر البسيط والوعر خالياً، تلك كانوا يسمونها الإقامة، هناك كانت تعيش الراهبات، يا سيدي الملازم، وإلى اليسار كانت الكنيسة. وكانت أطيان من السكان الأصليين تجول في البلدة، أسطحه الأكواخ من الألياف وتبدو مثل القنسموات. كانت بعض النسوة من نوات الأجسام الطينية والعيون المتناقلة يطحن شيئاً ما عند حافة جذعين مقشورين. يتابعون تقدمهم ويلتفت الملازم إلى الرقيب: لم يكن قد استطاع تقريباً التحدث إلى الملازم ثييريانو، لماذا لم يبق ولو فقط حتى يضعه في الصورة؟ لكن المسألة هي أنه لو لم يستغل وجود الزورق لكان عليه أن ينتظر شهراً، يا سيدي الملازم، والملازم ثييريانو كان قد استحوذ الذهاب على تفكيره تماماً. عليه ألا ينشغل، فالرقيب سيضعه في الصورة بسهولة و«الأشقر» يضع حقيبة على الأرض ويشير إلى الكوخ: هذا أكثر مخافر الشرطة بؤساً في البيرو، يا سيدي الملازم و«الثقيل» هذا الذي أمامنا سيكون بيتك، يا سيدي الملازم و«الصغير» فيما بعد سيحصلون لك على زوج من الخاديمات الأغوارونيات و«الأسود» الخاديمات هن الشيء الوحيد المتوفر في هذه البلاد الضائعة. يلمس الملازم عند مروره ترساً معلقاً إلى دعامة فيصدر صوتاً معدنياً. ليس لسلم الكوخ درابزين، ألواح الأرض متساوية والجدار قطع غير متساوية، وفي الغرفة الأولى يوجد كراس من قش وكتب، وعلم حائل اللون، في العمق باب مفتوح: أربعة أسرة معلقة، وبعض البنادق وموقد وسله مهملات، يا للفاقة! هل يريد الملازم أن يتناول كأساً من البيرة؟ لا بد أنها باردة، فهي منذ الصباح في دلو من الماء. يوافق الملازم ويخرج الصغير. و«الأسود» من الكوخ. هل كان اسم الحاكم فاييو كويستا؟ بلى إنه عجوز ظريف، لكن لتذهب للسلام عليه فيما بعد يا سيدي الملازم، فهد في مثل هذه الساعة ينام القيلولة، ويعودان بكؤوس وقنان. يشربون،

والرقيب يشرب نخب الملازم والجنود يسألون عن ليما، الضابط يريد أن يعرف حال أهل سانتا ماريا ده نيبيا، من يكون كل واحد، هل راهبات البعثة عناصر طيبة، وما إذا كان التضمونثيون يوجعون الرأس؟ حسناً، سيتابعون الحديث ليلاً، فالملازم يريد أن يرتاح برهة. وهم كانوا قد كلفوا باريدس بأن يعد لك طعاماً خاصاً، يا سيدي الملازم، ليحتفلوا بوصولك، و«الأشقر» كان صاحب المطعم الشعبي، يا سيدي الملازم وفيه كان يأكل الجميع، و«الأسود» كان نجاراً ولكي يطفح الكيل و«الثقل» كان نصف ساحر، سيعرفونك عليه، وباريدس هذا من الناس الطيبين. يحمل الحراس الحقائب إلى الكوخ المقابل لهم، يتبعهم الضابط متائباً ويدخل ويستلقي على السرير المعلق الذي يشغل وسط الغرفة. يودع الرقيب بصوت نرس وينتزع قبعته وحذاءه دون أن ينهض. تلوح رائحة غبار وتبغ. لا يوجد أثاث كثير: كومودينة، مقعدان صغيران، طاولة، مصباح مدلى من السقف. على النوافذ شبك معدني. ما تزال النسوة يطحنن في الساحة. ينهض الملازم على قدميه، الغرفة الأخرى فارغة وذات باب صغير. يفتحه: الأرض تحته بمترين، تغطيها الأعشاب، وعلى بعد عدة خطوات من الكوخ الغابة مطبقة. يفك أزرار البنطلون، يبول وعندما يعود إلى الغرفة الأولى يجد الرقيب هناك من جديد: مرة أخرى مع هذا المزعج، سيدي الملازم، هناك أغواروني يدعى خوم، والمترجم: يقول شيطان، يقول، أغواروني، الجندي يكذب، كتاب ليما، ليما حكومة⁹⁷. يا سيدي. أريبالو بينثاس ينظر إلى الأعلى ويحمي عينيه بيديه، لم يكن أبله أبداً، يا دون خوليو فالوثي كان يريد أن يجعلهم يظنون أنه مجنون، لكن خوليو رثائغي ينكر برأسه: لم يكن هذا هو الموضوع، يا أريبالو، فطول الوقت وهو يريد السخرية نفسها وقد صار يعرفها عن ظهر قلب. كان قد دخل في رأسه شيء يتعلق

⁹⁷ كتابليما، ليما حكومة. نلاحظ هنا وفي جمل كثيرة ترد بعد ذلك أن الكاتب ينقل لغة السكان الأصليين الإسبانية غير المفهومة أصلاً. لذلك نرى إرباكاً لغوياً حاداً في كل مرة يجري فيها الحوار بين خوم والحاكم أو الملازم، حيث أن المترجم نفسه ينقل إلى الإسبانية الصيغة اللغوية للغة المترجم عنها بحذافيرها وتركيبها.

بالكتب، لكن مَنْ الملعون الذي كان سيفهم عليه. تعانق الشمس الضاربة للحمرة والملتهبة سانتا ماريا ده نيبيا، والجنود والسكان الأصليين، وأرباب العمل المتجمعون حول أشجار الكاببيرونا يطرفون بعيونهم، يتعرقون ويتمتمون. يهوي مانويل أغيلا لنفسه بمروحة من قش: هل كان دون خوليو متعباً جداً؟ هل أجهده بالعمل في أوراكوسا قليلاً، سوف يحكي لهم بهدوء، فرثاتيغي الآن عليه أن يصعد برهة إلى البعثة، وسيعود، وهم يوافقون: سينتظرونه في دار الحكومة، فالنقيب كيروغا واسكابينو هناك الآن. والمترجم، رائح وغاد، اللليل هارب، أوراكوسا الوطن، اللعنة!، علم حكومة. يستعمل مانويل أغيلا المروحة كمصد للشمس، ولكن رغم ذلك تدمع عيناه، عليه ألا يتعب، فهي رغبته، والذي يأتي بفعله عليه أن يدفع الثمن، يا مترجم، ترجم له هذا. يزرر الملازم البنطلون، بهدوء، والرقيب يسير في الغرفة ويده في جيبيه: من قال إنها المرة الأولى التي يأتي فيها، يا سيدي الملازم؟ مرات كثيرة صارت، حتى أن الملازم ثيبريانو ثارت ثائرتة ذات مرة، أماته رعباً وهكذا لم يعد الوثني يأتي. لكن ما أخبته، لا شك أنه علم أن الملازم ثيبريانو كان سيذهب إلى سانتا ماريا ده نيبيا، وجاء راكضاً ليرى ما إذا كان يدبر أمره مع الملازم الجديد. ينتهي من عقد رباط حذائه وينهض. هل يمكن التعامل معه على الأقل؟ يقوم الرقيب بإيماءة غامضة. لم يكن شريراً، لكن، وهذا صحيح، كان عنيداً كبغل، لا أحد كان يستطيع أن ينتزع منه ما في رأسه. متى حدثت هذه المشكلة؟ عندما كان السيد خوليو رثاتيغي حاكماً، قبل أن يكون في نيبيا مخفر ويغلق الملازم باب الكوخ مغتاضاً، فلقد بلغ السيل الزبي، إذ لم يمض على وصوله ساعتان وصار عنده عمل. كان يمكن للتشونتشي أن يصبر حتى الصباح اليس كذلك؟ والمترجم: غريفغاو لا ينزعج، يضحك مثل الجنود كما يضحك بعض السكان الأصليين أيضاً: ليتابع صب لعناته عليه وعلى النقيب، ليشتمهما، ليتابع، فسوف يرى من يضحك في الأخير. والمترجم: جانع، يا حضرة الرقيب، يقول عطشان، هل كانوا سيعطونه ماء؟ لا، ليسحبها أولاً عن العريف، ويرفع صوته: إذا ناوله أحد ماء أو طعاماً فسوف يتقاهم معه، ترجم هذا لجميع وثني سانتا ماريا ده

نيبيا، لأنه من الممكن أن يتظاهروا بالغباء والتبسم، بينما هم يشتاظون حنقاً في أعماقهم والمترجم: ابن عاهرة، يا حضرة الرقيب، اسكابينو شيطان، يشتم. وحدهم الجنود يضحكون الآن، ينظرون إلى العريف خلسة وهو، حسناً ليسم أمه مرة أخرى، فسوف يرى عندما ينزلونه. يخرج للقائهم رجل هزيل وبرونزي، يرفع قبعة الفس والرقيب يقوم بالتعريف: أدريان نيبيس، يا سيدي الملازم. كان يعرف الأغوارونية وكان يعمل معهم مترجماً أحياناً، وكان أفضل دليل في كل المنطقة، ومنذ شهرين كان يعمل لصالح المخفر. يشدُّ الملازم ونيبيس على يدي بعضهما ويتعد «الأسود» و«الصغير»، و«الثقيل» و«الأشقر» عن المكتب، لقد كان هناك، يا سيدي الملازم، إنه الوثني . هكذا كانوا يدعون التشنونثيين هنا. ويتبسم الضابط: كان يعتقد أنهم يتركون شعرهم يطول حتى يصل إلى القدمين، ولم يكن يتوقع أن يرى أصلاً. زغب ناعم يغطي رأس خوم وندبة جرح مستقيمة وريية تقطع جبهته الصغيرة. إنه متوسط القامة، بدين، يلبس رداء مقروضاً يمتدُّ من خصره حتى ركبتيه. على صدره الأمرد مثلث بنفسجي يربط بين ثلاث دوائر ممتاللة، ثلاثة خطوط متوازية تقطع وجنتيه. أيضاً هناك وشم على جانبي فمه: زعنفتان سوداوان وصغيرتان. تعابير وجهه هادئة لكن في عينيه الصفراوين اهتزازات جامحة، نصف خيالية. منذ تلك المرة التي حلّقوا له فيها شعره، صار يحلق من تلقاء نفسه، يا سيدي الملازم، وكان هذا غريباً جداً، لأنه لم يكن من شيء يؤلمهم مثل أن تلمس شعرهم. يستطيع الدليل نيبيس أن يشرح لك ذلك، يا سيدي الملازم: فقد كان لهذا علاقة بالكبرياء، وكانوا يتكلمون عنه بينما كانوا ينتظرون وصوله. والرقيب لنر ما إذا كانوا يتفاهمون مع الوثني بواسطة دون أدريان بشكل أفضل، لأنه في المرة السابقة قام بالترجمة المشعوذ باريدس ولم يفهم أحد شيئاً، و«الثقيل» المسألة أن صاحب المطعم كان يتظاهر بأنه يعرف الأغوارونية، ولم يكن هذا صحيحاً، إذ لم يكن يكاد يلكن بها. يزمجر نيبيس وخوم ويومئان، أيها الملازم، إنه لا يستطيع أن يعود إلى أوراكوسا حتى يعيدوا له كلّ ما انتزعوه منه، لكن كانت تتنابه رغبة بالعودة ولذلك كان يحلق شعره، كي لا يستطيع

العودة حتى ولو أراد، و«الأشقر» أليس هذا عمل مجنون؟ بلى، والآن ليوضح ماذا كان يريد أن يعيدوا له وليخلصنا. يقترب الليل نيبس من الأغراروني، يندم له مؤشراً إلى الضابط، يومئ، وخوم، الذي يصغي بلا حراك يوافق فجأة ويصق: قف عندك! هذه ليست حظيرة خنازير، عليه ألا يصق. يعود أدريان ويضع القبعة، كان ذلك من أجل أن يرى الملازم أنه يقول الحقيقة، والرقيب إنها عادة تشوننشية، فالذي لا يبصق عند الكلام إنما يكذب، والملازم لا ينقصنا إلا هذا، فهو سيحمله بالبصاق إذاً. كانوا يصدقونه يا نيبس، لذلك لا حاجة لأن يبصق. يشبك خوم ذراعيه فتتشوه طارات صدره ويتجدد المثلث. يبدأ الكلام بفظاظة، وبلا توقّف تقريباً، يستمر بالبصاق حوله. لا يرفع عينيه عن الملازم، الذي يطرق بكعب قدمه ويراقب مسيرة البصاق بانزعاج، يهزّ خوم يديه، صوته حازم تماماً. والمترجم: يسرقون، اللعنة، أوراكوسا مطاط، والفتاة، جنود رثائغي، يا حضرة الرقيب، رأس حام! ولكي يحمي العريف روبرتو ديلغادو عينيه من الشمس، يخرج قبعته ويبقي عليها مشدودة عند جبينه: ليواصل تظاهره بالانفعال، ليزعق، فقد كان منتفخاً من الضحك. وليسأله أين تعلم كل هذه الملاسة. والمترجم: العقدهو العقد. جاهز، يا معلّم اسكابينو، يفهم، نازل، يا حضرة العريف. يتعري الجنود الآن ويجري بعضهم باتجاه النهر، لكن العريف ديلغادو يبقى تحت شجرة الكايبيرونا: نازل، حتى لو كان مجنوناً، فهو باق هناك وليشكر الله أن النقيب أرتميو كبروغا كان إنساناً طيباً، فلو تعلق الأمر به، لجعله يتذكر مدى الحياة. لماذا لا ينكر أمه من جديد، هيّا لنر؟ ليتجرأ، ليعمل من نفسه فحلاً أمام أبناء بلده، الذين كانوا ينظرون إليه وإلى المترجم: حسناً، العاهرة أمه. يا حضرة العريف. مرّة أخرى، ليذكر أمه من جديد، إذ لهذا السبب بقي العريف، والملازم يشبك ساقيه ويرمي برأسه إلى الخلف، قصة غير معقولة، لا أساس لها.

عن أية كتب يتكلّم هذا. الساذج؟ عن كتب مصوّرة، يا سيدي الملازم، لتعليم الوطنية للمتوحشين، في دار الحكومة كان ما يزال هناك بعض منها، أكلها العثّ تماماً، باستطاعة دون فاييو أن يريه إياها. ينظر الملازم مرتبكاً،

والجنود وكذلك الأغواروني وأدريان نيبيس يتابعون خلال ذلك دمنتمهم بصوت منخفض. يتوجّه الضابط إلى الرقيب، هل كان صحيحاً ما يتعلّق بالفتاة؟ وخوم، فتاة؟! بعنف شديد، اللعنة، و«الثقيل»، صه، فالملازم كان يتكلم، والرقيب، باه، من كان يدري، فالجميع كانوا يسرقون الفتيات هنا، يمكن أن يكون صحيحاً، ألم يقولوا إن لصوص نهر سانتياغو قد كوّنوا حريمهم؟ لكن الوثني كان يخلط بين الأشياء كلها، والواحد لم يكن ليعرف ما علاقة الكتب التعليمية بالمطاط وبموضوع تلك الفتاة، وصديقي في رأسه تشويش ألف شيطان. و«الصغير» إذا كان الجنود هم الفاعلون فهم لم يكن لهم أية علاقة، لماذا لم يذهب إلى تكتة بورخا ويشتكى؟ يمدمون ويومنون والدليل نيبيس: لقد ذهب مرتين ولم يهتم به أحد، أيها الملازم. و«الأشقر»، لا بدّ أنه حقود حتى أنه يتابع هذا الموضوع بعد انقضاء كل ذلك الوقت، يا سيدي الملازم، كان باستطاعته أن يكون قد نسي. يزمجران ويومئان ونيبيس: في قرينته يضعون الحق عليه ولا يريد العودة إلى أوراكوسا دون المطاط والجلود والكتب التعليمية والفتاة، كي يروا أن خوم كان على حق. يتكلم خوم من جديد، بهدوء الآن، ودون أن يرفع يديه. الزعنفتان الصغيرتان تتحركان مع شفتيه، مثل مروحتين لا تستطيعان أن تقلعا تماماً وتبدآن بالدوران ثم تتراجعان ثم تدوران وتتراجعان. عمّ كان يتكلم الآن، يا دون أدريان؟ والدليل: كان يتنكّر كما أنه يشمّ أولئك الذين علقوه والملازم يتوقّف عن الطرق بكعبه: وكانوا قد علقوه؟ يشير الصغير بغموض إلى ساحة سانتا ماريّا ده تيبيا: إلى أشجار الكايبيرونا تلك، يا سيدي الملازم. كان باستطاعة باريدس أن يحكي له، فقد كان موجوداً، يقول إنه كان يبدو مثل بايتشه، إذ هكذا كانوا يعلقون البابتشه حتى يجف. يطلق خوم دفقة من الزمجرة، هذه المرة لا يبصق لكنه يقوم بحركات حانقة: لأنه كان يقول لهم الحقائق علقوه إلى شجرات الكايبيرونا، أيها الملازم، والرقيب يعود إلى القصة نفسها بعد أن يتركها، والضابط، الحقائق؟ والمترجم: بيرويون! بيرويون، اللعنة! يا حضرة العريف، لكن العريف ديلغادو كان يعرف، ولا يحتاج لأن

يترجموا له هذا، لم يكن يتكلم الوثنية، لكن كانت له أذن، هل كان يظنه أبله مسكيناً؟ آه، يا سيد، يضرب الملازم المكتب، آه، مشكلة، إذا بقوا على هذه الحال فلن ينتهوا أبداً، بيرويون كانت تعني بيرويين، أليس كذلك؟ هل هذه هي الحقائق؟ والمترجم: أسوأ مما لو كان ينزف، أسوأ مما لو أنه يموت، يا حضرة العريف. ويونينو بيرث وتوفيلو كانياس لا أفهم. يا حضرة العريف لكن العريف ديلغادو كان يفهم: هكذا كان يُدعى المتمردين. وكان يحب أن يناديهما وهما بعيدان، والذنان لو جاءا لُعُقا أيضاً. كان «الأسود» يجلس على حافة المكتب، الحراس الآخرون ما يزالون واقفين، يا سيدي الملازم، كانوا يقولون إنها كانت ستتحول إلى عملية تنكيل، وإن جميع أرباب العمل والجنود كانوا مغتاضين، كانوا يريدون أن يقتلوهم لكن الحاكم وقتذاك، السيد خوليو رثاتيغي، منعهم. ومن كان هذان العنصران؟ ألم يعودا إلى هنا؟ كانا مشاعبين، كما كان يبدو، تسلاً على أنهما ربا عمل، يا سيدي الملازم، وفي أوراكوسا أخذوا بأقوالهما، وثارَت نائرة الوثنيين واحتالوا على المعلم الذي كان يشتري المطاط منهم، «الثقل»، واحد يدعى اسكابينو، وخوم اسكابينو، يزمجر، فظيع! والضابط صه، يا نيببس، أسكته. أين كان هذا الإنسان؟ هل يمكن التحدث إليه؟ صعب بما فيه الكفاية، يا سيدي الملازم، فاسكابينو قد مات، لكن دون فابيو عرفه، والأفضل أن تتكلم معه: سيحكى لك التفاصيل، ثم إن الحاكم كان صديقاً لدون خوليو رثاتيغي. لم يكن نيببس هنا عند وقوع هذه الحوادث؟ أيضاً، أيها الملازم، لم يكن قد مضى عليه سوى ما يقارب الشهرين في سانتا ماريا ده نيببا، وقبل ذلك كان يعيش بعيداً، في أوكايالي و«الأسود»: لم يحتالوا فقط على المعلم، وإنما كانت هناك أيضاً مسألة عريف بورخا ذلك، اجتمع الأمران، والمترجم: العريف ديلغادو شيطان! فظيع! يقلت العريف ديلغادو جميع أصابع يديه ويظهرها: ذكر اسم أمه عشر مرات، كان قد عدها. كان باستطاعته أن يستمر في نكرها. بلى، إن عريقاً كان ذاهباً إلى باغوا في إجازة ويرفقتة مرشد وخادم وفي أوراكوسا فهاجمهم الأغوارونيون، ضربوا العريف

والخادم واختفى الدليل. وكان بعضهم يقول إنهم قتلوه وآخرون إنه فرّ من الخنمة، يا سيدي الملازم، مستغلاً الفرصة. لذلك نُظِّمَت حملة، جنود من بورخا ومعهم الحاكم من هنا، ولهذا جاؤوا بهذا ومثلوا به عند أشجار الكاببيرونا. ألم يكن هذا ما حدث تقريباً، يا دون أدريان؟ يوافق الدليل، أيها الرقيب، هذا ما كان قد سمعته، لكن وبما أنه لم يكن موجوداً هنا من يدري. ها، ينظر الملازم إلى خوم وخوم ينظر إلى نيبيس، إذ لم يكن قد نسي شيئاً صغيراً كما كان يبدو. الدليل يزجر والأوراكوسي يرد عليه بفظاظة ومومتأ، باصقاً ورافساً: ما كان يرديه هو مختلف جداً، أيها الملازم، والملازم: وماذا كانت رواية الصديق؟ إن العريف كان يسرق أشياء وقد أجبروه على إعادتها، والدليل هرب سابحاً والمعلم كان محتالاً بالنسبة للمطاط ولهذا السبب رفضوا أن يبيعوه له. لكن الملازم لم يكن يبدو عليه أنه يصغي وكانت عيناه تتححصان الأغواروني من قدميه إلى رأسه بفضول وبشيء من الاندهاش: كم من الوقت أبقيتم عليه معلقاً، أيها الرقيب؟ يوماً واحداً، ثم ضربوه عدة سياط، كما كان يقول الماكر باريدس، و«الأسود» عريف بورخا نفسه هو الذي ضربه، و«الأشقر» انتقاماً من الضرب الذي ناله من وثني أوراكوسا، يا سيدي الملازم، يتقدم خوم خطوة، يقف أمام الضابط، ويبيصق. كانت تعابير وجهه تكاد تكون باسمه وعيناه الصفراوان تحومان بخبث، وإيماءة ساخرة على شفثيه. يلمس ندبة جبينه ويدور على كعبيه، بطيئاً، احتقالياً مثل مشعوذ، يعرض ظهره: تهبط من كتفيه بعض الشقوق المدهونة بالأتشيوتة، مستقيمة، متوازية وبراقة. إنها إحدى ابتداعات جنونه أيضاً، يا سيدي الملازم، كلما جاء يدهن نفسه بهذا الشكل، و«الصغير» من ابتداعه، لأنه ليس من عادة الأغوارونيين أن يدهنوا ظهورهم، و«الأشقر» لكن البيرويين بلى، يا سيدي الملازم، الظهر، الكرش، القمين، والإست، يدهنون كل الجسم، والدليل نيبيس كي لا ينسى السياط التي ضربوه، هذا هو التفسير الذي كان يعطيه، وأريبالو بينثاس يجفف عينيه: كان قد شوى دماغه هناك في الأعلى، ماذا كان يصرخ؟ بييرويون،

أريبالو. خوليو رثاتيغي كان يسند ظهره إلى شجرة الكاببيرونا، قضى السفر كله وهو يصرخ ببيريويون. والعريف ديلغالنو بهزّ موافقاً، يا سيد، لم يتوقف عن شتم كل العالم، النقيب، الحاكم، ونفسه، لا شيء كان يخفف من صلفه. يطلق خوليو رثاتيغي نظرة سريعة إلى الأعلى، سوف يخفف، وعندما يحني رأسه تبذل عيناه، قليلاً من الصبر، أيها العريف، ما هذه الشمس، إنها تعمي. والمترجم: شعره، يقول، كتاب العليم، فتاة، يا سيد. يتغابي، يقول ومانويل أغيلا: كان يبدو سكاناً، هكذا كانوا يهتزون عندما كانوا يشربون الماساتو⁹⁸، لكن من الأفضل أن يذهبوا وينتهوا فقد كانوا بانتظارهم، هل كان يريد أن يرافقه إلى حيث الأمهات؟ لا، ليس مطلوباً من الأمهات التنخل، يا سيدي الملازم، ألا ترى أنهن كنّ غريبات؟ لكن المشعوذ باريس كان يقول إن الأم أنخليكا . وهي أكثر أمهات البعثة كهولة، يا سيدي الملازم، بعد موت الأم أسونثيون . كانت قد جاءت ليلاً إلى الساحة لتطلب منهم أن ينزلوه، وأنها أيضاً تعاركت مع الجنود. ربما أشفقت العجوز عليه. كانت أكثرهن تجديفاً، وكانت محض تجاعيد و«الأسود»: أخيراً أحرقوا إبطيه بالبيض الساخن، هذا العريف، الشيء الذي كان يجعله ينط حتى السماء وخوم فظيع! ببيريويون! يدق الملازم بكعبه من جديد، لم تكن تلك هي الطريقة، غريب، ويقرع على المكتب بمفاصل أصابعه، ارتكبت مظالم، والمسألة تتحصر الآن في ماذا سيفعلون، كل ذلك مضى. ماذا كان يقول الآن؟ فقط أن يعيدوا له ما انتزعه منه، أيها الملازم، وسيذهب إلى أوراكوسا، ألم أقل لك أنه عنيد؟ فذاك المطاط لا بد صار الآن نعل أحنية، والجلود محافظ وحقائب، والفتاة من يدري أين هي: لقد وضّحوا له هذا مئة مرّة، يا سيدي الملازم، يفكر الضابط، نفته على قبضته: كان دائماً يستطيع أن يتوجّه إلى ليما، ويطالب بحقه في الوزارة، ربما تعوّض له مديرية قضايا السكان الأصليين، لنر، ليقترح نيبيس عليه ذلك. يزمجران، وفجأة بهزّ

⁹⁸ ماساتو: مشروب روحي من منطقة الأمازون.

خوم موافقاً عدة مرات، ليما حكومة! بيتسم الجنود، وحدهما، اللليل والملازم، يلزمان الجدية: كتب ليما! يفك الرقيب ذراعيه المتصالبين: ألم تر أنه متوحش، يا سيدي الملازم؟ كيف كانوا سيستطيعون أن يدخلوا في رأسه مثل هذه الأشياء؟ ماذا كانت تعني له ليما، أو الوزارة؟ ومع ذلك فإن اللليل وخوم يزمجران بحبوية، يتبادلان البصاق والإيماءات، يسكت الأغواروني بين برهة وأخرى ويغمض عينييه، وكأنه يتأمل، ثم يلفظ بعض الجمل بحذر، مشيراً إلى الضابط: يرافقه؟ يا رجل، كيف لا يود أن يذهب لزيارة ليما، لكن لم يكن ذلك ممكناً، والآن يشير خوم إلى الرقيب. لا، لا الملازم ولا الرقيب ولا الحراس، يا نبييس، يستطيعون أن يفعلوا شيئاً، فليبحث عن رثاتيغي، ذلك، ليعد إلى بورخا أو أي شيء آخر، فالمخفر لن يكون عمله نبش الموتى، أليس كذلك؟ ولا حلّ مشاكل الماضي، أليس كذلك؟ كان يموت تعباً، لم يكن قد نام، لينهوا الموضوع، أيها الرقيب. ثم إذا كان الذين احتالوا عليه هم جنود التكنة، والسلطات هنا، فمن الذي كان سيعطيه حقّه؟ ويسأل الملازم كل هذا؟ الضابط يتتأعب، فاتحاً فمه بكسل وينحني الرقيب نحوه: من الأفضل أن تقول له حسناً، يا سيدي الملازم، وإنهم كانوا سيعيدون له المطاط، الجلود، الكتب التعليمية والفتاة، وكل ما كان يريد، و«الثقل» ماذا كان يحدث لك، يا حضرة الرقيب؟ من كان سيعيدها له طالما أن اسكابينو ميت؟ و«الصغير» لن يكون من رواتبه، أليس كذلك؟ والرقيب كضمان أكبر يعطي ورقة موقعة. هذا ما كانوا قد فعلوه ومعهم الملازم ثييريانو ذات مرة، يا سيدي الملازم، وقد أعطى نتائجه. يختمون على الورقة عرضياً، وانتهى: والآن اذهب بهذا لنبحث عن السيد رثاتيغي واسكابينو كي يعيدا لك كل شيء. و«الأسود»، ضربة معلم، أيها الرقيب، أليس كذلك؟ لكن هذه الأشياء لم تقع الملازم، فهو لا يستطيع أن يوقع أية ورقة تخص هذا الموضوع القديم جداً، إضافة إلى أنه توقيع كاتب يجعله يذهب مطمئناً، لكن الرقيب: ورقة صحيفة ليس أكثر، وهؤلاء صحيح أنهم كانوا عنيدين لكنهم يصدقون ما يُقال لهم، يقضي شهوراً وأعواماً بحثاً عن

اسكابينو وعن السيد رثاتيغي. حسناً، والآن ليعطوه شيئاً يأكله وليذهب دون أن يرفع أحد بعد الآن إصبعاً عليه، أيها النقيب، لتردده عليهم بنفسك رجاء، والنقيب، بكل سرور، يا دون خوليو، ينادى العريف: مفهوم؟ انتهى التتكيل ولا إصبع يُرْفَع عليه، وخوليو رثاتيغي: المهم أن يعود إلى أوراكوسا. لا يضرب بعد الآن جنوداً، ولا يخدع أبداً معلماً، وإذا تصرف الأوراكوسيون تصرفاً سيئاً، فسوف يتصرف المسيحيون مثلهم⁹⁹: ترجم له هذا، والرقيب يطلق قهقهة تغطي بالفرح كل وجهه الدائري: ماذا كنت قد قلت لك، يا سيدي الملازم؟ بلى كانوا قد تخلصوا منه، لكن لم يكن هذا يعجب الضابط، لم يكن معتاداً على هذه الإجراءات و«التقيل» الجبل ليس ليما، يا سيدي الملازم، فهنا يتوجب مصارعة التشنوشيين. ينهض الملازم على قدميه، أيها الرقيب، لقد دوخته هذه الورطة، وعليهم ألا يوقفوه حتى لو سقط العالم. ألم يكن يريد زجاجة بييرة صغيرة قبل أن يذهب إلى النوم؟ كلا، هل يأتونه بدنّ من الماء؟ فيما بعد. يحيي الملازم الجنود بيده ويخرج. ساحة سانتا ماريا ده نيبيا مليئة بالمسكان الأصليين، تشكل النسوة اللواتي يطحنّ جالسات على الأرض حلقة كبيرة، بعضهم يحملن أطفالاً صغيراً متشبّثين بأثدائهن. يتوقف الملازم وسط الدرب ويتأمل أشجار الكاببيرونا لحظة، حاجباً الشمس بيده: قوية، عالية، منكرة¹⁰⁰. يمر كلب ضامر به، يلاحقه الضابط بنظرة فيرى الدليل أدريان نيبيس. يمضي نحوه ويريه في يده مزق أوراق الصحيفة البيضاء والسوداء، أيها الملازم: لم يكن غيباً إلى هذا الحد كما كان يعتقد الرقيب، لقد مزق الورقة إرباً، ورمها في الساحة، وقد وجدها لتوه.

⁹⁹ نلاحظ أن خوليو رثاتيغي يتكلم بلغة تشبه إلى حد ما لغة خوم المترجمة.

¹⁰⁰ Masuclinas: بمعنى الصلابة.

- 1 -

. هناك سرّ لا تعرفه، يا حضرة الرقيب . قال «الثقيل» خافضاً صوته . لكن يجب ألا يسمع به الآخرون .

كان «الأسود» و«الصغير» و«الأشقر» يتحادثون، عند طاولة البار، مع باريس، الذي كان يقدم لهم بعض كؤوس البيرة. خرج صبي من المشرب ومعه ثلاثة قُدور صغيرة من الفخار، اجتاز ساحة ماريا ده نيبيا وضاع باتجاه المخفر . شمس قوية تذهب أشجار الكابايرونا وأسطحة وجدران الأكواخ، لكنها لم تكن تصل إلى الأرض، لأن ضباباً رمادياً طافياً، يبدو أنه قادم من نهر لانيببان، كان يحتجزها عند سطح الأرض .

- إنهم لا يسمعون . قال الرقيب . ما هو السرّ ؟

- أعرف من هي التي عند آل نيبيس . بصق «الثقيل» بذور بابايا¹⁰¹ سوداء، ونظف وجهه المبلل بالعرق بالمنديل . تلك التي أثارت فضولنا كثيراً في الليلة الماضية .

- صحيح؟ . قال الرقيب . ومن تكون؟

- التي كانت تخرج القمامة للأمهات . همس «الثقيل»، وهو ينظر شزراً إلى طاولة البار . التي طردوها من البعثة لأنها ساعدت الريبيات على الهرب .

- فنس الرقيب في جيوبه، لكن السجائر كانت على الطاولة، أشعل واحدة وابتلع دخانها بعمق، وأطلق ملء فمه دخاناً فتخبطت نبابة بضيق داخل السحابة وهربت وهي تطنّ .

- وكيف تحققت من ذلك؟ . قال الرقيب . هل قدّمها لك آل نيبيس؟

كان «الثقيل» ذاهباً، يا حضرة الرقيب، متظاهراً بالغباء ليطوف حول خيمة الليل، ورآها في ذلك الصباح تعمل في المزرعة مع زوجة نيبيس: بونيفاثيا، هكذا كانت تُدعى . ترى لم يخطئ «الثقيل»؟ لماذا ستكون مع آل نيبيس؟ ألم تكن راهبة؟ لا، فمنذ أن طردتها لم تعد كذلك، ولم تضع لباس الراهبة، و«الثقيل» تعرّف عليها هناك تحديداً . إنها مقوسة الساقين، يا حضرة الرقيب، رغم أن قوامها جيد . ويبدو أنها شابة صغيرة، لكن يجب حتماً ألا تقول للآخرين شيئاً .

¹⁰¹ بابايا: ثمار البابايو يشبه البطيخ الأصفر لكنه أصغر حجماً وهو طو المذاق

- وهل تعتقد أنني واثق؟ قال الرقيب . دعك من النصائح التافهة .
أحضر باريدس كأسين صغيرين من الأنيساو ومكث بجانب الطاولة بينما
كان الرقيب و«الثقيل» يشران . ثم نظف اللوح الخشبي بخرقة وعاد إلى طاولة
البار . خرج «الإسود» و«الأشقر» و«الصغير» من المشرب وفي الباب أضاء
وهج الشمس وجوههم وأعناقهم . كان الضباب الضوئي قد ازداد، والحراس
يبدون من بعيد مبتورين أو مسيحين يعبرون نهراً من الزيد .
- لا تدخل في مشاكل مع آل نيببس، فهم أصدقائي . قال الرقيب .
- ومن كان سيفعل ذلك معهم؟ لكن من الجنون ألا يستغلّ الواحد الفرصة،
يا حضرة الرقيب .

كانا الوحيدين اللذين يعرفان، وهكذا كصديقين حميمين، أليس كذلك؟،
«الثقيل» يقوم بالعمل، يعمل معها، تيك . تيك، واضح؟ ويمررها عليه،
متفقان؟ . لكن الرقيب بدأ يسعل، لم تعجبه القسمة، وكان يخرج الدخان من
أنفه وفمه، باللحاء، لماذا سيكون نصيبه الفضلات .
- أو لست أول من رآها، يا حضرة الرقيب؟ . قال «الثقيل» . وتحققت منها
وكل شيء . لكن، انظر، ماذا يفعل الملازم هنا .

أشار إلى الساحة وكان الملازم قائماً من هناك، نصف جسمه خارج البقعة
الغازية، يطرف بعينه تحت الشمس، بقميص نظيف، وعندما خرج من
الضباب كان النصف الأسفل من بنطلونه وجزمته مبللة بالبخار .

- تعال معي، أيها الرقيب . أمر من الدرج الصغير . فدون فابيو يريد أن يرانا .
- لا تنس ما قلته لك، يا حضرة الرقيب . تتمم «الثقيل» .

غاص الملازم والرقيب في الضباب حتى الخاصرة . كان المرفأ والأكواخ
المنخفضة حوله قد ابتلعها أمواج البخار، التي راحت الآن تهاجم، مرتفعة
متموجة، الأسطح والشرفات، بينما يحيط بالتلال ومحلات البعثة نور شفاف،
والأشجار التي محا الضباب جذوعها تتلألأ رؤوسها النظيفة، وتومض أوراقها
وأغصانها المتشابكة .

- هل صعدت إلى حيث الأمهات، سيدي الملازم؟ قال الرقيب . لا شك
أنهن سطن الصغيرات، ليس كذلك؟
- بل عفون عنهن . قال الملازم . وأخرجنهن هذا الصباح إلى النهر . قالت
لي المشرفة إن المريضة تحسنت .

على سلم كوخ الحاكم نفضا بنظولييهما المبللين ونظفا نعالهما المليئة بالوحل
بحافة الدرجة . كانت مربعات الشبك المعدني الذي يحمي الباب، من الصغر
بحيث أنها كانت تخفي الداخل . فتحت لهما أغارونية عجوز، كانت حافية، دخلا،
وكان الداخل رطباً وتفوح منه رائحة خضار . كانت النوافذ مغلقة، والغرفة ما تزال
في شبه الظل وتتمايز الأكواس والصور والسبطانات وحزم السهام المعلقة إلى
الجدران بصعوبة . بعض الكراسي الهزازة تحيط بسجادة التشامبيرا، وظهر دون
فابيو في الغرفة المجاورة، أيها الملازم، أيها الرقيب، وكان باسمأ، متيبساً تحت
الصلعة البراقة، ممدود اليد: وصل الأمر! تصورا! ربت على كتف الضابط، كيف
أنتما؟ قام بإيماءات مشوشة، كيف بدا لكما الخبر؟ ولكن قبل هذا هل تريدان
مرطباً؟ بعض البيرة؟ ألا يبدو مثل الكذب؟ أعطى أمراً باللغة الأغارونية
فأحضرت العجوز زجاجتين من البيرة . تجرع الرقيب زجاجته بجرعة واحدة، بينما
كان الملازم يمرر زجاجته من يد إلى أخرى، بعينين شاردتين ومهمومتين، ودون
فابيو يشرب مثل عصفور جرعات صغيرة جداً .

- هل أبلغتم الأمر إلى الأمهات بالراديو؟ قال الملازم .
بلى، هذا الصباح، وقد أعلموا دون فابيو في الحال . كان دون خوليو دائماً
يقول إن هذا الوزير يعرقل الأمور، إنه أسوأ أعدائي، لن يصدر الأمر أبداً . وكانت
تلك هي الحقيقة الخالصة، فها هم يرون، تغير الوزير وجاء الأمر طائراً .
- بعد زمن طويل . قال الرقيب . حتى أنني نسيت للصوص أيها الحاكم .

كان دون فابيو يبتسم دائماً: كان عليهم أن ينطلقوا بأسرع وقت ممكن كي
يعودوا قبل موسم الأمطار، فهو لا ينصحهم بفيضانات وحواجز ودوّارات نهر
سانتياغو . كم من المسيحيين ذهب بهم تلك الفيضانات!

- ليس لدينا إلا أربعة رجال في الموقع وهذا لا يكفي . قال الملازم . ثم إنه يجب أيضاً أن يبقى واحد في المخفر يحرسه .
غمز دون فابيو بإحدى عينيه بخبث، ولكن الوزير الجديد كان صديقاً لدون خوليو، يا صديقي. فقد قَدَمَ جميع التسهيلات. ولم يكونوا ذاهبين وحدهم بل ومعهم جنود من تكنة بورخا. وقد تلقوا الأمر، أيها الملازم. شرب الضابط جرعة ووافق دون حماس: حسناً، هذا موضوع آخر. لكن لم يتوضح الأمر في ذهنه، وكان يحرك رأسه بارتباك، فهذا الموضوع الآن مثل عودة لاثارو للحياة¹⁰² يا دون فابيو. هكذا كانت تسير الأمور في وطننا، أيها الملازم، وكان ذلك الملازم يتأخر ويتأخر، معتقداً أنه يضّر فقط دون خوليو دون أن ينتبه إلى أنه كان يضّر بالجميع. كان خيراً أن يعمل متأخراً من أن لا يعمل أبداً. أليس كذلك؟

- لكن لم تعد هناك شكاوى من أولئك اللصوص، يا دون فابيو . قال الملازم . فأخر واحدة كانت بعد وقت قصير من وصولي إلى سانتا ماريا ده نيبيا، تصوّر كم مضى من الوقت.

ماذا بهمّ ذلك، أيها الملازم، قد لا يوجد شكاوى من هذا الجانب لكن من ذلك، بلى، ثمّ كان على أولئك اللصوص أن يدفعوا ثمن ما فعلوه، هل يصبّ لهم بيرة أكثر؟ قبل الرقيب، أفرغ كأسه من جنيد بجرعة واحدة: لم يكن هذا هو السبب، أيها الحاكم، وإنما الخوف من أن يقوموا بسفرهم سدى، فما الذي سيقفي النشالين يعملون هناك حتى الآن؟ وإذا جاءت الأمطار مبيكة، فكم من الوقت سيقفون مقبورين في الجبل؟ كلاً، كلاً، أيها الرقيب، عليهم أن يكونوا في التكنة خلال أربعة أيام، وهناك شيء آخر كان على الملازم أن يعرفه: هذا موضوع كان يهم دون خوليو شخصياً. فقد جعله اللصوص يضيع وقته ويفقد صبره، الشيء الذي لم يكن ليغفره لهم. ألم يكن الملازم يقول إنه كان يحلم

¹⁰² لاثارو: بطل رواية إسبانية عنوانها: لاثارو ترمس، من الثمن السادس عشر غير معروفة المؤلف، وهي من أول الروايات التي عرفت برواية الشطار.

بالخروج من هنا؟ دون خوليو سيساعده إذا سار كل شيء كما يجب. إن صداقة ذلك الرجل كانت تساوي ذهباً، أيها الملازم، ودون فابيو كان يعرف ذلك بالتجربة.

- آه، يا دون فابيو . ابتسم الضابط . أنت تعرفني جيداً، لقد وضعت إصبعك على الجرح.

- حتى الرقيب سيخرج رابحاً . أجاب الحاكم رابتاً بفرح . طبعاً! ألم أقل لكما إن دون خوليو والوزير صديقان؟

حسناً، يا دون فابيو، سيفعلان ما يستطيعان، ولكن ادعهم لكأس آخر ليفكروا، فقد أريكهم الخبر قليلاً. أتوا على البيرة وتحدثوا وتمازحوا في الظل الرطب والعبق، ثم راقبهم الحاكم حتى الدرج الصغير، ومن هناك لوح لهم مودعاً. كان الضباب يغطي كل شيء وكانت الأكواخ والأشجار تطفو بين وشاحاته ورقصات الغامضة بنعومة. كانت تظلم وتجلي وكان هناك أطراف فزارة تنور في الساحة. صوت رقيق وحزين كان يترنم في البعيد.

- أول ما طفنا بحثاً عن الصغيرات والآن هذا الموضوع . قال الرقيب . ليس لدي أية رغبة بعبور نهر سالنتياغو في هذه الفترة، سيكون مسحقة عظام رهيبة، يا سيدي الملازم. من ستترك في الموقع؟

- «الثقل» الذي يتعب من كل شيء . قال الملازم . كان بورك أن تبقى، أليس كذلك؟

- لكن «الثقل» أمضى سنوات كثيرة في الجبل . قال الرقيب . وهذا يُكسب

خبرات كثيرة، يا سيدي الملازم. ولماذا لا يكون «الصغير»، الشديد السقام؟

- بل «الثقل» . قال الملازم . لا تقلب وجهك. أنا أيضاً لست راغباً بهذه الورطة، لكنك سمعت الحاكم، فجأة وبعد عودتنا من هذه السفرة القصيرة يتبدل الحظ ويخرج من هنا. هيا اذهب وناد نيبيس وتعال بالآخرين إلى بيتي كي نضع خطة العمل.

بقي الرقيب لحظة في الضباب بلا حراك، ويده في جيبيه. ثم اجتاز الساحة خافض الرأس، مر بجانب المرفأ المغمور بطبقة كثيفة من البخار،

دخل في الدرب وتقدم في مشهد دخاني، مشحون بالكهرباء والزئبق. وعندما وصل إلى جوار كوخ الليل، كان يتكلم مع نفسه، ويدها تعصران القبعة والطماقين وكان بنظونه وقميصه ملطخين بالزحل.

- آية معجزة، أن تأتي في مثل هذه الساعة، أيها الرقيب. كانت لاليتا تعصر شعرها، منحنية فوق الدرايزين وكان وجهها وذراعاها وثيابها تقطر. لكن ادخل، اصعد، أيها الرقيب.

تسلق الرقيب الدرج مرتباً متفكراً ومحركاً شفتيه باستمرار، وفي الشرفة أعطى يده للاليتا وحين التفت كانت بونيفاتيا قد أصبحت بجانبه مبتلة أيضاً. وكان لباسها بلونه اللفظ يلتحم بجسمها، وشعرها الرطب يحيط بوجهها كالوشاح. وكانت عينها الخضراوان تنظران إلى الرقيب بفرح وطلاقة. كانت لاليتا تعصر طرف تنورتها، هل جاءت تزور نزيلتهم، أيها الرقيب؟ وقطرات شفاة كانت تتدرج على قدميها: إنهما هناك، كانتا تصطادان سمكاً ودخلتا في النهر في هذا الضباب، تصوّر، لم يكن بمقدورهما رؤية أي شيء لكن الماء كان دافئاً ولذيذاً، وتقدمت بونيفاتيا: هل معك طعام؟ أنيسادو؟ وبدلاً من الإجابة، أطلقت لاليتا قهقهة ودخلت الكوخ.

- ظهرت مع «الثقيل» هذا الصباح. قال الرقيب. لماذا ظهرت؟ ألم أقل لك إنني لا أريد ذلك؟

- أنت تغار عليها، أيها الرقيب. قالت لاليتا من النافذة ضاحكة. ماذا يهمك أن يروها؟ لا أعتقد أنك تريد من المسكينة أن تقضي حياتها متخفية، أليس كذلك؟

كانت بونيفاتيا تتفحص وجه الرقيب بجدية كبيرة وكان في موقفها شيء من الخوف والارتباك. تقدم منها خطوة فاستقرت عينها، لكنها لم تتحرك ورفع الرقيب ذراعاً وأمسكها من كتفها، أيتها الصينية، لم يكن يريد أن يتكلم مع «الثقيل»، أو مع أي مسيحي، يا سيدة لاليتا.

- أنا لا أستطيع أن أمنعها. قالت لاليتا، وابتسم أكيلينو، الذي ظهر في النافذة. وأنت أيها الرقيب، أترك أخوها؟ فقط تستطيع ذلك لو كنت زوجها.

- أنا لم أره . تلعثت بونيفاثيا. هذا كذب، لم يرني، إنه يقول ذلك لمجرد القول .
- لا تتنللي، لا تكوني غبية . قالت لاليتا. يُفضل أن تحمليه على الغيرة، يا بونيفاثيا .
جنب الرقيب بونيفاثيا إليه، لا يريد أن يراها قط مع «الثقيل» . هذا أفضل،
وبأصابعه رفع نقنها، لا يريد أن يراها مع أي رجل، يا سيّدة، وأطلقت لاليتا
قهقهة أخرى ويرز إلى جانب وجه أكيلينو وجهان آخران. كان الأطفال الثلاثة
يلتهمون الرقيب بعيونهم، ولا يريد أن يراها مع أي شخص أبداً، أمسكت
بونيفاثيا بقميص الرقيب وكانت شفتاها ترتعشان: أعدك .
- سأخرج في سفر . قال الرقيب، ضاماً بونيفاثيا. لن نعود قبل ثلاثة
أسابيع، وربما شهر .

- معي أيها الرقيب؟ . كان أدريان نيبيس في السروال الداخلي على الدرج
يهزّ بيديه الجسد المصقول الضامر. لا تقل لي إنّ الريببات هرين مرّة أخرى .
وعندما يعود يتزوجان، أيتها الصينية وتهشمّ صوته وراح يضحك مثل أبله،
بينما كانت لاليتا تصرخ وتزجر في الشرفة، مبتهجة، مفتوحة الذراعين
وبونيفاثيا كانت تخرج للقاءه وتعانقه. شدّ الدليل نيبيس على يد الرقيب، الذي
كان يتكلم تاركاً لصوته العنان، يا دون أدريان، المسألة أنه تأثر قليلاً: فقد
كان يريد منهما أن يصبحا إشبينييه، طبعاً. ها أنت ترين، يا سيّدة لاليتا، لقد
وقع في حبالك، وحدها لاليتا كانت تعرف منذ البداية أن الرقيب كان مسيحياً
مستقيماً، فليتركها تعانقه. سوف يقيمون فرحاً كبيراً، سوف ترى، وسيحتفلون
بذلك. كانت بونيفاثيا تعانق الرقيب ولاليتا وتقبل يد الدليل مرتبكة، تأخذ
الصغار نون توازن، سيصبحان اشبينييهما بكل سرور، ابق، أيها الرقيب
للغشاء هذه الليلة. كانت العينان الخضراوان تبرقان، الرقيب ولاليتا يقيمان
بيتهما هنا قريباً، يحزانان، هما يساعدانها، يفرحان والرقيب عليك أن تعتني
بها كثيراً، يا سيّدة، فهو لا يريد أن ترى أحداً في فترة سفره ولاليتا، طبعاً، لن
تخرج ولا حتى إلى الباب، سوف تربطها .

- وأين ستذهب الآن؟ . قال الدليل . مرّة أخرى مع الأمهات؟

- حينئذ لو كان هذا . قال الرقيب . سيتزعجون روحنا، يا دون أدريان . تصوّر أن الأمر قد وصل . سنذهب إلى نهر سانتياغو، لنبحث عن أولئك اللصوص .
- إلى سانتياغو؟ قالت لاليتا . وقد شحب لونها وفغر قمها وتخشيت، والحليل نيبيس مستنداً إلى الدرايزين راح يتفحص النهر، الضباب، الأشجار . والصغار ما زالوا يحومون حول بونيفاثيا .
- ومعنا أناس من تكنة بورخا . قال الرقيب . لكن ما الذي غيركم بهذا الشكل؟ لا خطر، فنحن كثرة، وربما مات هؤلاء اللصوص بمرض الشيوخوخة .
- بينتادو يعيش هناك في الأسفل . قال أدريان نيبيس مشيراً إلى النهر المختفي في الضباب . إنه يعرف المنطقة جيداً وهو واحد من الأدلاء الجيدين . يجب إخباره حالاً، فهو يخرج إلى الصيد في مثل هذه الساعة أحياناً .
- ولكن كيف هذا . قال الرقيب . ألا تريد أنت أن تأتي معنا، يا دون أدريان؟ إنها أكثر من ثلاثة أسابيع وسنحصل على مال كثير .
- المسألة أنني مريض، بي حمى . قال الليل . وأنتياً كل شيء، ورأسي تدور .
- لكن، يا دون أدريان . قال الرقيب . لا تقل لي هذا، أنت لست مريضاً . لماذا لا تريد أن تذهب معنا؟
- به حمى، وسيذهب لينام في الحال . قالت لاليتا . اذهب بسرعة إلى حيث بينتادو، أيها الرقيب، قبل أن يخرج إلى الصيد .

هربت حين خيم الليل كما قال لها، نزلت إلى الوهدة، وفوشيا لماذا تأخرت كل هذا الوقت؟ هيا أسرعي إلى الزورق . ابتعدا عن أوتشامالا فيما يشبه الظلمة والمحرك مطفأ، وهو طول الوقت هل شاهدوك، يا لاليتا؟ ويحك لو رأوك، إنني أقامر بحياتي ولا أدري لماذا أفعل ذلك، وهي، وكانت تعمل نلية، حذار، دوار

ماء، هناك صخور إلى اليسار. أخيراً لجأ إلى شاطئ، خبأ الزورق وتمددا على الرمل، وهو أنا غيور، يا لاليتا، لا تحكي لي عن الكلب رثائغي، لكنني بحاجة لزورق طعام، تنتظرنا أيام مزة، لكن سترين، سوف أجتاز المحنة، وهي مستجاوزها وسأساعدك، يا فوشيا. كان يتكلم عن الحدود، لا بد أن الجميع يقولون إنه ذهب إلى البرازيل، سيتعبون من البحث عني يا لاليتا، إذ من سيخطر له أنني جئت إلى هذا الجانب. إذا عبرنا إلى الإكوادور لن تكون هناك مشكلة. وفجأة، تعرّض، يا لاليتا، وهي يلدغني النمل، يا فوشيا، وهو، وإن يكن. ثم أمطرت طول الليل واقتلعت الرياح المأوى الذي كان يحميها فصارا يتناوبان على إبعاد البعوض والخفافيش عنهما. ألقا عند الفجر وكان السفر موقفاً إلى أن ظهرت التيارات السريعة: مركب وكانا يختبئان، قرية، تكنة، طائرة وكانا يختبئان. مرّ أسبوع دون أن تمطر، كانا يسافران منذ طلوع الشمس حتى مغيبها، وكانا يصطادان أنتشوبيتا وباغر¹⁰³ كي يوقرا المعلبات. وفي المساءات كانا يبحثان عن جزيرة، مصطبة رملية، شاطئ ونيامان يحميها صلاء من النار. كانا يعبران القرى ليلاً، دون أن يشعلا المحرك، وهو شدي عزمك، يا لاليتا، وهي لا تطاوعني نراعي، التيار قوي، وهو شدي عزمك ويحك، لم يبق إلا القليل. وبالقرب من بارانكا التقيا بصياد فأكلا معاً وهما إننا هاربان وهو هل أستطيع مساعدتكما؟ وفوشيا نريد أن نشترى بنزينا، إنه على وشك أن ينتهي، وهو أعطني نقوداً، فأنا ذاهب إلى القرية وأحضره لك. تأخرا اسبوعين في اجتياز مناطق الخطر، ثم دخلا فروعاً نهريّة، وبحيرات ومستنقعات، تاها، انقلب الزورق مرتين، نفذ البنزين، وذات فجر، لا تبكي، يا لاليتا، ها نحن نصل، انظري، إنهم هوامبيسيون. تذكره، اعتقدوا أنه قادم، مثل كل مزة، ليشتري منهم المطاط. قدموا لهما كوخاً، طعاماً، نسيجاً من الخيزران كسريرين وهكذا قضيا أياماً كثيرة. وهو، أرأيت ما يجري لأنك التصقت بي؟ كان

¹⁰³ أنتشوبيتا وباغر: نوع من السمك.

من الأفضل لك لو بقيت في إيكيتوس مع أمك، وهي ماذا لو قتلوك ذات يوم، يا فوشيا؟ وهو تصبحين زوجة هومببسيين، وتسيرين وتديك عاريان وستدهنين نفسك بالتيلة والروبينيا والأشيوته¹⁰⁴، وسيحملونك على مضغ إبرة آدم لصناعة الماساتو. تصوّري ماذا ينتظرك. هي كانت تبكي، والهومببسيون يضحكون وهو غبية، كانت مزحة، ربما كانت المسيحية الأولى التي يراها هؤلاء، منذ زمن بعيد وصلت إلى هنا مع واحد من مويابامبا وأرونا رأس مسيحي دخل نهر سانتياغو بحثاً عن الذهب، هل تخافين؟ وهي، نعم، يا فوشيا. كان الهومببسيون يحضرون لهما شرائح تشوسكا وماخات¹⁰⁵، باغر وإبرة آدم، وفي إحدى المرات بيداناً خضراء، فقياً، ومن حين لآخر كانوا يحضرون غزلاً، غاميتانا أو ثونغارو¹⁰⁶. وكان هو يتحدث معهم من الصباح وحتى الليل وهي أخك لي، ماذا تسألهم، ماذا يقولون لك، وهو أشياء لا تتشغلي، في المرة الأولى التي جئنا فيها مع أكيلينو امتلكناهم بجرعة وعشنا معهم ستة أشهر، كنا نحضر لهم المدي، والأقمشة والبنادق والأنيسادو وكانوا يعطوننا مقابلها مطاطاً وجلوداً وحتى الآن لا أستطيع أن أشكو منهم فهم زبائني، أصدقائي، ولولاهم لكنت الآن ميتاً، وهي صحيح، لكن هيا بنا، يا فوشيا، أليست الحدود قريبة؟ وهو إنهم أفضل من تجار المطاط، يا لاليتا، بدءاً من ذلك الكلب رناتيغي، وإلا فانظري كيف تصرف معي، لقد جعلته يبيع أموالاً طائلة ومع ذلك رفض أن يساعدني، إنها المرة الثانية التي ينقذني فيها الهومببسيون. وهي، لكن متى نعبر إلى الإكوادور، يا فوشيا، فالآن تبدأ الأمطار ولا يعود باستطاعتنا ذلك. وهو لم يعد يتكلم عن الحدود، وصار يقضي الليل دون

¹⁰⁴ الروبينيا والأشيوته: نوعان من لشجر ينموان في الأراضي الحارة يستخرج منهما هذا الصباغ.

¹⁰⁵ تشوسكا وماخات: حيوانان أمريكيان، الثاني قارض.

¹⁰⁶ غاميتانا أو ثونغارو: الغاميتانا نوع من السمك نباتي وحيواني الغذاء، يصل وزن الواحدة منه

إلى خمسة وعشرين كيلوغراماً، أما الثونغارو فهو يمتاز بجمه الكبير وشاربه الطويل جداً.

أن يطبق له جفن، جالساً في سريره، يسير، يحدث نفسه، وهي ماذا بك، يا فوشياً؟
دعني أقدم لك النصيحة، لهذا أنا زوجتك، وهو صمت فقد كان يفكر. وذات
صباح استيقظ نهض، هبط إلى الوهدة قفزاً وهي من الأعلى لا تفعل ذلك أحلفك
بمسيح باغاتان، القديس، القديس وهو تابع العمل بالزورق بمثابرة إلى أن ثقبه
وأغرقه، وعندما صعد أعلى الوهدة كانت عيناه فرحتين. نذهب إلى الإكوادر بلا
ثياب، بلا نقود، ولا أوراق؟ هذا جنون، يا لاليتا، فالشرطة ستدب الصوت من بلد
إلى آخر، سنبقى زمناً قصيراً إضافياً ليس إلأ، فأنا هنا أستطيع أن أصبح غنياً،
كل شيء يتعلق بهؤلاء ويعثورى على أكيلينو، إنه الرجل الذي نحتاج إليه، تعالي
لأوضح لك، وهي ماذا فعلت، يا فوشياً؟ يا إلهي! وهو إلى هنا لن يأتي أحد
وعندما تغادر سيكرونيون قد نسونا، ثم إنه سيكون عنننا من المال ما نسد به فم أي
واحد، وهي، فوشياً، يا فوشياً، وهو يجب أن أعثر على أكيلينو، ولماذا أغرقته¹⁰⁷،
أنا لا أريد أن أموت في الجبل، وهو يا لك من بلهاء، يجب أن نمحو كل أثر.
وانطلقا ذات يوم في زورق بمجدفين هومبسيين باتجاه نهر سانتياغو. كانت
تواكبهم الخيخانات وأسراب من البعوض، وصداح طيور البواق¹⁰⁸ الأجنس، وفي
الليل ورغم النار والبطانيات كانت الخفافيش تحوم فوق أجسامهم، بعضها في
المناطق الطرية: أصابع الأقدام، الأنف، قاعدة الجمجمة. وهو لا اقترب من
النهر، فهنا يوجد جنود. كانوا يمخرون فروع أنهار ضيقة وقائمة، تحت قناطر من
الأغصان الكثة، ومواحل تنكة، وأحياناً بحيرات منتفشة بالريناكوات¹⁰⁹ وأحياناً أخرى
دروباً يفتحها الهومبسيان بالمدى حاملين الزورق على الكتف. كانوا يأكلون ما
يجدون، جنوراً، سيقان نباتات ذات عصير حامض، طيبخ أعشاب، واصطادوا

¹⁰⁷ المقصود هو الزورق.

¹⁰⁸ البواق: نوع من الطيور بعضه ذو لون أسود وبعضه الآخر ذو لون رمادي.

¹⁰⁹ القوارب.

ذات يوم ساتشاباكا، أكلوا من لحمها لأسير، وهو لم يبق إلا القليل. إلى أن ظهر نهر سانتياغو. هناك أكلوا تشيتاريس¹¹⁰ أمسكوا به تحت حجارة النهر وكانوا يطهونه على الدخان، وأوماديليو¹¹¹ اصطاده الهوامبيسيان، وهو أرأيت أننا وصلنا، يا لاليتا؟ هذه أرض طيبة، يوجد فيها طعام وكل شيء يخرج كما نريد، وهي وجهي يلتهب، يا فوشيا، أقسم لك أنني لا أستطيع أكثر.

خيّموا ليوم واحد ثم تابعوا باتجاه سانتياغو الأعلى، متوقفين للنوم وللطعام في تجمعات الهوامبيسيين المؤلفة من عائلتين أو ثلاث. وبعد أسبوع غادروا النهر وأبحروا لساعات في فرع ضيق حيث لم تكن الشمس تدخل، والغابة منخفضة بحيث كانت تلامس رؤوسهم. خرجوا، وهو، الجزيرة، يا لاليتا، انظري إليها. أفضل مكان على الإطلاق، بين الجبل والمستنقعات، وجعل الهوامبيسيين يقومان بعدة جولات في جميع الأنحاء حولهما قبل أن ينزلا من الزورق، وهي هل سنعيش هنا؟ وهو منطقة مخفية، فكل الضفاف مغطاة بالغابات السامقة، هذه النقطة جيدة كرصيف. هبطا وكان الهوامبيسيان يقلبان عيونهما، يبرزان قبضاتهما، يزمجران ولاليتا، ماذا بهما، يا فوشيا؟ لماذا هما حانقان؟ هو جبانان قنران، يريدان العودة، خافا من أشجار اللوبونا، لأنه كان في أعلى الوهدة وعلى امتداد الجزيرة، أشجار لوبونا بجنوح خشنة وحدرات منتفخة وطيات كبيرة وخشنة كانوا يستخدمونها كمقاعد. وهي لا تصرخ بهما بهذا الشكل، يا فوشيا، فسوف يغضبنا، ظلوا يتجاللون، يزمجرون ضد بعضهم بعضاً ويومنون، وأخيراً أقنعهما ودخلا خلفهما في حراج الجزيرة. وهو أسمعين، يا لاليتا؟ انها مليئة بالطيور. يوجد ببغاوات الغوكامايو¹¹²، ألا تشعرين؟ وعندما وجدوا هوانكا هوي¹¹³ يأكل أفعى سوداء زعق

¹¹⁰ تشيتاريس: نوع من السمك النهري.

¹¹¹ أوماديليو: حيوان ثديي، لا لبان له، تحمي ظهره وذيله صفائح قرنية بطريقة تسمح أن يلتف على نفسه بشكل كرة.

¹¹² ببغاوات الغوكامايو: نوع من الببغاوات الأمريكية.

الهوامبيسيان، وهما كلبان رعيديان، وهي هل أنت مجنون؟ كل شيء هنا غابة، يا فوشيا، كيف سنعيش هنا، وهو تعتقد أني لا أفكر بكل شيء؟ هنا عشت مع أكيلينو، وهنا سأعيش من جديد، وهنا سأصبح غنياً، سترين كيف أحقق ذلك. عادوا إلى الوهدة، هبطت هي من الزورق وتوغل هو والهوامبيسيان من جديد، وفجأة ارتفع فوق أشجار اللوبونا عمود من الدخان الرصاصي، وبدأت تفوح رائحة حريق، عاد مع الهوامبيسيين جرياً، قفزوا إلى الزورق، عبروا البحيرة وخبوا على الضفة الأخرى، بجوار قم الرائد، وهو عندما ينتهي الحريق سيكون هناك منطقة مكشوفة كبيرة، يا لاليتا، أمل ألا تمطر، وهي أمل ألا تهب رياح، يا فوشيا، وألا تأتي النيران إلى هنا وتشتعل الغابة. لم تمطر واستمرت النيران يومين تقريباً، واستمروا هم في المكان نفسه يتلقون الدخان الكثيف والنتن المنبعث من أشجار اللوبونا والكاتاهوا¹¹⁴، والرماد الذي كان يروح ويغدو في الهواء، ينظرون إلى اللهب الأزرق والحاد، وإلى الشرر الذي كان ينفجر مطلقاً في البحيرة، يسمعون كيف كانت تصرّ الجزيرة. وهو انتهينا لقد أحرقت الشياطين. وهي لا تحزنها، إنها معتقداتهما، وهو لا يفهما، ما أقول، ثم إنهما يضحكان، لقد شفيتها وللأبد من الخوف من اللوبونا. كانت النيران تنظف الجزيرة وتفرغها من سكانها. كانت تخرج من بين الدخان أسراب من الطيور وعلى الضفاف كانت تظهر الماكيسابات والغرايلثوات والشيمبيلوات والبيزخوات¹¹⁵، التي كانت تقفز، زاعقة، على الجذوع والأغصان الطافية، وكان الهوامبيسيان يدخلان في الماء ويأخذانها بالأكوام ويفتحان رؤوسها ضرباً بالسكين، وهو يا للوليمة التي يقيمانها، يا لاليتا، لقد

¹¹³ هوانكا هويات: اسم حيوان.

¹¹⁴ الكاتاهوا، اللوبونا: أنواع من الشجر.

¹¹⁵ البيليزخوات: جمع بيليزو ويسمى أيضاً الدب الكسول وهو ما بين القرد والدب، وتوجد منه أنواع عديدة ماكسباً: نوع من القرد أسود اللون- الغرايلثو: طائر وديع يشبه البطريق برأسه قليلاً- الشيمبيلو: نوع من الأشجار، وهناك أكثر من 350 صنفاً منه، تستخدم أخشابها في البناء، وتؤكل ثماره.

انقضى حنقهما، وهي أنا أيضاً أريد أن أكل حتى لو كان لحم قرده، فأنا جائعة، وعندما عادوا إلى الجزيرة، كان قد أصبح هناك عدة مناطق مكشوفة، لكن الوهدة بقيت على حالها وفي أماكن كثيرة كانت ما تزال قائمة أجزاء من غابة منيعة ومغلقة. بدؤوا بتسوية الأرض وراحوا يلقون، طوال النهار، الجنوع الميتة والطيور المتفحمة والأقاعي إلى البحيرة، وهو قولي لي إنك سعيدة. وهي أنا كذلك، يا فوشيا، وهو هل تتقين بي؟ وهي بلى. وبعد ذلك أصبحت قطعة من الأرض المستوية، وقطع الهوامبيسيان أشجاراً وربط القند الخشبية بعضها إلى بعض بالخيزران، وهو أمعني النظر، يا لاليتا، أصبح كالبيت، وهي ليس إلى هذا الحد، ولكنه أفضل من أن ننام في الجبل. وفي الصباح التالي، وعندما استيقظوا كان هناك باوكار¹¹⁶ يضع عنقه أمام الكوخ بريشه الأسود والأصفر الذي يلمع بين الأوراق المتساقطة، وهو حظنا طيب، يا لاليتا، فهذا الطائر أليف، وإذا كان قد جاء فلأنه يعرف أننا سنبقى هنا.

في ذلك اليوم من أيام السبت، أخرج بعض الجيران الجثة، وحملوها، ملفوفة بملحفة، إلى كوخ الضلالة. وقد جمعت ليلة السهر على الجثمان في بيت خوانا باورا الكثيرين من رجال ونساء لاغاليناثيرا، ويكت هي الليل بطوله وقبيلت مرة بعد أخرى يدي وعيني وقدمي الميتة. عند الفجر أخرج بعض النسوة خوانا من الغرفة وساعد الأب غارثيا على وضع الجثة في التابوت الذي اشتروه من التبرعات الشعبية. في ذلك الأحد أقام الأب غارثيا القداس في كنيسة المركادو¹¹⁷، وسار على رأس الموكب الجنائزي، وعاد من المقبرة إلى لاغاليناثيرا مع خوانا باورا: فقد رآه الجيران يعبر لابلاتا ده

¹¹⁶ باوكار: طائر أمريكي
¹¹⁷ المركادو: السوق

أرماس، محاطاً بالنسوة، وكان شاحباً، متوهج العينين ومتشجج القبضتين. وانضم إلى الموكب شحانون وماسحر أحنية ومتسولون، وحين وصلوا إلى المركادو كان الموكب قد غطى عرض الشارع كله. وهناك راح الأب غارثياً، بعد أن صعد مصطبة، يصيح، فانفتحت الأبواب من حولهم وهجرت بائعات الساحة بسطاتهن ليستمعن له، وحين حاول شرطياً بلدية أن يخليا المكان شتموهما وضربوهما بالحجارة. كان صوت الأب غارثياً يُسمع حتى في «الكمال» وفي لا استريليا ديل نورته. صمت الغرياء ودهشوا: من أين كانت تأتي تلك الهمهمة، وإلى أين كانت تمضي كل تلك النسوة؟ كان الصوت يسري في المدينة سريعاً، ناعماً، وعنيداً. وكان الأب غارثياً ما يزال يتكلم تحت سماء من النور الأميركية المغيرة. وما أن بسكت حتى كان يسمع زعيق خوانا باورا، الراكعة عند قدميه. وعندئذ بدأت النسوة يتحركن حركات خرساء ويتنتمن. وعندما وصلت الشرطة حاملة العصي واجهها بحر هائج على رأسه الأب غارثياً وكان نزقاً، ويده اليمنى صليب. وحين أرادوا قطع الطريق على النسوة وقعت عليهم زخة من الحجارة والتهديدات. تراجعت الشرطة، ولانث بالبيوت، وبعضهم سقط فهاجمه البحر وغمره، وتركه خلفه. وهكذا دخلت الأمواج الهائجة لا بلانثا ده أرماس، مزمجرة، ساخطة، مسلحة بالعصي والحجارة، ويمرورها كانت تسقط الأبواب وتتغلق الخوختات، ويلجأ الوجهاء إلى الكانترائية. وكان الغرياء الحذرون في الأبواب يشهدون بذهول اندفاع السيل. أترأه واجه الأب غارثياً الشرطة؟ هل اعتدوا عليه؟ كان نثاره الممزق ينكشف عن صدر ضامر ولبني، وعن نراعين طويلين بارزي العظام. كان الصليب مرفوعاً دائماً في يده. وكان يطلق أصواتاً مبجوحة. وهكذا مرّ السيل بـ «لااستريليا ديل نورته»، وأمطرها بالحجارة وطار زجاج الخمارة شظايا. وحين دخلت النسوة البييخو بونته، صرّ الهيكل القديم وترنح تحتهن مثل سكران، وحين تجاوز السيل الريو بار وداس كاستيليا، كانت نساء كثيرات يحملن مشاعل في أيديهن، وكان يخرج من أفواه مشارب التشيشسا أناس، وزمجرة أكثر ومشاعل أكثر. وصلوا إلى الرملة وعلا غبار، نوامة عملاقة، ذهبية، وفي قلب الزويدة كانت تلمح نسوة، قبضات، ولهب.

كان البيت الأخضر، يبدو تحت ضوء الظهيرة الثلجي المزيغ للبصر، بأبوابه ونوافذه المغلقة، داراً مقفلة. كانت الجدران النباتية تتلألأ بعذوبة في وهج الشمس، وكانت تتلاشى في الزوايا بنوع من الوجل. وكما هو الحال لدى غزال جريح، كان في هدوء المكان شيء أعزل، وديع، خائف أمام الجمهور الذي كان يقرب. وصل الأب غارثياً والنسوة إلى الأبواب، توقّف الصباح وُخيم سكون مفاجئ. لكن سُمع آنذاك الزعيق، وكما يهجر النمل متهاته حين يغمره النهر، ظهرت القاطنات، متدافعات، عاويات، مزوّقات، وبنصف لباس. وارتفعت كلمات الأب غارثياً ودوت فوق البحر وبين الأمواج والاهتزازات. امتدت مجسات لا تحصى تقتنص القاطنات وترميهن على الأرض وتضريهن. ثم ملأ الأب غارثياً والنسوة البيت الأخضر خلال ثوان. وكان يصل من الداخل دوي التحطيم: كؤوس تُكسر وزجاجات، طاولات تُحطم، ملاحف وستائر تُمزّق. ومن الطابق الأول والثاني والبرج تدفقت الأشياء. وفي الهواء المترمّد كانت تطير أصص، ومباول، ومغاسل مقوّضة، وصوان، وصحون، وفرش، وأدوات تجميل. ومع كل قذيفة ترسم خطأ منحنيّاً وتتغرز في الرملة كانت هتافات التأييد ترتفع. تنازع كثير من الفضوليين ومن النساء الأشياء والثياب، وحدثت مشادات، ومنازعات وحوارات عنيفة جداً. ووسط الفوضى كانت القاطنات، المرفوضات واللواتي ما زلن يرتعدن بلا صوت، ينهضن ويقعن في أحضان بعضهن بعضاً، يبكين ويتواسين. كان البيت الأخضر يشتعل: كان اللهب أرجوانياً، حاداً وجامحاً بين الدخان الرمادي الذي كان يرتفع إلى سماء بيورا لوليباً بطيئاً. بدأ الحشد بالتراجع، والصرخات بدأت تخمد، وفي أبواب البيت الأخضر كان الغزاة والأب غارثياً يغادرون المحل جرياً، يهزّم السعال ويبكيهم الدخان.

من شرفة البيبخو بونته والماليكون وأبراج الكنائس والأسطحة والشرفات كانت عنقايد الأشخاص تتأمل الحريق: أفعان برؤوس حمراء سماوية كان يطلق تحت ظلّة سواد. وعندما انهار البرج الرشيق وراح ينهال فوق النهر مطر من فحم وشظايا ورماد تدفعه نسمة خفيفة، ظهرت شرطة البلدية. اختلطت بالنسوة. كانت

بلا قوة ومتأخرة، مرتبكة ومخبولة، مثل الآخرين، من مشهد النار. وفجأة حدث لكز بالأكواع وحركات، نساء ومتسولون راخوا يهمسون، يقولون: ها قد جاء. كان قادماً عبر البييخو بونتته. التقتت غاليناثيات وفضوليون لينظروا إليه. ابتعدوا عن طريقه. لم يوقفه أحد. كان يتقدم، متيبساً، منفوش الشعر، ممتسخ الوجه، فزع العينين بشكل لا يصدق، مرتعد الفم. كانوا قد رأوه ليلة البارحة، يشرب في مشرب مانغانشي للتشيتشا حيث ظهر عند المساء، والقيثار تحت إبطه، باكياً، مزرق اللون. قضى ليلته هناك وهو يرتم بين الفواقات. كان المانغانشيون يقتربون منه، «كيف حدث ذلك، يا دون أنسيلمو؟ ماذا حدث؟ هل صحيح أنك كنت تعيش مع أنطونيا؟ وأنها كانت عندك في البيت الأخضر؟ هل صحيح أنها ماتت؟». كان ينن، يتأوه ثم تدرج أخيراً على الأرض، سكراناً. نام وعندما استيقظ طلب جرعة أكبر، استمر في الشرب، وهو يقرص القيثار. كان على هذه الحال عندما دخل طفل إلى مشرب التشيتشا: «البيت الأخضر، يا دون أنسيلمو! إنهم يحرقونه! الغاليناثيات والأب غارثيا، يا دون أنسيلمو».

في المايكون خرج للقاتنه بعض الرجال والنسوة، «أنت سرقت لأنطونيا، أنت قتلتها»، ومزقوا له ثيابه، وعندما هرب فنفوه بالحجارة. وحين وصل إلى جسر البييخو بونتته بدأ يصرخ ويتضرع والناس، كذب، إنه يخاف من أن يقتصوا منه بأنفسهم، لكنه استمر في تضرعه، والقاطنات المرعوبات يقلن برووسهن بلى، صحيح، فلربما كانت في الداخل. وكان هو قد تسمّر في الرملة، يتضرع، ويناشد السماء، وعندئذ ظهر نوع من الانزعاج عند الناس، استطق رجال شرطة البلدية الغاليناثيات. كانت تتبعث أصوات متناقضة، وماذا لو كان صحيحاً؟ ليذهبوا ويروا، ليتحركوا، لينادوا الدكتور ثيباليو. غاص بعض المانغانشيين في الدخان وقد لفوا أنفسهم بنسيج خشن مبلل وخرجوا بعد لحظات، مخنوقين، مهزومين، لم يكن بالمستطاع الدخول، ففي الداخل كان الجحيم. رجال ونساء كانوا يحاصرون الأب غارثيا، وماذا لو كان صحيحاً؟ أيها الأب غارثيا، الله سيتولى عقابه. وكان هو ينظر لهؤلاء وأولئك كالمذهول.

كان دون أنسيلمو يناقش الشرطة، ليعطوه قطعة نسيج، فهو سيدخل، ليرأفوا بحاله، وعندما ظهرت الأم أنخيليكيا مرتبداً وتؤكد الجميع أنه كان صادقاً، وأنها كانت هناك بين أحضان الطاهية، سالمة، ورأوا كيف تأثر وراح يشكر السماء ويقبل يدي الأم أنخيليكيا مرتبداً رفقت قلوب الكثيرات من النسوة. واسوا الصغيرة . ترجمن على المخلوقة بصوت عال، وواسين عازف القيثارة وألقين باستيائهن على الأب غارثيا وعائنه. كان الجمهور يحيط بدون أنسيلمو مصعوقاً، مرتاحاً، متأثراً، ولا أحد، لا القاطنات، ولا الغالينيات ولا المانغاشيون ينظرون إلى البيت الأخضر، وإلى النيران التي كانت تلتهمه والتي بدأت الأمطار الدقيقة المواعيد تطفئها وتعيده إلى الصحراء، حيث قام كلمح البصر .

دخل المنيعون كما في كل مرة فاتحين الباب برفسة منشدين النشيد. فقد كانوا لا يعرفون العمل، وإنما فقط الابتزاز والقمار، كانوا المنيعين وهم الآن سيضاجعون.

- أستطيع أن أروي لك ما سُمع هذه الليلة، أيتها الصبية . قال عازف القيثارة. لا بد أنك لاحظت أنني لا أكاد أرى. وهذا ما أنقذني من الشرطة، فقد تركوني بسلام.

- سجن الحليب . قالت لاشونغا من وراء طاولة البار. ساعديني، يا سيلباتيكا.

نهضت لاسيلباتيكا عن طاولة الموسيقيين ومضت نحو البار وجاءت هي ولاثونغا بإبريق من الحليب، وخبز ومسحوق قهوة وسكر. كانت أضواء الصالة ما تزال مضاءة، مع أن النهار كان يدخل، حاراً، رائقاً.

- الفتاة لا تعرف كيف حدث ذلك، يا تشونغا . قال عازف القيثارة شارباً الحليب بجرعات صغيرة . لم يحك لها خوسيفينو .

- أسأله فيغير الموضوع . قالت لاسيلباتيكا. لماذا تهتمين إلى هذا الحد؟

كان يقول، لا تتابعي فتثيري غيرتي.

- إضافة إلى أنه قليل حياء، فهو منافق ومستهتر أيضاً . قالت لاشونغا.

- لم يكن هناك إلا زونين عندما دخلوا . قال بولاس . على هذه الطاولة .
واحد منهم كان سيميناريو .
- كان ابنا آل ليون وخوسيفينو قد توضّعا في البار وكانوا يصرخون
ويقفزون بمبالغة شديدة: نحن نحبك، يا تشونغا تشونغيئا، أنت ملكتنا، أمنا، آه
يا تشونغا تشونغيئا .
- دعكم من البلاهة والابتذال، أو تؤمرون بالمغادرة . قالت لاشونغا
والتفتت إلى الفرقة الموسيقية . لماذا لا تعزفون؟
- لم يكن باستطاعتنا . قال بولاس . فالمنيعون كانوا يثيرون ضوضاء
وحشية . كان يلاحظ أنهم سعيدون .
- المسألة أنهم كانوا في تلك الليلة مبطنين بالأوراق النقدية . قالت لاشونغا .
- انظري، انظري . أراها المونو مروحة من الأوراق النقدية وهو يمتص
شفتيه . كم تقدرين أنها تكون؟
- كم أنت جشعة، يا تشونغا، كيف صارت عيناك . قال خوسيفينو .
- بالتأكيد إنها مسروقة . أجابت لاشونغا . ماذا أقدم لكم؟
- لا شك أنهم مخمورون . قالت لاسيلباتيكا . دائماً ينكتون ويغنون في مثل هذه الحالة .
- ظهرت ثلاث قاطنات جذبهن الضجيج: ساندرأ، ريتا، مارييل . لكن عندما رأين المنيعين بدت
الخيبة عليهن، أرحن عن وجوههن علائم الامتعاض وسمعت فهقهة لاساندرأ المدرية، كانوا هم،
يا للورطة، لكن المونو فتح لهن ذراعيه، ليأتين، وليطلبين أي شيء، وأراهن الأوراق النقدية .
- قلمي أيضاً شيئاً للموسيقيين، يا تشونغا . قال خوسيفينو .
- فتیان لطفاً . ابتسم عازف القيثارة . إنهم دائماً يدعوننا . كنتُ أعرف والد
خوسيفينو، أيتها الصبية . كان صاحب زورق وينقل القطعان التي كانت تأتي
من كاتاكاوس . كان كارلوس روخاس شخصاً ظريفاً .
- ملأت لاسيلباتيكا فنجان عازف القيثارة من جديد ووضعت له سكرأ . جلس
المنيعون إلى طاولة مع لاساندرأ، ولاريتا ولامارييل وتكروا لعبة بوكر كانوا قد
انتهوا من التنافس عليها في «الرينا» . كان الشاب أليخاندرو يشرب قهوته بلا

رغبة: فقد كانوا المنيعين، ولم يكونوا يتقنون عملاً وإنما فقط الابتزاز والقمار.
كانوا المنيعين وهم الآن سيضاجعون.

- لقد خسرناهم بشكل نظيف، أقسم لك، يا ساندر. ساعدنا الحظ.

- ثلاث مرات متتالية، هل رأى أحد مثيلاً لهذا؟

- كانوا يعلمون الفتيات كلمات النشيد. قال عازف القيثارة بصوت حالم ورقيق

. ثم جاؤوا إلى هنا لنعزف لهم نشيدهم. أنا لا أمانع، لكن ليستأذنوا لآشونغا أولاً.

- وأنت أشرت لنا بالموافقة، يا تشونغا. قال بولاس.

- كانوا يستهلكون كما لم يفعلوا من قبل. وضّحت لآشونغا للاسبيلباتيكا.

فلماذا لا أرضيهم.

- هكذا تبدأ الفواجع أحياناً. قال الشاب بحركة سوداوية. بأغنية.

- غنوا لنصطاد الموسيقى. قال عازف القيثارة. هيا، أيها الشاب ويا بولاس،

افتحاً أنكما جيداً.

بينما كان المنيعون يرددون النشيد، كانت لآشونغا تتحرك في كرسيها الهزاز

كرية بيت وديعة، والموسيقيون يتابعون الإيقاع بأقدامهم ويرددون الكلمات بين

أسنانهم. بعد ذلك غنى الجميع ملء حناجرهم برفقة القيثارة والصنجات.

- انتهى. قال سيميناريو. كفى طقطقات وقذارات. ولم يكن حتى تلك اللحظة

قد أعار انتباهه للضجة وكان مسالماً تماماً يتحدث مع صديقه. قال بولاس.

- أنا رأيته يقف. قال الشاب. اهتاج مثل حيوان، أعتقد أنه كان سينقض علينا.

- لم يكن صوته صوت سكران. قال عازف القيثارة. أطعناه وسكتنا، لكنه

لم يهدأ، منذ متى وهو هنا، يا تشونغا؟

- منذ وقت باكر، جاء مباشرة من مزرعته بالجزمة وينظرون الفروسية والمسدمس.

- سيميناريو ثور. قال الشاب. وله نظرة خبيثة. أنت أقوى، أنت أدهى.

- شكراً، يا أخي. قال بولاس.

- أنت الاستثناء، يا بولاس. قال الشاب. عندك جسم ملاكم وروح خروف،

كما يقول المعلم.

- لا تتفعل، يا سيد سيميناريو . قال ألمونو. لم نفعل شيئاً سوى أننا أنشدنا نشيدنا. اسمح لي أن أدعوك إلى كأس من البيرة.
- لكنه كان خارجاً عن طوره . قال بولاس . كان قد أثاره شيء ما وجاء يطلب مشاجرة.

- إذا أنتم الديكة الصغيرة التي تزرع المشاكل في الشوارع والساحات؟ . قال سيميناريو. لماذا لا تتحرشون بي أنا.

كانت ريتا وساندرا وماربيل يبتعدن على رؤوس أصابعهن نحو البار، والشاب وبولاس يحميان بجسميهما عازف القيثارة، الجالس على مقعده والهادئ التقاسيم والذي راح يضبط مفاتيح القيثارة. كان سيميناريو ما يزال يتبختر، وكان بدوره حقيراً، ويعرف كيف يزوح عن نفسه، ضارباً على صدره، لكنه كان يعمل، يكسر ظهره في أرضه، لم يكن يحب المتسكعين، وكان ضخم الجثة يتشقق تحت المصباح البنفسجي، ويكره الميتين جوعاً، أولئك الذين يتظاهرون بالجنون.

- نحن شبّان، يا سيد. ولا نفعل أي شيء مضرّ.
- نحن نعرف أنك قويّ جداً، لكن هذا ليس سبباً كي تشتمنا.
- هل حقاً أنك رفعت ذات مرة نثرأ كاتاكاوما¹¹⁸ ورميت به إلى أحد الأسطحة؟ هل هذا صحيح يا سيد سيميناريو؟

- إلى هذا الحد صغروا أمامه؟ . قالت لاسيلباتيكا. لا أصدق ذلك عنهم.
- آه كم يخافون مني . كان سيميناريو يضحك برضى . آه كيف يتملقون لي.
- حين يجد الجد فإن الرجال يكشفون عن وجوههم الحقيقية . قالت لاشونغا.
- ليس الجميع، يا تشونغا . احتجّ بولاس . فلو أنه تحرّش بي لرددت عليه.
- كان مسلحاً وكان عند المنيعين الحق في أن يخافوا . أدلى الشاب بقوله بهدوء . فالخوف مثل الحب، يا تشونغا. شيء إنساني.
- تظن نفسك عالماً . قالت لاشونغا. وأنا لا تسحرني فلسفاتك، إذا كنت لا تعرف.

¹¹⁸ كاتاكاوس: اسم بلدة في الليبرو

- من المؤلف أن الشبان لم يذهبوا في تلك اللحظة . قال عازف القيثارة .
- عاد سيميناريو إلى طاولته وكذلك المنيعون دون أي أثر لفرح اللحظة السابقة: ليسكر ويز، لكن لا، فقد كان يحمل مسدساً، يفضل الاحتفاظ بالرغبات ليوم آخر، لماذا لا يحرقون له شاحنته؟ فقد كانت هناك في الخارج قرب كلوب غراو .
- من الأفضل أن نخرج ونتركه محبوساً هنا ونولع النار في البيت الأخضر . قال خوسيفينو . نحتاج إلى صفيحتين من الكيروسين وعود تقاب . كما فعل الأب غارثيا .
- وسيشتعل مثل التبن . قال خوسيه . وكذلك الحي والمطعم .
- يفضل أن نحرق بيورا بكاملها . قال المونو . نشطها ناراً هائلة تُرى من تشيكلايو . فتصبح الرملة كلها كستنائية قاتمة .
- يسقط الرماد حتى فوق ليما . قال خوسيه . لكن، يجب إنقاذ لامانغاتشيرياً حتماً .
- طبعاً، لم يكن ينقصنا غير هذا . قال المونو . سنبحث عن طريقة .
- كان عمري خمس سنوات تقريباً عندما نشب الحريق . قال خوسيفينو . أنتم، هل تتذكرون شيئاً؟
- ليس منذ البداية . قال المونو . ذهبنا في اليوم التالي، مع بعض صبية الحي فطاردتنا الشرطة . يبدو أن الذين وصلوا أولاً سرقوا أشياء كثيرة .
- لا أتذكر غير رائحة الحريق . قال خوسيفينو . وأنا كنا نرى دخاناً وأن الكثير من شجر الخرنوب تحوّل إلى فحم .
- هيا نطلب من العجوز أن يحكي لنا . قال المونو . وسندعوه إلى بعض البيرة .
- ترى ألم يكن ذلك كذباً؟ قالت لاسيلباتيكا . أم تراكم كنتم تتحدثون عن حريق آخر؟
- تلفيقات بيورية، يا صبية . قال عازف القيثارة . لا تصدقهم أبداً عندما يحدثونك عن ذلك . محض اختلاقات .
- ألسنت تعباً، يا معلم؟ قال الشاب . تكاد تكون الساعة السابعة، نستطيع أن نذهب .
- لست متعباً حتى الآن . قال دون أنسيلمو . لنهضم الإفطار أولاً .

كان المنيعون يحاولون إقناع لاثسونغا متكئين إلى مراقبهم: لنتركه لحظة، ماذا كانت تخسر، ليتحدثنا قليلاً، لا تكن لاثسونغا تشونغيتا خبيثة.

- الجميع يحبونك كثيراً، يا دون أنسيلمو . قالت لاسيلباتيكا وأنا أيضاً، تذكرني بعجوز من منطقتنا كان يدعى أكيلينو .

- ما أكرمهم، ما أطفهم . قال عازف القيثارة . حملوني إلى طاولتهم وقدموا لي بيرة . كان يتعرق، وضع له خوسيفينو كأساً في يده، فشربها بجرعة واحدة وراح يشهق . ثم نظف جبينه وحاجبيه الكثرين والأبيضين بمنديل متعدد الألوان ونظف أنفه .

- عمل كريم من أصدقاء، أيها العجوز . قال المونو . احك لنا قصة الحريق . بحثت يد عازف القيثارة عن الكأس، وبدلاً من كأسه، وقعت يده على كأس المونو، فأفرغه بجرعة واحدة . عم كانوا يتحدثون؟ أي حريق؟ ثم عاد ونظف أنفه .

- كنت صغيراً ورأيت اللهب من المالكون . كما رأيت الناس يجرون ومعهم جلود ودلاء ماء . قال خوسيفينو . لماذا لا تحكي لنا، يا عازف القيثارة، ماذا يضرّك، بعد كل هذا الزمن؟

- لم يحدث أي حريق، ولم يكن هناك أي بيت أخضر . كان يؤكد عازف القيثارة . ابتداعات من الناس، أيها الشبان .

- لماذا تتغابي علينا؟ . قال المونو . تشجع، يا عازف القيثارة، احك لنا ولو قليلاً . حمل دون أنسيلمو إصبعين إلى فمه وتظاهر بأنه يدخن . ناوله الشاب سيارة فأشعلها له بولاس . كانت لاثسونغا قد أطفأت أنوار الصالة والنور يدخل إلى المحل دفقاً عبر النوافذ والفتحات . كانت هناك بقع صفراء على الجدران والأرض، وكالامين السقف يتلألأ . وكان المنيعون يلحون، هل حقاً أن القاطنات تفحمن؟ هل صحيح أن الغاليناثيات هن اللواتي أشعلن النار؟ هل كان هو في الداخل؟ هل قام الأب غارثيا بذلك لمجرد أنه شرير أم بدافع من أشياء دينية؟ صحيح أن الأم أنخليكا أنقذت لاثسونغيتا من الموت حرقاً؟

- محض خرافة . قال عازف القيثارة . تفاهات من الناس ليغيظوا الأب غارثيا . كان عليهم أن يتركوا العجوز المسكين بسلام . والآن عليّ أن أعمل، أيها الفتيان، عن إننكم .

نهض وعاد إلى زاوية الفرقة بخطوات قصيرة ويداه أمامه.
- أرايتم؟ يتغابي كما في كل مرة. قال خوسيفينو. أنا كنت أعرف أنه يفعل
ذلك لأنه يريد.
- في هذا العمر يرتخي الدماغ. قال ألمونو. ربما نسي كل شيء. يجب أن
يسأل الأب غارثيا عن ذلك. لكن من يتجرأ.
وفي هذه الأثناء فتح الباب ودخلت الدورية.
- يا لهم من محتالين. همست لاتشونغا. يأتون ليستجوني من أجل جرعة.
- الدورية، أي ليتوما وشرطيان معه، يا سيلباتيكا. قال بولاس. كل ليلة
كانوا يهبطون علينا هنا.

انصببت بونيفائيا تحت ظل أشجار الموز المنحرف، ونظرت إلى البلدة: رجال ونساء كانوا يعبرون لابلاتا ده سانتا ماريا ده نيبيا، راكضين، يحركون أيديهم بشدة، باتجاه رصيف المرفأ. انحنت من جديد فوق الخطوط المستقيمة، لكن بعد لحظة عانت وانصببت. كان الناس يتدفقون مهتاجين دون انقطاع. راقت كوخ آل نيببس. كانت لاليتا ما تزال تترنم في الداخل، وبخان رمادي ملتقاً يتسرب من بين قصب الجدار. لم يكن زورق الليل قد ظهر في الأفق حتى تلك اللحظة. طافت بونيفائيا حول الكوخ واقتحمت أجمات الضفة وتقدمت نحو البلدة والماء إلى كعبيها. كانت رؤوس الأشجار تختلط بالغيوم، والجنوع بالسنة الضفاف الصفراء. كان الفيضان قد بدأ وراح النهر يجرجر بيارات طفيلية ذات مياه أكثر شقرة أو أكثر سمرة وكذلك شجيرات، أزهاراً مقصوفة وأشنات وأشكالاً يمكن أن تكون حجارة أو خراء أو قوارض ميتة. جابت غابة صغيرة من الخيزران وهي تنظر إلى كل جانب، ببطء وحذر مثل رجل التحري. وعندما اجتازت منعطفاً، لمحت الرصيف: كان الناس بلا حراك بين الأوتاد والزوارق، وكان هناك رمث متوقف على بعد أمتار من الرصيف الطافي. كان الشفق يصبغ بالزرقة أردية ووجوه الأغوارونيات. وكان هناك أيضاً رجال بينطلونات مشمرة حتى الركب وجنوع عارية. كان من الممكن رؤية الحبله ترتخي وتتشد مع ترتج الرمث الوافد، وحوض المقنمة وكوخ الكوئل الواضح تماماً. سرب من البلشون حلّق فوق الغابة الصغيرة فسمعت بونيفائيا خفق الأجنحة قريباً جداً ورات الأعناق الدقيقة الناصعة والأجسام الوردية تبتعد. ثم تابعت تقدمها، لكن منحنية بشدة، وليس على الضفة وإنما داخل الغابة، متخدشة الذراعين والوجه والساقين من الأوراق والأشواك والنباتات المتسلقة الخشنة، وسط الأزيز وهي تشعر بدغدغات دبقه بين قدميها. توقفت عند نهاية الغابة تقريباً، على مسافة قصيرة من الناس وجلست القرفصاء. أطلقت عليها النباتات، صار باستطاعتها عندئذ أن تراه عبر

هندسة معقدة من الأغصان والمعنّات والمكعبات والزوايا المخادعة الخضراء. لم يكن العجوز على عجلة من أمره أبداً، كان يروج ويغدو عبر الرمث بهدوء تام، مسطراً الصناديق وكذلك البضاعة بدقة متناهية على مرأى من المشاهدين الذين كانوا يتهايمسون ويبدون حركات تتم عن القلق. كان العجوز يدخل إلى الخيمة ويعود ببضاعة ماء، حذاء، سلسلة من الأطواق العظمية، وكان يرتبها بجدية وحذر وهوس فوق الصناديق. كان ضامراً جداً وحين تتفخ الريح قميصه يبدو أحذب، لكن فجأة كان ظهر القميص وصدرة يغوران إلى أن يكادا يتلامسان ويرحبان بطيفه الحقيقي الرقيق والهزيل جداً. كان يرتدي بنطلوناً قصيراً. وكانت بونيفاثيا ترى رجليه الناظتين مثل نراعيه ووجهه ذي البشرة المحروقة، التي تكاد تكون بلون الحبر، وشعره الحريري والشبحي الأبيض الذي كان يتماوج فوق كتفيه. بقي العجوز بعد ذلك لبرهة يجلب أواني منزلية وتزيينات متعددة الألوان وهو يكس باحتفالية الأقمشة المطبوعة. وفي كل مرة كان يخرج فيها من الخيمة كانت المهمة تزداد، واستطاعت بونيفاثيا أن ترى ذهول الوثنيات والمسيحيات ونظراتهن المفقونة والنهمة إلى الخردل والأمشاط التزيينية والمرايا الصغيرة والأساور وعلب مسحوق الطلق وعيون الرجال المعلقة بالقناني المصفوفة على حرف الرمث، إلى جانب معلبات الأطعمة المحفوظة والزنانير والسكاكين. فكّر العجوز بعمله لحظة ثم التفت إلى الناس الذين جروا متدافعين يربطون حول المركب. لكن العجوز هزّ شعره الأبيض وكبحهم ضرباً بيديه، أجبرهم على التراجع والصعود بنظام هازماً المردى. كانت الأولى زوجة باريدس. وكانت بدينة، وبليدة لم تتمكن من التسلق إلى ظهر المركب. اضطر العجوز إلى مساعدتها وهي راحت تلمس له كل شيء، تشم القوارير، تلمس الأقمشة والصابون بعصبية والناس يتمتمون ويحتجون إلى أن عادت إلى الرصيف والماء إلى وسطها رافعة إلى الأعلى ثوباً مزهراً وطوقاً وحذاء أبيض. وهكذا راحت النسوة يصعدن إلى الرمث الواحدة بعد الأخرى، بعضهم كان بطيئاً، متردداً في الانتقاء ويساوم إلى ما لا نهاية حول الأسعار.

وكان هناك من يتباكى أو يهدد طالباً بتزيلات. لكن الجميع كانوا يعودون من المركب وشيء ما في أيديهم، بعض المسيحيين يعود بأكياس مليئة بالمون بينما تعود بعض الوثنيات بكيس صغير من ورق التبغ لتتسيفه. عندما أقرر المرفأ كان الليل يخيم. انتصبت بونيفاثيا. كان نهر نيبيا في أوج فيضانه وكانت تجري تحت الأغصان المتشابكة موجبات جعدة شائبة وتموت وتتلاشى عند ركبتيها. كان جسدها ملطخاً بالوحل وكان هناك أعشاب عالقة بشعرها وثيابها. كان العجوز يخبي بضاعته ويرتب الصناديق في المقمة بنظام ودقة. كانت السماء فوق سانتا ماريا ده نيبيا برجاً من قطران وعيون بوم، لكن على الجانب الآخر من المارانبيون، فوق حصن الأفق الداكن كان شريط أزرق يقاوم الليل، وكان القمر يطلع خلف مقر البعثة. كان العجوز لطخة ضامرة، يبرق شعره فضياً مثل سمكة في الظلمة. نظرت بونيفاثيا إلى البلدة: أنوار فوق دار الحكومة، حيث بارديس، وبعض القناديل كانت تتلألأ فوق التلال وفي نوافذ مكان الإقامة. راح الظلام يبتلع أكواخ الساحة وأشجار الكاببيرونا والدرج الوعر المنحدر بقضمات بطيئة. غادرت بونيفاثيا مخبأها وركضت متسللة نحو الرصيف. كان وحل الضفة طرياً وحراراً ومياه المستنقع تبدو ساكنة، شعرت بها تصعد جسدها. ولم يبدأ التيار إلا بعد أمتار من الضفة. قوة فاترة وعنيدة كانت تجبرها على تحريك ذراعها لتلا تحرف. كانت المياه تصل إلى نقتها عندما أمسكت بالرمث ورأت بنطلون العجوز الأبيض وطارة شعره. كان الوقت متأخراً، فلتعد غداً. ارتقت بونيفاثيا السطح قليلاً وأسندت إليه مرفقيها، والعجوز المنحني نحو النهر تفحصها: هل تتكلم المسيحية؟ هل كانت تفهم؟

- بلى، يا دون أكيلىنو . قالت بونيفاثيا. ليكن ليلك سعيداً .
- إنها ساعة النوم . قال العجوز. والدكان أفضلت، عودي غداً .
- كن طيباً . قالت بونيفاثيا. هل تتركني أصعد برهة؟
- اختلست نقود زوجك، لهذا جئت في هذه الساعة . قال العجوز. ماذا لو

طالبني بها غداً؟

بصق في الماء وضحك. كان جالساً القرفصاء، وكان شعره يسقط مزيداً طليقاً فوق وجهه. وكانت بونيفاثيا ترى جبينه الداكن والخالي من التجاعيد، وعينيه اللتين مثل حيوانين ملتهبين.

وماذا يهمني. قال العجوز. أنا أقوم فقط بتجارتني. هيا، اصعدي.

مدّ يداً، لكن بونيفاثيا كانت قد صعبت بمرونة، وعلى السطح راحت تعصر ثوبها وتفرك ذراعها.

- أطواق؟ أحذية؟ كم كان معها من النقود؟ بدأت بونيفاثيا تبتسم بوجل، ألم يكن دون أكيينو بحاجة لعمل ما؟ راقت عيناها فم العجوز بلهفة، كأن يجهزوا له الطعام فترة بقائه في سانتا ماريا ده نيبيا؟ أو أن يذهبوا ليقتطفوا له الثمار؟ أو أن ينظفوا له الرمث، أليس بحاجة إلى هذا؟ اقترب العجوز منها، من أين كان يعرفها؟ وتفحصها من فوق إلى تحت: رآها من قبل، أليس صحيحاً؟

- أريد قطعة قماش صغيرة. قالت بونيفاثيا وعضت على شفتيها. أشارت إلى الخيمة وبرقت عيناها للحظة. تلك الصفراء التي احتفظت بها للأخير. أسدها لك عملاً، تقول لي ما هو وأنا أقوم به.

- لا أريد عملاً. قال العجوز. أليس معك نقود؟

- من أجل ثوب واحد. قالت بونيفاثيا، رقيقة، عنيدة. هل أحضر لك فاكهة؟ أم تفضل أن أمّح لك السمك؟ وسأصلي كي لا يحدث لك مكروه في أسفارك، يا دون أكيينو.

- لست بحاجة إلى صلوات. قال العجوز، ونظر إليها عن قرب شديد وفجأة فرقع أصابعه. ها ها، الآن عرفتك.

- سأتزوج، لا تكن سيئاً. قالت بونيفاثيا. سأصنع من هذه القطعة ثوباً، فأنا أعرف الخياطة.

- لماذا لست بثياب الراهبة؟ قال أكيينو.

- لم أعد أعيش حيث الأمهات. قالت بونيفاثيا. طرئنتني من البعثة، وأنا الآن سأتزوج. أعطني هذه القطعة وأقوم لك الآن بعمل وفي المرة القادمة أنفع لك بالسولات، يا دون أكيينو.

وضع العجوز بدأ على كتف بونيفاتيا وجعلها تتراجع كي بسطع ضوء القمر في وجهها، تفحص عينيها الخضراوين الشبقتين بهدوء وكذلك جسدها الصغير الذي كان يتقطر: أصبحت امرأة، ترى هل طربتها الأمهات لأنها توزطت مع مسيحي؟ وهل زوجها سيكون منه؟ لا، يا دون أكيلينو، فهي قد دخلت في علاقة بعد ذلك، ولم يكن يعرف أحد في البلدة أين كانت؟ كان آل نيبيس قد آووها، هل تقوم له بعمل أخيراً؟

- هل تعيشين مع أدريان ولاليتا؟ . قال دون أكيلينو.

- هما قداماني إلى للذي سيصبح زوجاً . قالت بونيفاتيا. كانا طيبين جداً معي. كانا مثل أبوي.

- أنا ذاهب الآن إلى حيث آل نيبيس . قال العجوز. تعالي معي.

- وقطعة القماش؟ . قالت بونيفاتيا. لا تجعطني أتوسل إليك كل هذا التوسل، يا دون أكيلينو.

قفز العجوز إلى الماء دون ضجة، رأت بونيفاتيا الشعر يطفو باتجاه الرصيف، ورأته يعود. تسلق دون أكيلينو والحبل على كتفيه، لفة ورفع الرمث بالمردى باتجاه أعلى النهر، رفعت بونيفاتيا الملتصقة بالحافة المردى الآخر ووقفت على الحافة المقابلة تقلد العجوز الذي كان يغوص الخشبية ويخرجها بمهارة دون جهد. على مستوى غابة الخيزران كان التيار أقوى. وكان على دون أكيلينو أن يناور كيلا يبتعد المركب عن الضفة.

- دون أدريان خرج إلى صيد السمك باكراً، لكن لا بدّ أنه عاد . قالت بونيفاتيا. سادعوك إلى عرسنا، يا دون أكيلينو، لكن ستعطيني قطعة القماش، اليس كذلك؟ سأترج من الرقيب، هل تعرفه؟

- من عميل شرطة؟ إذاً لن أعطيك إياها . قال العجوز .

- لا تتكلم بهذه الطريقة، إنه مسيحي طيب القلب . قالت بونيفاتيا. اسأل آل

نيبيس، فهما صديقان للرقيب .

كانت بعض القبايل تلتهب في كوخ الدليل. وكانت تلمح أطراف تجانب الدرابزين. رسا الرمث أمام الدرج، سُمعت أصوات ترحيب، ودخل أدريان نيبيس في الماء ليأخذ الحبل ويربطه إلى مريط. ثم تسلق الرمث وتعاقد مع أكيلينو، ثم صعد العجوز إلى

الشرفة ورأته بونيفاتيا يأخذ لاليتا من خصرها ويقدم لها خذّه، ورأتها تقبله عدة مرات على جبينه وعلى وجنتيه. هل كان سفره موفّقاً؟ تعلق الصبية الصغار بساقي العجوز، وهم بزعمون وهو يداعب رؤوسهم: بعض الأمطار بلى، جاءت مبكرة هذا العام.

- كنت هناك . قالت لاليتا. بحثنا عنك في كل مكان، يا بونيفاتيا سأقول للرفيق إنك ذهبت إلى البلدة ورأيت رجالاً.

- لم يرني أحد . قالت بونيفاتيا. فقط دون أكيلينو.

- لا يهم، سأقول له كي أثير غيرته . ضحكت لاليتا.

- ذهبت لترى البضائع . قال العجوز، وكان قد حمل الصبي الأصغر بينما كان الاثنان الآخران يقبلان شعر بعضهما بعض . إنني متعب، شغلوني النهار بكامله.

- سأصعب لك قنحاً صغيراً، ريثما يصبح الطعام جاهزاً . قال اللليل.

جاءت لاليتا بكرسي إلى الشرفة لدون أكيلينو، ثم عادت إلى الداخل، سمعت طقطقة النار وبدأت تقوح رائحة القلي. كان الصغار يصعدون إلى ركبتي العجوز، الذي يلاطفهم بينما يشرب النخب مع أدريان تيبيس. كانا قد أتيا على القنينة حين جاءت لاليتا وهي تمسح يديها بتورتها.

- يا له من رأس جميل . قالت وهي تداعب شعر دون أكيلينو. إنه في كل مرة أكثر بياضاً وأكثر نعومة.

- وهل تريدان أن تثيري غيرة زوجك أيضاً؟ . قال العجوز.

كان الطعام على وشك أن يكون جاهزاً، وكانت قد حضرت لك أشياء تحبها، يا دون أكيلينو، والعجوز يهز رأسه محاولاً التخلص من يدي لاليتا: إذا لم تتركه بسلام فانه سيقص شعره. كان الأطفال قد وقفوا أمامه باستعداد، يراقبونه بصمت وعيون قلقة.

- أعرف ماذا ينتظرون . قال العجوز. أنا لا أنسى، يوجد هدايا للجميع. لك

أنت، ترمس رجل، يا أكيلينو.

اشتعلت عينا الكبير المخوشتان وكانت بونيفاتيا قد استندت إلى الدرايزين. من هناك رأت العجوز يقف، يهبط الدرج ويعود إلى الشرفة بصبر انتزعها

الصبية من بين يديه، ثم رأته يفترب من أدريان نيببس، وبين فينة وأخرى كان دون أكيلينو ينظر إليها شزرأ.

- كنت على حق . قال العجوز. قال أدريان إن الرقيب مسيحي طيب، هيا اذهبي وأحضري قطعة القماش، إنها هدية الزواج.

أرانت بونيفاتيا أن تقبل يده، لكن دون أكيلينو سحبها بحركة انزعاج. وبينما كانت عائدة إلى الرمت كي تقلب بين الصناديق وتخرج قطعة القماش، سمعت العجوز والدليل يتهامسان بسرية، ولمحتهما، ووجه الواحد منهما ملتصق بوجه الآخر، يتكلمان ويتكلمان. صعدت إلى الشرفة فصمتا. وفاحت في الليل رائحة سمك مقلي وهبّت نسمة سريعة تهبّ الجبل.

- سوف تمطر غداً . قال العجوز، شامأ الهواء . سيء بالنسبة للتجارة.

- لا بد أنهم في الجزيرة الآن . قالت لاليتا فيما بعد، بينما كانوا يأكلون . انطلقوا منذ أكثر من عشرة أيام. هل حكيت له، يا أدريان؟

- صانفهم دون أكيلينو في الطريق . قال الدليل نيببس . وإضافة إلى الشرطة، كان معهم بعض الجنود من تكنة بورخا. كان صحيحاً ما قاله الرقيب.

لاحظت بونيفاتيا أن العجوز كان ينظر إليها شزرأ، دون أن يتوقّف عن المضغ، كأنه غير مرتاح. لكن بعد لحظة كان يبئسم من جديد ويحكي طرفاً من أسفاره.

أول مرّة خرجوا فيها لحضور حفلة، عادوا بعد خمسة عشر يوماً. كانت هي في الوهدة، وكانت الشمس قد صبغت البحيرة بالحمرة، وفجأة ظهر في مخرج الرافد زورق، زورقان، ثلاثة. وقفت لاليتا بقفزة واحدة، عليها أن تختبئ، لكنها عرفتهم: في الأول كان فوشيا، وفي الثاني بانناتشا، وفي الثالث هومببسيون. لماذا عادوا بهذه السرعة إذا كان قد قال شهراً؟ هبطت راکضة إلى الرصيف وفوشيا هل وصل أكيلينو، يا لاليتا؟ وهي حتى الآن لا، وهو عاهرة الأم التي ولدت العجوز. لم

يحضروا إلا بعض جلود الضبان. كان فوشيا غاضباً، ستموت جوعاً، يا لاليتا. كان الهوامبيسيون يضحكون وهم ينزلون الخمولة، نمتاؤم كن يتحركن بينهم، يهذرن ويدمدمنن، انظري إلى هؤلاء الكلاب كم هم سعداء. وصلنا إلى القرية، ولم يكن الشايريون هناك، هؤلاء أحرقوا كل شيء، قطعوا رأس كلب منهم، لا شيء، خسارة كاملة، سفر مجاني، ولا كرة مطاطية واحدة، ليس إلا هذه الجلود التي لا تساوي شيئاً وهؤلاء السعداء. كان بانئاتشا بالسروال الداخلي يحك إبطيه، علينا أن نتوغل في الداخل أكثر، يا معلم، فالغابة كبيرة ومليئة بالثروات، وفوشيا بهيمة، وكى نتوغل بعيداً نحتاج إلى دليل. ذهبوا باتجاه الكوخ، أكلوا موزاً وإبرة آدم مقلية. طوال الوقت وفوشيا يتكلم عن العجوز، ترى ماذا يمكن أن يكون قد حدث للعجوز، فهو لم يخلني قط حتى الآن؟ ولاليتا أمطرت كثيراً هذه الأيام، ولا بد أنه التجأ إلى مكان ما كي لا يتبلل ما طلبنا منه إحضاره. كان بانئاتشا المستلقي في السرير المعلق، يحك رأسه ورجليه وصدرة، وماذا لو غرق مركبه في المضائق، يا معلم؟ وفوشيا نكون عندئذ قد وقعنا في ورطة ولا أدري ماذا سنفعل، ولاليتا لا تخف إلى هذا الحد، فالهوامبيسيون مزروعون في كل أنحاء الجزيرة، حتى أنهم أقاموا أحواشاً، وفوشيا، محض خراء، فهذا لا يدوم والتشوننتشيون يستطيعون أن يعيشوا على إبرة آدم، لكن المسيحي لا، سننتظر يومين فإذا لم يصل أكيلينو يتوجب علي القيام بشيء. وبعد برهة أغمض بانئاتشا عينيه وراح يشخر فهزه فوشيا، لينشر الهوامبيسيون الجلود قبل أن يسكروا، وبانئاتشا، قيلولة قصيرة أولاً، يا معلم، فأنا مسحوق سحقاً من كثرة ما جدفت، وفوشيا، بهيمة، ألا تفهم؟ اتركني وحدي مع أنثاي. بانئاتشا، فاغر الفم، ومن مثلك، فأنت عندك امرأة فعلاً، يا معلم، عيناه حزينتان، منذ سنوات لا أعرف ما هي المرأة البيضاء، وفوشيا، ولّ، هيا اذهب. مضى بانئاتشا متباكياً وفوشيا، كفى، ذهب ليحلم، تعرّي بسرعة يا لاليتا، ماذا تنتظرين، وهي إنني أنزف، وهو وماذا بهم. وعند المساء، حين استيقظ فوشيا، ذهبنا إلى القرية التي كانت تفوح منها رائحة الماساتو، وكان الهوامبيسيون يتساقطون سكارى وبانئاتشا لم يجده في أي مكان. وجدوه في الطرف الآخر من

الجزيرة وقد حمل معه سريره المحمول إلى ضفة البحيرة، وفوشياً ماذا قلت لك؟ إنه يحلم على هواه، كان يتكلم بين أسنانه ووجهه مخبأ بين يديه، والنار ما تزال تتأجج تحت القدر الصغير المليء بالأعشاب. كانت بعض الصراصير تدب فوق ساقيه ولأيتها إنه لا يشعر بها. أطفأ فوشياً النار، وأطاح بالقدر برفسة إلى الماء، لنر ما إذا كنا نوقظه، هزاه فيما بينهما، قرصاه، صفعاه وهو بين أسنانه: كان كوثكياً¹¹⁹ بالمصادفة روحه وُلدت في أوكايالي، يا معلّم، وفوشياً، هل تسمعين؟ وهي أسمع، يبدو مجنوناً، وبانتاشا، قلبه كان حزيناً، وفوشياً كان بهزه، يرفسه، أبها الجبلي القدر، ليست هذه ساعة أحلام، يجب أن تكون مستيقظاً، سنموت جوعاً، ولأيتها إنه لا يسمعك، إنه في عالم آخر، يا فوشياً. وهو عشرون عاماً في الأوكايالي، يا معلّم، لقد أصيب بالعدوى من سمك اللياتشه، فجسمه قاس مثل خشب التشنوتا. الصراصير لا تدخل، كان ينتظر كريات المطاط، ها هي البايئشيات تخرج لكي تتنفس، ناولني الحرية¹²⁰، يا أندرس، بقسوة، بقوة اطعنها، أنا أربطها، يا معلّم، هو كان ينوم البايئشيات من أول ضربة عصا. وانقلب الزورق بهم في التامايا، هو خرج وأندرس لم يخرج، لقد اختفيت يا أخي، سحبتك عرائس البحر إلى القاع، لا بد أنك زوجها الآن، لماذا متّ يا أندرس التشاربي؟ جلما ينتظران أن يستيقظ تماماً، وفوشيا أمامه لحظة ليس من صالحه أن أفقد هذا الجبان. حالم، لكنه يفيدني، ولأيتها لماذا لا يفارقه المغليّ، وفوشيا: كي لا يشعر بالوحدة. خفافس وجداجد كانت تنتزّه على السرير المحمول وعلى جسده، وهو لماذا صرّت من رجال المئة، يا معلّم، فحياة الجبل سيئة، أفضل منها حياة الماء والبايئشيات، أنا أعرف ما هي حمى الغابة يا بانتاشا، وتلك الرجفة، تأتي معي، وأنا أدفع لك

¹¹⁹كوثكي: نسبة إلى مدينة كوثكو أو المقاطعة التي تحمل الاسم نفسه.

¹²⁰الحرية: هي في الأصل مقبض من خشب مزود برأس حديدي يجرح رؤسيتين أخريين للإمساك بالفريسة. يستخدم في صيد السمك.

أكثر، خذ سجاثر، أدعوك إلى جرعة، أنت رجلي، احملي إلي حيث يوجد أرز، وعود وزد، دبّر لي تجاراً، عملاء، خشباً عواماً، وهو يذهب معهم، يا معلم، كم تدفع لي مقدماً وكان يريد أن يملك بيتاً، زوجة، وأبناء وأن يعيش في إيكيتوس مع المسيحيين، وفجأة يطلع فوشيا: بانئاتشا، ماذا يحدث في أغرايتيا؟ أخك لي، أنا صديقك. وفتح بانئاتشا عينيه وأغمضهما، كانتا حمراوين مثل قفا فرد، وبين أسنانه: كان هذا النهر يحمل دماً، يا معلم، وفوشيا دم من، أ بها الجبان؟ وهو: ساخن، كثيف مثل مطاط يتقطر من حقنة، وكذلك الروافد والبيرات هناك جرح خالص، يا معلم، صدقتي إذا أردت وفوشيا: طبعاً أصدقك، يا تشولو¹²¹ ولكن ما مصدر كل هذا الدم الساخن؟ ولاليتا: اتركه، يا فوشيا، لا تسأله، إنه يتعذب، وفوشيا: اسكتي، يا عاهرة، هيا يا بانئاتشيتا قل من الذي كان ينزف، وهو بين أسنانه: المحتال باكوفيك، ذلك اليوغسلاني الذي خدعهم، إنه أسوأ من شيطان، يا معلم، وفوشيا: لماذا قتلته، يا بانئاتشا؟ وكيف، يا تشولو، بماذا، وهو لم يبيع أن يدفع لهم، لا يوجد أرز كاف، لنتوغل أكثر وسحب الوانشتر أيضاً أطلق على حمال سرق قنينة. وفوشيا: أطلقت عليه النار، يا تشولو؟ بمديتي، يا معلم، وكانت ذراعه قد نملت لكثرة ما ضربه، وبدأ يرفس ويبيكي، ولاليتا: أنعم النظر، انظر كيف صار، يا فوشيا، لقد هاج وفوشيا، استخلصت منه سراً، الآن أصبحت أعرف مم كان يتخفى عندما التقاه أكيلينو. عادة ليجلسا بجانب السرير المحمول هدا واستيقظ أخيراً. نهض متعثراً وهو يحك نفسه بحنق، لا تغضب، يا معلم، وفوشيا: المغلي ذهب بعقلك وذات يوم رماه برفسة، وبانئاتشا لم يكن له أحد، وحياته حزينة، يا معلم، أنت عندك زوجتك وكذلك الهوامبيسيون وحتى الحيوانات، لكن هو كان وحيداً، لا تغضب، يا معلم، وأنت كذلك، يا معلّمة.

انتظروا يومين آخرين وأكيلينو لم يصل والهوامبيسيون ذهبوا حتى نهر مانتياغو ليتحققوا، لكنهم عادوا بلا أخبار، وعندئذ بحثوا عن مكان للحوض وبانئاتشا: على الطرف الآخر من رصيف الزوارق، يا معلم فالوهدة هناك منحدرها أكبر وماء

¹²¹ تشولو: كلمة محلية تعني الجبان.

اللويونات سيصب فوقه، وهزّ الهوامبيسيون رؤوسهم موافقين، وفوشياً: لنقمه هناك. أطاح الرجال بالأشجار والنسوة اقتلعن العشب، وحين أصبح هناك منطقة مكشوفة صنع الهوامبيسيون أوتاداً بروها وثبتها على شكل دائرة. كانت التربة السطحية سوداء والداخلية حمراء، وكانت النسوة يأخذنها باردتيهنّ ويلقين بها في البحيرة، بينما كان الرجال يحفرون البئر، ثم أمطرت وخلال أيام قليلة امتلأ الحوض. وأصبح جاهزاً لسلاحف النشارايا. خرجوا عند الفجر، كان الرافد طافحاً، وكانت الجنور والنباتات المتسلقة تخرج للقائهم لتخدشهم، وفي نهر سانتياغو بدأت لاليتا ترتعد، أصابتها الحمى. سافروا يومين، وفوشياً: إلى متى، والهوامبيسيون يشيرون بأصابعهم إلى الأمام. أخيراً وجدوا حيداً رملياً وفوشياً: يقولون هناك، هذا مكان أفضل، فرشوا، واختابوا بين الأشجار، وفوشياً، لا تتحركي، لا تتنفسِي، فلو شعرت بك لن تأتي، ولاليتا: أشعر بدوار، أعتقد أنني حبلِي، يا فوشياً، وهو، اللعنة، اسكتي، كان الهوامبيسيون قد تحوّلوا إلى نباتات، كانت عيونهم تَبْرُق، بلا حراك بين الأوراق، وهكذا خيمَ الظلام وبدأت الجادج تصرّ والضفادع تنقّ وصعد هوالو ضخم على قدم لاليتا، كم كانت رغبته كبيرة في هرسه، وهو لا تتحرّكي، لقد طلع القمر، وهي لا أستطيع أن أستمر كأنني ميتة، يا فوشياً، بي رغبة للبكاء بصوت عال.

كانت الليلة صافية، دافئة، تجري نسمة خفيفة وفوشياً: ضحكت منا، لا ترى ولا واحدة، يا لهؤلاء الكلاب، وبانتاتشا: اسكت، يا معلّم، ألا ترى، ها هي تخرج. كانت تصل مع موجات النهر مثل الكرات، قائمة كبيرة، تبقى مرتظمة ثم تعاود تحركها، تتقدم ببطء، وكانت أصدافها تشتعل بأنوار ذهبية اثنتان، أربع، ست، تقرب، متجرجرة فوق الرمل، رؤوسها في الخارج، خشنة، مهترّة، تُراها ترانا. تشمّ رائحتنا؟ بعضها بدأ ينكش ليصنع وكره، وبعضها الآخر كان يخرج من الماء. عندئذ خرجت من بين الأشجار أطياف سريعة، نحاسية، صامتة، وفوشياً: هيا، اركضي يا لاليتا، وحين وصلوا إلى الشط، بانناتشا: انظر، يا معلّم، إنها تعضّ، تكاد تقتلع إصبعي. الأنثى هي الأكثر شراسة. كان الهوامبيسيون قد قلبوا كثيراً منها وراحوا يدمدمون بفرح. كانت الشاريات تحرك قوائمها وهي على ظهرها،

وفوشياً كان يحصيها ورأسها إلى الداخل وفوشياً: عديها، وهي: يوجد ثمان منها والهوامبيسيون يفتحون ثغرة في أصدافها ويدخلونها في قضبان من الخيزران، ويانتاشا: لتأكل واحدة، يا معلّم، كان الانتظار قد سبّب له الجوع. ناموا هناك وفي اليوم التالي سافروا من جديد، وفي الليل، شاطئ آخر، خمس شاريات، وطوق آخر وناموا، سافروا وفوشيا لحسن الحظ إنه موسم وضع البيض، ويانتاشا، هل ما نقوم به ممنوع، يا معلّم؟ وفوشيا كان يقضي حياته وهو يمارس الممنوعات، يا تشولو، كانت العودة بطيئة جداً، فالزوارق كانت تمخر وهي تجرّ الأطواق والتشاريات تقاوم، وكانت توقفها وفوشيا، ماذا تفعلون، يا كلاب؟ لا تضربوها، ستقتلونها ولاليتا، هل سمعتني؟ اسمعني، بي رغبة للتقيز، يا فوشياً، سألد، وهو دائماً تخطر لك أسوأ الأشياء، في الرافد كانت التشاريات تتمسك بالجذور والقاع، وعليهم أن يتوقفوا في كل لحظة، والهوامبيسيون يقفزون إلى الماء فتعضهم التشاريات فيتسلقون الزوارق وهم يزمجرون. عندما دخلوا البحيرة رأوا الزورق ودون أكيلينو، على الرصيف يحييهم بمنديله. كان قد جاء بمطبات، قدوز، مدى، أنيسادو، وفوشياً، يا عزيزي العجوز، اعتقدت أنك قد غرقت، وهو صانف زورقاً مليئاً بالجنود، فرافقهم مداراة، وفوشياً: جنود؟ وأكيلينو وقعت مشكلة في أوراكوسا، فالأغوارونيون ضربوا عريقاً، كما يبدو، وقتلوا دليلاً، وسلطات سانتا ماريا ده نيبيا ذهبت لتصفي حسابها معهم، سوف يزهبون أرواحهم إن لم يهربوا. صعد الهوامبيسيون بالتشاريات إلى الحوض، وفوشيا: إذن الكلب رثائيجي موجود هنا؟ وأكيلينو: كان الجنود يريدون مني أن أبيعهم المطبات، فاضطرت لأن أخدمهم، وفوشياً ألم يقولوا إن الكلب رثائيجي كان سيعود إلى إيكيتوس ويترك الحكومة؟ وأكيلينو: بلى، يقول إنه سيفعل ذلك بعد أن يحلّ هذه المشكلة، ولاليتا: لحسن الحظ أنك وصلت، يا دون أكيلينو، فأنا لا أحب أن أكل السلاحف طول الشتاء.

وهكذا انتهى دون أنسيلمو مانغاتشياً، لكن ليس بين ليلة وضحاها، كرجل يختار مكاناً، يبني بيتاً، ويستقر. حدث ذلك ببطء وبشكل غير ملحوظ. كان في البداية يظهر في مشارب التشيتشا، والقيثار تحت نراعه، والموسيقيون. جميعهم تقريباً عزفوا له ذات مرة. تقبلوه كمرافق. كان الناس يحبون سماعه، وكانوا يصفقون له. وكانت مشارب التشيتشا، التي تقدره، تقدم له الطعام والشراب، وحصيماً ويطانية وزاوية ينام فيها عندما كان يسكر. لم يره أحد قط في كاستيليا، ولا هو يعبر البييخو بونته، لأنه قرّر العيش بعيداً عن الذكريات والرمل. ولم يكن يتردد على الأحياء القريبة من النهر، لاغالييناثورا و«الكمال» باستثناء لامانغا تشيرياً: بين ماضيه وبينه كانت تتدخل المدينة. احتضنه المانغانثيون ومعه تشونغا المنبوعة التي كانت تنظر بنفور إلى الفراغ، وهي منكمشة في زاويتها ودفنها بين ركبتيها، بينما كان دون أنسيلمو يعزف أو ينام. كان المانغانثيون يتكلمون عن دون أنسيلمو، لكنهم ينادونه بعازف القيثارة، بالعجوز. لأنه شاخ منذ أن حدث الحريق، فهبط كتفاه وغار صدره وظهرت تشققات في جلده وانتفخ بطنه وتقرّست ساقيه وصار متسخاً مهملًا لنفسه. كان ما يزال يستخدم جزمة أيام العز، المغبرة، والمتآكلة، بنظونه كان قد صار نسلات، والقميص لم يحتفظ بزرّ واحد. وكانت قبعته مثقبة وأظافره طويلة سوداء، وعيناه مليئتان بالأخاديد والمرض. وصوته بح وأخلاقه وطباعه قد لانت. كان بعض الوجهاء يتعاقدون معه في البداية ليعزف في أعياد ميلادهم وعماداتهم وأعراسهم. أفتح بما كان يريجه بهذه الطريقة باتروثينيو نايا بأن يوربه ولا تشونغا، التي كانت قد بدأت تتكلم، في بيته، ويقدم لهما وجبة واحدة في اليوم. لكنه كان دائماً بالي الثياب مخموراً مما جعل البيض يتخلون عن دعوته، فصار يكسب عيشه بأية طريقة، يساعد الناس في تبديل بيوتهم، يحمل الأحمال، أو ينظف الأبواب. كان يمثل عند المغيب في مشارب التشيتشا وقد جرّ لاشونغا بيد وحمل القيثارة بالأخرى. كان شخصية شعبية في لامانغاتشيرياً، صديقاً للجميع وليس صديق أحد، انعزالياً، يرفع قبعته ليحيي نصف العالم، لكن دون أن يكاد يتبادل كلمة مع الناس. وكان يبدو أن القيثارة وابنته والكحول يشغلون

حياته. لم يبق من عاداته القديمة إلا كراهيته للغالينائيين. كان يرى الواحد منهم فيبحث عن حجر ويقذفه به وينهال عليه بالشتائم. كان يشرب كثيراً، لكنه كان سكيراً عاقلاً، ولم يكن أبداً عرييداً ولا صاخباً. وكان يُعرف أنه سكران من مشيته التي لم تكن متعرجة ولا متعثرة وإنما مراسمية: الساقان مفتوحتان، الذراعان متصلبان، الوجه جهم والعينان معلقتان في الأفق.

كان نظامه في الحياة بسيطاً. كان يغادر كوخ باتروثينيو نايًا عند الظهر، أحياناً وهو يمسك لاشونغا من يدها وأحياناً، أخرى وحده، وينطلق إلى الشارع بنوع من العجلة. كان يجوب المتاهة المانغاتشية بخطوات حية، يروح ويغدو في الدروب الملتوية المتعرجة. وهكذا كان يصعد إلى التخم الجنوبي، الرملة التي كانت تمتد باتجاه سوليانا، أو يهبط حتى عتبات المدينة، ذلك الصف من أشجار الخرنوب والساقية التي تجري تحتها. كان يذهب، يعود، يرجع ويقوم باستراحات قصيرة في مشارب التشيتشا. دون أي حرج كان يدخل وينتظر، هادئاً، صامتاً، جدياً، أن يدعوه أحد لكأس من النبيذ الوردى أو البيسكو. كان يشكر بحركة من رأسه، ثم يخرج ويتابع رحلته أو مشواره أو عقابه لنفسه، ودائماً بالإيقاع المحموم نفسه، إلى أن يراه المانغاتشيون يتوقف في أي مكان ويترك نفسه يسقط تحت ظل طنف، يتخذ وضعية مريحة على الرمل، يغطي وجهه بالقبعة، ويبقى على هذه الحال ساعات كاملة، رابط الجأش أمام الدجاجات والماعز، التي كانت تشم جسده، وتحك ريشها أو تقونها به وتتغوط فوقه. لم يكن يلقي حرجاً من توقيف المارة ليطلب منهم سجانر، وعندما كانوا ينكرون عليه ذلك لم يكن يغضب بل يتابع طريقه، شامخاً مهيباً. في الليل كان يعود إلى حيث باتروثينيو نايًا في طلب القيثارة ويرجع إلى مشارب التشيتشا، لكن هذه المرة لعزف. كان يقضي ساعات في دوزنة الأوتار، يوقعها بدقة، وحين كان يثمل، لم تكن تطاوعه يده وكان القيثارة ينشر، فيتحوّل إلى متمم ويعلو الحزن عينيه.

كان يذهب أحياناً إلى المقبرة، وقد راوه لآخر مرّة هناك لاحقاً، في الثاني من تشرين الأول، عندما أوقفه رجال البلدية في الباب. شتمهم، عاركهم،

رماهم بالحجارة وأخيراً أفنح بعض الجيران الشرطة بأن يتركوه يدخل. وفي الثاني من تشرين أول وفي المقبرة رأيت خوانا باورا لانتشونغا، والتي كانت متكلم عامها السادس، منسخة، بالأسمال تطوف بين القبور. نادتها، داعبتها بحنان. ومنذ ذلك الوقت والغاملة تأتي من حين لآخر إلى لامانغاتشيريًا حائثة الحمار المحمل بالثياب، سائلة عن عازف القيثارة وعن لانتشونغا. كانت تحضر لها طعاماً، ثوباً ماء، حذاء، وله سجاثر، وبعض النقود التي كان العجوز يمارع إلى صرفها في أقرب مشرب للتشيشنشا. وذات يوم لم تر لانتشونغا في شوارع لامانغاتشيريًا فقالت باتروثينيو إن خوانا باورا قد حملتها معها، ولأبد، إلى لاغاليناثيرا. تابع عازف القيثارة حياته ومشاويره. وكان في كل يوم يزداد شيخوخة وقذارة وتبلى ثيابه، لكن الجميع ألفوا رؤيته، ولم يعد يلتفت إليه أحد حين كان يمر، هائناً، متخسباً، أو عندما كان عليهم أن ينفروا كي لا يدوموا جسده الرائد على الرمل، تحت الشمس.

بعد سنوات بدأ عازف القيثارة يغامر باجتياز حدود لامانغاتشيريا. كانت شوارع المدينة تنمو، تتبدل، تتصلب بالبلاط والأرصفت المرتفعة، تُوشى بالبيوت الجديدة وتصبح صاخبة. وكان الصبية يجرون خلف السيارات. كان هناك بارات، فنادق ووجوه غريبة وطريق جديدة إلى تشيكلايو، سكة حديدية، ذات خطين لامعين، تربط بيورا ببايتا مروراً بسوليانا. كان كل شيء يتبدل، بما في ذلك البيوريون. لم يعودوا يظهرون في الشوارع بجزماتهم وبنطلونات ركوب الخيل وإنما ببذلات وربطات عنق أيضاً. والنساء اللواتي كن قد تخلين عن الثورات القاتمة التي تصل حتى الرسغين، أصبحن يرتدين الألوان الفاتحة. ولم يعدن يذهبن تحميهن الخاديات ويتخفين تحت الوشاحات والمعاطف، وإنما وحدهن ووجوهن مكشوفة وشعورهن مسترسلة. كانت الشوارع في كل مرة أكثر عدداً والبيوت أكثر ارتفاعاً والمدينة تتمطى والصحراء تتقهقر. اختفت لاغاليناثيرا وظهر مكانها حي وجهاء، والأكوخ المحشورة خلف «الكمال» اشتعلت ذات فجر وجاء رجال البلدية والشرطة، والعمدة والحاكم على رأسهم، وأخرجوا الجميع بالشاحنات بالعصي وفي اليوم التالي حُطط لشوارع

مستقيمة، وتجمعات سكنية، ويُدعى ببناء بيوت من طابقين. وبعد وقت قصير لم يكن هناك من يتصوّر أنه في هذا الركن السكني النظيف الذي يسكنه بيض، كان قد عاش عمّال. كبرت كاستيليا أيضاً وتحولت إلى مدينة صغيرة. رصفوا الشوارع، وصلت السينما، فُتحت المدارس وجادات وشعر الشيوخ بأنهم نُقلوا إلى عالم آخر، كانوا يشكون من إزعاجات وبذاءات وتعصّفات.

وذاث يوم تقدم العجوز والقيثار تحت نراعه في تلك المدينة المجتدة، وصل إلى بلاتا ده أرماس، تمركز تحت شجرة تمر هندي وبدأ يعزف. عاد في المساء التالي ومساءات أخرى كثيرة خاصة أيام الخميس والسبت، أيام العطل. كان البيوريون يهرعون بالخشرات إلى بلاتا ده أرماس ليصفوا إلى فرقة تكنة غراو، وقد كان يسبقهم ويقدم معزوفة العودة الخاصة به قبل ساعة، ويمرر قبعته فلا يكاد يجمع بعض السولات حتى يعود إلى لامانغاشيريا. وهذا الحي لم يكن قد تغيّر، وكذلك المانغاشيون. فهناك كانت ما تزال أكواخ الطين والقصب وشموع الشحم والماعز، ورغم التطور لم يكن هناك من دورية من الحرس المدني تجرؤ على المغامرة ليلاً في شوارعها الخشنة. مما لا شكّ فيه أن عازف القيثارة كان يشعر بنفسه مانغاشياً حقيقياً، لأن النقود التي كان يربحها في بلاتا ده أرماس كان يأتي دائماً ليصرفها في هذا الحي. وفي الليل كان يتابع العزف حيث لاتولا، لاخيرتوديس، أو حيث أنخليكا مرثيس، طاهيته السابقة، التي أصبحت الآن تملك مشرب تشيتشا خاصاً بها. لم يعد هناك من يتصوّر لامانغاشيرياً بونه، ما من مانغاشي كان يتصوّر أنه في الصباح التالي لن يراه يطوف بوقار في الشوارع الضيقة، يرحم بالحجارة الغاليناثويات، أو خارجاً من الأكواخ بطعم أحمر، أو نائماً تحت الشمس، أو أنه لن يسمع قيثاره من بعيد في الظلمة. حتى في طريقته في الكلام، وفي المرات القليلة التي كان يتكلم فيها، كان أي بيوروي يعرف أنه مانغاشي.

- ناداه المنيعون إلى طاولتهم . قالت لاتشونغفا. لكن الرقيب كان يتظاهر بأنه لا يراهم.
- إنه دائماً شديد التهذيب . قال عازف القيثارة. جاء ليسلم عليّ ويعانقني.
- سوف يجعل هؤلاء المزعجون بمزاحهم عناصري يفقدون احترامهم لي، أيها العجوز . قال ليتوما.
- كان الحارسان قد بقيا في البار بينما كان الرقيب يتحدث إلى دون أنسيلمو، صبّت لاتشونغفا لهما بيرة بينما ابنا آل ليون وخوسيفينو ينهالون عليه بمزاحهم .
- بفضل ألا تتابعوا. فلاسيلياتيكا حزينة . قال الشاب . ثم إن الوقت أصبح متأخراً، يا معلم.
- لا تحزني، أيتها الفتاة . حامت يد دون أنسيلمو فوق الطاولة، أسقط كأساً، ربت على كتف لاسيلياتيكا. هكذا هي الحياة، ليس الذنب نذب أحد.
- ارتدى أولئك الخونة اللباس الموحد وما عادوا يشعرون بأنفسهم أنهم مانغاتشيون، لم يعودوا يحيون ولا يريدون أن ينظروا.
- الحارسان لم يكونا يعرفان أن ذلك من أجل الرقيب . قالت لاتشونغفا. كانا بشريان بيرتهما بكل ارتياح ويتحدثان معي. لكن هو كان يعرف وكان يرميهما برصاص عينيه ويشير بيده أن انتظرا، اسكنا.
- من الذي دعا هذين الموحد للباس؟ . قال سيميناريو. لنر، ها هما يودعان. يا تشونغفا، اعلمي معروفاً واطرديهما.
- إنه السيد سيميناريو، الملاك . قالت لاتشونغفا. لا تولوه أهمية.
- عرفته . قال الرقيب . لا تنظرا إليه، أيها الشابان، لا بد أنه سكران.
- الآن يحشر نفسه مع الشرطة . قال المونو. السافل، هو الذي يجلب الشر لنفسه.
- يستطيع ابن عمنا أن يرد عليه، ليكن للباسه الموحد فائدة . قال خوسيه.
- تناول الشاب أليخاندر جرة قهوة:

- يصل إلى هنا هائناً، لكن بعد الكأس الثاني يشتد غيظه. لا بد أنه كان يحمل في قلبه ألماً رهيباً، وكان يخمده بهذه الطريقة، بالصراحة والضرب.
- لا تكن هكذا، يا سيد. قال الرقيب. إننا نقوم بعملنا، فهذا هم يدفعون لنا.
- راقبتم بما فيه الكفاية، ورأيتم أن كل شيء مسالم. قال سيميناريو. والآن اذهبوا واتركوا الناس المحتشمة تتمتع بسلام.
- لا تنزعج لأجلنا. قال الرقيب. تابع تمتعك، يا سيد وكفى.
- كان وجه لاسيلباتيكا في كل مرة أكثر حزناً، وكان سيميناريو يتلوى غضباً، والشرطي يداهنه، تُرى هل خلثت بيورا من الرجال؟ ماذا فعلوا بهذه الأرض؟ اللعنة، هذا ليس عدلاً. وعندك اقتربت أروتينسيا ولا أمابولا فهدأته بالتملق والمزاح قليلاً.
- لأورتينسيا، لا أمابولا¹²². قال دون أنسيلمو. أية أسماء تعطينهما، يا تشونغيئا.
- وماذا كانوا يفعلون؟ قالت لاسيلباتيكا. فالذي قلته عن بيورا يثير غيظهم.
- كان يتطايير الشرر من عيونهم. قال بولاس. لكن ماذا كان بوسعهم أن يفعلوا، فقد كانوا يموتون رعباً.
- لم يكونوا يعتقدون أن ليتوما هش إلى هذه الدرجة، فقد كان مسلحاً وكان عليه أن يوقفه، فسيميناريو كان يتمادى، ولا يجب البحث عن ثلاث أرجل للقط علماً بأنه معروف أن له أربعاً، ولا ريتا مهلاً، فهو الآن سيمستمع إليهم، ولا ماريل سوف تحدث مشاجرة، ولا ساندرنا تقهقه. وبعد برهة قصيرة ذهبت المجموعة والرقيب رافق الشرطيين حتى الباب وعاد بمفرده. ذهب ليجلس إلى طاولة المنيعين.
- خير له لو ذهب أيضاً. قال بولاس. مسكين.
- ولماذا مسكين؟. احتجت لاسيلباتيكا بحدة. إنه رجل، ولا يحتاج لأن تشفقوا عليه.
- لكنك دائماً تقولين عنه إنه مسكين، يا سيلباتيكا. قال بولاس.

¹²² لا أورتينسيا، لا أمابولا؛ في الأصل أسماء نباتات، الأولى شقيقة النعنع والثانية هي

الأورطنسيا، نبتة الزينة المعروفة عندنا باسم قرطاسية.

- أنا زوجته . وضحكت لاسيلباتيكا وابتسم الشاب ابتسامة مبهمة .
- كان ليتوما يعظهم، لماذا كانوا يسخرون منه أمام أتباعه؟ وهم: إن لك وجهين، تتظاهر بالجدية أمامه. ثم ترحلها كي تتمتع على هواك. كانوا يرثون لحاله وهو في اللباس الموحد، فقد كان شخصاً آخر. وكان هو يرثي لحالهم أكثر. وفي الحال تصالحوا وغفوا: لقد كانوا المنيعين، لم يكونوا يتقنون عملاً، وإنما فقط يستغلون، يقامرون، فقد كانوا المنيعين، والآن سوف يضاجعون .
- يؤلفون نشيداً خاصاً بهم . قال عازف القيثارة. أه من هؤلاء المانغاشيين، ليس لهم مثل .
- لكنك لم تعد كذلك، يا ابن العم . قال المونو. تركتهم يتمكنون منك .
- لا أدري كيف لم تشعر بالخجل، يا ابن العم . قال خوسيه . لم يحدث أن رأى أحد مانغاشياً شرطياً .
- لا بد أنهم يتبادلون نكاتهم أو سكراتهم . قالت لاتشونغا. وإلا فعم كنت تريد أن يتحدثوا .
- إنها عشر سنوات، أيها الزميل . تنهد ليتوما. رهيب كيف تمضي الحياة .
- نحكم، نخب الحياة التي تمضي . اقترح خوسيه ورفع الكأس .
- إن المانغاشيين يصبحون فلاسفة قليلاً عندما يشربون . لقد أصيبوا بالعدوى من الشاب . قال عازف القيثارة. لا بد أنهم يتحدثون عن الموت .
- عشر سنوات، مثل الكذب شيء لا يكاد يصدق . قال المونو. هل تذكر السهرة على جثمان دوميتيلا بارا، يا ابن العم؟
- في اليوم التالي لعودتي من الغابة التقيت بالأب غارثيا ولم يرد لي التحية . قال ليتوما. لم يغفر لنا .
- ليس فيلسوفاً أبداً، يا معلم . قال الشاب وقد احمرّ خجلاً . ليس أكثر من فنان متواضع .
- من المرجح أنهم يروون أشياء . قالت لاسيلباتيكا. فهم في كل مرة يجتمعون فيها، يبدؤون بالكلام عما كانوا يفعلون في طفولتهم .
- ها أنت أصبحت تتكلمين مثل البيوريين، يا سيلباتيكا . قالت لاتشونغا .

- ألم تتدم ذات مرة، يا ابن العم؟ قال خوسيه.
- شرطى أو أي شيء، ماذا يهم . هزّ لیتوما كتفيه . وأنا منيع كنتُ مشاغِباً ومقامراً وأيضاً جعتُ كثيراً، أيها الزميل. الآن على الأهل أكل جيداً، صباحاً ومساءً، وهذا شيء مهم.
- لو كان ممكناً لشربت أيضاً قليلاً من الحليب . قال عازف القيثارة . نهضت لاسيلباتيكا .
- يا دون أنسيلمو: هي كانت تعده لك .
- الشيء الوحيد الذي أحسّك عليه هو أنك جيت عالماً، يا لیتوما . قال خوسيفينو . نحن سوف نموت دون أن نخرج من بيورا .
- تكلم باسمك وحدك . قال ألمونو . أنا لن أقبر قبل أن أعرف ليماء .
- فتاة طيبة . قال أنسيلمو . دائماً تسوي كل شيء . يا لها من متفضّلة، وما لطفها . هل هي جميلة؟
- ليس كثيراً، إنها مربعة . قال بولاس . وعندما تكون بكعب عال، تنثير مشيتها الضحك .
- لكن عينيها جميلتان . أكد الشاب . خضراوان، واسعتان، وغامضتان . تعجبانك، يا معلّم .
- خضراوان؟ قال عازف القيثارة . بالتأكيد تعجبانني .
- من كان يصدق أنك ستتزوج وتصبح شرطياً . قال خوسيفينو . ثم وبسرعة إلى ربّ عائلة، يا لیتوما؟
- هل حقاً أن النساء في الغابة خالعات العذار تماماً؟ قال ألمونو . وأنهن شبقات جدّاء، كما يقولون؟
- وأكثر مما يقولون بكثير . أكد لیتوما . على المرء أن يسير حامياً نفسه . إذا غفلت يعصرتك، لا أدري كيف خرجت من هناك سليماً .
- إذن يلتهم الواحد ما حلا له منهم . قال خوسيه .
- خاصة إذا كان ساحلياً . قال لیتوما . إن الأوروبيين يسلبون عقولهنّ .

- لا بدّ أنها طيبة، لكن يجب أن يعرف الإنسان أية مشاعر تمتلك . قال بولاس . إنها تفجر مع صديق زوجها، والمسكين ليتوما في السجن .
- يجب ألا تحكم بهذه السرعة، يا بولاس . قال الشاب محزوناً . يجب التحقق مما حدث . ليس سهلاً أبداً معرفة ما وراء الأشياء، لا تكن أبداً من يلقي بالحجر الأول، يا أخي .
- ثم يقول إنه ليس فيلسوفاً . قال عازف القيثارة . اصغي إليه، يا تشونغيتا .
- هل كان في سانتا ماريّا ده نيبيا أنثى كثيرات، يا ابن العم؟ . ألخ المونو .
- كان بالإمكان التبدّل يومياً . قال ليتوما . كثيرات وحاميات بطريقة ليس لها مثيل . من كل الألوان، ببيضاوات وسمراوات، كان يكفي أن تمد يدك .
- إذا كنّ فتيات جميلات بهذا الشكل فلماذا تزوجت من هذه؟ . ضحك خوسيفينو . لأنه، لا تجادلني، ليس فيها إلا عيونها، والباقي لا قيمة له .
- ضرب بقبضته على الطاولة ضربة سمعت في الكاتدرائية . قال بولاس .
- تشاجرا على شيء، كان يبدو أن خوسيفينو وليتوما سيمزقان بعضهما بعضاً .
- إنها مجرد شرارات، توهجات تشتعل وتنتطفئ، غضبهما لا يدوم أبداً . قال عازف القيثارة . البيوريون طيدوا القلب جميعاً .
- أما عدت تحتمل المزاح؟ . كان المونو يقول . آه كم تغيرت، يا ابن العم .
- إنها أختي، يا ليتوما . صاح خوسيفينو . هل كنت تعتقد أنني كنت جاداً في كلامي؟ اجلس، أيها الزميل، اشرب النخب معي .
- المسألة أنني أحبها . قال ليتوما . وهذه ليست خطيئة .
- حسناً تفعل بحبك لها . قال المونو . أنزلي بيّرة أكثر، يا تشونغفا .
- لم تتأقلم المسكينة، دائماً تسير خائفة بين هذه الكثرة من الناس . قال ليتوما . هذه منطقة مختلفة عن منطقتها، عليكم أن تفهموا ذلك .
- طبعاً نفهم ذلك . قال المونو . هيا، نخب ابنة عمنا .
- إنها رائعة، إنها تعتي بنا كثيراً، يا للمأكولات التي تحضرها لنا . قال خوسيه . نحن الثلاثة نحبها كثيراً، يا ابن العم .

- رائع، إنها لذيذة . قال عازف القيثارة، متتوقفاً. هل صحيح أن عينيك خضراوان، أيتها الصبية؟

كان سيميناريو قد دار باتجاههم بالكرسي ويكل شيء، ما هذا الضجيج؟ ألم يعد يستطيع الواحد أن يتحدث بهدوء؟ والرقيب، بكل احترام: لقد كان يتجاوز حده، لم يضايقه أحد، وعليه ألا يضايق أحداً، يا سيد. رفع سيميناريو صوته، من كانوا حتى يردوا عليه، طبعاً كان سيستفزهم، أربعتهم ومعهم العاهرة التي ولدتهم، هل سمعوه؟

- هل نكر أمهم؟ . قالت لاسيلباتيكا وجفناها يرقان .

- عدة مرّات أثناء الليل، تلك كانت الأولى . قال بولاس . يعتقد هؤلاء الأغنياء، ولأنهم يملكون أراض أن باستطاعتهم أن ينكروا اسم إي إنسان بالسوء .

خرجت لأورتيثيا ولأمامبولا مثل الطير ومنت ساندرنا وزيتا وماريبيل رؤوسهن من طاولة البار . كان صوت الرقيب يمزقه الغضب، لم تكن للعائلة علاقة بذلك، يا سيد .

- إذا لم يعجبك، فتعال لتتحدث، تعال . قال سيميناريو .

- لكن ليتوما لم يذهب . قالت لاشونغا . استوقفناه مع لاساندرنا .

- لماذا تنكر الأم إذا كانت المسألة بين رجال؟ . قال الشاب . فالأم هي

أقدس ما في الوجود .

ولأورتيثيا ولأمامبولا كانتا قد عادتا إلى طاولة سيميناريو .

- لم أسمعهم بعدها ولم يعودوا لينشدوا نشيدهم . قال عازف القيثارة . فقد حط نكر الأم من عزيمة الفتیان .

- عرّوا أنفسهم بالشرب . قالت لاشونغا . ولم تعد طاولتهم تتسع لزجاجات أكثر .

- لذلك أعتقد أن الأحزان التي يحملها المرء في داخله توضح كل شيء . قال

الشاب . ولذلك ينتهي بعضهم إلى أن يصبح سكيراً، وآخرون رهباناً، وآخرون قتلة .

- أنا ذاهب لأبلل رأسي . قال ليتوما . لقد كثر هذا الرجل عليّ ليلتي .

- كان معه الحق في أن يزعج، يا خوسيفينو . قال المونو . لا أحد يحب

أن يقال له إن أمك قبيحة .

- إنه يثيرني بخيلائه الزائدة . قال خوسيفينو . التهمث مئة أنثى ، أعرفُ نصف البيرو . عشتُ حياتي على هواي . يمضي النهار وهو يحدثنا عن أسفاره .
- أنت في أعماقك مغتاط جداً لأن زوجته لا توليك اهتماماً . قال خوسيه .
- لو عرف أنك تلاحقها ، لقتلك . قال ألمونو . إنه عاشق لأنثاه مثل عجل .
- إنها خطيئته . قال خوسيفينو . لماذا يتبجح كل هذا التبجح؟ إنها في الفراش نار خالصة ، وتتحرّك هكذا . ليمت بغيظه ، أريد أن أرى ما إذا كانت صحيحة هذه العجائب .
- أتراهن على زجاجتين بأنها لن ترتبط بك؟ . قال ألمونو .
- سوف نرى . قال خوسيفينو . في المرة الأولى أرادت أن تطمئني ، في الثانية شتمتني فقط وفي المرة الثالثة لم تتظاهر حتى بالزعل ، بل استطعت أن ألمسها قليلاً . إنها تتراخي ، أنا أعرف أناسي .
- إذا وقعت ، فأنت تعرف . قال خوسيه . المكان الذي يمرّ فيه منع يمرّ فيه الثلاثة ، يا خوسيفينو .
- لا أدري لماذا أنا مشتاق إليها كثيراً . قال خوسيفينو . الحقيقة إنها لا تساوي شيئاً .
- لأنها غريبة . قال ألمونو . والواحد دائماً يحب أن يكتشف ما هي الأسرار والعادات التي يأتين بها من أرضهن .
- تبدو حيواناً صغيراً . قال خوسيه . لا تفهم شيئاً ، تقضي حياتها وهي تسأل لماذا هذا ، ولماذا الآخر . ما كنت لأجرب أولاً ، وماذا لو حكيت للبيتوما ، يا خوسيفينو؟
- إنها رعييدة . قال خوسيفينو . هناك بالذات تقبّتها . ليس لها شخصية ، تموت خجلاً قبل أن تحكي له . المؤسف فقط هو أنني تركتها حبلى . الآن يجب أن أنتظر أن تلد كي أقوم لها بالعمل .
- ثم راحوا يرقصون بشكل رائع . قالت لاتشونغنا . بدا بالنسبة لبيدرو وكأن كل شيء انتهى .
- المصائب تقع فجأة ، وفي الوقت الذي لا يتوقّعها فيه أحد . قال الشاب .

- مع من كان يرقص هو؟ . قالت لاسيلباتيكا.
- مع لاساندرا . كانت لاتشونغا تراقبها بعينها المطفأتين وتتكلم ببطء ومتلاصقين تماماً. وكانا يتبادلان القبيل. هل تغارين؟
- مجرد سؤال، ليس إلا . قالت لاسيلباتيكا. أنا لست غيرة.
- وفجأة أصبح سميناريو حازماً وعنيفاً، ومزمجراً. طلب منهم الخروج أو يخرج الأربعة رفساً.

-3-

- ليس هناك أية جلبة ولا أي ضوء طوال الليل . قال الرقيب . ألا يبدو لك هذا غريباً، يا سيدي الملازم؟

- يجب أن يكونوا في الجانب الآخر . قال الرقيب روبيرتو نيلغادو . تبدو الجزيرة كبيرة.

- ها هو الضوء يشعشع . قال الملازم . ليحضروا الزوارق، لكن يجب ألا يحدثوا ضجة .

كان للثياب الموحدة بين الأشجار والماء مظهر نباتي، وكان الحراس المندوبين والجنود المتزاحمون في الموقع الضيق، والمبللون حتى العظام، بعيونهم الثملة من التعب، يسون بنظولناتهم وطماقاتهم . كان يلفهم سنى ضارب للخضرة يتسرب من متاهة الأغصان، وبين الأوراق والفروع والنباتات المتسلقة كانت تبرز وجوه كثيرة وتحدث لسعات، وخدوش بنفسجية . تقدم الملازم حتى ضفة البحيرة، أبعد ما بين الأغصان بيده وثبت بالأخرى المنظار إلى عينيه وفحص الجزيرة؛ وهدة عالية، سفوح رصاصية، أشجار ذات جذوع قوية ورؤوس وارقة . كانت المياه تتلألأ، وبدأ يسمع صدادح الطيور . جاء الرقيب نحو الملازم، وكانت الغابة تخشخش تحت قدميه وتقطق . وخلفهما كانت أطياف الحراس والجنود الضبابية تتحرك ضائعةً بين شبكة الأغصان، كانوا يفتحون مطرات ويشعلون سجاثر .

- لقد توقفوا عن الجدل . قال الملازم . لن يقول أحد إنهم قضاوا السفر في الشجار .

- إنّ الليلة السيئة جعلتهم أصدقاء . قال الرقيب . التعب والضيق . ليس من أشياء كهذه تجعل الرجال يتفاهمون جيداً، يا سيدي الملازم .

- سوف نطبق عليهم كماشة محكمة قبل أن ينتشر النهار كلياً . قال

الملازم . يجب وضع مجموعة على الضفة المقابلة .

- بلى، ولكن هذا يتطلب اجتياز البحيرة . قال الرقيب، مشيراً إلى الجزيرة

بإصبعه . إن المسافة ثلاثمئة متر، يا سيدي الملازم . وسوف يصطادوننا كما يُصطاد الحمام الصغير .

كان الرقيب روبرتو ديلغادو والأخرون قد اقتربوا. وكان الطين والمطر قد ساوى بين الألبسة الموحدة، وكانت والقبعات وحدها هي التي تميّز الحراس عن الجنود.

- لنرسل إليهم رسولاً، سيدي الملازم . قال الرقيب روبرتو ديلغادو. ولن يبقى أمامهم حل إلا الاستسلام.

- غريب ألا يكونوا قد رأونا . قال الرقيب . فسنمخ الهوامبيعيين مرهف، مثل كل التشونتشويين. ومن الممكن أنهم يسدّون علينا الآن من على أشجار اللبونا.

- أرى ولا أصدق . قال الرقيب ديلغادو. وتثيون ويعيشون بين أشجار اللبونا، رغم الرعب الذي تسببه لهم.

جنود وحراس كانوا يصغون: جلود مزرقّة، بقع دم صغيرة متخثرة، دوائر حول الأعين، حدقات قلقة. حكّ الملازم خذّه، يا للهول! إلى جانب صدغه ثلاث حبوب كانت تشكل مثلثاً بنفسجياً، تُرى هل كان الرقيبان يتغوّطان خوفاً؟ وخصلة شعر متسخة تسقط فوق الجبين شبه المخفي تحت القبعة. ماذا؟ ربما كان حراسك خائفين، يا سيدي الملازم، والرقيب روبرتو ديلغادو لم يكن يعرف كيف يبلعها. طفت همهمة وبحركة واحدة هزّت الدغلة. ابتعد «الصغير» و«الأسود» و«الأشقر» عن الجنود: كانت إهانة، يا سيدي الملازم، وهم لا يسمحون بذلك، بأي حق؟ ولمس الملازم كنانة الفئك: يمكن أن تكلفه غالياً، لو لم يكونوا في مهمة لكان رأى.

. كان هذا مجرد مزاح، سيدي الملازم . تمتّم الرقيب روبرتو ديلغادو. في الجيش نمزح مزاحاً ثقيلًا مع الضباط وهم لا يغضبون أبداً. اعتقدت أن الأمر نفسه في سلّك الشرطة أيضاً.

غمر خريف ماء مقتم أصواتهم وسمع صوت مجاذيف حذر، وانزلاق. ظهرت الزوارق تحت شلال النباتات المتسلقة والخيزران. كان الدليل بينتادو والجندي اللذان يقودانها مبتسمين، ولم تكن قسماتهما ولا حركاتهما توحي بالتعب.

- رغم كل ذلك، ربما كان من الأفضل أن نطلب منهم الاستسلام . قال الملازم.

- طبعاً، يا سيدي الملازم . قال الرقيب روبرتو ديلغادو. لم أنصحك بذلك خوفاً وإنما استراتيجياً. إذا اختاروا الهرب فإننا سنرمي عليهم رمياً محكماً.

- بالمقابل إذا ذهبنا نحن إلى هناك، فإن باستطاعتهم أن يجعلونا عجينة أثناء عبور البحيرة. قال الرقيب. نحن عشرة فقط وهم من يدري كم عددهم. وما السلاح الذي بحوزتهم.

التفت الملازم فجمد الحراس والجنود: من هو الأقدم؟ عم الحرج الوجوه جميعها، تكثيرات على الأقواه، طرفت عيون فرقة. وأشار الرقيب روبرتو ديلغانو إلى جندي قصير نحاسي اللون فتقدم خطوة إلى الأمام: الجندي اينوخوسا، سيدي الملازم. حسناً، ليحمل الجندي اينوخوسا جنود لابورخا إلى الطرف الآخر من البحيرة، أيها الرقيب. سيقى الملازم هنا مع الحراس يراقب فتحة الرافد. ولماذا أتى إذا الرقيب روبرتو ديلغانو، سيدي الملازم؟ رفع الضابط القبعة، لماذا؟ مأس شعره بيده، كان يقول له، وعندما وضع القبعة من جديد اختفت خصلة الشعر عن جبينه: سيذهب الرقيب ليطلبا منهم الاستسلام. ليلقوا أسلحتهم ويضعوا أيديهم على رؤوسهم في الوهدة، أيها الرقيب، سيقدّمهم بيننا. تبادل الرقيب النظرات، الجنود والحراس، الذين اختلطوا من جديد، كانوا يتهايمسون، ولم يعد في عيونهم خوف وإنما انتعاش، وشرارات ساخرة. صعد الجنود يتقدمهم اينوخوسا إلى الزورق الذي كان يتراقص فغاص قليلاً. رفع الدليل المجذاف الطويل، ومن جديد سُمعت طقطقة ناعمة، اهتزت الدغلة واختفت القبعات تحت السراخس والخيزران. وتفحص الملازم قمصان الحراس، يا «صغير»، لتتزع القميص: فقميصك هو الأكثر بياضاً. سيربطه الرقيب إلى بندقيته، يعرف ذلك، وماذا لو أخذهم الشر، رصاصة، وبلا ترو؟ كان الرقيب في الزورق، وعندما ناولهما «الصغير» قميصه نفع بيننا الزورق بالمجذاف الطويل، وتركه يطفو ببطء بين الأغصان، لكن ما إن دخلوا البحيرة حتى أشعل المحرك، ومع الضجة الرتيبة امتلأ الجو بالطيور التي كانت تهرب عن الأشجار، محدثةً صخباً. كانت إشراقاً برتقالية اللون تنمو خلف أشجار اللوبونا، وكذلك كانت سهام الشمس الأولى تتعكس في المحيط الوارف، وكانت مياه البحيرة تظهر نظيفة ساكنة.

- آه، يا رفيقي، كنت على وشك الزواج. قال الرقيب.

- لكن ارفع هذه البنقية أكثر. قال الرقيب ديلغانو. ليروا القميص جيداً.

اجتازوا البحيرة دون أن يرفعوا أعينهم عن الوهدة وعن أشجار اللبونا. كان بينتادو يحافظ على الاتجاه بيد وبالأخرى يحك رأسه، ووجهه، وزراعيه، شاكياً من قرص مفاجيء وعام. كانوا قد بدأوا يرون شاطئاً صغيراً وضيقاً، وطينياً، ذا شجيرات مقشورة وجذوع طافية، بدت كأنها تقيد كرصيف. على الضفة المواجهة كان يرسو زورق الجنود الذين كانوا ينزلون بسرعة، رابضين في العراء، مسددين بينادقهم إلى الجزيرة. كان اينوخوسا يملك صوتاً جميلاً، جميلة الهواينيتوات¹²³ التي كان قد غناها ليلاً بالكيشوية¹²⁴، أليس كذلك؟ بلى ولكن ماذا كان يحدث حتى أنهم لا يرونهم؟ لماذا لم يخرجوا؟ فنهروا سانتياغو كان مليئاً بالهوامبيستين، أيها الرقيق، الذين رأوهم يأتون لا بدّ أخبروهم، وملكوا الوقت كي يهربوا عبر الروافد. توجه الزورق نحو الرصيف. كانت الجذوع الطافية المربوطة إلى بعضها بخيزران غليظ مغطاة بالطحالب، والفطور والأشنة. كان الرجال الثلاثة يتأملون الوهدة شبه العمودية وأشجار اللبونا المنحنية والحدياء. ما من أحد، يا حضرتي الرقيبين، لكن يا للذعر الذي شعروا به. قفز الرقيبان مبرطين في الوحل، بدأ يتسلقان الوهدة، وجسماهما ملتصقان بالمنحدر. كان الرقيب يحمل البنقية عالياً، وكانت ريح ساخنة تموج قميص «الصغير»، وحين وطئا القمة، أجبرتهما الشمس الجارحة على إغماض أعينهما وفركها. كانت ضفائر من النباتات المتسلقة تغطي الفسحات بين أشجار اللبونا، وكان مزاج دبق وعفن يغطي وجهيهما كلما تجسّسا عبر النباتات الملتقة. أخيراً وجدا فتحة، تقدما مطمورين حتى الخصر بالأعشاب البرية الجافة، ثم تابعا في درب كان يتمطي ملتويًا، ضيقاً بين صفيين من

¹²³ الهواينيتوات Huaynito: تصغير Huayno، وهي أغنية ناعسة وحزينة يرثيها الهنود الأمريكيون.

¹²⁴ الكيشوائية: لغة سكان المنطقة الشمالية والغربية من كوتكو في البيرو. وتعتبر في الوقت الحالي

اللغة الرسمية الثانية في البيرو.

الأشجار، يضيع ويظهر إلى جانب أجمة أو بقعة من السرخس. كان الرقيب روبرتو ديلغادو يتوتر، ويحك، ارفع البندقية جيداً، كي يشاهدوا أنهم يرفعون راية بيضاء. كانت رؤوس الأشجار تشكل قبة محكمة المسد لا يتسرب منها أحياناً إلا بعض خيوط شمسية مذهبة كانت مثل الاهتزازات. وكان هناك أصوات طيور غير مرتئية في كل مكان. كان الرقيبان يحميان وجهيهما بأيديهما، لكنهما كانا دائماً يتلقيان وخزات وخدوشاً مؤلمة. انتهى الدرب بسرعة، في منطقة مكشوفة وعلى أرض منبسطة ومستوية ورملية خالية من الأعشاب. شاهدوا الأكواخ: آه، يا رقيق، انظر. كانت عالية، متماسكة ومع ذلك تكاد الغابة تكون قد التهمتها. أحد الأكواخ فقد سقفه، وكان في الواجهة تقب مثل قرحة دائرية. ومن الكوخ الآخر تخرج شجرة كانت تطلق أذرعها المشعرة باندفاع من النوافذ، وكانت جدران كلا الكوخين تختفي تحت قشور اللباب. في المحيط كله كان هناك أعشاب عالية، وكانت الأدرج مخرية وأميرة نباتات متسلقة، وكانت تغيد مركزاً لأسواق وجذور، كانت تلمح في الدرجات والأجران أعشاش، وقرى نمل منتفخة. كان الرقيبان يطوفان حول الأكواخ، ويمطآن عنقيهما ليريا الداخل.

- لم يذهبوا ليلة البارحة وإنما منذ زمن . قال الرقيب ديلغادو. فالجبل يكاد يكون قد ابتلعها¹²⁵.

- ليست أكواخ هوامبيسين وإنما مسيحين . قال الرقيب . فالوثيون لا يصنعونها بهذه الضخامة، ثم إنهم يحملون معهم بيوتهم حين يرحلون.

- كانت توجد هنا منطقة مكشوفة . قال الرقيب ديلغادو. الأشجار غضة. أناس كثيرون كانوا يعيشون هنا.

- سوف تثور نائرة الملازم . قال الرقيب . كان متأكداً أنه سيقبض على عدد منهم.

- هيا نناديه . قال الرقيب ديلغادو، سدّد بالبندقية على أحد الأكواخ، أطلق النار مرتين، فرّد الصدى الطلقات في البعيد . سيعتقدون أن اللصوص يطبخوننا.

¹²⁵ بمعنى أن الغابة قد زحفت عليها وابتلعها

- من الأفضل ألا نجد أحداً . قال الرقيب . سوف أتزوج ، لا أريد أن يقطعوا رأسي وأنا في هذا العمر .

- هيا نفش قبل أن يصل الآخرون . قال الرقيب ديلغادو . ربما بقي شيء له قيمة .
لم يجدوا إلا بقايا أشياء صدئة ، تحوّلت إلى حجرات للحكبيوت ، والأخشاب التي أكلها العثّ وطحنها النمل الأبيض ، كانت تنقّوض تحت أقدامهما وتغور هشة . خرجا من الأكواخ ، طافا في الجزيرة ، وكانا ينحنيان هنا وهناك على الحطب المتعمّم والعلب الصدئة وشظايا ننان فخارية . وفي منحدر كانت هناك حفرة من الماء الأسن تحوم بين روائحها النتنة أسراب البعوض . كان يحيط بها صفان من الأوتاد على شكل شبكة حادة ، ماذا تراه كان؟ الرقيب روبرتو ديلغادو لم ير هذا من قبل . ترى ما هذا؟ إنه عمل تشونتشويين ، لكن كان من الأفضل أن يذهب من هنا ، فقد كانت تفوح منها رائحة كريهة وتوجد دبابير كثيرة . عادا إلى الأكواخ ، وكان الملازم والحراس والجنود يتحركون كأنهم عالقون في المنطقة المكشوفة ، يصوّيون إلى الأشجار ، قلقين محتارين .

- عشرة أيام سفراً . صاح الملازم . كل هذا العناء من أجل هذا متى تقدرون أنهم ذهبوا؟

- بالنسبة لي منذ شهر ، يا سيدي الملازم . قال الرقيب . وربما منذ أكثر من عام .
- لم يكونا اثنين ، بل ثلاثة ، يا سيدي الملازم . قال «الأسود» . فهنا كان يوجد كوخ آخر ، اقتلعت عاصفته . هنا تظهر الدعامات ، انظر .

- أعتقد أنهم رحلوا منذ سنوات ، يا سيدي الملازم . قال الرقيب ديلغادو . هذه الشجرة التي نمت هناك في الداخل تدلّ على ذلك .

ماذا تهّم التقديرات ، ابتمس الملازم نون رغبة ، شهر أو عشر سنوات ، إنه متعب : هم أيضاً أصيبوا بالشيء نفسه . والرقيب ديلغادو ، لئر ، يا ايخونوسا ، تقنّيش دقيق ، وليحزموا كل ما يؤكل ويشرب ويلبس ، وتبعثر الجنود في الفسحة وضاعوا بين الأشجار ، وليعدّ «الأشقر» القهوة ليزيل طعم الفم الكريه . جلس الملازم القرفصاء وراح ينكش الأرض بعود صغير . أشعل الرقيبان سيجاريتين ، كانت

أسراب طنّانة تمر فوق رأسيهما وهما يتحدّثان. قطع الدليل بينتادو أغصاناً جافة، حضّر صلاء، وأثناء ذلك كان جنديان يقذفان قناني وأباريق فخارية وبطانيات مهترئة من الكوخين، سخن «الأشقر» إبيرقاً، صبّ القهوة التي كان يتصاعد منها البخار في بعض كؤوس الصفيح، وكان الملازم والرفيقيان ينتهون من الشرب حين سمعوا صيحات، ماذا؟ وظهر جنديان بركضان، عنصر؟ وكان الملازم قد جاء واقفاً بقفزة واحدة، والجندي ايخونوسا: ميت، يا سيدي الملازم، وجدوه على شاطئ هناك في الأمفل. هوامبيسي؟ مسيحي؟ كان الملازم قد راح يركض يتبعه جنود وحراس، وخلال دقائق لم تسمع إلا طقطقة الأوراق الموطوءة وحفيف الأعشاب التي اقتحمتها الأجساد. طافوا حول الأوتاد وانطلقوا في المنحدر، اجتازوا حفرة مرشوشة بالحجارة وحين وصلوا إلى الشاطئ الصغير، توقّفوا فجأة حول الميت الممدد. كان ملقى على ظهره، وينظونه الممزق لا يكاد يخفي أعضائه المتسخة والهزيلة وجلده القاتم. كان إبطاه أكمّتين ضاربتين للسواد ومتيبستين، وكانت أطراف يديه وقدميه طويلة جداً. قشور وفرحات كانت ترعى بدنه، ككتفيه، قطعة من لسان مبيض تتدلى من بين شفّتيه المتشققتين. فحصه الجنود والحراس، وفجأة ابتسم الرقيب روبرتو ديلغادو، وانحنى وتنفّس وأنفه بملاصقة فم الممدد. أطلق وقتها ضحكة، نهض ورفس الرجل على خاصرته: اسمع، يا خصية، لا ترفس الميت بهذا الشكل، والرقيب روبرتو ديلغادو، وقد رفسه مرّة أخرى أي ميت وأي هراء؟ ألم تشم يا سيدي الملازم؟ انحنى الجميع، شموا الجسم المتيبس وغير المبالي. لا شيء فيه من الموت، يا سيدي، صديقنا كان يحلم. وبما يشبه الفيضان ناوله رفسات أخرى، فانكمش الممدد، وأقلت من فمه شيء أجش وعميق: كان حقيقة. أمسك الملازم الرجل من شعره وهزّه، ومن جديد أقلت ذلك الشخير الداخلي الواهن. الوغد كان يحلم، والرقيب بلى، انظروا، كان مغليّه هناك. إلى جانب الرماد الفضوي وقطع حطب الصلاء، كان يوجد قدر فخاري، شاطئ وملء بالأعشاب،

عشرات الكوروينسات¹²⁶ ذات المقصات الطويلة والبطنون الشديدة السواد كانت تتسلق القدر بينما أخرى متشكلة دائرياً تحمي عملية السطو. لو كان ميتاً لكانت أكلته الحشرات، سيدي الملازم، ولما كان تبقى منه سوى العظام، و«الأشقر» لكنها بدأت برجليه. كانت بعض الكوروينسات قد تسلفت أخمص قدميه المدبوغين وأخرى تستطلع عينيه وأصابعه وكعبيه، تتحسس جلده بمجساتها الدقيقة، مخلقة وراءها جداول ذات رؤوس بنفسجية. رفسها الرقيب روبريتو ديلغانو في المكان نفسه. برزت انتفاخة في خاصرة الممدد، ورم مستطيل رأسه قائم. بقي بلا حراك، لكنه كان يصدر بين الفينة والأخرى شخيراً أجوف ويتشنج لسانه، ويلق بصعوبة شفتيه. كان اللعين في الجنة، لم يكن يشعر بشيء، والملازم ماء بسرعة، ولينظفوا قدميه، اللعنة، النمل كان يأكله. سحق «الصغير» و«الأشقر» سحقاً الكوروينسات، وأحضر جنديان الماء بقبعتيهما من البحيرة ورشاً به وجه الرجل، الذي حاول الآن أن يحرك أطرافه. قلص التشنج وجهه وكان رأسه يسقط نحو اليمين ونحو اليسار. نجشاً فجأة وانطوى نراعه ببطء وتعثر، فريئت يده على جسده، تلمس الانتفاخ، داعبه. صار الآن يتنفس بلهفة، نما صدره وضمير بطنه، وتمطى لسانه الأبيض الذي تخنر عليه لعاب أخضر. بقيت عيناه مطبقتين، والملازم للجنود: ماء أكثر. كان يريد ولا يريد، أيها الفتيان يجب إيقاظه. جنود وحراس كانوا يذهبون إلى البحيرة، يعودون ويسكبون نقات الماء على الرجل الذي كان يفتح فمه ليتلقاه، وكان لسانه يشرق القطرات بتلف وجلبة. كان أنينه قد أصبح أكثر طبيعية واستمرراً، وكذلك تقلصات جسده بدت متحررة من قيود غير مرئية.

- أعطوه قليلاً من القهوة، أنعشوه بأي شكل. قال الملازم. تابعوا رشه بالماء.

- لا أعتقد أنه سيصل معنا وهو بهذه الحال إلى سانتا ماريا ده نيبيا،

سيدي الملازم. قال الرقيب. سوف يموت معنا في الطريق.

- سأحمله معي إلى بورخا فهي أقرب. قال الملازم. عد الآن مع الشباب

إلى نيبيا وقل لدون فابيو إننا أمسكنا واحداً. وسيسقط الآخرون. أنا سأذهب

¹²⁶ الكوروينست: حشرة لمريكة لهل كلابان.

مع الجنود إلى التكنة، وسأعرضه هناك على الطبيب. فهذا لن يموت معي بأي شكل من الأشكال.

كان الملازم والرقيب يخبئان متحبيين عن المجموعة. كان هناك حراس وجنود يتحركون حول الممدد، يبللونه، يهزّونه، وكان يبدو أنه يحرك لسانه، بلا ثقة وكذلك صوته ويجرب بعناد أصواتاً وحركات جديدة.

- وماذا لو لم يكن من العصابة، سيدي الملازم؟ قال الرقيب.

- لذلك سأحمله إلى بورخا. قال الملازم. فهناك يوجد أغارونيون من قرى نهبها

الصوص، وسنرى ما إذا كانوا يعرفونه. قل لدون فابيو أن يعمل على إخبار رثاتيغي.

- بدأ الرجل يتكلم، سيدي الملازم. صرخ «الصغير». تعال لتسمعه.

- هل فهمت ما قاله؟ سأل الملازم.

- تكلم عن نهر يسمى، عن مسيحي مات. قال «الأسود». أشياء من هذا

القبيل، سيدي الملازم.

- لا ينقصنا إلا أن يكون مجنوناً، لسوء حظي الملعون. قال الملازم.

- دائماً يهنون عندما يحطمون. قال الرقيب روبيرتو ديلغانو. ثم يزول

عنه، سيدي الملازم.

كان الليل يخيم وفوشيا ودون أكليينو يأكلان إبرة آدم مطهية ويشريان أغارديينته¹²⁷ من قم القنينة، وفوشيا، بدأت الظلمة تدب، يا لاليتا، أشعلي القنديل، وهي تتحنى وآخ آخ آخ، إنه الطلق، لم تكن تستطيع أن تنتصب، سقطت على الأرض باكية، رفعها، وأصعدها إلى السرير المعلق، أشعل فوشيا القنديل،

¹²⁷ أغارديينته: مشروب روحي شبيه بالعرق، ومغناه الماء الحار.

وهي أعتقد أنه جاعني، إنني خائفة. وفوشيا لم أر قط امرأة تموت وهي تلد، وأكيلينو ولا أنا، لا تخافي، يا لاليتا، فقد كنت أفضل مُولَد في الغابة، هل أستطيع أن ألمسها، يا فوشيا؟ ألم تكن تغار؟ أنت عجوز كي أغار منك، هيا، المسها. كان دون أكيلينو قد رفع تنورتها، وجلس على ركبتيه كي يرى ويدخل بانئاتشا راكضاً، يا معلم، إنهم يتعاركون، وفوشيا من؟ وبانئاتشا الهوامبيسيون مع الأغواروني الذي جاء به دون أكيلينو، ودون أكيلينو مع خوم؟ كان بانئاتشا يفتح عينيه كثيراً وفوشيا ضربه على وجهه، كلب، تنتظر إلى زوجة غيرك. كان هو يحك أنفه، عفواً، يا معلم، جئت لأخبرك، ليس أكثر. يريد الهوامبيسيون من خوم أن يذهب، أنت تعرف أنهم يكرهون الأغارونيين، كانوا قد غضبوا ولم يستطع ومعه نيبيا إيقافهم، هل المعلمة كانت مريضة؟ ودون أكيلينو يُفضل أن تذهب وترى، يا فوشيا، كي لا يقتلوه، بعد التعب الذي عانيته في إقناعه بالمجيء إلى الجزيرة وفوشيا، اللعنة، علينا أن نسقيهم الماساتر، ليسكروا معاً، فإما أن يقتلوا بعضهم بعضاً أو يصبحوا أصدقاء. خرجا واقترب دون أكيلينو من لاليتا، فرك ساقيها، لكي ترتخي عضلاتك، ويطنك ويخرج المولود بنعومة، سوف نرين، وهي ضاحكة باكية، كانت ستحكي لفوشيا أنه يستغل الموقف كي يلمسها وهو كان يضحك، ومرة أخرى على عظام ظهرها، أي أي أي، تكاد تنكسر، ودون أكيلينو خذي جرعة كي ترتاحي، وهي شريش، ثقبات ولطخت دون أكيلينو، الذي كان يهز السرير المعلق، نامي، نامي لاليتا، يا فتاتي الجميلة، والألم كان يزول تدريجياً. كانت بعض الأضواء الملونة تتراقص حول القنديل، انظري، يا لاليتا، إنها الكوكبوات والأيانياهويات¹²⁸ يموت المرء فتتحول روحه إلى فراشة ليلية صغيرة، هل كنت تعرفين هذا؟ وتمضي فتضيء ليالي الغابة والأنهار والبحيرات، وعندما يموت هو يا لاليتا، ستجدين دائماً إلى جانبك أيانياهوياً يضيء لك. وهي إنني خائفة، يا دون أكيلينو، لا تتحدث عن الموت، وهو لا تخافي، كان يهز السرير،

¹²⁸ الأيانياهويات: كلمة ذات معنى تخصصي: عيون الموتى.

كان ذلك لتسليتك، وكان يربط جبينها بخرقه مبللة، لن يحدث لك شيء، وسيولد قبل الفجر، عندما لمستك عرفت أنه ذكر. كان الكوخ قد تشبّع برائحة الفانيليا، وكانت الريح الرطبة تحمل أيضاً حفيف غابة وضوضاء جادج، نباحات، وأصوات مشاجرة حامية. وهي إنْ لك يدين ناعمتين، يا دون أكيلينو، وهذا يريحني قليلاً، ما أجمل هذه الرائحة، لكن ألا تسمع الهوامبيسين؟ اذهب وانظر، يا دون أكيلينو، فماذا لو قتلوا فوشياً؟ وهو هذا هو الشيء الوحيد الذي لم يكن من الممكن أن يحدث، ألا تعرفين إنه مثل إبليس، يا لاليتا؟ ولاليتا منذ متى تعرفان بعضكما بعضاً، يا دون أكيلينو، وهو عشر سنوات تقريباً، لم يخرج خاسراً قط، رغم أنه كان يدخل في أسوأ المشاكل، يا لاليتا، أشياء بشعة جداً، ينسل من بين أعدائه مثل حية النهر، وهي هل صرتما صديقين في مويوامبا؟ ودون أكيلينو، كنت أعمل سقاءً، فزجني في التجارة، وهي سقاء؟ ودون أكيلينو من بيت إلى بيت بالحمار والجرار، مويوامبا فقيرة، والقليل الذي كنت أريحه كنت أصرفه على شراء الميتيلين لتحسين الماء وإلا فغرامة، وذات صباح وصل فوشياً وذهب ليعيش في كوخ صغير بجوار كوخي، وهكذا أصبحنا صديقين، وهي وكيف كان في ذلك الوقت، يا دون أكيلينو؟ وهو، كانوا يسألونه من أين أنت قادم وهو سرّ خالص وكذب، لم يكن يكاد يتكلم المسيحية، يا لاليتا، كان يخلطها مع البرازيلية. وفوشياً، تشجع، يا رجل، إنك تعيش مثل كلب، ألمت تضيق ذرعاً؟ تعال نتفرغ للتجارة، وهو صحيح مثل كلب. ولاليتا، وماذا فعلتما، يا دون أكيلينو؟ وهو أمناً رمزاً كبيراً وكان فوشياً يشتري أكياساً من الأرز والنسيج القطني الخشن والرقيق والأحذية، وكان الرمث يغوص متقللاً بحمله الكبير، وماذا لو سرقونا، يا فوشياً؟ وفوشياً اسكت، يا تافه، فقد اشتريت مسدساً أيضاً، ولاليتا أهكذا بدأتما، يا دون أكيلينو؟ وهو كنا نذهب إلى المعسكرات وكان رجال المطاط والأعشاب والباحثون عن الذهب يقولون لنا أحضروا لنا في الرحلة القادمة هذا وذلك، وكانا يحضرانه لهم، ثم عملا مع القبائل. تجارة جيدة، الأفضل، تبغ، بكرات مطاط، مرايا صغيرة وسكاكين بجلود وهكذا تعرفا على هؤلاء، يا لاليتا، وأصبحوا أصدقاء لفوشياً، لقد رأيت كيف

يساعدونه، إنه إله بالنسبة للهوامبيسيين. ولاليتا كانت أموركما تسير جيداً إذأ؟ وهو ما كانت لتسير بشكل أفضل لو لم يكن فوشيا إبليسا، كان يسرق الجميع وأخيراً طردهما من المعسكرات وراحت الشرطة تبحث عنهما، اضطررا لأن ينفصلا فجأة هو إلى حيث الهوامبيسيين لوقت محدد ثم ذهب إلى إيكيتوس وهناك بدأ يعمل مع رثاتيغي، وهو كان تعرفك عليه هناك، يا لاليتا؟ وهي وأنت ماذا فعلت، يا دون أكيلينو؟ بالنسبة له الحياة الحرة كانت قد دخلت في دمه، يا لاليتا، يتنقل وبيته على كتفه مثل تشارابي دون أن يكون له مكان محدد، وتابع العمل بالتجارة وحيداً، لكن بطريقة نزيهة. ولاليتا كنت في كل الأماكن يا دون أكيلينو، أليس كذلك؟ وهو في أوكايالي، في المارانبيون وفي الهولياغا، في البداية لم يكن يذهب إلى منطقة الأمازون لسوء السمعة التي خلفها وراءه فوشيا، لكنه عاد إليها بعد أشهر وذات يوم في معسكر إيتايا، ولم يكن يصدق رغم أنه كان يرى، التقيت بفوشيا، يا لاليتا، وقد تحوّل إلى تاجر ومعه شركاء وهناك روى لي تجارته مع رثاتيغي. ولاليتا كم كنتما سعيدين حين رأيتما بعضكما بعضاً من جديد، يا دون أكيلينو، وهو بكينا، سكرنا على ذكرياتنا، يا فوشيا، الحظ يضحك لك، كن رأساً، ونظيفاً، لا تدخل في مشاكل أخرى جديدة، وفوشيا ستبقى معي، يا أكيلينو، إنه مثل اليانصيب، حيناً لو تدم الحرب، وهو إذأ هو مطاط للتهريب؟ وفوشيا بالجملة، يا رجل، يأتون في طلبه إلى إيكيتوس، يحملونه مخبأ في صناديق يقولون إنها صناديق تبغ، سيصبح رثاتيغي مليونيراً، وكذلك أنا، لن أتركك تذهب، يا أكيلينو، اتعاقد معك، وهي ولماذا لم تبق معه؟ وهو ها أنا أشيخ، يا فوشيا، لم أكن أريد مخاوف ولا أن أذهب إلى السجن، وأي أي، أي، أنني أموت، أي ظهري، الآن إنه قادم فعلاً، لا تخافي، كان عندها سكين، وكان يحتمها على القنديل عندما دخل فوشيا. ودون أكيلينو هل فعلوا لخم شيئاً؟، وفوشيا، إنهم الآن بشريون سوية، وبانتانتشا ونبييس أيضاً. لن أسمح بأن يقتلوه، كنت بحاجة إليه، عامل اتصال جيد مع الأغوارونيين، لكن آه كيف تركوه؟ من الذي أحرق له إبطيه؟ كانا يتقطران قيحاً، تم هناك فرحات الظهر، سيكون من المؤسف أن تلتهب فيموت بالكرزاز، ودون أكيلينو في سانتا

مارياً ده نبييا، الجنود وأرباب العمل من هناك، والذي شقّ له جبينه هو صديقه
 رثائيفي، هل كنت تعرف أنه ذهب أخيراً إلى إيكيتوس؟ وفوشيا أيضاً حلقوا له
 رأسه وصار أكثر قبحاً من ضفدع «رناكو»، وأي أي أي، عظامي، كثيراً كثيراً،
 ودون أكيلينو، تبجّج وقال للمعلم الذي كان يشتري منه المطاط لا، سذهب بأنفسنا
 لنبيعه في إيكيتوس، شخص يدعى اسكاينو على ما يبدو، ولكي يزيدوا الطين بلة
 فقد صفعوا له عريفاً وصل إلى أوراكوسا وقتلوا دليله، وفوشيا، تقاهات، إنه حي
 ويحرك ذنبه، إنه أديان نبييس، الذي التقطته في الشهر الماضي، ودون أكيلينو،
 أعرف، لكن هذا ما يقولونه، وهي كانت تتشطر شطرين، أعطني شيئاً، يا فوشيا،
 بحق أحب الأشياء إليك. وفوشيا هل يكره المسيحيين؟ أفضل وأفضل، ليقنع
 الأغوارونيين بأن يعطوني المطاط، مشاريع كبيرة، أيها العجوز، وقبل عامين أعود
 إلى إيكيتوس، ثرياً، سوف ترى كيف يستقبلني الذين أداروا لي ظهورهم، ودون
 أكيلينو اغل ماء، يا فوشيا، مساعد، لا يبدو أنك الأب. ملأ فوشيا الدن، أضرم
 النار، وهي الطلق في كل مرة أقوى، ومتتابع. كانت تتنفس مختنفة، كان وجهها
 منتفخاً وعيناها كعيني سمكة ميتة. جلس دون أكيلينو على ركبتيه، دلکها، كان
 يفتح قليلاً، يا لاليتا، إنه قادم، لا تتنمري. وفوشيا تعلمي من الهوامبيسيات اللواتي
 يذهبن وحيدات إلى الجبل ويعذّن بعد أن يلذّن. كان دون أكيلينو يحمي السكين
 وكانت الأصوات الخارجية تضيق بين الطفظة والصفير، فوشيا ألا ترون؟ ما
 عادوا يتشاجرون، صاروا أصدقاء، والعجوز سيكون نكراً، يا لاليتا، ماذا قلت لك؟
 لتسمعي، فالكايبورونات تصدح، لم يكن يخطئ أبداً. وفوشيا صموت بعض الشيء،
 ودون أكيلينو لكنه مهذب، فقد بقي بمساعدة طوال الرحلة، كان يقول إن مسيحيين
 اثنين نكبا أوراكوسا بخداعاتهما وفوشيا أيها العجوز في رحلتك المقبلة سوف تريح
 كثيراً جداً دون أكيلينو ومتى لن تكون حالماً، وهو ألم تحقق تقدماً عن المرة
 الأولى؟ وأكيلينو ما كنت عدت إلى الجزيرة لولاك، يا لاليتا، لقد وقعت موقعاً حسناً
 في نفسه، وهي عندما وصلت كنا نموت جوعاً، يا دون أكيلينو، هل تذكر كيف
 بكيت عندما رأيت المعلبات والمعكرونة؟ وفوشيا يا لها من وليمة، أيها العجوز، لقد

مرضوا لعدم اعتيادهم، وكيف اضطرت لأن أتومل إليك، ولماذا لم تكن تريد مساعدته؟ إذا كنت ستربح المزيد من المال. والعجوز لكنها مسروقة، يا فوشيا، سيسجنوني، عليّ ألا أبيعك هذا المطاط ولا هذه الجلود، وفوشيا كل العالم يعرف أنك نزيه، ألا يدفع لك أصحاب المطاط والمتمّة والتشونتشويون مقايضة بالجلود والمطاط وحبّات الذهب؟ إذا سألوه يقول إنها أرباحه، والعجوز لم تحصل قط على مثل هذه الكميات، وفوشيا لن تحملها كلها في سفرة واحدة، وإنما قليلاً قليلاً وأي أي أي، من جديد، يا دون أكيلينو، ساقاي، ظهري، فوشيا أي أي أي. ودون أكيلينو لا أريد، فالتشونتشويون سينتمرون عاجلاً أم آجلاً، وستأتي الشرطة وأرباب العمل لن يلعبوا بخصياتهم بينما يبكر هو ويسبقهم في تجارتهم، وفوشيا الشابريون، الأغارونيون والهوامبيسيون يقتل بعضهم بعضاً، ألم يكونوا يكرهون بعضهم بعضاً؟ لن يخطر لأحد أن للمسيحيين دوراً في ذلك، والعجوز، لا، ولا بأي شكل من الأشكال، وفوشيا تحمل البضاعة بعيداً، مخبأة جيداً، يا أكيلينو، ستبيعها لجامعي المطاط أنفسهم بسعر أرخص، وسيكونون سعداء. أخيراً قبل العجوز، وفوشيا لأول مرة يحدث له هذا، يا لاليتا، يصبح تابعاً لنزاهة المسيحي، فلو أراد العجوز لطعنني وباع كل شيء ووضع النقود في جيبه، فهو يعرف أنني سجين هنا بل ويستطيع أن يتّوجها بأن يقول للشرطة إن هذا الذي تبحثون عنه موجود في جزيرة صغيرة، في نهر سانتيباغو الأعلى. تأخر ما يقارب الشهرين وفوشيا يرسل مجنّفين إلى نهر الماراننيون والهوامبيسيون كانوا يعذبون، لا يوجد أحد، غير موجود، لا يأتي، يا له من كلب، وذات مساء ظهر تحت وابل من المطر في قم الزاقد وكان يجلب معه ألبسة، طعاماً، سكاكين وخمسمئة سول. ولايتا هل تستطيع أن تعانقه، أن تعانقه كأب؟ وفوشيا لم أر قط، أيها العجوز، بمثل نزاهتك، لن أنسى، يا أكيلينو، كيف تتعامل معي، وهو لو كان مكانه لهرب بالنقود، والعجوز أنت لا شفقة عندك، بالنسبة له كانت قيمة الصداقة أكبر من التجارة، الاعتراف بالجميل، يا فوشيا، لأجلك تخليت عن كوني كلب مويوبامبا، القلب لم يكن ينسى، أي، أي، أي، أي، أي، ودون أكيلينو لقد بدأ فعلاً، يا لاليتا، ادفعي كي

لا يموت عند خروجه، انفعي بكل قواك، اصرخي. كانت السكين في يده، وهي صل، يا فوشيا، أي أي أي، ودون أكيلينو كان سيدلّكها لكن انفعي، انفعي، وقرب فوشيا القنديل وراح ينظر، والمعجوز رُوخ عنها قليلاً، أمسك يدها، يا رجل، وهي ليعطها ماء، إنها تتمرّق، لتكن العذراء معها ومسيح باغاثان أيضاً، يا قديس، يا قديس، كانت تعدّه وفوشيا ينظر إلى الحصير، ودون أكيلينو إنني أجفف ساقيك، يا لاليتا، كل شيء انقضى، أرايت كم كان سريعاً؟ وفوشيا بلى أيها المعجوز لكن هل هو حي؟ إنه لا يتحرك ولا يتنفس. انحنى دون أكيلينو ورفعته عن الحصير، كان داكناً، دهنياً، مثل فرد صغير وهزه فزعق، انظري، يا لاليتا، كم من الخوف بلا مبرر، ولتنامي الآن، وهي لولاك لمت. كانت تريد أن يُسمى ابنها أكيلينو وفوشيا ليكون ذلك من أجل الصداقة، لكن ما أبشعه من اسم، ودون أكيلينو وفوشيا؟ وهو ما أغرب أن أكون أباً، أيها المعجوز، لا بدّ أن نحتفل به قليلاً، ودون أكيلينو ارتاحي يا بنية، هل تريدان أن تأخذه؟ خذيه، إنه متمسخ، نظفيه قليلاً. جلس دون أكيلينو وفوشيا على الأرض، كانا يتناولان أغواردينته من قم القنينة وفي الخارج كانت الأصوات مستمرة، فلا بد أن الهوامببسيين والأغواروني وبانانتاشا والدليل نيبس يتقيّون الآن والغرفة كانت تلتهب بالفراشات وكانت الكوكبوات ترتطم بالجدران، من كان يتوقّع أنه سيولد على هذا البعد من إيكيّتوس، في الجبل مثل التسونتشوبين.

ولدت الفرقة الموسيقية في كوخ باتروثينيو نايا. كان الشاب أليخاندر وسانق الشاحنة بولاس يذهبان لتناول طعام الغداء هناك ويلتقيان بدون أنسيلمو الذي كان قد استيقظ لتوّه، وفي الوقت الذي كان يطهو باتروثينيو فيه كان الثلاثة يتحدثون. يقولون إن الشاب كان أول من نال صداقته وهو الذي كان انعزالياً مثل دون أنسيلمو. وكان

أيضاً موسيقياً حزيناً، كان يرى في العجوز شقيقاً لروحه. يحكي له حياته وأحزانه، وبعد الطعام كان دون أنسيلمو يتناول قيثارة والشاب قيثارة ويعزفان بينما بولاس وياتروثينيو يصغيان، ينفعلان ويصفقان. كان سائق الشاحنة يرافقهما أحياناً بالضرب على الدف. أتقن المعظم أغاني الشاب وبدأ يقول: «إنه فنان، أفضل ملحن مانغاتشي»، وأليخاندرو: «لا يوجد عازف قيثارة مثل العجوز، لا يفوقه أحد»، وكان يدعوه بالمايسترو. صار الثلاثة لا يفصل بعضهم عن بعض. وبسرعة دب الصوت في لامانغاتشيريًا وراح يتكلم عن فرقة موسيقية جديدة، وظهرت كانت القتيات يأتين ليتزهن جماعات أمام كوخ باتروثينيو نايا ليستمعن إلى الموسيقى، جميعهن كن ينظرن إلى الشاب بعيون ناعسة. وذات يوم سعيد عرف أن بولاس قد ترك «مؤسسة فيخرو» حيث عمل، عشر سنوات، سائقاً ليصبح فناناً مثل رفيقه.

في ذلك الوقت كان أليخاندرو شاباً فعلاً. كان شعره كستنائياً قاتماً، طويلاً وأجعد وبشرته شاحبة. وكانت عيناه غائرتين وحزبتين. كان نحيلاً مثل قصبه. يقول المانغاتشيون عنه: «لا تتعثروا به فيموت من أول صدمة». كما كان قليل الكلام ويتكلم بهدوء، لم يكن مانغاتشياً بالولادة، وإنما بالاختيار، مثله مثل دون أنسيلمو وبولاس وكثيرين غيره. كان يتحدر من عائلة وجهاء، فقد ولد في المالكون وتربى في الساليسيانو وكان على وشك السفر إلى ليما للدخول في الجامعة عندما هربت فتاة من عائلة كريمة مع أحد الغرياء ومرّت في بيورا. فقطع الشاب أوردته ومكث في المستشفى أياماً طويلة بين الموت والحياة. وخرج من هناك يائساً من العالم، بوهيمياً. كان يقضي الليل ساهراً، يشرب ويلعب الورق مع أسوأ الناس، إلى أن تعبت أسرته منه وطردته، ومثل كثير من اليانسين، غرق في لامانغاتشيريًا وبقي هنا. بدأ يكسب رزقه من قيثارته في مشرب تشينثما أنخليكا ميرثيس، قريبة بولاس وهكذا تعرّف على سائق الشاحنة، وهكذا أصبحنا أخوين. كان الشاب أليخاندرو يشرب بكثرة دون أن يدفعه الكحول إلى أن يتشاجر أو يعشق، وإنما إلى تأليف الأغاني والأشعار التي تحكي عن القنوط وتتأشد نساء جاحدات، وخائنات، ومنافقات، وجشعات ومعدّبات.

بدل عازف القيثارة عادته منذ أن أصبح صديقاً لبولاس وللشاب أليخاندر. صار رجلاً عنياً ويدا أن حياته تنتظم. لم يعد يهيم مثل روح معنبة. كان يذهب كل ليلة إلى حيث أنخليكا ميرثيس فيلزمه الشاب بالعزف ويشكلان ثنائياً. كان بولاس يسلي الزبائن بنكات عن أسفاره، ويجتمع العجوز وعازف القيثارة بين المقطوعة والأخرى ببولاس على طاولة، يشربون جرعة، يتحدثون. وحين كان السكر يأخذ بولاس وتمتلىء عيناه بالنجوم، يجلس أمام صندوق ويأخذ لوحاً ويرلفهما بالإيقاع، بل وكان يغني أيضاً بصوته، الذي رغم البحة التي فيه، لم يكن سيئاً. كان بولاس رجلاً ضخماً: له منكباً ملاكم ويدان هائلتان، جبين ضيق وفم مثل قمع. نزيه دون أنسيلمو وعازف القيثارة على العزف في كوخ باتروثينيو نايا، أرهفا سمعه ويديه. وكان المانغاشيون يتجسسون عليهم من بين القصب، يرون كيف كان عازف القيثارة يثر عندما كان بولاس يضيغ الإيقاع، ينسى الكلمات أو يطلق صوتاً نشازاً ويصفون إلى الشاب أليخاندر يدرّب برتابة سائق الشاحنة على جمل أغانيه الغامضة: عيون الشفق، سحبات الفجر القرحية. السم الذي تجرّعت ذات يوم، قلبي موجوع، بحبك، يا امرأة ملعونة.

بدا أن قرب الشابين من دون أنسيلمو قد أعاد له حب الحياة. لم يعد أحد يلقاه نائماً على الرمل ممدداً، كما لم يعد يسير كالشحاذين وخفت كراهيته للغالبيناثوات. كان الثلاثة يذهبون معاً، العجوز بين الشاب وبولاس، متشابكي الأذرع مثل الصبية. وصار دون أنسيلمو يبدو أقل قذارة وأقل أسماًلاً. رآه المانغاشيون ذات يوم يرتدي بنطلوناً أبيض فظنوا أنه هدية من خوانا بارورا أو أحد أولئك الوجهاء الشيوخ الذين كانوا، عندما يلتقون به في مشارب التشتيشا، يعانقونه ويدعونه لتناول جرعة، لكنه كان هدية من بولاس والشاب بمناسبة عيد الميلاد.

في تلك الفترة بالذات تعاقبت أنخليكا ميرثيس مع الفرقة بشكل رسمي. كان بولاس قد حصل على طبل وصنجات، وصار يستخدمها بمهارة ولا يتعب. عندما كان الشاب وعازف القيثارة يغادران الزاوية ليبللا شفثيها ويحركا جسميها كان بولاس يستمر، وينفذ عزفاً منفرداً. ربما كان الأقل موهبة، لكنه الأكثر فرحاً، والوحيد الذي كان يسمح لنفسه بأغنية مرحة.

كانوا يعزفون ليلاً عند أنخليكا ميرثيدس، وينامون صباحاً، يتناولون طعام الغداء سوية في بيت باتروثينيوا نايا، ويكربون مساءً. وكانوا في مساعات الصيف الحارة يصعدون النهر إلى تشيبي ويستحمنون ويناقشون مؤلفات الشاب الجديدة. كسبوا قلوب الجميع. وكان المانغاشيون يخاطبونهم بلا كلفة، وهم أيضاً كانوا يخاطبون الكبار والصغار بالطريقة نفسها. وعندما تزوجت لاسانتوس، القابلة والمجھضة، من موظف بلدية، جاءت الفرقة إلى الحفلة وعزفت مجاناً. ودشن الشاب أليخاندرو فالساً متشائماً عن الزواج، يشهر بالحب، ويعلن نهايته. ومنذ ذلك الوقت، وفي كل عملية عماد أو سر عماد، أو سهرة على ميت، أو خطوبة مانغاشية، صارت الفرقة تعزف بثقة ومجاناً. لكن المانغاشيين كانوا يريدون لهم الجميل بالهدايا والدعوات. وكانت بعض النساء يطلقن على أطفالهن اسم أنسيلمو وأليخاندرو بل وحتى بولاس. توطنت شهرة الفرقة ونشرها أولئك المعروفون بالمنيعين في المدينة. صار يأتي إلى بيت أنخليكا ميرثيدس الوجهاء والغرياء. وذات مساء جاء المنيعون إلى لامانغاشيريا برجل أبيض يرتدي لباس سعاة، وكان يريد أن يقوم بجولة موسيقية ليلية. جاء يبحث ليلاً عن الفرقة في شاحنة أثارت سحائب الغبار. لكن بعد نصف ساعة عاد المنيعون وحدهم: «غضب والد الفتاة فاستدعى الشرطة التي اقتادتهم إلى الفرع». أبقوهم في السجن ليلة، وفي الصباح عاد دون أنسيلمو والشاب وبولاس مسرورين. كانوا قد عزفوا للشرطة، الذين دعوهم للقهوة والسجائر. وبعد قليل سرق تلك الأبيض نفسه فتاة الجولة الليلية، وعندما عاد معها للزواج، تعاهد مع الفرقة لتعزف في عرسه. من الأكواخ كلها كان يأتي مانغاشيون إلى حيث باتروثينيوا نايا، كي يستطيعون أنسيلمو والشاب وبولاس الذهاب بلباس جيد. كان بعضهم يقدم الأحنية وآخرون القمصان وقدم المنيعون بذلات وربطات عنق. ومنذ ذلك الوقت صار البيض يتعاقبون مع الفرقة لاحتفالاتهم ومسهراتهم. كانت فرق مانغاشية كثيرة تتفكك وتعود فتشكل بأعضاء جيد، لكن هذه استمرت على حالها، لم تزد ولم تنقص. وكان شعر دون أنسيلمو أبيض وظهره مقوساً ويجرجر قدميه، ولم يعد الشاب شاباً، لكن صداقتهم وشركتهم حافظت على نفسها كما هي تماماً.

بعد سنوات ماتت دوميتيلا يارا، الناسكة التي كانت تعيش مقابل بار أنخليكا ميرثيدس. كانت دوميتيلا يارا الورعة التي ترتدي السواد دوماً، وتغطي وجهها وتلبس جوارب قاتمة، الناسكة الوحيدة التي ولدت في الحي. حين كانت تمر يركع المانغاتشيون ويطلبون منها البركة فتنتم ببعض الصلوات، وترسم الصليب على جباههم. كان معها صورة للعذراء بشرائط وردية، زرقاء وصفراء. وكانت مبطنة بورق السيلوفان وتتلى من الصورة أزهار ملكية وملتوية، وتحت القلب المحزون كلمات صلاة مكتوبة باليد، محصورة بإطار من الصفيح. كانت الصورة تنوس في طرف عصا مكنسة وكانت دوميتيلا يارا تحملها دائماً معها مرفوعة مثل راية. وكانت الناسكة تذهب بصورتها ودعاءاتها إلى أي مكان توجد فيه وفيات، مرض، كوارث وفواجع. من أصابعها الورقية كانت تتدلى سبحة بحبات كبيرة مثل الصراصير وتصل إلى الأرض. كانوا يقولون إن دوميتيلا يارا تجترح معجزات وتتكلم مع القديسين وإنما في الليل تسوط نفسها. كانت صديقة للأب غارثيا وكانا يتتزمان عادة معاً، بطيئين وجهمين، في ساحة ميرينو الصغيرة وجادة سانتشث نيزو. جاء الأب غارثيا إلى السهرة على جثمان الناسكة. لم يكن يستطيع الدخول وكان يبعد المانغاتشييين المتراحمين أمام الكوخ دفعاً بمرفقيه. وحين وصل إلى العتبة رفض الدخول، فقد رأى الفرقة تعزف لحناً حزيناً إلى جانب الميتة. جنّ جنونه فكسر طبل بولاس برفسة واحدة وأراد أن يكسر القيثارة وينتزع أوتار القيثارة، وهو يقول لدون أنسيلمو: «أنت وباء بيورا»، «أيها المذنب»، «اخرج من هنا». لكن، نحن يا أبانا، نعزف تكريماً لها والأب غارثيا: «أنتم تدنسون بيتاً طاهراً»، «اتركوا الميتة بسلام». نفذ صبر المانغاتشييين. لم يكن عدلاً، فقد كان يشتم دون سبب، وهم لا يسمحون بذلك. أخيراً دخل المنيعون ورفعوا الأب غارثيا عالياً، والنساء: هذا إثم، إثم، وستصيبون جميع المانغاتشييين بالعقاب. حملوه إلى الجادة وهو يتخبط في الهواء مثل رتيلاء، بينما الصبية يصرخون: حارق، حارق، حارق. ولم يطأ الأب غارثيا لمانغاتشيريا بعد ذلك ابداً، وصار يتحدث من على المنبر عن المانغاتشييين كنموذج للسوء.

تابعت الفرقة العمل عند أنخليكا ميرثيدس زمناً طويلاً. لم يصدق أحد أن الفرقة ستذهب يوماً ما لتعزف في المدينة. لكن هذا ما حدث. في البداية احتج المانغاشيون على هذا الهجران. ثم فهموا أن الحياة لم تكن كما في لامانغاشيريا، كانت تنبكل. منذ أن بدأت تُفتح بيوت تسلية صارت الاقتراحات تنهال على الفرقة. وكان هناك مغريات لا تُقاوم. ورغم أنهم ذهبوا للعزف في بيورا، فقد واصل دون أنسيلمو والشاب وبولاس إقامتهم في الحي والعزف مجاناً في جميع الحفلات المانغاشية.

ساعت الحالة فعلاً هذه المرّة. فقد توقّفت الفرقة عن العزف، وتخشّب المنيعون على الحلبة دون أن يفلتوا مرافقاتهم وهم ينظرون إلى سيميناريو، وقال الشاب أليخاندر:

-هناك بدأت المأساة فعلاً، إذ هناك ظهرت الشرطة تنبخر.

-سكّير. صاحت لاسيلباتيكا. طوال الوقت وأنت تستفزهم، حبذا لو تموت. بذيء!

- أقلت الرقيب لاساندر. تقدم خطوة، هل تعتقد أنك تكلم عبيدك، يا سيد؟ وسيميناريو مزنوقاً، إذن أنت وقح وتجيب، وتقدم خطوة أخرى، يا ابن الاء. آخر، كان طيفه الرهيب يتمارج فوق الألواح الطافية في النور الأزرق والأخضر والبنفسجي، وتوقّف فجأة بوجهه المفعم بالذهول. تحوّلت فهقهة لاساندر إلى زعيق.

- كان ليتوما يصوّب مسمسه إليه. قالت لاشونغا. أخرجه بسرعة حتى أن

أحداً لم ينتبه، مثل شاب صغير في أفلام رعاة البقر.

- كان محقاً. تأتأت لاسيلباتيكا. لم يكن يستطيع أن يتنازل أكثر.

منيعون وقاطنات ركضوا إلى النار، وكان الرقيب وسيميناريو يتفحصان بعضهما بعضاً. لم يكن ليتوما يحب المشاعبين، يا سيد، لم يكونوا يفعلون له شيئاً، وكان يعاملهم كما يعامل العبيد، كان يأسف، لكنه لم يكن يستطيع، يا سيد.

- لا تتفخ المخان في وجهي، يا بولاس . قالت لاثسونغا .
- وهل أخرج هو مسنسه؟ . قالت لاسيلباتيكا .
- مَرَّ يده على حزام الخرطوش فحسب . قال الشاب . كان يداعبه كما يداعب جرواً .
- كان خائفاً . صاحت لاسيلباتيكا . أنلّه ليتوما .
- لكم اعتقدت أنه لم يعد يوجد رجال في بلدي . قال سيميناريو . وأن جميع البيوريين صاروا نساء ولواطيين . لكن ما زال هناك هذا الخلاسي . والآن لا ينقصك إلا أن ترى من هو سيميناريو .
- لماذا يستمرّ شجارهم؟ لماذا لا يستطيعون أن يعيشوا بسلام ويتعموا سوية؟ . قال دون أنسيلمو . كم كانت ستصبح الحياة حلوة .
- من يدري، يا مايسترو . قال الشاب . فربما أصبحت مضجرة جداً وبائسة أكثر من الآن .
- لقد ذهبت بكل ما عنده من ظرافة، ودفعةً واحدةً، يا ابن العم . قال المونو . عافاك!
- لكن لا تأمن له، أيها الزميل . قال خوسيفينو . فإنه سيظهر مسنسه في اللحظة التي تسهو فيها عنه .
- أنت لا تعرف من أنا . ردد سيميناريو . لذلك تراك تعاند، أيها الخلاسي .
- أنت أيضاً لا تعرف من أنا . قال الرقيب . يا سيد سيميناريو .
- لولا أنك تحمل هذا المسدس ما كنت لتصبح بهذا العناد، أيها الخلاسي .
- المسألة أنني أحمله . قال الرقيب . أنا لا أحد يعاملني كما يعامل عبده، يا سيد سيميناريو .
- وعندئذ جاءت لاثسونغا راكضة ووقفت بينهما . أنت أكثر شجاعة! . قال بولاس .
- وأنتم لماذا لم تمنعوها؟ . قامت يد عازف القيثارة بمحاولة للمس لاثسونغا، لكنها انطوت في مقعدها ويده احتكت بها احتكاكاً . كنا مسلحين، يا تشونغيتا، وهذا خطر .

- وقتها لم يكونا مسلحين، لأنهما بدأا يتناقشان . قالت لاشونغا. يأتي المرء إلى هنا ليروح عن نفسه، لا ليسبب مشاجرات. تصالحا، تعالا إلى طاولة البار، تناولوا بييرة، البيت هو الذي يدعوكما.

أجبرت ليتوما على أن يخبيئ مسدسه، جعلتهما يتصافحان وحملتهما إلى البار وقد أمسك كلُّ بذراع الآخر، لا بدَّ أنهما استحيا، كانا يتصرفان مثل صبيين. هل تعرف ماذا كانا؟ كانا غبيين، لزر، ما إذا كانا سيشهران مسدسيهما ويقتلان وهما ضحكا، يا تشونغا تشونغيتا، يا أم، أيتها الملكة الصغيرة، كان المنيعون يغنون.

- جلسا يشريان معاً رغم الشتائم؟ . قالت لاسيلباتيكا، مذهولة.

- وهل تأسفين لأنهما لم يتعاركا مباشرة. قال بولاس . يا للنساء كم يحبين الدم!

- لكن لاشونغا هي التي دعتهما . قال عازف القيثارة. لم يكن باستطاعتها

أن يغضبها، يا فتاة.

كانا يشريان متكئين إلى طاولة البار بمرفقيهما، كصديقين حميمين. وكان سيميناريو يقرص وجنتي ليتوما، فقد كان آخر فحل في بلده، يا للخلاسي، أما البقية فجناء. بدأت الفرقة فالماً فانفرط العنقود البشري. غزا منيعون وقاطنات حلبة الرقص، وكان سيميناريو قد انتزع قبعة الرقيب وجربها، كيف تزينه يا تشونغا؟ لست مربعاً مثل هذا الخلاسي، بالتأكيد، لكن لا تغضب.

- إنه بدين قليلاً، لكنه ليس فظيماً . قالت لاسيلباتيكا.

- كان في شبابه نحيلاً مثل الشاب . تذكر عازف القيثارة. إبليس حقيقي،

أسوأ من أبناء عمه.

ألصق المنيعون، والسيد سيميناريو، وصديقه والقاطنات ثلاث طاولات إلى بعضها وجلسوا معاً. .. كان يبدو أن كل شيء قد أصلح.

- كان ملاحظاً أنه متكلف، وأنه لن يستمر . قال الشاب.

- لم يكن فيه شيء من الإكراه . قال بولاس . كانوا مسرورين، حتى أن

سيميناريو غنى نشيد المنيعين. كما أنهم رقصوا ومزحوا.

- وهل كان ليتوما يرقص دائماً مع لاساندرأ؟ . قالت لاسيلباتيكا.

- لم أعد أنكر، فقد بدؤوا النقاش من جديد. قالت لاشونغا.
- حول موضوع الرجولة. قال بولاس. وسيميناريو يكرر الحديث ويكرره ويقول إنه لم يعد يوجد رجال في بيورا وكل ذلك ليمتدح نفسه.
- لا تتناول تشابيرو بالسوء فقد كان رجلاً عظيماً، يا بولاس. قال عازف القيثارة.
- ففي ناريهوالا تغلب دون سلاح على ثلاثة لصوص وحملهم إلى بيورا مريوطين من أعناقهم. قال سيميناريو.
- تراهن مع بعض أصدقائه على أنه ما زال قادراً على ذلك، وجاء إلى هنا وريح الرهان. قالت لاشونغا. على الأقل هذا ما قالته لأماولا.
- أنا لا أتكلم بالسوء عنه، يا مايسترو. قال بولاس. لكنه صار ثقيلاً.
- إنه بيوري عظيم بعظمة الأدميرال غراو. قال سيميناريو. اذهبوا إلى هوانكابامبا، أياپاكا، وتشركو كأناس، وستجدون في كل مكان فتيات فخورات لأنهن نمن مع عمي تشابيرو. لقد أنجب ألف ابن حرام على الأقل.
- أليس مانغاتشيا؟ قال المونو. ففي الحي عناصر كثيرة بهذا الشكل.
- انقلب سيميناريو جدياً، أمك هي المانغاتشية، والمونو طبعاً ولي الشرف الكبير، وسيميناريو، مهتاجاً، تشابيرو كان سيّداً، ولم يكن يذهب إلى لامانغاتشيريا. إلا من حين لآخر، وليتناول بعض التسيثما وليضاحج إحدى الخلاسيات، وضرب المونو بيده على الطاولة: ها قد عدت للإهانة من جديد، يا سيد. كان كل شيء يسير بشكل جيد، كما بين الأصدقاء، وفجأة بدأ هو يشتم، يا سيد، والمانغاتشيون، يحزّ بأنفسهم أن يتحدث أحد بسوء عن لامانغاتشيريا.
- كان دائماً يأتي مباشرة إلى حيث أنت أيها العجوز المايسترو. قال الشاب. ويأتي عاطفة كان يعانقك. كان يبدو لقاء أخوين.
- تعارفنا منذ زمن بعيد جداً. قال عازف القيثارة. كنت أحب تشابيرو، وحزنت كثيراً عندما سمعت أنه مات.

نهض سيميناريو مسروراً: لتطلق لاشونغا الباب، فهم أصحاب المحل هذه الليلة، كانت الجرّ مشحوناً، ليأت عازف القيثارة ويتكلم عن تشابيرو، ماذا كانوا ينتظرون، ليغلقوا الباب بالمزلاج، فهو الذي كان سيفتح.

- وكان الرقيب يخيف الزبائن الذين كانوا يقرعون الباب . قال بولاس .
- تلك كانت الخطيئة، كان يجب ألا يُتركها وحدهما . قال عازف القيثارة .
- لا أعلم بالغيب . قالت لاشونغا . وعندما يدفع الزبائن أعمال ما يرضيهم .
- طبعاً، يا تشونغيتا . اعتذر عازف القيثارة . لم أقصدك أنت عندما قلت ذلك وإنما قصدت جميعاً . طبعاً لم يكن هناك من يستطيع أن يتنبأ .
- إنها التاسعة، يا مايمسترو . قال الشاب . سيونيك، اتركني أذهب لأبحث عن سيارة أجرة .

- هل حقاً كنت وعمي تتكلمان دون مجاملة؟ . اخك لهؤلاء شيئاً عن هذا البيوري العظيم، أيها العجوز، عن هذا الرجل الذي لن يكون له مثيل .
- إن الرجال الوحيديين الذين ما يزالون موجودين هم في الحرس المدني . أكد الرقيب .

- لقد أصابه سيميناريو بعدوى الجرعات . قال بولاس . هو أيضاً كان يتكلم ويتكلم عن الرجولة .

تحنح عازف القيثارة، فقد كانت حنجرته جافة، ليعطوه جرعة، وملاً له خوسيفينو الكأس ونفخ دون أنسيلمو الرغوة قبل أن يشرب . بقي فمه مفتوحاً وهو يتنفس بعمق: أكثر ما كان يلفت انتباه الناس هو مقاومة تشابيرو، وأنه كان مستقيماً . فرح سيميناريو وعانق عازف القيثارة، لتروا، لتسمعا، ماذا كنت قد قلت لكم؟

- كان عريداً وشيطاناً بانساً، لكنه كان يجسد كبرياء العائلة . اعترف الشاب .
كان يأتي من الريف ممطياً جواده . وكانت الصبايا يصعدن إلى البرج ليرينه، رغم أن هذا كان ممنوعاً عليهن، لكن تشابيرو كان يذهب بنصف عقولهن، ودون أنسيلمو شرب جرعة أخرى، وفي سانتا ماريّا ده نيبيا كان الملازم ثيبريانو يجنن التشونتشويات وأيضاً الرقيب شرب جرعته .

- عندما كانت تصعد البيرة إلى رأسه كان يأتيه الكلام عن هذا الملازم .
قالت لاسيلباتيكا. كان معجباً به.

كان هذا المغرور المتبجح يأتي فيثير خلفه الغبار، يكبح الجواد ويجعله يركع أمام الغقيات. مع دخول تشابيرو كانت الحياة تدخل، الحزينات يفرحن، والسعيدات يسعدن أكثر، وبها لمقاومته، كان يصعد ويهبط، يلعب القمار ويتناول المزيد من الجرعات، ويصعد من جديد مع واحدة، مع اثنتين وهكذا طوال الليل. وعند الفجر كان يعود إلى مزرعته، ليعمل، دون أن تكون قد أغمضت له عين. كان رجلاً حديدياً، وطلب دون أنسيلمو بيرة أكثر أيضاً. وذات مرة لعب الروليت الروسية أمامه، والرقيب ضرب على صدره ونظر حوله كمن ينتظر أن يصفقوا له. ثم إنه كان الوحيد الذي يسدد حسابه دائماً، الوحيد الذي دفع له حتى آخر سنتيم، وكان يقول: النقود وجدت لتُصرف. كان أكثر من يوجه الدعوات ويكرر الأسطوانة نفسها في الشوارع والساحات: أنسيلمو هو الذي جاء بالحضارة إلى بيورا. لكن لم تكن هذه مراهنة إنما لأنه كان يضجر، وكان الجبل يسبب القنوط للملازم ثيريانو.

- يبدو أنه كان غير جدي . قالت لاسيلباتيكا . وأن مسدسه لم يكن يحتوي
طلقات. فعل ذلك لكي يحترمه الحراس أكثر .

صانده أفضل أصداقائه في باب بار «لارينا»، عانقه. كان قد سمع بالأمر متأخراً، يا أخي، فلو كان في بيورا، لما أحرقوه، يا أنسيلمو، فهو كان يضع
الراهب والغالييناثات في مواضعهم.

- عن أية كارثة كان يتحدث تشابيرو، يا عازف القيثارة ؟ . قال سيميناريو.
ممّ كان يشفق عليك ؟

كانت تمطر بغزارة شديدة، ولم يعد هذا المكان إنسانياً، إذ كان يخلو من
النساء، وصالات السينما، وإذا بقي الواحد في الجبل فستطلع في بطنه شجرة. كان
هو ساحلياً، فلیدخلوا الغابة في المكان الذي لا تطالها فيه الشمس، فهو يقدمها لهم
هدية. لم يكن يستطيع أن يحتمل أكثر فأخرج مسدسه وأطلق النار على نفسه في

رأسه. كان «التقيل» يقول إنه لم يكن يحتوي طلاقات، لكنها كانت خدعة، وكان يحتوي، فهو كان واقعاً: ضرب الرقيب على صدره من جديد.

-كارثة، يا دون أنسيلمو؟ قالت لاسيلباتيكا. هل حدث لك شيء؟

-كنا نذكر إنساناً عظيماً، أيتها الفتاة. قال دون أنسيلمو. تشابيرو

سيميناريو، كان عجوزاً مات منذ ثلاث سنوات.

-آه، يا عازف القيثارة، أرايت أنك كاذب؟ قال المونو. لم ترض أن تحكي

لنا عن البيت الأخضر، والآن بلى، هيا، كيف حدث الحريق؟

- يا للفتيان. قال دون أنسيلمو. يا للهراء، يا للغباء.

- ها أنت تعاندا مرة أخرى، أيها العجوز. قال خوسيه. الآن كنت تحدثنا

عن البيت الأخضر. إلى أين كان يصل تشابيرو هذا بحصانه إذا؟ وأي نوع

من الفتيات كن يخرجن لرؤيته؟

- كان يصل إلى مزرعته. قال دون أنسيلمو. واللواتي كن يخرجن لرؤيته

كن قاطفات القطن.

ضرب على الطاولة. كانت لاتشونغا تحضر صينية أخرى من البيرة،

والملازم ثيبريانو نفخ سبطانة سلاحه بكل هدوء. كانوا يرونه ولا يصدقون.

وسيميناريو حطم كأساً على الجدار. كان الملازم ثيبريانو ابن عاهرة؟ لم يكن

من الممكن أن يسمح لهذا الخالسي أن يقطع الحديث إلى هذا الحد.

- وهل ذكر أمه من جديد؟ قالت لاسيلباتيكا وهي ترف جفنيها

بسرعة كبيرة.

- ليس أمه وإنما أم الملازم ذاك. قال الشاب.

- أنت باسم تشابيرو ذاك وأنا باسم الملازم ثيبريانو. اقترح الرقيب بكل

هدوء. روليت روسية، ولنر من هو الأكثر رجولة، يا سيد سيميناريو.

- وأنت هل تعتقد أن الدليل قد هرب، سيدي الملازم؟ قال الرقيب روبرتو ديلغادو.
- طبعاً، هل تعتقد أنني غبي . قال الملازم . الآن صرت أعرف لماذا
تمرض ولم يأت معنا. لا بدّ أنه هرب حين رأنا نخرج من سانتا ماريا ده نوبييا.
- لكنه سيقع عاجلاً أم آجلاً. قال الرقيب ديلغادو. إن الوعد لم يغيّر حتى اسمه.
- ما يهمني هو الآخر . قال الملازم . السيد السمين. ماذا كان اسمه،
أخيراً؟ توشياً؟ فوشياً؟

- ربما لا يعرف أين هو . قال الرقيب ديلغادو. وربما التهمة ثعبان فعلاً.
- حسناً، لنتابع . قال الملازم . يا اينوخوسا، هيا أحضر هذا العنصر.
نهض الجندي الذي كان يغفو جالساً القرفصاء بملاصقة الحاجز، مثل تمثال
متحرك دون أن يرفّ له جفن أو يجيب، وخرج، وما كاد يجتاز العتبة حتى بلّله
المطر، فرقع يديه وتقدّم عبر الطين متعثراً. كان المطر يسوط القرية بشكل وحشي،
ويزين دقات المطر وهبات الريح الصافرة، كانت الأكواخ الأغوارونية تبدو كحيوانات
مفترسة، أيها الرقيب. كان الملازم قد صار موسوساً في الغابة، فهو دائماً وفي كل
يوم كان ينتظر أن يعضه خيرغون¹²⁹ أو أن يُصاب بالحمى. وبدأ الآن يتوقم أن
المطر اللعين سيستمر وأنهم قد يمكنون هنا شهراً، مثل فزان في كهف. آه، كل
شيء كان يؤول إلى الجحيم بهذا الانتظار. وحين توقّف صوته الكريه، سمع وقع
المطر في الغابة وتلف الأشجار والأكواخ. كانت المنطقة المكشوفة عمراً هائلاً
رمادياً، وكانت عشرات الجداول تجري باتجاه الوهدة. وكان الهواء والجبل يصدران
بخاراً وروائح تفسخ، وما هو ايخونوسا الذي كان قائماً ينتر حبلاً شدّ إلى جسم كان
يتعثّر ويدمدم. صعد الجندي سلّم الكوخ قفزاً وسقط الأسير على وجهه أمام الملازم.
كانت يده مربوطتين خلف ظهره فانتصب مستعيناً بمرفقيه. تابع الضابط والرقيب
ديلغادو، اللذان كانا يجلسان على لوح خشبي على حمالتين، حديثهما لحظة دون أن

¹²⁹ خيرغون: لعمى سامة جداً وطويلة جداً وضاربة للسواد.

ينظروا إليه. ثم قام الملازم بإشارة إلى الجندي: فهوة وجرعة، هل بقي؟ بلى وليذهب إلى حيث الآخرين، فهما سيستطفاه وحدهما. عاد وخرج ايخونوسا من جديد. كان الأسير يذلف مثل الأشجار. تشكّلت حول قدميه بحيرة صغيرة. كان الشعر يغطي أذنيه وجبهته، وكان يحيط بعينيه، الفحمتين المتحرزتين النطاطتين، محجرا ثعلب. وكانت نسالات من جلد مزرق ومخدوش تطل من بين ثايا القميص والبنطلون، الذي كان بدوره بالياً ويتكشّف عن إلية. كان الارتعاش يهزّ جسد بانئاتشا، وأسنانه تصطك. لم يكن بمقدوره أن يشكو، فقد اعتنوا به كما يُعتنى بالطفل الرضيع. في البداية داووه، أليس صحيحاً؟ ثم حموه من الأغوارونيين الذين كانوا يريدون أن يمزقوه إرباً. لئر ما إذا كانوا سيتفاهمون اليوم بشكل أفضل، فالملازم صبر معك كثيراً، يا بانئاتشا، لكن هذا لا يعني أن عليك أن تتمادى. كان الحبل حول عنق الأسير مثل الطوق. انحنى الرقيب ديلغادو، التقط رأس الحبل وأجبر بانئاتشا على أن يخطو خطوة نحو اللوح الخشبي.

- في السببا ستأكل جيداً وسيكون عندك مكان تنام فيه . قال الرقيب ديلغادو.

فهو ليس سجنأ كبقية السجون إذ ليس له جدران. وربما استطعت الهرب.

- أليس هذا أفضل من طلاقة؟ . قال الملازم . أليس من الأفضل لك أن أرسلك إلى السببا من أن أقول للأغوارونيين خذوا بانئاتشا تقدمة، انتقموا منه عن كل اللصوص؟ لقد رأيت كم هم معبأون ضدك. لذلك، لا تتظاهر اليوم بالجنون.

كان بانئاتشا، بنظرته المراوغة والملتهية، يرتجف بشدة. وكانت أسنانه تصطك باهتياج. انكمش وراح يبلع معدته ويخرجها. ابتسم له الرقيب ديلغادو، يا بانئاتشا، لن يكون غيباً إلى حد أن يتحمل وحده كل تلك السرقات وكل ذلك القتل بين التشوننتشين، أليس كذلك؟ والملازم ابتسم أيضاً: من الأفضل أن ينتهوا بسرعة، يا بانئاتشا. ويعد ذلك يعطونه كل الأعضاء التي يحب وسيجهز هو بنفسه مغلياً، ما رأيك؟ دخل ايخونوسا إلى الكوخ وترك على اللوح ترمس فهوة وقتينة، وخرج راكضاً. انتزع الملازم فلينة القنينة ومدّها للأسير، الذي قرّب وجهه نحوها وهو يتمتم، وشدّ الرقيب الحبل بقوة، وغد، فسقط بانئاتشا بين

قمتي الملازم: ليس الآن، تتكلم أولاً ثم تمص. أخذ الضابط الحبل، أدار رأس الأسير نحوه، اهتزت خصلة الشعر، وتابعت الفحمتان تحديقهما بالقنينة. كان بانئاتشا مقرفاً بشكل لم ير الملازم له مثيلاً، فقد نوحته رائحته، وكان الآن قد فتح فمه، جرعة؟ وراح يلهث بصوت أجش، من أجل البرد، يا سيد، فقد كانت البرودة تشد في الداخل، سيد؟ جرعة صغيرة واحدة كان يريد، والملازم حسناً، لكن شرط أن نعالج الأمور واحداً واحداً، أين كان قد اختبأ توشياً ذاك، كل شيء في وقته المناسب، أم فوشياً؟، أين كان؟ لكنه كان قد حكي لك، يا سيد، وهو يرتعد من رأسه إلى أخمص قدميه، هرب في الظلمة ولم يروه. وكانت أسنانه تبدو وكأنها ستكسر، يا سيد: ليسأل عنه الهوامبيسين. كانوا يقولون إن الياكوماما ستأتي ليلاً وتدخل وتحمله إلى أعماق البحيرة عقاباً على شروبه، يا سيد.

كان الملازم ينظر إلى الأسير، ذي الجبين المتجدد والعينين الحزینتين. وفجأة مال، وضرب بيوطه الإلية المكشوفة فتساقط بانئاتشا مدمماً. لكنه تابع النظر شزراً من الأرض إلى القنينة. نثر الملازم الحبل فارتطم الرأس الأشعث بالأرض مرتين. يكفي، يا بانئاتشا، تمادياً، أليس كذلك؟ أين كان قد دخل؟ كان بانئاتشا في الظلمة، يا سيد، وانخبط رأسه مرة أخرى على الأرض: ستأتي ببطء، وتتسلق الوهدة، وتدخل في كوخه، وتغلق فمه بنيلها، يا سيد، وهكذا ستحمله، يا للمسكين، ولتعطه ولو جرعة صغيرة، يا سيد، هكذا كانت لاياكوماما، صموتة، والبحيرة ستفتح بالتأكيد، والهوامبيسيون يقولون إنها ستعود وتبتلعنا، ولذلك ذهبوا بدورهم، يا سيد، ورفضه الملازم. وسكت بانئاتشا، ركع على ركبتيه. كان قد بقي وحده. يا سيد. شرب الضابط جرعة من الترمس ومرر لسانه على شفتيه. كان الرقيب روبيرتو ديلغانو يلعب بالقنينة وبانئاتشا يريد أن يرسلوه إلى الأوكابالي. كان يزمرر وكانت أعقاب السجائر تلامس وجنتيه. حيث مات صديقه أندريس، هناك يريد أن يموت أيضاً.

- هكذا إذا فعملك حملته لاياكوماما معها. قال الملازم بصوت هادئ. وهكذا فالملازم أخرق أيضاً والبانئاتشا يستطيع أن يسخر منه على هواه. أه، يا بانئاتشا.

كانت عينا بانئاتشا تتأملان القنينة بشغف وبلا كلل. وكان المطر في الخارج قد ازداد غزارة، وفي البعيد كان الرعد يدوي والبرق يلتهب فوق الأسطح، التي تسوطها المياه، والأشجار ووحل القرية.

- تركني وحيداً، يا سيد. صرخ بانئاتشا، وقد اهتاج صوته بينما كانت نظرتة دائماً ساكنة وشاردة. أطعمته، وكان المسكين لا يترك سريره المعلق، وتركني، والآخرين ذهبوا أيضاً. لماذا لا تصنق، يا سيد؟

- ربما كان موضوع الاسم كنبأ. قال الرقيب بيلغادو. أنا لا أعرف أحداً في الجبل يدعى فوشيا. ألا يثير هذا أعصابك، بهنياناته؟ لو كنت أنا لرميته بطلقة وانتهى الموضوع، يا سيدي الملازم.

- والأغواروني؟. قال الملازم. أيضاً خوم حملته لا ياكومانانا؟

- ذهب، يا سيد. شخر بانئاتشا. ألم أقل لك ذلك؟ أو أنها حملته، يا سيد، من يدري؟

- أبقيت خوم الأوراكوسي طيلة المساء تحت نظري. قال الملازم. وقد عمل معي الوغد الآخر مترجماً، وكنت أصغي إليهما وأبلغ أكانديهما. آه لو كنت أعلم بالغيب. كان ذلك أول تشونتشى أعرفه، أيها الرقيب.

- إنَّ الذنب نذب من كان حاكم نيبيا، يا سيدي الملازم، إنه رثاتيغي. قال الرقيب روبريتو بيلغادو. نحن لم نكن نريد إطلاق سراح الأغواروني. لكنه أمر بذلك، وما أنت ترى.

- ذهب المعلم، ذهب خوم، وذهب الهوامبيسيون. أجهش بانئاتشا.. وأنا وحدي مع حزني، يا سيد، ومع البرد الرهيب الذي أشعر به.

- لكن، أقسم أنني سأقبض على أدريان نيبيس. قال الملازم. لقد ضحك علينا، وكان يعيش مما كنا ننفق له نحن.

كانت معهم نساؤهم هناك. كانت الدموع تجري بين شعره وهو يتهدد بعمق، يا سيد، ويكثر من الحزن، كان يريد مسيحية واحدة، فقط. ولو من أجل أن يكلمها فحسب، واحدة فقط، حتى التشابرية حملوها معهم، يا سيد، واعتلته جزمة، ضربته، فمكث بانئاتشا منكشأ، يزمرج. أغمض عينيه لثوان ومن تمَّ نظر إلى القنينة بوداعة: جرعة، يا سيد، لا أكثر، من أجل البرد، فقد كان البرد يشتد في الداخل.

- أنت تعرف هذه المنطقة جيداً ، يا بانئاتشا . قال الملازم . إلى متى سيستمر هذا المطر اللعين، متى نستطيع أن ننطلق؟
- غداً تتقشع . تتم بانئاتشا. ادع الله وسترى. لكن أشفق عليّ. أعطني جرعة واحدة. من أجل البرد، يا سيد.
- لم يكن هناك من يتحمل، اللعنة، لم يكن هناك من يتحمل. ورفع الملازم الجزمة لكنه لم يضربه هذه المرة. أسندها إلى وجه الأسير إلى أن لامست وجنة بانئاتشا الأرض. شرب الرقيب جرعة من القنينة، ثم جرعة من الترمس. كان بانئاتشا قد فصل شفتيه وراح لسانه المسنون الأحمر يلعقهما، يا سيد، برقة، جرعة واحدة فقط، نعل الجزمة، من أجل البرد، رأس الجزمة، يا سيد، وشيء نكي وخبيث ومطواع كان يغلي في الفحمتين الخارجيتين عن مدارهما، واحدة؟ وبينما كان لسانه يبلل الجلد المتسخ، يا سيد؟ من أجل البرد وقبّل الجزمة.
- أنت تحسن التعامل مع كل الحالات . قال الرقيب ديلغادو. فعندما لا تشغل عواطفنا تتظاهر بالجنون، يا بانئاتشا.
- قل لي أين فوشياً وأعطك القنينة . قال الملازم . إضافة إلى أنني سأطلق سراحك، وأعطيك فوق هذا بعض السولات. أجب بسرعة أو فإنني سأفقد حماسي.
- لكن بانئاتشا بدأ يئن من جديد وراح كامل جسده يلتصق بالأرض الترابية بحثاً عن الدفاء وسرت فيه تشنجات قصيرة.
- خذه . قال الملازم . فهو يصيبني بعذوى جنونه، وبدأت تتملكني رغبة بالتقيؤ، وصرت أرى اليوكوماما، بينما المطر يستمر على أشده، ابن العاهرة.
- أمسك الرقيب روبيرتو ديلغادو الحبل وركض. كان بانئاتشا يمضي خلفه على أربع، مثل كلب نطاط. على السلم صاح الرقيب صيحة فظهر ايخونوسا. أمسك بانئاتشا، وهو يقفز تحت نفق المطر.
- وماذا لو اندفعنا رغم المطر؟ . قال الملازم . إن الثكئة ليست بعيدة كثيراً بحسب التقديرات.

- سوف يقلب الزورق بعد دقيقتين، يا سيدي الملازم . قال الرقيب ديلغادو.
ألم تر كيف هو النهر؟
- أعني على الأقدام عبر الجبل . قال الملازم . وسوف نصل خلال ثلاثة
أو أربعة أيام.
- لا تقنط، يا سيدي الملازم . قال الرقيب ديلغادو. سوف يتوقف المطر . لا
نستطيع أن نتحرك في هذا الطقس. هكذا هي الغابة، يجب التحلي بالصبر .
- اللعنة، ها قد انقضت ثلاثة أسابيع! . قال الملازم . إنني أضيع نقلاً
وترفيعاً، ألا ترى ذلك؟
- لا تثر عليّ . قال الرقيب ديلغادو. ليست خطيئتي أنها تمطر، يا سيدي الملازم.

كانت وحدها، دائماً تنتظر. لماذا تحصى الأيام؟ ستمطر، لن تمطر، هل
سيعودون اليوم؟ ما زال الوقت باكراً جداً. هل سيحضرون معهم بضاعة؟ يا مسيح
باغانان، يا قديس، يا قديس، ساعدهم كي يحضروا مطاطاً وجلوداً كثيرة، ليات
دون أكيلينو، ومعه ملابس وطعام. كم باع؟ وهو كثيراً، يا لاليتا، ويسعر جيد،
وفوشيا آه يا عزيزي العجوز. ليصبحوا أثرياء، يا عذراء، يا قديسة، يا قديسة،
لأنهم سيخرجون وقتها من الجزيرة، وسيعودون إلى حيث المسيحيون،
وسيتزوجان، أليس كذلك، يا فوشيا؟ هو كذلك، يا لاليتا، وإنه سيتغير ويحبها من
جديد وفي الليلي، إلى سريرك المعلق؟ بلى، عارية؟ بلى، تمتصها؟ بلى، تعجبك؟
بلى، أكثر من الأتسولات؟ بلى، ومن الشابرية؟ بلى، بلى، يا لاليتا، وأن يكون
لهما ابن آخر. أنعم النظر، يا دون أكيلينو، ألا يشبهني؟ انظر إليه كيف كبير. إنه
ينكلم الهوامبيسية أكثر من المسيحية، والعجوز هل تتعنين، يا لاليتا؟ وهي قليلاً
لأنه لم يعد يحبها، وهو هل هو سيء جداً معك؟ هل تغارين من الأتسولات،

والشابرية؟ وهي بل اغتاط، يا دون أكيلينو، لكنهن كنّ رفيقاتها، لانعدام الصديقات، هل كان يعلم ذلك؟ ويحزنها أن يعطيهنّ لبانتاتشا، لنبيس أو للهوامبيسين، هل سيعودون اليوم؟ لكنهم لم يصلوا في ذلك المساء وإنما وصل خوم، وكانت الساعة ساعة قيلولة عندما دخلت الشابرية إلى الكوخ صارخة، هزّت السرير المعلق فتراقصت أساورها، ومراياها الصغيرة وجلجلها، ولاليتا هل جاؤوا؟ وهي كلاً، جاء الأغاروني الذي هرب. خرجت لاليتا للبحث عنه وكان هناك، في حوض التفاربات، يملح بعض سمك الباجر، وهي يا خوم، أين ذهبت؟ لماذا؟ ماذا فعلت طول هذا الوقت؟ وهو صامت، كانوا يعتقدون أنك لن تعود، وهو وقور، يا خوم، وناولها سمكات الباجر. هذا ما جئتك به. جاء كما ذهب، حليق الرأس وفي ظهره خطوط نبات الأتشيوت كأنها آثار سياط، وهي خرجوا في حملة، باتجاه أعلى النهر، وكانوا بحاجة ماسة إليه، لماذا لم تودّع؟ باتجاه بحيرة ريماتشي، هل كان يعرف الموراتبين؟ هل هم بواسل؟ هل سيتقاتلون مع المعلم، أم أنهم سيعطونه المطاط بالتي هي أحسن، يا خوم؟ ذهب الهوامبيسين بحثاً عنه وبانتاتشا ربما قتلوه، يا معلم إنهم يكرهونه، والدليل نبيس لا اعتقد، لقد صاروا أصدقاء، وفوشيا يمكن أن يفعلوها، يا لهم من كلاب، وخوم لم يقتلوني، ذهبت إلى هناك والآن عدت، وهل سيبقي؟ بلى، المعلم سيؤخه لكن لا تذهب يا خوم، ستتتهي هذه الحال عنده قريباً، ثم ألم يكن يقدره في أعماقه؟ وفوشيا إنّه مجنون قليلاً، يا لاليتا، لكنه مفيد، إنه مقتنع. أحقاً هم مسيحيون شياطين، يا أغاروني، هه؟ أكان يعظهم؟ يا خوم، المعلم يخدع، يكذب، هه؟ يا لاليتا، لو رأيت كيف يشغلهم، يصرخ بهم، يرحوهم، يرقص لهم وهم بلى، بلى، الأغاروني آخ، بأيديهم ورؤوسهم، آخ، ودائماً كانوا يعطونهم المطاط بالحسنى. ماذا نقول لهم، يا خوم، أخك لي كيف تقنعهم، وفوشيا لكنهم سيقتلونه ذات يوم، وأي خراء سيحل محله وقتذاك. وهي أليس صحيحاً أنك لا تريد أن تعود إلى أورلكوسا؟ تكره المسيحيين كثيراً أليس كذلك؟ ونحن أيضاً؟ وبانتاتشا بلى، يا معلمة، لأنهم ضريوه، ونبيس لماذا لا يقتلنا إذا ونحن نيام؟ وفوشيا نحن الانتقام بالنسبة له، وهي هل صحيح أنهم علقوه إلى

شجرة كاببرونا؟ وهو إنه مجنون، يا لاليتا، وليس قاسياً، وهي هل صرخت عندما أحرقوك؟ إنه خبير في حياكة المكائد وما من أحد كان يفوقه في صيد البر والماء، هل كانت له زوجة؟ قتلوها؟ وعندما لم يكن يوجد طعام كان خرم يتوغل في الغابة ويحضر باوخيلاوات وأنيوخات¹³⁰ وطيور حجل، أذهن نفسك كي تتذكر ضرب السباط؟ وذات مرة رأوه يقتل تشوتشويياً بسبطانته يا لاليتا. كان يعرف أن أعداءه هم أولئك، أليس صحيحاً، يا خوم؟ الذين يتركهم فوشياً بلا بضائع، لا تعتقدي إنه يساعديني من أجل جمال وجهي، وبانتاتشا: رأيتك اليوم بالقرب من الوهدة، تلمس الندبة في جبينه. كان يخطب في الريح، وفوشياً: خير لي أن يعمل بهذا الشكل، فالانتقام لا يكلفني شيئاً. وهو بالأغوارونية، لم أفهم. لأنه عندما كان يصل زورق دون أكيلينو كان الهوامبيسيون يسقطون من على أشجار اللبونا إلى الرصيف مثل وابل من سمك الكوتو¹³¹، وكانوا يتلقون حصصهم من الملح والأنياساو والفؤوس والسكاكين التي كان فوشياً يوزعها عليهم وهم يزعمون ويفخزون فتعكس عيوناً سكرانة من الفرح. وخوم ذهب، إلى أين يا ترى؟، إلى هناك، ها قد عدت، ألا تريد؟ لا، أتريد أغواربينته؟ لا، أتريد سكيناً؟ لا، ملحاً؟ لا، ولاليتا: سيفرح الدليل لأنك قد عدت، يا خوم، هو فعلاً صديقك، أليس كذلك؟ وهو: بلي، وهي شكراً على هذه الأسماك، لكن يا للأسف لقد ملحتها. والدليل نيبيس لم يكن يعرف اسميهما، يا معلمة، لم يكن قد قال لها سوى إنهما مسيحيان، أدخل كراهية المعلمين إلى نفسه، وكان يقول إنهما أوقعا في كارثة، وهي هل خدعاك؟ هل سرقاك؟ وهو نصحاني وهي: بودي لو نتكلم، يا خوم، لماذا كنت تدير لها ظهرك عندما كانت تتاديك، وهو صامت، هل كنت مستحياً؟ وهو أحضرته لك، والهوامبيسيات كنّ يستخرجن نمه، وهي هل هو غزال؟ وهو: غزال، وباحترام، بلي

¹³⁰ باوخيلاوات وأنيوخات: للباوخيلا طائر بحجم الديك الهندي له فرق منقاره نقره بحجم رأسه لونه

ضارب إلى الزرقاء، وهو سهل التنجين. والأنيوخ حيوان ثديي.

¹³¹ سمك الكوتو

ولاليتا هيا بنا، سياكلونه، ليقطع حطباً، وخوم: هل أنت جائعة؟ وهي: جداً، جداً، فمئذ أن ذهبوا لم أكل لحماً، خوم: وبعدها عادوا، وتدخل هي إلى الكوخ، تنظر إلى أكيلينو، ألم يكبر، يا خوم؟ وهو: بلى وكان يتكلم الوثنية أفضل من المسيحية، وهو: نعم، وخوم: هل كان لديه أولاد؟ وهو: قليلون وعندئذ بدأت تمطر. كانت غيوم كثيفة وداكنة ثابتة فوق أشجار اللوبونا تفرغ ماءها الأسود ليومين متتاليين فتحوّلت الجزيرة بكاملها إلى غمر طيني، والسهل إلى ضباب عكر. وكانت تسقط طيور كثيرة ميتة أمام باب الكوخ ولاليتا، يا للمساكين، لا بدّ أنهم الآن مسافرون، ليغطوا الجلود، المطاط، وفوشيا، بسرعة، يا كلاب، ويحكم، كان يحمل على الجميع، في هذا الشاطيء الصغير، ليبحثوا عن ملجأ، كهف، ليشعلوا صلاء، ويانتاشا يغلي أعشابه والدليل يمضغ تبغاً مثل الهوامبيسيين. ولاليتا: هل سيحضر لها هذه المرة أيضاً؟ أطواقاً؟ سوارات؟ ريشاً؟ أزهاراً؟ هل كان يحبها؟ وهي: لو عرف المعلم، وهو: حتى لو عرف، هل يفكر بها ليلاً؟ وهو لا يفكر بالسوء، إنها هدية صغيرة لك لأنك كنت طيبة معي عندما كنت مريضاً، وهي: إنه نظيف، مهذب، ويرفع قبعته ليحييني وفوشيا عليه ألا يشتمني كثيراً، هل كان وغداً؟ يستطيع فوشيا أن ينتقم، تحمّر عينا الدليل عندما أمرّ بالقرب منه، هل كان يحلم بها؟ هل كان يريد أن يلمسها؟ أن يعانقها؟ تعرّي، ادخلي في سريري، هل أراد أن تقبله هي على فمه؟ على ظهره؟ يا قديس، يا قديس، ليعوبوا اليوم وليس غداً.

ظهروا في ذلك العام المليء بالخير: كان المزارعون يحتفلون بشحنات قطنهم الاثنى عشرة صباحاً ومساءً، ويشربون شامبانيا فرنسية ويتبادلون الأنخاب في المركز البيروي ونادي غراو. وفي حزيران، في ذكرى تأسيس المدينة والأعياد الوطنية، أقيم سباق للعربات، ورقصات شعبية، ونصبت ستة سيركات خيامها على

الرملة. كان الوجهاء يُحضرون فرقاً موسيقية من ليما لرقصاتهم. وكانت تلك السنة سنة أحداث أيضاً: بدأت لاتشونغا تعمل في بار دوروتتو الصغير، ماتت خوانا باورا وباتروثينيو نايا، وفاض نهر بيورا. لم تحدث أوبئة. كان الوكلاء الغريباء يأتون إلى المدينة أسراباً ويشراهة وكذلك سماسة القطن. وكانت المواسم تبدل أصحابها في الحانات كما كانت تظهر حوانيت وفنادق وأحياء سكنية جديدة. ودب الصوت ذات يوم: «قرب النهر وخلف «الكمال» يوجد بيت للقاطنات».

لم يكن بيتاً، وإنما مجرد زقاق مغلق من الخارج بباب مرآب، فيه غرف من الطوب على الجوانب ومصباح أحمر ينير الواجهة. وكان البار في العمق على ألواح معددة فوق براميل، والقاطنات كنّ ست: عجائز، مترهلات وغربيات، «لقد عدن، كان يقول المازحون، إنهن اللواتي لم يحترقن» وكان الإقبال على «بيت الكمال» منذ البداية شديداً. وأصبحت أجواؤه ذكورية وكحولية وظهرت في «إيكوس» و«نوتيتيات» وفي «إلتيمبو» و«لاندرستريا» تلميحات متفرقة ورسائل احتجاج وتحريض للسلطة. وعندئذ ظهر فجأة بيت ثان للقاطنات في وسط كاستيليا، ولم يكن زقاقاً وإنما شاليهاً بحديقة وشرفات. تراجع القساوسة والسيدات المثبطون، الذين كانوا يجمعون التواقيع مطالبين بإغلاق «بيت الكمال». وحده الأب غارثيا، استمر منطرباً عنيداً يطالب من فوق منبر كنيسة ساحة ميرينو، بالقصاص وينذر بالكوارث: «منحهم الله عاماً طيباً والآن ستأتي على البيوريين أزمة البقر الهزيل». لكن شيئاً من هذا لم يحدث. وفي العام التالي كان موسم القطن بجودة الموسم الفائت. وبدل البيتين صار هناك أربعة بيوت للقاطنات، وكان واحد منها على بعد فراسخ قليلة من الكاندرائية. وكان فاخراً، محتشماً قليلاً، بنساء بيضاوات، غير ناضجات تماماً، وكنّ على ما يبدو من العاصمة.

وفي العام نفسه تشاجرت لاتشونغا مع دوروتتو بالقناني، وعند الشرطة برهنت والأوراق في يدها أنها المالكة الوحيدة للبار الصغير. أي قصة كانت خلف ذلك؟ وأي تجاوزات سرية؟ على كل حال أصبحت لاتشونغا ومنذ ذلك الوقت مالكة المحل. وكانت تديره بلطف وقوة، وكانت تعرف كيف تقرض

احترامها على السكربين. كانت شابة لا قالب لها، حادة المزاج، تميل بشرتها إلى القتامة، وكان قلبها من معدن، تظهر خلف طاولة العرض شعرها الذي يعارك كي يقلت من الشبكة الصغيرة، فمها بلا شفتين وعيناها تنظران إلى كل شيء بتناقل بخيب الفرح. كانت تستعمل حذاء بلا كعب وجوارب قصيرة، ويلوزة تبدو أيضاً أنها لرجل، كما أنها لم تكن تطلّي شفتيها ولا أظافرها أبداً، ولم تكن تضع أصابعاً على وجنتيها، لكن رغم ملابسها ومزاجها كان في صوتها شيء أنثوي تماماً حتى وهي تنطق بالألفاظ النابية. كانت يداها الغليظتان والمريعتان ترفعان بالسهولة نفسها الطاولات والكراسي وتفتح القناني وتضرب الوقحين. كانوا يقولون إنها فظة وقاسية القلب بسبب نصائح خوانا باورا، التي لقتها عدم الثقة بالرجال، وحب المال وعادة العزلة. وعندما توفيت الغاسلة أقامت لها لاثونغا سهرة فاخرة قدمت فيها مشروباً خفيفاً، ومرق دجاج، وقهوة على امتداد الليل مع حرية الاختيار. وعندما دخلت الفرقة الموسيقية إلى البيت وعلى رأسها عازف القيثارة، راقبها الساهرون على جثمان خوانا باورا، بتصلب وعيون مليئة بالخيب. لكن دون أنسيلمو ولاثونغا لم يتعانقا، فقد صافحته كما صافحت بولاس والشاب. أدخلتهم واحتقت بهم بالمجاملة نفسها التي أحاطت بها الآخرين، وأصغت باهتمام حين عزفوا بحزن. كان يلاحظ عليها أنها سيدة نفسها وكانت تقاسمها جهمة، لكنها هادئة تماماً. كان عازف القيثارة بالمقابل حزينا مرتبكاً ويغني وكأنه يصلي حين جاء صبي ليقول إن الناس في «بيت الكمال» قد ملّوا، فالفرقة كان يجب أن تبدأ في الساعة الثامنة بينما كانت الساعة العاشرة. بعد موت خوانا باورا، كان يقول المانغاشيون، سنأتي لاثونغا وتعيش مع العجوز في لامانغاشيريا. لكنها انتقلت إلى البار. ويحكون أنها كانت تنام على فراش من القش تحت طاولة البار. وفي الوقت الذي انفصلت فيه لاثونغا عن دوروتو وتحولت هي فيه إلى المالكة، كانت فرقة دون أنسيلمو قد توقفت عن العزف في بيت الكمال وانتقلت إلى بيت لاكاستيليا.

حقّق بار لاتشونغا الصغير ازدهاراً سريعاً. دهنّت الجدران بنفسها وزينتها بالصور الفوتوغرافية والمطبوعة، وغطت الطاولات بالمشععات ذات الأزهار المتعددة الألوان وتعاقدت مع طاهية. تحوّل البار الصغير إلى مطعم للعمال وساقى الشاحنات وعمال النسيج والبلدية. وذهب دوروثو بعد القطيعة ليعيش في هوانكابامبا. عاد بعد سنوات إلى بيورا، وأصبح أحد زبائن البار الصغير، «من غرائب الحياة»، هكذا كان يقول الناس. كان يعاني وهو يرى التقدم الذي يحققه المحل الذي كان له.

لكن ذات يوم أغلق البار أبوابه وتبخّرت لاتشونغا. بعد أسبوع عادت إلى الحي على رأس ورشة من العمال هدمت جدران الطوب ورفعت جدراناً من القرميد ووضعت الكالامين في السقف وفتحت نوافذ. وطوال اليوم كانت لاتشونغا نشيطة مبتسمة تساعد العمال وكان العجائز المهتاجون تماماً يتبادلون النظرات الفضولية مسترجعين الماضي: «إنها تبعث فيه الحياة من جديد». «وافق شن طبقه»، «من يرث لا يسرق». في هذه الفترة لم تعد الفرقة تعزف في بيت كاستيليا وإنما في بيت حي بونوس آيريس، وعند الذهاب إلى هناك كان عازف القيثارة يطلب من بولاس ومن الشاب أليخاندرو أن يتوقفا في الحي. كانوا يصعدون عبر الرملة، وأمام البناء كان العجوز، الذي أصبح شبه أعمى يسأل: «كيف يسير العمل؟ هل ركّبوا الأبواب؟ هل يظهر جيداً عن قرب؟ ماذا يشبه؟». كانت لهفته وأسئلته تتمّ عن اعتزاز، وكان المانغاشيون يعزّزونه: «كيف حال لاتشونغا، يا عازف القيثارة، إنها ثرية، ألم تر أي بيت تبني؟». كان يتسم برضى، بينما حين كان الشيوخ يخرجون للقائه: «يا دون أنسيلمو، إنها تبعث لنا الحياة فيه من جديد»، كان عازف القيثارة يتظاهر بالارتباك والغموض ويأنه لا يفهم، لا أعرف شيئاً، عليّ أن أذهب، عمّ تكلموني؟ أيّ بيت أخضر؟

بمظهر حازم ومتألق وخطوات ثابتة ظهرت لاتشونغا ذات يوم في لمانغاشيريا، وتقدّمت في الأزقة المغيرة سائلة عن عازف القيثارة. وجدته نائماً في الكوخ الذي كان يملكه باتروثينيو نايا. كان العجوز متمدداً في سرير معلق. كان يشخر وكان شعر صدره الأبيض مبللاً بالعرق. دخلت لاتشونغا، أغلقت الباب

وأثناء ذلك انتشرت شائعة الزيارة. كان المانغاتشيون يقدون لبيتزها في الجوار، ينظرون من بين القصب ويلصقون أذانهم بالباب، وينقلون لبعضهم بعضاً مكتشفاتهم. وبعد هنيهة خرج عازف القيثارة إلى الشارع مكفهاً محزوناً وطلب من الصبية أن ينادوا بولاس والشاب. كانت لاشونغا قد جلست في السرير بأسمه. ثم وصل صديقاً العجوز فأغلق الباب، «لمست هذه زيارة للأب وإنما للموسيقي»، كان المانغاتشيون يتهايمسون، «لاشونغا تريد شيئاً من الفرقة». مكثوا في الكوخ أكثر من ساعة، وحين خرجوا كان الكثير من المانغاتشيين قد رحلوا بعد أن أضجرهم الانتظار. لكنهم رأوه من أكواخهم. كان عازف القيثارة يسير مرة أخرى مروبصاً، متعزراً، يرسم بخطواته خطوطاً متعرجة، فاغر الفم. كان الشاب يبدو مكسوفاً، ولاشونغا أعطت ذراعها للبولاس وقد ظهر عليها الفرح والثروة. ذهبوا إلى حيث أنخليكا ميرثيدس، أكلوا، ثم عزف الشاب بولاس وغنياً بعض الأغاني. كان عازف القيثارة ينظر إلى السقف، ويحك أذنيه، وكان وجهه يتغير في كل لحظة، بيتسم، يكتب. وعندما غادرت لاشونغا أحاط بهم المانغاتشيون متلهفين للإيضاحات. كان دون أنسيلمو ما يزال شاردأ، مندهشاً، والشاب يهز كتفيه. وحده بولاس كان يجيب على الأسئلة. «لا تستطيع أن تتنمر، أيها العجوز، إنه عقد جيد». قال المانغاتشيون. «تم إنك ستملك كل الصفقات الرابحة في العمل لصالح لاشونغيتا، وهل ستطلبه بالأخضر أيضاً؟».

- كان سكراناً ولم تأخذه على محمل الجد. قال بولاس. ابتسم سيميناريو ساخرأ.
لكن الرقيب كان قد أخرج مسدسه مرة أخرى، وراح يمسه من قبضته ومن طرفه ويجهد في تلقيمه. راح الجميع من حوله يتبادلون النظرات ويضحكون بلا رغبة ويتلملون في مقاعدهم متضايقين. وحده عازف القيثارة تابع الشرب، روليت روسية؟ على جرعات، ما هذا، أيها الفتيان؟

- شيء لاختبار ما إذا كان الرجال رجالاً . قال الرقيب . سترى الآن، أيها العجوز .
- لاحظت من هدوء ليتوما أنّ الأمر جدّي . قال الشاب .
كان سيميناريو، بوجهه المرتخي فوق الطاولة، صامتاً، صارماً، وعينه
العريبتان دائماً، كانتا تبدوان الآن حائرتين . كان الرقيب قد فتح أخيراً المسدس
وراحت يده تنتزعان منه الطلقات، ترتبانه عمودية ومتوازية بين الكؤوس
والقناني ومناقض السجائر المليئة بالأعقاب . أجهشت لاسيلباتيكا بالبكاء .
- أنا أيضاً خدعني بهدوئه . قالت لاشونغا . ولولا ذلك لكنت انتزعت
المسدس منه عندما كان يفرغه .

- ماذا دهاك، أيها الشرطي؟ . قال سيميناريو . أيّ ظرافة هذه؟
كان صوته منقطعاً وأشار بالإيجاب، بلى هذه المرة كانوا قد انتزعوا منه
ظرافته . ترك عازف القيثارة كأسه على الطاولة، شمّ الهواء قلقاً، ألتما تشاجران
فعلأ، أيها الشابان؟ يجب ألا يكونا كذلك، ليتابعا حديثهما بود عن تشابيرو
سيميناريو . لكن القاطنات كنّ يهرين من الطاولة، ريتا، ساندرأ، ماريبيل، يقفن،
وأمايولا وأورتيثيا تزعلان مثل الطيور، ومتكومات بجانب السلم كن يلهتن، ويفتحن
عيونهن وقد سيطر عليهن الذعر الشديد . أمسك بولاس والشاب عازف القيثارة من
نراعيه وحمله تقريباً في الهواء حتى زاوية الفرقة الموسيقية
- لماذا لم تحدثوا إليه؟ . تمتمت لاسيلباتيكا . لو قلتم له الأشياء بطريقة
لبقة، لفهم . لماذا لم تحاولوا على الأقل؟

حاولت لاشونغا، أعد هذا المسدس إلى مكانه، من تراك تريد أن تخيف؟
- لقد سمعت، يا تشونغيئا، كيف تعرّض لأمي . قال ليتوما . وللملازم
ثييريانو أيضاً، والذي لم يكن يعرفه . سوف نرى ما إذا كان المسيئون للأمهات
يملكون مماً بارداً وعزماً قوياً .

- ماذا حلّ بك، أيها الشرطي؟ . عوى سيميناريو . لماذا كل هذا التمثيل؟
قاطعه خوسيفينو: كان من غير المجدي أن تتواري، يا سيد سيميناريو،
لماذا التظاهر بالسكّر؟ لتعرف أنك كنت خائفاً، كان يقول له ذلك بكل احترام .

- حاول الصديق أن يمنعهما أيضاً . قال بولاس . هيا بنا من هنا، يا أخي، لا تحشر نفسك في المشاكل. لكن سيميناريو كان قد استعاد شجاعته فصفعه صفقة.
- إليّ بأخري . احتجت لاتشونغنا. اترك، ما هذه المذاجة؟ اللعنة على أمك، اترك!
- آه، يا مسترجلة الخراء . قال سيميناريو. أغربي أو أتقبك بالرصاص.

كان ليتوما يمسك المسدس برؤوس أصابعه، وكان القرص الأكرش نو الثوب الخمسة أمام عينيه. كان صوته رصيناً، تعليمياً. ونظر كي يرى إن كانت قد بقيت طلقة في داخله.

- لم يكن يكلمنا نحن، وإنما يكلم الشرطي . قال الشاب . كان يوحى بهذا الانطباع، يا سيلباتيكا...

عندئذ نهضت لاتشونغنا، اجتازت حلبة الرقص راكضة وخرجت، صافقة الباب بقوة.

- عندما لا نحتاج إليهم لا يظهرون . قالت . اضطرتت إلى الذهاب إلى نصب غراو كي أجد شرطيين.

أمسك الرقيب رصاصه، رفعها بنعومة، وتخصصها في ضوء المصباح الكهربائي الأزرق. كان عليه أن يأخذ القذيفة ويدخلها في السلاح، وفقد المونو السيطرة على أعصابه، يا ابن العم، كان يكفي، ليذهبوا إلى لامانغاتشيرياً وينتهوا. وكذلك كان الأمر بالنسبة لخوسيه، الذي قال شبه باك، لا تلعب بهذا المسدس، لتقلوا ما قاله المونو، يا ابن العم، لتذهبوا.

- لا أغر لهم أنهم لم يحكوا لي ما كان يحدث . قال عازف القيثارة. فزعيق ابني آل ليون والغنيات خبئني، لكنني لم أتصور أبداً هذا، فقد اعتقدت أنهما كانا يتشاجران .

- لا أحد توقع شيئاً من هذا، يا معلم . قال بولاس . أيضاً سيميناريو سحب مسدسه، وكان يمرره على وجه ليتوما وكنا ننتظر في كل لحظة أن تغلت طلقة.

كان ليتوما هائناً دائماً والمونو: لا تدعوهم، أوقفوهم، ستحدث كارثة، أنت يا نون أنسيلمو، فهما يسمعان كلمتك. وبما أن لاسيلباتيكا وريتا وماريبل كن يكيين ليفكر في زوجته، وخوسيه في الابن الذي كان ينتظره، يا ابن العم، لا

تكن عنيداً، هيا بنا إلى لامانغاشيرياً. وبضربة لقم الرقيب. كان كل شيء قد أصبح جاهزاً، والسيد سيميناريو، ماذا كان ينتظر كي يأخذ احتياطاته؟

- من أولئك العشاق الذين يكلمهم المرء دون جدوى لأنهم سارحون في القمر. تنهد الشاب. كان المسدس قد سحر ليتوما.

- وكان هو قد سحرنا نحن. قال بولاس. وسيميناريو كان يطيعه مثل جرو. لم يكد يأمره ليتوما بذلك، حتى فتح مسدسه وأخرج جميع الطلقات إلا واحدة. المسكين كانت أصابعه ترتجف.

- كان قلبه يقول له إنه سيموت. قال الشاب.

- كفى، أسند يدك الآن على القرص دون أن تنظر إليه، وأدره، كي لا تعرف أين هي الطلقة، أدره بسرعة كبيرة، مثل الروليت. قال الرقيب. لذلك يسمى بهذا الشكل، يا عازف القيثارة، ألا تلاحظ؟

- كفى، ثرثرة. قال سيميناريو. لنبدأ، يا كلب الخراء.

- هذه هي المرة الرابعة التي تشتمني فيها، يا سيد سيميناريو. قال ليتوما.

كانت الطريقة التي أدارا بها القرص يقشعّر لها البدن. قال بولاس. فقد بدا عليها وكأنهما صبيان يلغان خذروفاً.

- ها أنت ترين كيف هم البيوريون، أيتها الفتاة. قال عازف القيثارة. يقامرون بحياتهم لمجرد الخيلاء.

- أي خيلاء. قالت لاتشونغا. بل لمجرد أنهم سكارى وكي ينجصوا علي حياتي.

أفلت ليتوما القرص، وكان عليهما أن يضربا قرعةً ليريا من يبدأ، لكن ماذا بهم، فقد دعاه بطريقة جعلته يرفع المسدس، كان حظه هو، وضع فوهة السبطانة على صدغه، أغمض عينيه، وضغط على الزناد: تراك، وصرير أسنان. شحب لونه، شحب لونه جميعاً، فتح فمه ففتحوا جميعهم أفواههم.

- اسكت، يا بولاس. قال الشاب. ألا ترى أنها تبكي؟

داعب دون أنسيلمو شعر لاسيلباتيكا، وناولها منديل الملون، يا فتاة، لا تبكي، فهي أشياء عابرة، ماذا تهم الآن، وأشعل الشاب سيجارة وقدمها له. كان

الرقيب قد وضع المسدس على الطاولة وكان يشرب، ببطء من كأس فارغ، دون أن يضحك أحد. كان وجهه يبدو وكأنه خرج من الماء.

- لا شيء، لا تثر. كان الشاب يتوسل. سوف تتأذى، يا مايسترو، أقسم لك أنه لم يحدث شيء.

- جعلتني أشعر بما لم أشعر به أبداً. تمتم المونو. الآن، أرجوك، يا ابن العم، هيا بنا.

وخوسيه، وكأنه يستيقظ، هذا يبقى يا ابن العم، كم صار عظيماً، ومن الدرج ارتفع أزيز القاطنات، ولولت لاساندر، والشاب وبولاس: اهدأ يا معلم. وهز سيميناريو الطاولة، صمت، يغضب، اللعنة، جاء دوري، اسكتوا. رفع المسدس ألقاه بالصدغ، لم يغمض عينيه، وانتفخ صدره.

- سمعنا الطلقة عندما كنا ندخل الحي مع الشرطة. قالت لاتشونغا. والجلبة. رفضنا الباب، خلعه رجال الشرطة بينادقهم، وأنتم لم تتحوا لنا.

- كان قد مات واحد، يا تشونغا. قال الشاب. من كان سيفكر في فتح الباب.

- سقط على وجهه فوق ليتوما. قال بولاس. وعندما اصطدم به سقطا على الأرض. بدأ الصديق يصيح نادوا الدكتور ثيباليو، لكن أحداً لم يكن يستطيع أن يتحرك من الخوف. إضافة إلى أنه لم يكن هناك نفع.

- وهو؟ قالت لاسيلباتيكا بصوت منخفض.

هو كان ينظر إلى الدم الذي لطخه، وراح يتلمس نفسه في كل مكان، بالتأكد كان يعتقد أنه كان نومه، ولم يخطر له أن ينهض. كان ما يزال جالساً، يتحسس نفسه حين دخلت الشرطة والبنادق في أيديهم يهدوء مصويين إلى كل الناس، لا أحد يتحرك، إذا حدث شيء للرقيب سوف ترون. لكن أحداً لم يهتم بهم. كان المنيعون والقاطنات يجرون متعثرين بين الكراسي، وعازف القيثارة يهدج، يتعثر، يمسك واحداً. من كان، يهزه، وآخر، من مات؟ وتسمر شرطي على الدرج وجعل الذين كانوا يريدون الهرب يتراجعون: انحنت لاتشونغا والشاب وبولاس فوق

سيميناريو: كان على وجهه والمسدس ما يزال في يده ولطخة دبقة كانت تنمو بين شعره. كان الصديق على ركبته، يغطي وجهه، ولينوما ما يزال يتحسس نفسه.
- والشرطة، ماذا حدث، يا رقيب، تطاول عليك فقتلته؟ قال بولاس . وهو على كل شيء يجيب بنعم وكان به دواراً.
- انتحر السيد . قال ألمونو. لا علاقة لنا بشيء، اتركونا نخرج، فعائلتنا تنتظرنا.

لكن الشرطة كانت قد سدت الباب وحرسته والأصابع على زناد البناق، واللغات والشرر يتطاير من أفواههم وعيونهم.
- كونوا إنسانيين، كونوا مسيحيين، اتركونا نخرج . ردد خوسيه . كنا نروح عن أنفسنا، ولم نتدخل في شيء. بمن تريدوننا أن نقسم؟
- هاتي بطانية من الأعلى، يا مارييل . قالت لاثشونغا. لنعطيه.
- أنت لم تُصابي بالدوار، يا تشونغا . قال الشاب.
- أخيراً رميتُ بها فما من شيء كان يستطيع أن يزيل البقع . قالت لاثشونغا.
- تحدث معهم أغرب الأشياء . قال عازف القيثارة. يعيشون بشكل مختلف ويموتون بشكل مختلف.

- عمن نتحدث، يا مايسترو؟ . قال الشاب.
- عن آل سيميناريو . قال عازف القيثارة. كان فمه مفتوحاً وكأنه سيضيف شيئاً، لكنه لم يفعل.
- أعتقد أن خوسيفينو لن يأتي بعد الآن في طلبي . قالت لاسيلباتيكا.
فالوقت متأخر جداً.

كان الباب مفتوحاً ومنه كانت الشمس تدخل مثل حريق نهم، فجميع زوايا القاعة كانت تلتهب. كانت السماء فوق أسطحه الحي تظهر شاهقة العلو، والسماء بلا غيوم، وشديدة الزرقة، وكان يظهر متن الرملة المذهب وأشجار الخرنوب الصغيرة والمتباعدة.

- نحن نملك، أيها الفتاة . قال عازف القيثارة.. وهكذا توفرين أجرة السيارة.

الجزء الرابع

-VI-

كانت الزوارق التي تدفعها المجاذيف الطويلة تقترب بصمتٍ من الضفة، ويقفز فوشياً وبانتاتشا ونيبيس إلى الأرض. يدخلون بضعة أمتار في الأحراج، يجلسون القرفصاء، ويتحدثون بصوت منخفض، يسحب الهوامبيسيون الزوارق ويخبئونها تحت الأغصان، يحمون آثار الأقدام على وحل الضفة، ويدخلون بدورهم في الجبل. يحملون سبطانات وقؤوساً، وأقواساً ومناجل بأطواق معلقة إلى الرقاب، ومدى ومواسير مطلية بالكورار¹³² إلى خصورهم. تختفي وجوههم وجنوحهم وأذرعهم وأرجلهم تحت الوشم، وكما يفعلون في الأعياد الكبيرة صبغوا أسنانهم وأظافرهم أيضاً. يحمل بانتاتشا ونيبيس جفتين وفوشياً مسدساً فقط. يتبادل أحد الهوامبيسيين معهم الكلام ثم يضع بخفة في الغابة. هل كان المعلم يشعر أنه أفضل؟ لم يشعر المعلم بأنه مريض، من كان يبتدع ذلك؟ لكن على المعلم ألا يرفع صوته: فالرجال كانت تتوتر أعصابهم. أطراف خرساء منتشرة تحت الأشجار، الهوامبيسيون يراقبون ذات اليمين وذات الشمال، حركاتهم واعية، وحده بريق حنقاتهم وانقباض شفاههم الخفي يدل على الأيسادر والمغلي اللذين كانوا يشربونها طول الليل، حول الصلاة، في المنخفض الذي خيموا فيه. يبأل بعضهم رؤوس السهام المبطنة بالقطن بالكورار، وآخرون ينفخون في السبطانات كي يطردوا الهباب. ينتظرون برهة طويلة ساكنين دون أن ينظر أحدهم إلى الآخر. عندما يظهر الهوامبيسي الذي كان قد ذهب مثل سنور رشيق بين الأشجار، تكون الشمس مرتفعة وتصهر أسننتها الصفراء خطوط الطحالب والبكسة على الأجسام العارية. ثمة جغرافيا معقدة من الأنوار والظلال، فقد برز لون الأدغال، وبدت القشور أكثر قساوة وخشونة ووصل من الأعلى زعيق طيور مصم. ينتصب فوشيا ويتكلم مع الوافد لفتوه، ثم يعود إلى حيث بانتاتشا ونيبيس: الموارتيون¹³³

¹³² لكورار: خلاصة راتجة تستخلص من لحاء بعض الأشجار.

¹³³ الموارتيون: قبيلة من سكان أمريكا الأصليين تعيش في مقاطعات نابو. باستا وسانتياغو. نامورا بين نهري نابو ومورونا ويتميزون بشدة بأسهم وضرلوتهم.

يصطادون في الغابة، ولا يوجد إلا النساء والأطفال، ولا يبدو أن هناك مطاطاً ولا
 جلوداً. على أي حال، هل يستحق الأمر أن يذهبوا؟ المعلم يفكر أنه يستحق، من
 يدري، فربما خباها أولئك الكلاب. يتكلم الهوامبيسيون الآن ملتقنين حول الوافد
 يستتقونه دون عجلة بكلمات أحادية المقاطع فيجيب بصوت منخفض، داعماً
 كلماته بإيماءات وحركات من رأسه. ينقسمون إلى ثلاث مجموعات، على رأسهم
 المعلم والمسيحيون، وهكذا يتقدمون، دون عجلة، وبشكل متواز، يتقدمهم
 هومابيسان، يشقان لهم الطريق بين الأغصان بالمسطار، بالكاد يسمع حفيف
 الأرض تحت أقدامهم، باحتكاك أجسامهم كانت الأعشاب الطويلة والأغصان
 تتحني جانباً محدثة الخشخشة نفسها، ثم تنتصب خلفهم وتتجمع. يتابعون سيرهم
 برهة طويلة، ثم فجأة صار النور أفسى وأقرب، ونفذت الأشعة بشكل متمايل بين
 النباتات التي قلّت وصارت أكثر انخفاضاً وأقل رتابة وأفتح لوناً. يتوقفون ويلمحون
 في البعيد تخم الجبل، منطقة مكشوفة واسعة، وبعض الأكواخ ومياه البحيرة
 الهادئة. يتقدم المعلم والمسيحيون المزيد من الخطوات ويراقبون، تتجمع الأكواخ
 فوق رابية جرداء ضاربة إلى الرمادي. وعلى مسافة قصيرة من البحيرة خلف
 التجمع السكني، الذي يمكن أن يُقال عنه إنه مقفر، يمتد شاطئ مستو ضارب إلى
 الصفرة. في الجانب الأيمن يتمطى أحد أذرعة الغابة ويكاد يصل إلى الأكواخ:
 ليتركهم بانناتاشا يرونه هناك وليذهب الموراتيون إلى هذا الجانب. يدور بانناتاشا
 نصف دورة يشرح، يومئ محاطاً بهوامبيسيين يصفون إليه موافقين. يبتعدون في
 صف متعرج، منحنيين، يزيحون النباتات المتسلقة بأيديهم ويلتفت المعلم ونبييس
 والآخرين بعيونهم مرّة أخرى باتجاه التجمع السكني، الذي يقدم الآن علانم حياة:
 يتكهن بوجود أطياف، حركات وبعض الأشخاص يذهبون ببطء نحو البحيرة، في
 نسق، وعلى رؤوسهم حزم يبدو أنها جرار، تواكبهم أشباح صغيرة، ربما كانت كلاباً
 أو أطفالاً. هل يرى نبييس شيئاً؟ لا يرى مطاطاً، يا معلم، لكن تلك الأشياء
 المنشورة فوق الدعامات يمكن أن تكون جلوداً تُجفف في حرارة الشمس. المعلم لا
 يرى تفسيراً لذلك، فالمنطقة فيها حقول مطاط، تُرى ألم يأت المعلمون بعد ليجمعوا

المطاط؟ هؤلاء الموراتيون كسالي، لا يجهدون أنفسهم بالعمل. كانت الأحاديث بين الهوامبيسيين في كل مرة أكثر توترًا. جالسين القرفصاء أو واقفين أو معتلين الأشجار كانوا ينظرون بنبات إلى الأكواخ والأطراف المتلاشية على الشاطيء والظلال الزاحفة، وعيونهم الآن لم تعد وديعة وإنما جامحة، وفيها شيء من الجراءة الجشعة التي توسع حدقات الأتورونغو¹³⁴ الجائع. واكتسبت جلودهم المشدودة لمعان جلد النمر الأميركي البهي. أيديهم تظهر سخطاً، تضغط على السبطانات، تتلمس الأقواس، والمدى، تضرب على الأفضاخ، وأسنانهم المطلية بالهويرو¹³⁵ والمبرودة كالمسامير، تصطك أو تقضم خيزراناً أو ضلع تبغ. يقترب فوشيا منهم، يكلمهم فيدمدمون ويصقون وتكثيرات أفواههم باسمه ومحاربة ومهتاجة في آن. فوشياً بجانب نيبس، يراقب وركبته على الأرض. تعود الأشباح من البحيرة، تجول ضامرة ثقيلة بين الأكواخ، وتشعل في مكان ما ناراً. يصعد عمود رمادي نحو السماء البراقة. كلب يعوي. ينظر فوشياً ونيبس الواحد إلى الآخر، يقرب الهوامبيسيون السبطانات من شفاههم، يطلون على عتبات الغاية، تبحث عيونهم عن الكلب، لكن الكلب لا يظهر، ينبح بين الفينة والأخرى، غير مرئي وفي مأمن. وماذا لو دخلوا ذات يوم الأكواخ وكان الجنود ينتظرونهم فيها؟ ألم يخطر هذا للمعلم أبدأ؟ لم يخطر له هذا أبدأ؟ بالمقابل كان يخطر له وفي كل سفرة أنهم عندما يعودون إلى الجزيرة يكون الجنود مصويين عليهم من الوهدة. وأنهم سيجدون كل شيء وقد أحرق ونساء الهوامبيسيين مقتولات والمعلمة قد حملوها معهم. في البداية كان هذا يسبب له بعض الخوف، أما الآن فلا، لاشيء إلا توتر الأعصاب. ألم يخف المعلم في أية مرة؟ لم يخف أبدأ، لأن الفقراء الذين يخافون

¹³⁴ أوتورونغو: حيوان لم أستطع تحديد نوعه.

¹³⁵ الهويرو: نوع من الطحالب يكثر على الشواطئ التشلوية بشكل خاص. ساق الذرة وهو هنا الصباغ المستخرج منه أو الناتج عنه.

يبقون طوال حياتهم فقراء. لكن هذا غير مقنع، يا معلم، فنيبببب دائماً كان فقيراً والفقر لم يخلصه من الخوف. المعألة أن نيبيببب كان يفتتت والمعلم لا. كان قد تعرَّض حظه، لكن هذا ينقضني، وعاجلاً أم أجلاً سيعبر إلى جانب الأثرياء. ومن كان يشك في هذا، يا معلم؟ فهو كان يحصل على كل ما يريد. يهزَّ الصباح انفجار من الأصوات. يخرجون من لسان الغابة ويجرون نحو الأكواخ عاوين فجأة، ذاهبين، عراة، ويؤشرون وهم يصعدون المنحدر. وبين الأجسام البعيدة يلمح سروال بانثانتشا الداخلي الأبيض، وتُسمع صرخاته التي تذكّر بضحكة التشيكوا¹³⁶ الساخرة. تتبح كلاب كثيرة، والأكواخ تفرز أشباحاً، زعيقاً واضطراباً عنيداً، ونوعاً من الغليان يهزُّ المنحدر الذي يهربون عبره وهم يتعثرون ويقفزون، ويصدم بعضهم بعضاً، هينات تأتي باتجاه الغابة، وتظهر أخيراً بوضوح: إنهن نساء. وصلت الأجسام الأولى الملونة إلى القمة. وخلف نيبيببب وفوشياً يطلق الهوامبيبييون الصبحات ويقفزون، يهتِّزَّ مجموع الأغصان بكامله وما عادت تُسمع الطيور. يلتفت المعلم، يشير إلى الخلاء والنساء الهاربات: يستطيعون الذهاب، لكنهم يمكنون في أماكنهم عدة ثوان أخرى وهم يحثون بعضهم بعضاً بالمدمة واللهاث والرفس، وفجأة يرفع أحدهم سبطانته ويطلق لساقيه العنان، ويعبر الحرج الضيق الذي يفصلهم عن المنطقة المكشوفة، وحين يصل يجري الآخرون أيضاً وقد انتفخت رقابهم من الصراخ. يلحق بهم الدليل وفوشياً. وفي المنطقة المكشوفة ترفع النساء أيديهن، وينظرن إلى السماء، يتململن، ينقسمن إلى مجموعات والمجموعات إلى أطراف منفردة، يقفزن، يسقطن على الأرض ثم يختفين، الواحدة بعد الأخرى، مطمورات بالجلود ذات البريق الأسود والضارب إلى الحمرة. يتقدم فوشياً ونيبيببب فيتبعهما الصراخ ويتقدمهما، ويبدو وكأنه قادم من الغبار الوهاج الذي يحاصرهما خلال صعودهما المنحدر. في القرية الموراثية يحوم الهوامبيبييون بين الأكواخ، يسحقون برؤوس أقدامهم الجدران الرقيقة، يهرون بسقوف اليارينا

¹³⁶ تشيكوا: امرأة تنتمي إلى قبيلة تحمل الاسم ذاته، معروفة الآن بحدادها وشمسوتها، وكانوا متحضرين، وعندما حدث الغزو الأوروبي انزروا وتعزلوا.

بسواطيرهم، واحد يرمي الفراغ بالحجارة وآخر يطفى النار والجميع يتمايلون، سكارى؟ مذهولين؟ ميتين من التعب؟ يمضي فوشياً خلفهم، يهزهم، يستنطقهم، يأمرهم، ويانتاشا، الجالس على جرة، يتدفق منه العرق وعيناه تتحركان، فاغر الفم، يشير إلى الكوخ، لم يُمس بعد: كان يوجد هناك عجز. بلى، رغم كل ما قاله لهم، يا معلم، فإنهم قطعوا عضوه. يهدأ بعض الهوامبيسين وينبشون هنا وهناك، يمرون محملين بالجلود وكرات المطاط والبطانيات التي يكمونها في المنطقة المكشوفة. تركّز الصراخ الآن، إنه ينبعث من النسوة المحصورات في هيكل من القصب وثلاثة هوامبيسين يراقبونهم جامدين على بعد خطوات. يدخل المعلم ونيبيس إلى الكوخ، وبين رجلين جاثيين توجد أرجل قصيرة ومجعدة، وعضو تناسلي يستره غمد خشبي، بطن، بدن هزيل وأمرد ذو أضلاع تعلّم الجلد الترابي. يعود أحد الهوامبيسين ويربهم الرأس الذي يقطر بصعوبة الآن قطرات قانية. بالمقابل كانت الفتحة التي بين الكتفين الهزيلين تدفق دائماً دقات متقطعة من الدم الكثيف، يا للكلاب، أمعن النظر في وجوههم. لكن نيبس خرج من الكوخ يقفز إلى الخلف مثل سرطان، والهوامبيسيان لا يظهران أي حماس، وأعينهما متورمة. يصغيان بصمت وبلا تأثر، إلى فوشيا الذي يصرخ ويوشر ويعصر مسدسه، وعندما يسكت يخرجون من الكوخ، فيجدون نيبس هناك مستنداً إلى الحاجز وهو يتقيأ. كذاب، لم يكن قد ذهب عنه الخوف حتى وقتذاك، لكن عليه ألا يخجل، فأى واحد معرض لأن تخرب معدته، يا للكلاب؟ ما الفائدة من بانتاشا؟ وما فائدة أن المعلم كان يعطي الأوامر؟ ويحهم، إنهم لا يتعلمون أبداً، ففي أي يوم يمكن أن يقطعوا لهم رؤوسهم. لكن حتى لو بإطلاق النار، ويحهم، حتى لو بالرفس، ويحهم، يجب أن يطيعه هؤلاء الأوغاد. يعودون إلى المنطقة المكشوفة، يبتعد الهوامبيسيون، كل شيء قد رُتّب على الأرض: جلود الطيبة، الغزلان والأفاعي والهوانغانا¹³⁷، اليقطين، الأطواق، المطاط وحزم البوصير. النسوة متراحمات

¹³⁷ الهوانغانا: حيوان ثديي أمريكي، شبيه بالخنزير الأمريكي.

وصاخبات دائماً بقلبن عيونهن، الكلاب تتبح وفوشياً يتحصص الجلود في الضوء، يقدر وزن المطاط ونبييس يتراجع ويجلس على جذع ساقط وبانتاشا يأتي إلى جواره. تراه الساحر؟ من كان يدري، لكنه، وهذا صحيح، لم يحاول الهرب وعندما دخلوا كان جالماً يحرق بعض الأعشاب. هل صرخ؟ من كان يدري، فهو لم يسمعه، في البداية أراد أن يوقفهم ثم أراد أن يذهب وذهب وكانت ساقاه ترتعدان، وتغوط في ثيابه ولم يشعر بذلك. الصحيح أن المعلم كان مغتاضاً، ليس لأنهم قتلوه، لأنهم لم يطبعوه؟ بلى. لم يكن يوجد تقريباً شيء، فالجلود كانت تالفة والمطاط كان من أكثر الأنواع رداءة، شيء بهيج، لكن لماذا كان يتظاهر؟ ألم يكن مريضاً أيضاً؟ كانوا مسيحيين، وفي الجزيرة كان المرء ينسى أن التثونتشيون تشونتشيون، لكن مفهوم الآن، لم يكن من الممكن العيش بهذا الشكل، ولو كان هناك مساتو لسكر. ثم أنعم النظر، كانوا يجادلون المعلم. صوت فوشياً، الذي يخفيه الهوامبيسيون الذين أحاطوا به، يدوي في الصباح المشمس بينما هم يزمجرون بعنف، يهزون قبضاتهم، يبصقون، ويهتزون. فوق شعورهم المسترسلة تظهر يد المعلم بالمسدس المصوب نحو السماء، يطلق النار، فيهمهم الهوامبيسيون لثانية، يسكتون، طلقة أخرى وتسكت النسوة أيضاً. وحدها الكلاب تستمر بالنباح. لماذا كان المعلم يريد أن يرحل فوراً؟ كان الهوامبيسيون متعبين وكان بانتاشا متعباً أيضاً، وهم كانوا يريدون أن يحتفلوا، ليس من أجل الجلود، وإنما لمجرد المتعة. وذات يوم سيحتاجون وسيقتلونهم. المسألة أن المعلم كان مريضاً، يا بانتاشا وكان يريد أن يبرهن العكس، لكنه لم يستطع. ألم يكن يمرح من قبل؟ ألم يكن يحب الاحتفال أيضاً؟ والآن لم يكن ينظر إلى النساء، ودائماً كان مهتماً. أترأه جن لأنه لم يصبح ثرياً كما كان يريد؟ يتحاور فوشياً والهوامبيسيون الآن بحرارة ودون عنف، ليس هناك زمجرة وإنما همس حي، عصبي ومغلق، وتظهر بعض الوجوه فرحاً. النسوة صامتات، يلتحمن ببعضهن، يحتضن أولادهن وكلابهن، مريض؟ طبعاً فالليلة السابقة على ذهاب خوم إلى الجزيرة، دخل نبييس ورأه، والأشواليات كن يدهن رجليه بالراتينج، ويحك، اخرج،

واهتاج، لم يكن يريد أن يعرفوا أنه كان مريضاً، فوشياً يعطي تعليماته، والهوامبيسيون يلقون الجلود، ويحملون كرات المطاط على أكتافهم، يدوسون ويخرجون كل الذي استبعده المعلم، ويقترب بانثاشا ونيبيس من المجموعة. يزداد أولئك الكلاب سوءاً مرة بعد أخرى، لم يكونوا يريدون أن يطيعوا، يتمادون عليه، ويحهم، لكنه سوف يعلمهم. المسألة أنهم كانوا يريدون أن يحتفلوا، يا معلم، ثم إنه كان يوجد نساء كثيرات. لماذا لا يتركهم المعلم؟ إنه أحمق مثلهم، هو أيضاً؟ ألم تكن المنطقة مليئة بالجنود؟ إنه جبلي فظ، لو سكرنا لدامت سكرتهم يومين، يال له من وغد، يمكن أن يعود الموراثيون ويباغتهم الجنود أيضاً. لم يكن المعلم يريد مشاكل من أجل أشياء تافهة، ليحملوا البضائع إلى النهر، وعذ، وبالسرعة القصوى.

يهبط عدد من الهوامبيسيين المنحدر وخلفهم يمضي بانثاشا، وهو يحك، ويستحثهم، لكن الرجال يسرون، على مهل ودون رغبة، في صفوف صامتة، متباطئة وملتوية. الذين يمكثون في القرية يهيمسون، يمضون من جانب إلى آخر بارتياك، يتحاشون فوشياً الذي يراقبهم والمسدس في يده من وسط المنطقة المكشوفة. أخيراً تبدأ بعض الحواجز بالاحتراق. يتوقف الهوامبيسيون عن الحركة، ينتظرون مطمئنين أن تأتي النيران على المسكن بزوية واحدة. ثم يشرعون في العودة. أثناء هبوطهم المنحدر الأمرد يلتفتون وينظرون إلى النساء في القمة يلقون بالتراب ملء أيديهم على الكوخ الملتهب. يصلون إلى الغابة وعليهم أن يشقوا طريقهم بالسواطير من جديد ويتقدموا عبر ممر ضيق مظلل ومتحرك بين جنوع وخيزران ونباتات متسلقة وأغمار صغيرة. وعندما يصلون إلى الشاطئ يكون رجال بانثاشا ورجاله قد سحبوا الزوارق من بين الأغصان ووضعوا الحمولة. يركبون، ينطلقون يتقدمهم زورق الدليل الذي يقيس عمق المجرى بالمجذاف الطويل. يبحرون طول المساء ويستريحون قليلاً لتناول الطعام، وحين تظلم، يرسون على شاطئه شبه مخفي بالتشامبيرا المتشابهة المنقشة بالأشواك. يشعلون ناراً، يخرجون طعاماً يشوون بعض إير

أدم وينادي بانثاتشا ونبييس المعلم: لا، لا يريد أن يأكل. لقد استلقى على الرمل، على ظهره ويستخدم ذراعيه وسادة. هما ياكلان ويستلقيان الواحد بجانب الآخر، يتغطيان ببطانية موراثية. لا أدري ما الشعور الذي كانت تسببه رؤية المعلم متغيراً بهذا الشكل، فهو لا يأكل ولا يتكلم. هل السبب هو ما في رجليه؟ هل لاحظت؟ كان لا يكاد يستطيع السير، ودائماً يبقى متخلفاً. لا بدّ أنّ ساقيه كانتا تؤلمانه، ثم إنه لم يكن يخلع بنظونه ولا جزمته أبداً. تتقاطع التمنّات في الظلام الكالح، ومن جميع الاتجاهات تأتي أصوات حشرات، أصوات النهر، الذي يقارع صخور ونجيل وأرض الضفة. وفي ظلمات المحيط تتألاً الكوكريات مثل نيران مختالة . لكن بانثاتشا رأى حين سحب ذلك الرداء¹³⁸ من الموراثيين، كان أجمل، وألوانه أكثر من ألوان ذلك الذي يصنعه الهوامبيسيون، رأى عندما كان يخبئه في البنطلون. صحيح؟ وماذا يظن بانثاتشا، لماذا يهرب خوم من الجزيرة؟ عليه ألا يغيّر الحديث، تراه كان يحمل هذا الرداء إلى الشابية؟ تراه وقع في حبها؟ كيف كان سيقع في حبها إذا كان لا يستطيع حتى أن يتقاهم معها؟ ولم تكن تعجبه كثيراً. سيتجاوزها إن؟ عندما يعودون؟ في الليلة ذاتها؟ بلى في الليلة التي يعودون فيها، إذا أراد. لمن إذاً هذا الرداء؟ الواحدة من التسويات؟ هل سيمنحه المعلم أتشوالية؟ ليس لأحد، وإنما له هو وحده، فقد كان يحب الأشياء المصنوعة من الريش، ثم إنه سيكون نكري.

¹³⁸ الأكيثاي: نوع من الدثار المحلي.

انتظرت بونيفاثيا الرقيب عند أسفل الكوخ. كانت الريح ترفع شعرها مثل عُزف، وكانت قنماها مغروسين في الرمل. ابتسم الرقيب وداعب نراعها العاري. قال إنه تأثر عندما رآها من بعيد. اتسعت عيناها الخضراوان قليلاً. كانت الشمس تنعكس في حذقيها كمثل اهتزاز سهام صغيرة.

- لَمَعَتْ جِزْمَتِكَ . قَالَتْ بُونِيفَاثِيَا . وَبِدَلَّتِكَ تَبْدُو جَدِيدَةً .

علت ابتسامة رضى وجه الرقيب وكانت تمحو عينيه:

-غسلتها السيدة باريديس . قال . كنت خائفاً أن تمطر، لكن يا للحظ، ليس

هناك حتى سحابة صغيرة. يبدو نهاراً بيورياً.

- لم تنتبه . قَالَتْ بُونِيفَاثِيَا . أَلَا يَعْجِبُكَ ثَوْبِي ؟ إِنَّهُ جَدِيدٌ .

- فعلاً لم أنتبه . قال الرقيب . مناسب لك تماماً، اللون الأصفر يلائم تماماً السمراوات .

كان ثوباً بلا كمين، بفتحة عنق مربعة وطارة واسعة. كان الرقيب يتححص بونيفاثيا

مبتسماً، ويده تداعب دائماً نراعها دون أن تبدي هي حراكاً وعيناها مطلقان في عيني الرقيب.

وكانت لاليتا قد أعارتها حذاء أبيض، جزيته ليلاً فألمها، لكنها ستنتعه للذهاب إلى الكنيسة.

ونظر الرقيب إلى قلمي بونيفاثيا الحافيين، الغائصين في الرمل: كان عليها ألا تسيير حافية.

ليس مهماً هنا، أيتها الصينية، لكن عندما يذهبان، عليها أن تمضي دائماً بالحذاء.

- عليّ أن أعتاد عليه أولاً . قَالَتْ بُونِيفَاثِيَا . أَلَا تَرَى أَنَّنِي فِي الْبِعْثَةِ لَمْ أَنْتَعَلْ

إِلَّا النَّعْلَ ؟ وَالْأَمْرَ لَيْسَ سِوَاهُ ، فَالْنَعْلَ لَا يَضْغُطُ .

ظهرت لاليتا في الشرفة: ماذا تعرف عن الملازم، يا رقيب؟

كانت تُمسك شعرها الطويل شريطةً وكان يتلألأ في نحرها طوقاً من

اللؤلؤ، وكانت شفتاها مطليتين. إنها فتاة شهية، وجنتا خديها حمراوان. كان

الرقيب يرغب بالزواج منها، ولاليتا: ألم يصل الملازم؟ ماذا يعرف عنه؟

-ولا أي خبر . قال الرقيب . كل ما يعرفه هو أنه لم يصل إلى تكنة بورخا

حتى الآن. يبدو أنها تمطر بغزارة، وأنهم انقطعوا في منتصف الطريق. لكن

لماذا يشغلهم أمره كثيراً، كما لو أن الملازم ابن لهم؟

- اذهب، يا رقيب . قالت لاليتا. فرؤية الخطيية قبل الصلاة تأتي بالشوم .
 - خطيية؟ . انفجرت الأم أنخليكا. تريدن أن تقولي خليلية، محظية .
 - كلا، أيتها الأم . أكنت لاليتا بصوت متواضع . إنها خطيية الرقيب .
 - الرقيب؟ . قالت رئيسة الدير. منذ متى؟ كيف حدث هذا؟
 انحنيت الأمهات مباغطات غير مصنفات نحو لاليتا التي اتخذت موقفاً
 محافظاً، جامعة يديها وخافضة رأسها. لكنها كانت تتجسس على الأمهات من
 طرف عينها وكانت نصف ابتسامتها مخادعة .
 - إذا صارت سيئة معي ستكونين أنت ودون أدريان المسؤولين . قال
 الرقيب . فأنتما من أدخلني في هذه المغممة، يا سيده .
 كان يضحك مفتوح الفم، وقوة، وجسده المسرور أيضاً كان يهتز من القميين إلى الرأس .
 كانت لاليتا ترقى بأصابعها لتبعد سوء الطالع ويونيفانثيا ابتعدت عدة خطوات عن الرقيب .
 - هيا، اذهب إلى الكنيسة . رددت لاليتا. فأنت تزعج نفسك وترجعها
 بإرادتك، لماذا جئت؟
 ولم تراه قد جاء، يا سيده؟ ومد الرقيب يديه نحو يونيفانثيا، طبعاً كي يرى
 صينيتها، فركضت، إذاً فقد أخذتها الغيرة، ومثل لاليتا قاطعت أصابعها ورقت
 الرقيب، الذي كان مزاجه في كل مرة أفضل. ساحرات، ساحرات وكان يضحك
 مقهقهاً: أه لو يرى المانغاشيون هذا الزواج من الساحرات. لكنهما لم تكونا موافقتين .
 وهربت قبضة الأم أنخليكا من الكم، صفعت الهواء واختفت بين طيات الرداء: لن
 تطأ قنماها هذا البيت. كانوا في الغناء، أمام مقر الإقامة. وفي العمق كانت الربييات
 يطفن بين أشجار الفاكهة في البستان. كانت رئيسة الدير تبدو شاردة .
 - إنها تستغرب موقفك أنت أكثر، أيتها الأم أنخليكا . قالت لاليتا. تقول إنها
 محظوظة أكثر من الجميع، وتقول إن لها أمهات كثيرات وأولهن الأم أنخليكا .
 وهي كانت تعتقد أنك ستساعديني في التوسل عند رئيسة الدير، أيتها الأم .
 - إنها شيطان، مفعمة بالمكر وفنون الشر . ظهرت القبضة واختفت . لكنها لن
 تستمليني هكذا ودون مقدمات . لنذهب مع رقيبها إذا أرادت. فهي لن تدخل إلى هنا .

- لماذا لم تأت هي بدل أن ترسلك أنت؟ . قالت رئيسة المدير .
- إنها تخجل، أيتها الأم . قالت لاليتا. فهي لم تكن تعلم ما إذا كنت ستستقبلينها أم ستطردينها من جديد. هل تعتقدين أنها ليست عزيزة النفس لأنها ولدت وثنية؟ اغفري لها. أيتها الأم، تصوري أنها ستتزوج.
- كنت ذاهباً لأبحث عنك، أيها الرقيب . قال الدليل نيبيس . لم أكن أدري أنك هنا .
كان قد خرج إلى الشرفة واستند إلى الدرابزين، إلى جانب لاليتا . وكان يرتدي بنطلوناً قطنياً أبيض وقميصاً بكمنين طويلين وبلا قبة . لم يكن يعتمر قبة وينتعل حذاء سميك النعل .

- اذهبوا وخلصونا . قالت لاليتا. خذه، يا أدريان حالاً .
نزل الدليل الدرج، كانت ساقاه متخشبتين مثل هراوتين . حيأ الرقيب لاليتا تحية عسكرية وغمز بونيفاتيا . انطلقا باتجاه البعثة، لكن ليس عبر الدرب الموازي للنهر وإنما بين أشجار الرابية . كيف كان يشعر الرقيب؟ حتى أية ساعة استمر وداع الليلة الفائتة، عند بارديس؟ حتى الثانية و«التقيل» سكر وألقى بنفسه إلى الماء بثيابه، يا دون أدريان، هو أيضاً سكر قليلاً، هل كانت قد توفرت معلومات عن الملازم؟ لكن، مرة أخرى، يا دون أدريان؟ لم يكن هناك أية معلومات، لا بد أن الأمطار قد حاصرته، هو الآن يرغي ويزيد . من حسن حظهم أنهم لم يبقوا معه . بلى وربما دام هذا طويلاً، يقولون إن نهر سانتياغو فاض . قل، وسيظل الأمر سراً بيننا، هل أنت مسرور بالزواج، أيها الرقيب؟ وابتسم الرقيب، وغابت عيناه لثوان، وفجأة طرق بيده على صدره: لقد دخلت تلك المرأة إلى هنا، يا دون أدريان لذلك سيتزوج منها .

- لقد تصرف كمتسحي طيب . قال أدريان نيبيس . فهنا لا يتزوج إلا الأزواج الذين أمضوا سنوات، الذين كبروا في السن، والأمهات والأب بيلانثيو يستميتون في نصحهم، دون نتيجة . بينما أنت تحملها إلى الكنيسة نفسها، ودون أن تكون حتى حبل . إن الفتاة مسرورة . كانت تقول ليلاً إنها ستكون امرأة طيبة وصالحة .
- في منطقتنا يقولون إن القلب لا يغش . قال الرقيب . وقلبي يقول لي إنها ستكون امرأة طيبة، يا دون أدريان .

كانا يتقدمان ببطء، يتجنبان الأعمار، لكن طماقي الرقيب وينظرون الدليل كانت قد امتلأت بالبقع. كانت أشجار الرايبة تُسْرَب نور الشمس وتمنحه بعض الرطوبة وتحركه. تحت البعثة، كانت سانتا ماريا ده نيبيا ترقد ساكنة ذهبية بين الأنهار والغابة. قفزا فوق أكمة، صعدا الدرب الوعر، وهناك في الأعلى، في باب الكنيسة، مجموعة من الأغوارونيين كانت قد وصلت إلى حافة المنحدر لتراهما: نساء بأثداء متهللة، أطفال عراة، رجال بأعين جافة وشعر كث. أفسحوا لهما كي يمرا. ومدّ بعض الأطفال أيديهم ودمموا. وقبل أن يدخلوا إلى الكنيسة نفخ الرقيب ببلته بالمندول وسوى قبعته، ونييس أفلت طية بنظونه. كانت الكنيسة مليئة، وتفوح منها رائحة الأزهار وقناديل الراتنج وصلعة دون فابيو كويستا تلمع مثل فاكهة في الظل. كان قد وضع ربطة عنق ومن مقعده لَوَح بيده للرقيب الذي رفع يده حتى قبعته. وخلف الحاكم كان يتتابع «الثقيل»، و«الصغير»، و«الأسود» و«الأشقر»، أفواههم حامضة وعيونهم غائرة. وكان آل بارديس وأبناؤهم يشغلون مقعدين. وكان هناك عدد لا يُحصى من الأطفال المبلي الشعر. في الجناح المقابل وخلف شبك، حيث تحول الظل إلى ظلمة، ظهرت واقبات الغبار والرؤوس المتماثلة: الربيبات. جاثيات، بلا حراك وعيونهن مثل سحابة من الكوكبوات للفضولية، تلاحق الرقيب، الذي كان يصافح الحاضرين وهو على رؤوس أصابع قدميه ويلمس الحاكم صلعته، يا رقيب: كان عليه أن يخلع قبعته في الكنيسة ويكون حاني الرأس مثله. كان الجنود يبتسمون والرقيب يسوي شعره الذي انتفش من الحدة التي انتزع بها قبعته. ذهب ليجلس في الصف الأول إلى جانب الدليل نيبيس: لقد رتبوا المذبح بشكل جميل، أليس كذلك؟ جميل جداً، يا دون أدريان، فالراهبات كن لطيفات. كانت أباريق الصلصال الحمراء تعجّ بالأزهار. وكان هناك أيضاً أزهار السحلية المجدولة أطواقاً تهبط من الصليب الخشبي حتى تصل إلى الأرض، وعلى جانبي المذبح أصص من السرخس الطويل وُضعت في صفوف مضاعفة إلى أن لامست الجدران. وكانت أرض الكنيسة قد نُظفت حتى صارت لأمعة. كانت تتصاعد من القناديل المشتعلة أعمدة

من الدخان الشفاف والعطر عبر الجو المعتم لتغذي الطبقة الكثيفة من البخار الذي كان يطفو ملاصقاً للسقف: لقد وصلت العروس واشيبتها، أيها الرقيب. حدثت مهمة والتفتت الرؤوس نحو الباب. كانت بونيفاتيا، التي تتعل حذاء عالي الكعبين، قد أصبحت بطول لاليتا. كان يغطي شعرها وشاح أسود وعيناها الواسعتان المستقرتان تجويان المقاعد، ولاليتا تتهامس مع آل باريديس وثوبها المزهر يفرض على هذا القسم من الكنيسة حيوية زاهية وفتية. انحنى دون فابيو نحو بونيفاتيا وهمس لها شيئاً فابتسمت، مسكينة: الصينية كانت منكمشة، يا دون أدريان، كم كان وجهها خجولاً. فيما بعد سقوها جرعة «فئسمر»، أيها الرقيب، ما حدث هو أنها كانت تموت رعباً من لقاء الأمهات. كانت تعتقد أنهم سوف يؤنبها. اليس حقاً أن عينيها كانتا جميلتين، يا دون أدريان؟ رفع الدليل إصبعه إلى فمه ونظر الرقيب إلى المذبح ورسم إشارة الصليب. جلست بونيفاتيا ولاليتا إلى جانبيهما وبعد برهة جئت بونيفاتيا وراحت تصلي وقد جمعت يديها وأغمضت عينيها، شفتاها لا تكادان تتحركان. كانت ما تزال على هذه الحال عندما صرّ الشبك ودخلت الأمهات إلى الكنيسة تتقدمهن رئيسة الدير. مضين إلى المذبح. ركعن ورسمن إشارة الصليب وتوجهن دون ضجة إلى المقاعد. وحين بدأت الربييات بالإنشاد انتصب الجميع على أقدامهم ودخل الأب بيلانثيو بلحيته الحمراء التي بدت فوق ثوبه الكنسي البنفسجي كمثل قميص تحت جاكيت. أومات رئيسة الدير إلى لاليتا مشيرة إلى المذبح، وبونيفاتيا ما تزال جاثية، تجفف عينيها بالوشاح. ثم نهضت وتقدمت بين الدليل والرقيب شديدة الانتصاب دون أن تنظر إلى الجوانب. كان جميع من في القداس متيبسين، ونظرهم معلق في نقطة بين المذبح وأكاليل زهر السحلية. كانت الأمهات والربييات يصلين بصوت عال والباقرن يركعون، ويجلسون وينهضون. بعدها أقرب الأب بيلانثيو من العروسين، اتخذ الرقيب وضعية الاستعداد، كانت اللحية الحمراء على بعد ميلترات من وجه بونيفاتيا، سأل الرقيب الذي ضرب كعباً بكعب وقال نعم بقوة، وسأل أيضاً بونيفاتيا لكن جوابها لم يُسمع. وهنا ابتسم الأب بيلانثيو بمودة ومدّ يده إلى الرقيب وإلى

بونيفاتيا، التي قبلتها. بدا وكأن جو الكنيسة قد انقشع، توفقت الربيبات عن الإنشاد وحدثت حوارات بصوت منخفض وابتسامات وحركات. عانق الدليل ولاليتا العروسين. وفي الدائرة التي تشكلت حولهم كان دون فابيو يمزح، والأطفال يضحكون و«التقويل» و«الصغير» و«الأسود» و«الأشقر» ينتظرون الواحد خلف الآخر كي يهنتوا الرقيب. لكن رئيسة الدير فرقتهم، يا سادة أنتم في كنيسة، صمت، لتخرجوا إلى القناء. وكان صوتها يعلو بقية الأصوات. اجتازت لاليتا وبونيفاتيا الشبك ثم تبعهما المدعوون وأخيراً الأمهات ولاليتا، بليدة، لتتركها، كانت الأمهات قد أعددن طاولة بسماط أبيض مليئة بالعصير والحلوى، لتتركها، فالجميع كان يريد أن يهنتها. كانت حجارة القناء تتلأأ وعلى جدران الإقامة البيضاء التي تطلخها الشمس ظلال تشبه العرائش. كم كانت خجلة منهن، لم تكن تجرؤ على النظر إليهن، وأثواب كنيسة، مهمات، همسات، ضحكات، وبدلات رسمية كانت تحوم حول لاليتا. كانت بونيفاتيا ما تزال تحتضنها، ورأسها مختف في الثوب المزهر وخلال ذلك كان الرقيب يتلقى ويوزع عناقات: إنها تبكي، أيتها الأمهات، ما أبلدها. لماذا أنت هكذا، يا بونيفاتيا؟ منكن أنتن أيتها الأمهات، ورئيسة الدير، غبية، لا تبكي، تعالي لأعانقك. وانفلتت بونيفاتيا بفضاظة من لاليتا وانفتحت وسقطت بين ذراعي رئيسة الدير. وبعدها راحت تمر من أم إلى أخرى، عليك أن تصلي دائماً، يا بونيفاتيا، بلى يا أم، وأن تكوني مسيحية حقيقية، نعم، وأن لا تتسيهن، لن تتساهن أبداً، وكانت بونيفاتيا تعانقهن بقوة، ويعانقنها بقوة ودموع غزيرة وغير إرادية تجري فوق خدي لاليتا، فتمحو أحمر الخدود، بلى، بلى ستحبهن دائماً. واكتشفن وشوم جلدها. كانت قد صلت كثيراً لأجلهن. اكتشفن بثوراً وبقعاً وندوباً وجراحاً. إن الأمهات لا يقدرن بثمان، أيها الأب بيلانثيو، فقد أعددن لهم كل شيء، لكن لينتبهوا، فالشوكولاتة تبرد والحاكم كان جائعاً. هل يستطيعون أن يبدؤوا، أيتها الأم غريسدا. أنقذت رئيسة الدير بونيفاتيا من بين ذراعي الأم غريسدا. طبعاً كانوا يستطيعون، يا دون فابيو، وانفتحت الدائرة: ربيبتان كانتا تهويان الطاولة المليئة بالأطباق والأباريق، وبينهما شبح قائم، من جهاز لك كل

هذا، يا بونيفاثيا؟ كان عليها أن تحزر، وبونيفاثيا تبكي، أيتها الأم قولي إنك قد غفرت لي، وكانت تشد ثوب رئيسة الدير، امنحها هذه الهدية، أيتها الأم. وكانت سبابة رئيسة الدير التي أشارت إلى السماء، نقيقة ووردية. هل طلبت الغفران من الله؟ هل تابت؟ كل يوم أيتها الأم. إذن لقد غفرت لها، لكن عليها أن تحزر، من الذي جهزها؟ وبونيفاثيا تنتشج، ومن سيكون، كانت عيناها تبحثان بين الأمهات، أين كان، أين ذهب؟ أبعث الشبح القائم الريبيتين وتقدم منحلياً، يجرجر قنميه، والوجه أكثر نفوراً من أي وقت مضى، أخيراً تنكرتها الجادة . لكن بونيفاثيا كانت قد توازنت وتركت الأم أنخليكا بين ذراعيها. وكان الحاكم والآخرين قد بدؤوا يتناولون الحلوى، وهي كانت، يا أمّ، والأم أنخليكا لم تأت أبداً لرؤيتها، يا للشيطان، لكنها كانت قد حلمت بها وفكرت كل ليلة وكل نهار بأماها، والأم أنخليكا لتجرب من هذا ومن ذلك، لتتناول عصيراً.

- لم تدعني أدخل المطبخ، يا دون فابيو . قالت الأم غريسelda. عليك هذه المرة أن تمتدح الأم أنخليكا. هي التي أعدت كل شيء للمتغطرة.
- ما الذي لم أفعله أنا لأجل هذه . قالت الأم أنخليكا. كنت حاضنتها، وخدمتها والآن طاهيتها.

كانت مصرة على إظهار تعابير الزعل والحقد، لكن صوتها كان قد تحسرج، وصارت تصدر صوتاً أجش مثل وثنية، وفجأة دمعت عيناها، وانورب فمها، وأجهشت في البكاء. كانت يدها المكتهلة المقوسة تربت بارتباك على بونيفاثيا، والأمهات والحراس يتبادلون توزيع الأطباق، يملؤون الكؤوس، والأب بيلانثيو ودون فابيو يضحكون مقهقين وتسلق أحد أطفال آل بارينيس الطاولة، وكانت والدته تمسوطه.

- أه كم يحببونها، يا دون أدريان . قال الرقيب . انظر كيف يدللنها من أجلي .
- لكن لماذا كل هذا البكاء؟ . قال اللليل . إذا كنّ في أعماقهن مسرورات جداً؟
- هل أستطيع أن أحمل لهن شيئاً، أماه؟ . قالت بونيفاثيا مشيرة إلى الريبيات، المتشكلات في ثلاثة صفوف أمام الإقامة. كان بعضهن يبتسم لها وأخريات يرسلن لها وداعات خجولة.

- لهن وجبتهن الخاصة أيضاً . قالت رئيسة الدير . لكن هيا عانقين .
- لقد جهّز لك هدايا . دمنمت الأم أنخليكا، وجهها شوهته الدموع والإجهاش . وأيضاً نحن، أنا صنعنا لك ثوباً .
- سأتي كل يوم لرؤيتك . قالت بونيفاتيا . سأساعدك، أيتها الأم، سأستمر في إخراج القمامة .
- انفصلت عن الأم أنخليكا وذهبت باتجاه الربيبات، اللواتي خرجن من الصف للقائهن محدثات جليلة . شقت الأم أنخليكا طريقها بين المدعويين وما أن اقتربت من الرقيب حتى صار وجهها أقل شحوباً، ثم جافاً من جديد .
- ستكون زوجاً صالحاً؟ . نمدت وهي تهزّه من نزاعه . الويل لك إذا ذهبت مع نساء أخريات . هل ستحسن معاملتها؟
- وكيف لا، أيتها الأم؟ . أجاب الرقيب مرتبكاً . فأنا أحبها كثيراً .

- آه، لقد استيقظت . قال أكيلينو . هذه هي المرة الأولى التي تنام فيها جيداً منذ أن خرجنا . في السابق كنت أنت من كان ينظر إليّ حين أفتح عيني .
- رأيت خوم في حلمي . قال فوشيا . طوال الليل وأنا أرى وجهه، يا أكيلينو .
- شعرت بك عدة مرات تتن وفي واحدة منها بدا لي أنك تبكي . قال أكيلينو . لهذا السبب؟
- شيء غريب، أيها العجوز . قال فوشيا . لم تكن لي أية علاقة بالحلم، كان خوم وحده .
- وماذا حدث للأغواروني في الحلم؟ . قال أكيلينو .
- كان يموت، على ذلك الشاطئ الصغير، الذي كان يحضّر فيه بانناتشا نقيعه . قال فوشيا . هناك شخص ما كان يقترب منه ويقول له تعال معي وهو: لا أستطيع، إنني أموت . وهكذا طوال الحلم، أيها العجوز .
- ربما كان ذلك يحدث . قال أكيلينو . وربما مات ليلاً وودّعتك .

- ربما قتله الهوامبيسون الذين يكرهونه كثيراً . قال فوشيا . لكن انتظري ، لا تذهبي ، لماذا أنت هكذا ؟ لا تذهبي .
- لأنك ترغب . قالت لاليتا لاهئة تنادينني وفي كل مرة لأنك ترغب . لماذا تجعلني آتي إذا كنت لا تستطيع ، يا فوشيا ؟
- بل أستطيع . زعق فوشيا . المسألة هي أنك تريدان أن تنتهي عند هذا ، لا تتركين لي مجالاً ، ثم تهتاجين . طبعاً أستطيع ، أيتها العاهرة .
- مالت لاليتا مديرة له ظهرها في السرير المعلق الذي كان يصرّ وهو ينوس . ضياء أزرق كان يدخل إلى الكوخ من الباب والفجوات مع رطوبة حارة وحفيف الليل ، لكنه لم يكن يصل إلى السرير ، بعكس الحفيف .
- أنت تظن أنك تخدعني . قالت لاليتا . هل تظن أنني غبية ؟
- في رأسي هموم . قال فوشيا . إنني بحاجة لأن ينسوني ، لكن أنت لا تمنحينني وقتاً لذلك . أنا إنسان ولست حيواناً .
- المسألة أنك مريض . همست لاليتا .
- المسألة أن بثورك تقززي . زعق فوشيا . لقد صرت عجوزاً . لا أستطيع معكِ ، لكنني أمارس عدد المرات التي أرغب مع أية واحدة أخرى .
- إنك تعانقهن وتقبلهن ، لكنك عاجز عن الممارسة . قالت لاليتا ببطء شديد . الأستواليات هن اللواتي قلن لي ذلك .
- تحدثنيهن عني ، يا عاهرة ؟ . أعدى جسد فوشيا السرير المعلق بالارتعاش الملحاح والمنتالي . تحدثني عني ؟ أتريدين أن أقتلك ؟
- هل تريد أن تعرف إلى أين كان يذهب في كل مرة كان يخفي فيها من الجزيرة ؟ . قال أكيلينو . إلى سانتا ماريا ده نيبيا .
- إلى نيبيا ؟ وماذا كان سيفعل هناك ؟ . قال فوشيا . وكيف تعرف أنت أن خوم كان يذهب إلى سانتا ماريا ده نيبيا .
- عرفت منذ وقت قصير . قال أكيلينو . هل المرة الأخيرة التي هرب فيها كانت منذ ثمانية أشهر ؟

- لم أعد أعرف حساب الزمن تقريباً، أيها العجوز . قال فوشيا. لكن صحيح، مضى عليه ثمانية أشهر. هل التقيت بخوم وحكى لك ذلك بنفسه؟

- الآن وقد أصبحنا بعدين، صار باستطاعتك أن تعرف . قال أكيلينو. لاليتا ونبييس يعيشان هناك. وبعد وصولهما بقليل إلى سانتا ماريا ده نيبيا مثل أمامهما خوم.

- وأنت كنت تعرف أين كانا؟ . لهث فوشيا. هل أنت من ساعدهما، يا أكيلينو؟ أنت أيضاً كلب؟ أيضاً أنت خنتتي؟

- لهذا تستحي وتتخفى ولا تتعزى أمامي . قالت لاليتا وقد توقفت السرير المعلق عن السرير. لكن ألا أشم ننتها؟ سافاك تتعفنان، يا فوشيا وهذا أسوأ من بثوري.

صارت حركة السرير مرة أخرى نشطة جداً، وراحت القوائم تصرُّ بشكل مطول، لكن لم يكن فوشيا هو الذي يرتجف وإنما لاليتا. كان فوشيا قد انكمش وصار كتلة متخشبة كأنها تلاشت بين البطانيات كحجرة مهشمة تحاول الكلام، وفي عتمة وجهه ظهرت على مستوى عينيه بؤرتا نور صغيرتان حيويتان ومذعورتان.

- تشمتني أيضاً . تمتمت لاليتا. وعندما يحدث لك أي شيء أكون أنا المسؤولة، والآن أنت الذي ناديتني ومع ذلك تغضب. أنا أغضب أيضاً ويمكن أن أقول أي شيء.

- إنه البعوض، يا عاهرة . أن فوشيا بصوت منخفض وضرب بذراعه دون قوة . لدغني فالتهب مكانه.

- بلى، البعوض، وليس صحيحاً أنها تتتن، قريباً ستشفى . أجهشت لاليتا. لا تغتم، يا فوشيا، لا تكثير مع الغضب، ويمكن أن يقال أي شيء. هل أحضر لك ماء؟

- هل بينان بيتاً؟ . قال فوشيا. هل سيقى هذان الكلبان في سانتا ماريا ده نيبيا؟

- تعاقدت الشرطة مع نبييس هناك كليل . قال أكيلينو. جاء ملازم آخر، أفتى من ذلك الذي كان يُدعى ثيريانو. ولاليتا تنتظر مولوداً.

- كم أتمنى أن يموت في بطنها وتموت هي معه أيضاً . قال فوشيا. لكن قل لي، أيها العجوز، ألم يعلقوه هناك؟ لماذا يذهب خوم إلى سانتا ماريا ده نيبيا؟ أريد أن ينتقم؟

- كان يذهب لأجل تلك الحكاية القديمة . قال أكيلينو. ليطالب بالمطاط الذي انتزعه منه السيد رناتيغي عندما ذهب مع الجنود إلى أوراكوسا. لم يبالوا به، وقد لاحظ نيبس أنها لم تكن المرة الأولى التي يذهب فيها للمطالبة، وأن كل المرات التي هرب فيها من الجزيرة إنما كانت من أجل ذلك.

- كان يذهب ليطالب الشرطة بذلك في الوقت الذي كان فيه يعمل معي؟ . قال فوشيا. ألم ينتبه؟ كان باستطاعته أن يقضي علينا جميعاً هذا الوحش، أيها العجوز . - بل قل إنه عمل مجنون . قال أكيلينو. أن يستمر بذلك بعد كل هذه السنين. لا بد أنه يموت الآن ولم ينزع من رأسه ما حدث له. لم أعرف وثياً بعناد خوم، يا فوشيا .

- لدغني البعوض وعناكب الماء عندما نزلت إلى البحيرة لأخرج سلحفاة التشارابا التي ماتت . أن فوشيا. لكن ها هي الجراح تجف، أيتها البهيمة. ألا ترى أنه عندما يحكها الواحد تلتهب. لذلك هي تصدر الروائح.

- ليست لها رائحة، ليس لها رائحة . قالت لالينا. ثم إن ذلك كان بسبب الانفعال، يا فوشيا. في السابق دائماً كنت تريد، وكان عليّ أن أخترع كذبة، إنني أنزف، ولا أستطيع. لماذا تبدلت، يا فوشيا؟

- ترهّلت، أصبحت عجوزاً، والرجل لا تثير شبقه إلا النساء الصليات . زعق فوشيا وبدأ السرير المعلق ينط . لا علاقة لهذا بلسع البعوض، يا كلبة.

- أنا لا أتكلم عن البعوض . همست لالينا. أعرف أنك تتماثل للشقاء. لكن جسدي يؤلمني ليلاً. لماذا تتأبيني إذا كنت كما تقول؟ لا تعذبني، يا فوشيا، لا تجعلني آتي إلى سريرك إذا كنت لا تستطيع.

- بلى أستطيع . زعق هو. عندما أريد أستطيع، لكنني لا أريد معك. اخرجي من هنا، كلميني عن البعوض لأدخل رصاصة حيث يؤلمك أكثر. اخرجي من هنا، اخرجي.

بقي يزعق إلى أن أزاحت الناموسية، نهضت وذهبت لتستلقي في السرير المعلق الآخر. عندها سكنت فوشيا لكن القوائم بقيت تصرُّ بين الغينة والأخرى، باهتزازات عنيفة مثل نوبات الحمى، ولم يخيم السكون على الكوخ، الذي كان يلفه حفيف الغابة الليلي إلا بعد فترة. كانت لالينا تداعب حبال السرير

الشامبيرية بيديها وهي مستلقية على ظهرها مفتوحة العينين. أفلت أحد قدميها من الناموسية فهاجمها بالعشرات أعداء صغار مجنحون وتوضعوا بنهم في أظافرها وأصابعها. حفرت القدم بأسلحتها الدقيقة والطويلة الطنانة. ضربت لاليتا قدمها بالقائمة فهربت مذعورة. لكنها عادت بعد ثوان قليلة.

- إذن الكلب خوم كان يعرف أين كانا . قال فوشيا. وهو أيضاً لم يقل لي شيئاً. الجميع وقفوا ضدي. يا أكيلينو، وربما بانانتاشا كان يعرف أيضاً.
- يريد أن يقول إنه لم يعتد وإن كل ما يقوم به إنما كي يعود إلى أوراكوسا . قال أكيلينو. لا بد أنه يحن كثيراً إلى بلده، وأنه يشتاق إليه. أحقاً أنه عندما كان يذهب معك كان يحظ الوثنيين؟

- كان يقنعهم بأن يعطوني المطاط دون قتال . قال فوشيا. كان يقدح شرراً ويحكي لهم دائماً حكاية الرجلين المسيحيين. هل عرفتكما أنت. أيها العجوز؟ ماذا كانت تجارتهما؟ لم أستطع قط معرفة ذلك.

- اللذان ذهبا ليعيشا في أوراكوسا؟ . قال أكيلينو. سمعت مرة السيد رناتيغي يتحدث عن ذلك. كانا أجنبيين ويأتيان ليحرضا التشوننتشويين كي يقتلوا مسيحيي هذه المنطقة، ولأنهم عملوا بكلامهما وقعت الواقعة برأس خوم.
- لا أعرف ما إذا كان يكرههما أم يحبهما . قال فوشيا. كان أحياناً يتقوه باسمي بونينو وتيوفيلو وكأنه يريد أن يقتلها وأحياناً أخرى وكأنهما صديقان له.

- كان أدريان نيبس يقول الشيء نفسه . قال أكيلينو. كان خوم يبذل رأيه باستمرار حول هذين المسيحيين، ولم يحزم أمره أبداً، ففي أحد الأيام يقول إنهما طيبان وفي آخر يقول إنهما سيئان، شيطانان رجيمان.

اجتازت لاليتا الكوخ على رؤوس أصابعها وخرجت. كان الهواء في الخارج محملاً ببخار يرطب جلدها. وحين كان يدخل فيها وأنفها كانت ترتعد. كان الهوامبيسيون قد أطفأوا النيران، وكانت أكوخهم أكياساً سوداء، كثيفة جداً، وساكنة في أعلى الجزيرة. جاء كلب وصار يحك نفسه بقدميها. تحت الظلة وإلى جانب الزريبة كانت ترقد الأشواليات الثلاث تحت بطانية واحدة. كانت وجوههن تلمع

من الراتينج. عندما وصلت لاليتا إلى أمام كوخ بانثانشا وتجسست، كان رداؤها المبال بالعرق يلتصق بجسمها: خرجت ساق بارزة العضلات من الظلال، وبان فحذا الشاربية الأملسين والخاليين من الشعر. كانت تراقب وهي تلهث، فاعرة الفم ويدها على صدرها. ثم ركضت إلى الكوخ المجاور ودفعت باب الخيزران. وفي الزاوية التي فيها سرير أنريان نيبس المعلق حدثت جلبة. لا بد أن الدليل قد استيقظ، وتعرف على طيفها البارز على خلفية الليل في العتبة، على نهري شعرها اللذين يوطران جسمها حتى الخصر. ثم صرّت الأرواح وتقدّم منها مثلث أبيض، ليلة سعيدة، صورة رجل، ماذا حدث؟ صوت نغم ومفاجأ. لم تقل لاليتا شيئاً، فقط كانت تلهث وتنتظر، منهكة، كما يحدث في نهاية جري طويل. كان ما يزال هناك ساعات كثيرة كي تحل الموسيقى والحفيف محل الزعيق الليلي، ولكي تحوم فوق الجزيرة العسافير والفرشات ويضيء سنى الفجر جذوع اللوبونا البرصاء. كانت ما تزال الساعة ساعة الحباحب.

- سأقول لك شيئاً. قال فوشيا. أكثر ما يؤلمني، يا أكيلىنو، وأكثر ما يتقل عليّ هو أنني كنت سيء الحظ كثيراً.
- تدنّره، ولا تتحرّك. قال أكيلىنو هناك سفينة قادمة، من الأفضل أن تختبئ.
- لكن أسرع، أيها العجوز. قال فوشيا. فأننا لا نستطيع التنفس هنا، إنني أختنق. تجاوزته بسرعة.

الطقس صاح كما في الصيف، تُطلق الشمس أشعة، تدمع العيون عند النظر إليها. والقلب يشعر بهذا الحر، يريد أن يعبر الشارع، أن يمرّ تحت أشجار التمر الهندي، أن يذهب ويجلس على مقعده. انهض وخلصنا، ما فائدة السرير إذا لم يأت النعاس. لا بد أن رملاً ناعماً مثل شعره يسقط الآن فوق البييخو بوتنته، اذهب واجلس في استريليا دل نورته، أنزل قبعتك، انتظرها، فهي ستصل. لا تقلق كثيراً،

يقول خائنتو إنها مدينة خالية حزينة. تصوّر، يا دون أنسيلمو، لقد مرّ عمّال التنظيفات، والرمل وبتخ كل شيء من جديد، انظر إلى زاوية السوق، فالحمار يصل من هناك محملاً بالسلال، أليس هذا وقت استيقاظ المدينة؟ إنها هناك، خفيفة، صامتة، تدخل الساحة وكأنها تنزلق انزلاقاً، انظر كيف يحملها إلى جانب الرواق، يجلسها، يلمس يديها، شعرها، وهي مستسلمة وديعة، متلاصقة الركبتين، متقاطعة الذراعين: هو ذا التعويض عن كل سهادك. هناك تسير الغالينائية ضاربة حمارها بالعصا، استو في كرسيك، اقعذ بشكل مريح، وتابع النظر إليها. وخبّي هل هو قائم مباشرة، مكشوف الوجه، أم مغطى؟ وأنت المتالم والرقيق والرووف والراغب بإهدائها شيئاً. ارخ له الرسن وليمض على هواه، على مهل، خبياً أو عدواً، فهو يعرف إلى أين، والوقت ما زال باكراً. أتران على أنها ترددي الأبيض، أو الأصفر؟ على أنها تضع شريطة؟ سأرى أذنيها، أتران على أنها بلا شريطة، ومسترسلة الشعر؟ لن أراها اليوم، أتران على أنها تنتعل نعلأ؟ على أنها حافية؟ وإذا كسبت يكون خائنتو الرابع، وهو لماذا كل هذا البقشيش اليوم والبارحة النصف مع أنه استهلك الشيء نفسه؟ وكيف عرفت؟ لا يعرف شيئاً، على وجهك علائم النعاس. أنت لا تنام أبداً، يا دون أنسيلمو؟ وأنت، إنها عادة قديمة، لا أنام قبل أن أتناول الفطور، فهواء الفجر يصفّي الدماغ، وهناك كل شيء له رائحة اللهو والدخان والكحول، الآن أعود ويبدأ الليل بالنسبة لي. وهو: سأذهب قريباً لزيارتك، وأنت طبعاً، أيها الشاب، ابحث عني وسنتناول كأساً، لديك الصلاحية، أنت تعرف. لكن ليذهب الآن، ولتبق وحدك، ولا تترك أحداً يشغل طاولتك، سيأتي الصباح قريباً، سيأتي الناس، وستقرب منه امرأة بيضاء، سيبتزه معها يحضرها إلى استراليا دل نورته ويدعوها لتناول قطعة حلوى. وهناك يبدأ الحزن والغيط في القلب من جديد، فالزمن لا يخدمهما. وعندئذ، خذ القهوة يا خائنتو، جرعة صغيرة، ثم أخرى وأخيراً نصف قنينة من النبيذ الفاخر. وعند الظهيرة تشابيري ودون ايوسيبيرو والدكتور ثيباليو: يجب حمله على الجواد وأخذه إلى الرملة، وهناك ستأخذ القاطنات على عاتقهن تنويمه.

أمسك بالمطية جيداً، ترنح بين الكتبان، تدرج مثل كيس على الأرض، وصل حايباً إلى القاعة، وهنّ لينمّ هنا بالذات، وزنه ثقيل ويصعب الصعود به إلى البرج، أخضرنّ مبولّة إنه يتقيّاً، أنزلنّ فراشاً، اخلعنّ جزمته. إنّ النقوسات وجداول الصفراء والكحول وحكة الأجفان، والننانة وطراوة العضلات السكرانة كريهة هناك. بلى، يأتي مدارياً، في البداية أبدى رافقة: عمرها لا يتجاوز السادسة عشرة، يا للكارثة التي وقعت له، يا لظلمة حياته، صمت حياته، وجهه. حاول أن تتصوّر ما يمكن أن يحدث، الصرخات التي ستطلقها، الرعب الذي ستشعر به وحجم الدهشة في عينيها. حاول أن ترى: الجثث، فوران الدم، الجراح، الديدان، وعندئذ الدكتور ثيالبو، أخك لنا من جديد، غير ممكن، شيء رهيب جداً، تراها الآن؟ كيف حدث وعاشت؟ حاول أن تخمّن: في البداية دوائر هوائية ضاربة إلى السواد بين الكتبان والغيوم. ظلل تتعكس على الرمال، ثم أكياس ريش من الرمل، مناقير معقوفة، زعيق كرية وعندئذ أخرج المسدس، واقتله، هناك يوجد آخر أقتله أيضاً، والقاطنات ماذا حدث لك، يا معلّم، لماذا كلُّ هذه الكراهية للغاليناثوات، ماذا فعلن لك؟ وأنت، ويحك، اقتلها، ادرزها بالرصاص. متقنعاً بالألم والحنان اقتربت أنت أيضاً، ما السيء في الأمر، اشتر لها ناتيليا¹³⁹، حلوى العسل وسكاكر. اغمض عينيك ومن ثم يبدأ هناك إحصار الأحلام، وأنت وهي في البرج سيبدو الأمر مثل عزف القيثارة، اجمع أنامل أصابعك والمنها، ستكون أكثر نعومة من الحرير والقطن، ستكون مثل الموسيقى، لا تفتح عينيك، تابع ملامسة خديها، لا تستيقظ. في البداية فضول، ثم شيء محزن، وفجأة خوف من السؤال. هنّ يتكلمن، لصوص سيشوزا، هاجموم وقتلوم، كانت السيدة عارية عندما وجدوها، يذكرون اسمها بفضاظة. يقولون عنها مسكينة ومن هنا ذلك الحماس المفاجئ، اللسان الذي يتلعثم، ماذا حلّ بي، ستظن القاطنات السوء، ماذا حلّ بي. أم أنّ وجيبها في استراليا ذل نورته، يحضرها، يطلب منها مرطباً، اختناق، حصد، عليّ أن أذهب، صباح الخير، الرملة، المعلم، أخضرنّ، فنيّة

¹³⁹ ناتيليا: طعام يصنع من الذرة المطهية والمطبوخة والمصفاة مضاف إليها الطيب والقرفة.

كاليناثو، خذ القيثارة إلى البرج، اعزف. عاطفة، رافة؟ كان ينزع عنه الأفتحة، وهذا الصباح، كما هو الحال الآن صاح، وهنّ إنها عجز، لا تقبل بها، وأنت ماذا قلت إنك تدعين؟ عليك أن تبدلي اسمك، أنطونيا لا. وهي كما تأمر يا معلم. هل هذا اسم امرأة كنت تحبها؟ ومن جديد الخفر والنزف الفاتر تحت الجلد، والحقيقة المبكرة. الليل رتيب، والمشهد من النافذة واحد: النجوم في الأعلى وفي الهواء طوفان الرمل البطيء، وإلى اليسار، بيورا، شهب في الظل، تكوينات كاستيليا البيضاء، النهر، الجسر العتيق، الذي يشبه ضباً بين الضفتين. لكن لتتقض الليلة الصاخبة بسرعة، لتشرع، خذ القيثارة، لا تنزل مهما نادوك، اعزف لها في الظلمة، غنّ لها بصوت منخفض، عذب، ببطء شديد، تعالي، يا تونييتا، فإني أعزف لك سيريناتا، هل تسمعينها؟ الأسباني لم يمت، فهو يطل هناك في زاوية الكاندرائية بمنديله الأزرق على عتقه، وجزمته لامعة كمرآة، وصدريته تحت سترته الرسمية البيضاء، والحرارة من جديد والأمواج التي تتفخ العروق، النبض الناشط والنظرة القلقة، تراه يذهب نحو الرواق؟ بلى، يقترب منها؟ بلى، يبتسم لها؟ بلى. وهي تتلقى أشعة الشمس من جديد، بلا حراك، ساكنة تماماً، حولها ماسحو الأحذية والمسولون، ودون ايوسيبينو أمام مصرفه. والآن يشعر بيد على نقه، هل مال في مقعده؟ بلى، هل هو يكلمها؟ بلى. ابتدغ ما تقوله لها: صباح الخير، يا تونييتا، صباح جميل، الشمس تحمي دون أن تحرق، من المحزن أن الرمل يتساقط، أو لو رأيت النور الموجود، كم هي زرقاء السماء، تماماً مثل بحر بايتا وهنا يبدأ خفق النبض في الصدغين، الأمواج تتزاحم، والقلب مملوم وضربة الشمس الداخلية. يأتیان معاً؟ بلى إلى الشرفة؟ بلى، أخذاً إياها من نراعها؟ بلى، وخائنتو ألا تشعر بتحسن، يا دون أنسيلمو؟ شحب لونه. أنت متعب قليلاً، أحضر لي فجان قهوة آخر وكأساً صغيراً من البيسكو، مباشرة إلى الطاولة؟ بلى، توقّف، مدّ يدك، ودون ايوسيبينو كيف حالك، وهو عزيزي، سنرافتك أنا وهذه الأنسة هل تسمح لنا؟ هي ذي عنك، بجانبك، انظر إليها بلا خوف، هذا وجهها، وهذه الطيور الصغيرة حواجبها، وخلف أهدابها المغمضة يسود الظلام، وخلف المطبقتين يوجد أيضاً مسكن صغير مقفر ومظلم، هذا أنفها، وهذان هما

خداها. انظر إلى ذراعيها الطويلين المحترقين وشعرها الفاتح الذي يتماوج فوق كتفيها وجبينها الصقيل الذي يتقطب للحظات. ودون أيوسيبيو، لنر، لنر، قهوة بالحليب؟ لكن لا بد أنك تناولت طعام الإفطار، بفضل قطعة حلوى، فهذا محبب للشباب، ألم تكن محباً للحلوى كثيراً؟ لنقل مربي السفرجل، وعصير البابايا، هيا، يا خاثنيتو. يومئ بالإيجاب، يوافق، كنت محباً للحلوى، هذا العمود الناحل هو عنقها، يخفي الغليان، يتعجب، يدخن وهذه الأزهار ذات الساق يداها، والظلال القصيرة التي حين تتلقى الشمس تبدو شقراء هي أهدابها. وكلمها، وابتسم لها وهكذا فقد اشترى إذا البيت المجاور، هكذا سيوسع إذا الدكان وسيشغل المزيد من المستخدمين، اهتم، حاصره، هل سيفتح فروعاً في سوليانا؟ وفي تسيكلايو؟ كم أنت سعيد بها؟ كن صوتاً ونظرة، حقاً منذ زمن طويل لم يذهب لرؤيتي، وتقاسيمه غريبة وجهمة، إنها مركزة على المشروب، قطرات صغيرة من النور البرتقالي تلمع في فمه وخلال ذلك العمل هو هكذا، الواجبات، العائلة، لكن اخطفُ رجلك، يا دون أيوسيبيو، رُوخ عن نفسك من حين لآخر، تفتح أصابعه، تأخذ قطعة مربي السفرجل، ترفعها، كيف حال القاطنات؟ مشتاقات لك، يسألن عنك، متى تريد أن تأتي، وأنا سأعتي بك، انظر إليها الآن وهي تعض، انظر كم هي نهمة ونظيفة أسنانها. وعندئذ الحمار والسلال، أنزل القبعة قليلاً وابتسم، تحدث دائماً، والغالينائية هناك تحيي برأسها، ما أطيبكم، تونينتا مدي يدك للسادة، أشكركم باسمها، ومن جديد الترطيب سريع الزوال، خمسة احتكاكات ناعمة في يدك، شيء يدخل في الجسم ويهذنه. يا للهدوء الآن، أليس كذلك؟ يا للطمانينة. ولتر، يا دون أيوسيبيو، هذا هو السبب ولم تكن أنت تعرفه، كما لم تعرفه عندما ماتت. وهو هذا ما كان ينقصني، إنني أستحي، يا أنسلمو، دعني أدفع ولو مرة، فأنت تجعلني أشعر لا أدري كيف. كلاً، لن تدفع سنتيماً واحداً، فهنا كل شيء ملكك، هذا بيتك، أنت نزعيت عني الخوف، وأجلستها إلى طاولتي والناس لم ينفروا ولم تلتفت انتباههم. والآن كن شجاعاً، اذهب إلى مقعدها كل صباح، المص شعرها، اشتر لها فاكهة، احمها إلى نجمة الشمال. تنزه معها تحت الشمس الملتهبة، اعشها تماماً كما عشفتها في تلك الأيام.

- الحمير. قالت بونيفاثيا. تمر طوال اليوم أمام البيت ولا أتعب من النظر إليها.
- ألا توجد حمير في الجبل، يا ابنة العم؟ قال خوسيه. كنت أظن أن
أكثر ما يوجد هناك هو الحيوانات.
- لكن ليس حميراً. قالت بونيفاثيا. فقط واحد أو اثنان، وليس أبداً كما هنا.
- ها هم يصلون. قال المونو من النافذة. حذائي، يا ابنة العم.
انتعلت بونيفاثيا الفردة اليسرى بسرعة لكنها كانت ضيقة، غريب، وقتت، ذهبت
نحو الباب، مترددة، خائفة، فتحتة وكان خوسيفينو يمدُّ لها يده، هبة من الهواء
الملتهب، ليتوما، شلالات من الضوء. أظلمت الغرفة من جديد. يخلع ليتوما المسترة
العسكرية، كان قد جاء نصف ميت، يا أولاد العم، والقبعة، ليتاولوا الغاروبينا¹⁴⁰.
سقط على الكرسي وأغمض عينيه، انتقلت بونيفاثيا إلى الغرفة المجاورة
وخوسيفينو، المتمدد على حصير إلى جانب خوسيه، يا لهذا الحر اللعين الذي
يخبِّل الناس. عبر خوخات النوافذ كانت تتسلل موشورات من النور محملة
بالجسيمات الدقيقة والحشرات، وفي الخارج كان كلُّ شيء يبدو صامتاً ومهجوراً،
وكان الشمس قد أذابت الأطفال والكلاب الهائمة بحموضها البيضاء. ابتعد المونو
عن النافذة، كانوا المنيعين، لم يكونوا يتقنون عملاً، فقط يقامرون، فقط يضاجعون،
وكانوا في طريقهم للسكر، لكنهم لم يغنوا إلا بعد الكأس الأول من الغاروبينا.
- كنا نتحدث عن بيورا مع ابنة العم. قال المونو. أكثر ما يلت انتباهها هو الحمير.
- وكثرة الرمال وقلة الأشجار. قالت بونيفاثيا. في الجبل كل شيء أخضر
وهنا كل شيء أصفر. والحر أيضاً مختلف جداً.
- المختلف هو أن بيورا مدينة عمارات وسيارات ودور سينما. شرح ليتوما متثائباً.
وسانتا ماريا ده نيبيا بلدة عراة ويعوض وأمطار تعفن كل شيء، بدءاً من الناس.

¹⁴⁰ للغاروبينا: عصير الخروب الطور. وأيضاً نوع من الكوكتيل.

حشرتان صغيرتان قبعتا خلف بعض خصل الشعر المسترسل ومضتا
خضراوين وعدوانيتين. وكان نصف قدم بونيفاثيا الأيسر خارج الحذاء، يجهد
للخول فيه من جديد.

- لكن يوجد في ساننا ماريا ده نيبيا نهران فيهما ماء طيلة العام، وهو وفير جداً .
قالت بونيفاثيا، بعد لحظة ويهدوء . أما نهر بيورا فمأوه قليل وفي الصيف فقط.
أطلق المنيعون قهقهة، اثنان واثنان ثلاثة، واثنان وثلاثة أربعة وبونيفاثيا
حميت. كان ليتوما يتهزز ببطء على كرسيه دون أن يفتح عينيه، يتفق منه
العرق ويبدو سميناً.

- أنت لا تألفين الحضارة . تتهد أخيراً . انتظري بعض الوقت وسترين
الاختلافات. لا تريدن أن تسمعي أحداً يتكلم عن الجبل وتخلين من أن
تقولي إنك غاببة.

أربعة واثنان خمسة، خمسة واثنان ستة وابن العم ليتوما كان قد أجابها.
كان قعما قد دخل في الحذاء، قسراً، هارساً الكعب بوحشية.
- لن أخجل أبداً . قالت بونيفاثيا. لا أحد يخجل من بلاده.

- جميعنا بيرويون . قال المونو. لماذا لا تصيبن لنا أيضاً قليلاً من
الغاروبينا، يا ابنة العم؟

نهضت بونيفاثيا، ومضت من واحد إلى آخر تملأ له الكأس من جديد،
وهي لا تكاد ترفع قدميها وتفصلهما عن تلك الأرض الزلقة، التي كان
الحيوانان المذلان المهانان يراقبانها من فوق بعدم ثقة.

- لو أنك ولدت في بيورا لما مشيت كمن يمشي على بيض . ضحك
ليتوما، فاتحاً عينيه . ولكنك اعتدت على الحذاء .

- دعك من معاندة ابنة العم . قال المونو. يجب ألا تغضب، يا ليتوما.

كانت قطرات الغاروبينا تسقط على الأرض العتوة وليس في كأس
خوسيفينو. كان قم وأنف بونيفاثيا يرتجفان مثل يديها، لكن هذا ليس خطيئة،
حتى أن صوتها قال: الله هو الذي خلقها بهذا الشكل.

- طبعاً ليس خطيئة، يا ابنة العم، طبعاً لا . قال المونو. المانغاتشيون أيضاً لا يعتادون على الكعب.

تركت بونيفاثيا القنينة على أحد الرفوف، جلست، وسكن الحيوانان الصغيران، وفجأة راح قنماها يساعد أحدهما الآخر بصمت وتمرد وسرعة كبيرة ، وتخلصا من الحذاء. انحنى دون عجلة ووضعته تحت الكرسي. وكان ليتوما قد توقف عن الهزهزة، والمنيعون عن الغناء، وحرك اضطراب نشاط ومقاتل الدميتين الخضراوين القامتين اللتين كانتا تستعرضانهنم بوقاحة.

- هذه لا تعرفني حتى الآن، لا تعرف من تتحدى. قال ليتوما لابني آل ليون، ورفع صوته. لم تعودي تشونتشية، وإنما زوجة الرقيب ليتوما. انتعلي الحذاء!

لم تجب بونيفاثيا، كما أنها لم تتحرك عندما نهض ليتوما ووجهه مبلل ومغتاظ، ولم تتحاش الصفعة التي دوت قصيرة وصافرة. قفز ابنا آل ليون وتخللاً ليس إلى هذا الحد، يا ابن العم. كانا بمسكان بليتوما، لا تكن هكذا، وكانا ينهرانه مازحين، ليتحكم بهذا الدم المانغاتشي. كانت الرطوبة قد صبغت صدر وظهر القميص الخاكي الذي بقي زاهراً فقط على الذراعين والكتفين.

- يجب أن تتربى. قال، وهو يتهزّز مرة أخرى، لكن بسرعة، وعلى إيقاع صوته. في بيورا لا تستطيع أن تتصرف كغابية. ثم من الذي يأمر في البيت.

كان الحيوانان الصغيران يتجسمان من بين أصابع بونيفاثيا، بشكل لا يكاد يكون مرئياً. باكيان؟ وصبّ خوسيفينو لنفسه قليلاً من الغاروبينا. جلس ابنا آل ليون، لا حبّ بلا ضرب كما يقال، وتقول التشولوكانات: كلما ضربني زوجي أكثر كلما أحبني أكثر، لكن ربما كانت النساء في الجبل يفكرن بشكل مختلف وواحد اثنان، ثلاثة، ولتصفح ابنة العم عنه، ولترفع رأسها، ولتكن طيبة، ابتسامة صغيرة، لكن بونيفاثيا استمرت في إخفاء وجهها وليتوما وقف متثائباً.

- سأنام قيلولة قصيرة. قال. لكن ابقوا وأنها هذه القنينة. لنذهب فيما بعد في جولة. نظر إلى بونيفاثيا شزراً وموج صوته بشكل رجولي. إذا انعدم الحب في البيت بحث عنه في الخارج.

وغمز المنيعين بنفور ودخل إلى الغرفة الأخرى. سُمع وهو يصفر لحنًا، صرّت بعض النوابض. تابعوا هم الشرب، كأس، كانا صامتين، كأسان وفي الثالث بدأ الشخير عميقًا، منتظمًا. ومن جديد البهيمتان جافتان ومتشججتان خلف الشعر.
- إنّ مناوباته الليلية في الحراسة تعكّر مزاجه. قال المونو. لا تعبيره انتباهًا، يا ابنة العم.

- ما هذه الطرق في معاملة المرأة. قال خوسيفينو، باحثًا عن عيني بونيفاثيا، التي كانت تنتظر إلى المونو. إنه شرطي حقيقي.
- أنت فعلاً تجيد معاملتهن، يا ابن العم، أليس كذلك؟ قال خوسيه ملقياً نظرة إلى الباب: شخير مطوّل وحاد.

- طبعاً، طبعاً. كان خوسيفينو يبتسم ويحبر على الحصر نحو بونيفاثيا. لو كانت زوجتي لما رفعت يدي عليها أبداً. وإن فعلت فليس لأضربها وإنما لأداعبها. وفي هذه الأثناء كانت البهيمتان الخجولتان والخائفتان تتحصان الجدران فاقدة اللون، والدعامات، والبعوض الأزرق الذي يئزّ عند النافذة وحبّات الذهب الغارقة في موشورات النور وضلوع الأرض الخشبية. توقّف خوسيفينو وكان رأسه يلامس قدميها الحافيين اللذين تراجعاً، وابنا آل ليون أنت الرجل. الودعة وخوسيفينو الأفعى التي أغرت حواء.

- في ساننا ماريا ده نيبيا لا توجد شوارع كما هنا. قالت بونيفاثيا. إنها ترايبية وتمطر كثيراً، إنها وحل خالص. الأكعاب تنغرز والنساء لا يستطعن السير.
- تدوس بيضاً، يا للوحشية التي ما بعدها وحشية. قال خوسيفينو. ثم إن هذا كذب. فهي تسير بشكل جميل جداً، كم منهن يرغبن لو تكون لهن مشيتها.

كان رأسا ابني آل ليون يلتفتان بتزامن إلى الباب: يذهب واحد ويعود آخر، ومرة أخرى كانت بونيفاثيا ترتجف، شكراً على ما كان يقوله كذلك، يداها وفمها، لكنها كانت تعرف أنه مجرد كلام، ليس أكثر، وخاصة صوتها، ففي أعماقه لم يكن يفكر بذلك. وتراجع القدمان. وخوسيفينو غاص برأسه تحت الكرسي وكان

صوته يصل متأخراً مخنوقاً، كان يفكر بذلك بكل روحه، كلمات بطيئة، خفيفة، معسولة وألف شيء آخر، كان سيقوله لها لو لم يكن هناك ناس.

- من ناحيتي، لا تزعج نفسك، أيها المنيع . قال المونو. أنت في بيتك وهنا لا يوجد إلا زوج من الصم البكم. وإذا أردت سنذهب لنر ما إذا كانت تمطر كما نقولان.

- اذهبا، اذهبا . متأنقة وموسيقية . اتركوني مع بونيفاثيا كي أسليها قليلاً .
سعل خوسيه ونهض ووصل إلى الباب على رؤوس قدميه . عاد مبتسماً، إنه مستسلم حقاً، وينام مثل الفأر النوم، والبهيمتان الفضوليتان والكثيرتا الحركة كانتا تسيران بلا كلل، خشب الأرض، سيقان الكراسي، حدّ الحصير، والجسد الطويل الممدد .
- ابنة العم لا تحب المغازلة . قال المونو. لقد أخطتها، يا خوسيفينو .

- أنت لا تعرفين حتى الآن البيوريين، يا ابنة العم . قال خوسيه . لا تسيئي التفكير . هكذا نحن، والنساء ينتزنا من ألسنتنا .

- هيا، يا بونيفاثيا . قال خوسيفينو. أرسليهما ليريا ما إذا كانت تمطر .
- سوف تحكي لليتوما إذا تابعت . قال المونو. وابن العم سوف تتور ثائرتة .
- لتحكي . دبكة وفاترة . لا يهمني . أنتما تعرفانني، عندما تعجبني امرأة أقول لها ذلك كائنة من كانت .

- سرى فيك الغاروبينا . قال خوسيه . تكلم بصوت أكثر انخفاضاً .
- وبونيفاثيا تعجبني . قال خوسيفينو. فليعرف ذلك .
انطلقت بدا بونيفاثيا على ركبتيها وارتفع وجهها: ابتسمت شفتاها ببطولة تحت البهيمتين المذعورتين .

- آه كيف تركض، يا ابن العم . قال المونو. بطل المئة متر؟
- لا، تابع في هذا الطريق . قال خوسيه . إنك تخيفها .
- لو سمعك لغضب . تمتمت بونيفاثيا متلعمثة . نظرت إلى خوسيفينو، الذي أرسل لها قبلة طيارة، وهي تنظر إلى السقف، الرف والأرض . إذا عرف سيغضب .
- ليغضب، ماذا يهم . قال خوسيفينو. هل تريدون أن تعرفوا شيئاً أيها الفتيان؟ لن تغلت بونيفاثيا من أن تصبح زوجة لي ذات يوم .

- تتظر إلى الأرض باستمرار وشفتاها تتمتان بشيء. ابنا ليون يسعلان ولا يرفعان عيونهما عن الغرفة المجاورة: وقفة، شخير، وآخر أطول ومطمئن.
- كفى، يا خوسيفينو . قال المونو. فهي ليست بيورية ولا تكاد تعرفنا .
- لا تقلقي، يا ابنة العم . قال خوسيه . جاريه أو اصغعيه .
- لست خائفة . همست بونيفاثيا . لكن فقط لو عرف، أو لو سمعه أيضاً . .
- اعتكر منها، يا خوسيفينو . قال المونو. قل لها إنك تمزح، انظر كيف صارت.
- كان مزاحاً، يا بونيفاثيا . ضحك خوسيفينو، حابياً إلى الخلف . أقسم لك، لا تزعلي.
- أنا لا أزعل . تمتمت بونيفاثيا. أنا لا أزعل.

- لماذا كل هذا التمثيل، ومنذ متى سارت الناس هنا متصنعة؟ . قال «الأشقر». لماذا لا ندخل معاً ونخرجه بالجحشى أو بالإكراه؟

- المسألة هي أن الرقيب يظهر جدارته . قال «الصغير» . ألم تر كم صار مجاملاً؟ يريد أن ينفذ كل شيء كما يجب. لا بد أن الزواج أفسده، يا «أشقر» .

- وسيفتل هذا الزواج «الثقيل» من الحسد . قال «الأشقر» يبدو أنه سكر مرة أخرى عند باريديس ، يصار يلعن نفسه لأنه لم يسبقه، مرة أخرى أضعت الفرصة في إيجاد المرأة . المرأة عندها شياؤها . لكن «الثقيل» يبالغ .

كانوا متربصين بين الخيزران ويسدون، باتجاه كوخ الدليل، المتوضع فوق الأغصان على بعد أمتار منهم . تألق واهن زيتي كان يزداد في الداخل ويضيء زاوية من الشرفة . ألم يخرج أحد، أيها الفتيان؟ انحنى طيف فوق «الأشقر» و«الصغير»: لا، يا حضرة الرقيب . و«الثقيل» و«الأشقر» كانا قد أصبحا على الجانب الآخر، لا يستطيع أن يهرب إلا إذا طار . لكن لا تفقدوا رشكم، أيها الفتيان، فالرقيب كان يتكلم ببطء وإذا دعت الضرورة فسوف يناديهم، كانت حركاته هادئة أيضاً، وفي الأعلى كانت بعض الغيوم الخفيفة تسرب نور القمر دون أن تخفيه . في البعيد وبين ظلمة الغابة وانعكاس الضوء الخفيف في الأنهار كانت سائتا ماريًا ده نبيبا قبضة من الأنوار والبريق الخفي . فتح الرقيب الجعبة وأخرج المسدس، رفع الأمان وهمس شيئاً آخر إلى الحراس . ابتعد، وهو دائماً بطيء وهادئ، باتجاه الكوخ واختفى وقد ابتلعه الخيزران والليل، ثم عاد وظهر بعد قليل بجانب الزاوية المنارة من الشرفة، وارتسم وجهه لثانية في الوهج الخافت الذي كان يتسرب من جدار الكوخ .

- هل رأيت كيف يمشي وكيف يتكأ؟ . قال «الأشقر» . إنه جبان قليلاً . هناك شيء يحدث له، لم يكن هكذا في السابق .

- التشونتشية تحصره مثل ليمونة . قال «الثقيل» . بالتأكيد إنه يضاجعها ثلاث مرات نهاراً وثلاث مرات ليلاً . لماذا تعتقد أنه يخرج من الموقع بأية ذريعة؟ طبعاً كي ينام مع التشونتشية .

- هما في شهر العسل وهذا عدل . قال الأسود أنت تموت من الحسد . لا تَمُوه، يا «ثَقِيل» .

كانوا مستلقين، أيضاً، في صدع صغير من شاطئ خلف مئزاس من الأدغال، قرييين جداً من الماء. كانت بنادقهم في أيديهم، لكنهم لم يكونوا مصوّبين إلى الكوخ الذي كان يُشاهد من هناك عالياً ومنحرفاً في الظلمة.

- لقد اغتاط . قال «الثَقِيل» . لماذا لم نأت ونخرج نيببس فور استلامنا أمر الملازم؟ لماذا؟ لنتنظر حتى يحل الظلام، يجب أن نضع خطة، سنحاصر البيت، أين سمعت بكل هذه التفاهات معاً؟ طبعاً يريد أن يذهل دون فابيو، يا «أسود»، وأن يعطي لنفسه أهمية فقط.

- فرح الملازم كثيراً، فهم سيمنحونه شريطة أخرى . قال «الأسود». ونحن لا شيء. ألم تنتبه الآن حين وصل مراسل بورخا؟ الحاكم: الملازم هنا والملازم هناك، ألسنا نحن الذين عثرنا على المجنون في الجزيرة؟

- يبدو أن التشنونتيّة سقته بوساغنا، يا «أسود» . قال «الثَقِيل» . سوف تذهب بعقله هذه المشروبات لذلك تراه متعباً جداً وينام واقفاً.

- اللعنة، اللعنة . قال الرقيب . ماذا تفعل هنا، ما الذي يحدث؟

كانت لاليتا وأدريان نيببس يراقبانه بلا حراك من الكوخ المرتفع، عند أقدامهما صحن من الطين كان طافحاً بالموز، وكان القنديل يصدر دخاناً أبيض عطراً، وفي العتبة كان يتابع طرف عيني الرقيب الذاهل تحت حافة القبعة؟ ألم يقل له أكيلينو؟ كان صوته فجائياً، لكنه منذ ما يقارب الساعتين، يا دون أدريان، قال للصبي أجر، فالمسألة مسألة حياة أو موت، وكانت يده تحرك المسدس بارتباك: اللعنة، اللعنة. بلى لقد أعطاه الوصية، أيها الرقيب، كان الليل يتكلم وكأنه يعلك: كان قد أرسل الأطفال إلى حيث أحد المعارف في الجانب الآخر. على ضفتي فمه كانت تتقدم قناتان برصانة نحو خديه.

والآن؟ لماذا لم يحكم على نفسه بتغيير مكانه أيضاً؟ ليس الأطفال من كان عليهم أن يختبئوا وإنما هو، دون أدريان: ضرب الرقيب فخذه بالمسدس. لقد

تحمل الأمر عدة ساعات، يا سيده، مخاطراً بنفسه. ماذا كان يريد منه أن يفعل أكثر من ذلك، وقد منح دون أدريان من الوقت أكثر من الكفاية.

- إنه يثرثر معه. قال «الصغير». والآن سيقول لدون فابيو دخلت وحدي وأخرجته وحدي. يريد أن يتقاسم الاستحقاق مع الملازم. إن البيوري يعمل لنقل نفسه مثل نملة.

مع الوهج كان يخرج الآن من الكوخ همس لا يكاد يؤثر في الليل، وكان يطفو فيه دون أن يصدعه، مثل موجة واحدة في مياه ساكنة.

- لكننا سنكلم الملازم عندما يصل. قال «الأشقر». ليرسلونا إلى إيكيتوس مع السجناء، فهذا الشكل يمنحونا إجازة لبضعة أيام على الأقل.

- يمكن أن تكون ساحرة ورائعة قليلاً وكل ما تريد. قال «الأسود». لكن لا تقل لي يا «ثقيلاً»، فأني واحد كان يمكن أن يعمل المعروف مع التشنونثشية، وأنت أولهم. أنت في كل مرة تسكر تتكلم عنها، يا رجل.

- كنت بطختها، طبعاً. قال «الثقيل». لكن هل تتزوج أنت من وثنية؟ ليس وأنا حي، يا أخي.

- يستطيع أن يقتله ويقول إنه تمرد علي واضطرتت لقتله. قال «الصغير». هذا البيوري قادر على ارتكاب أي عمل في سبيل أن يقلدوه وساماً.

- وماذا لو كان كل هذا مجرد حكايات؟. قال «الأشقر». عندما وصل ساعي بورخا وقرأت تقرير الملازم لم أستطع أن أصدق، يا «صغير» فوجه نيبس ليس وجه لص وكان يبدو من الناس الطيبين.

- صه، لا أحد له وجه لص. قال الصغير. أو بالأحرى للجميع وجه لص. لكن، أنا أيضاً، جمدت عندما قرأت التقرير. كم عاماً سيحكمون عليه؟

- من يدري. قال الأشقر. كثيرة، بالتأكيد. لقد سرقوا كل العالم، والناس هنا أقسموا على الانتقام. رأيت كيف راحوا يضايقوننا كي نبحث لهم عنهم، رغم أنهم ما عادوا يسرقونهم.

- لا أظن أن هذا هو الرئيس. قال «الصغير». ثم لو كان صحيحاً أنه سرق كل هذا، كما يقولون، لما كان ميتاً من الجوع.

- أهدا يكون رئيساً . قال «الأشقر» . لكن هذا ليس مهماً، إذا لم يظهر الآخرون فإنهم سيجعلون نيبيس والمجنون يدفعان عن الجميع.

- بكيت، أيها الرقيب، توسلت إليه . قالت لاليتا. منذ أن ذهبوا إلى الجزيرة وأنا أبكي متوسلة إليه، لنذهب ونختبيء، يا أدريان، والآن وقد أرسلت تخبرنا، جمع الأطفال فأكهة وصررتُ له أشياءه، توسل أكيلينو إليه أيضاً. لكنه لا يسمع، لا يعير أحداً انتباهاً.

كان ضوء القنديل يسقط كاملاً على وجه لاليتا، يضيء سطح وجنتيها الوعر، العنق والشعر المتذبذب الذي كان يغطي فيها.

- رغم بثلتك الرسمية لك قلب طيب . قال أدريان نيبيس . لذلك رضيت أن أكون عزائك.

لكن الرقيب لم يكن يصغي إليه. كان قد دار نصف دورة وهو جالس وراح يتفحص الشرفة، وإصبعه على شفته، وكان دون أدريان يتدلى أنذاك على الدرابزين، دون أن يحدث ضجة، وسوف يعد للعشرة ويطلق النار في الهواء، ويخرج راكضاً، أيها الفتيان، لقد هرب من هذا الجانب، وأخذ الحراس معه إلى الجبل. ادفع الزورق في الظلمة، يا دون أدريان، ولا تشغل المحرك حتى تصل المارانبيون واركض بعدها مثل روح يحملها الشيطان، ولا تدعهم يمسكون بك، يا دون أدريان، إياك وهذا، يمكن أن تتأذى. هو أيضاً، يجب ألا يدعهم يمسكون به، ولاليتا، نعم، نعم، هي تلك الزورق، تخرج المجاذيف، ستذهب معه، وكانت الكلمات ترتطم بشفتيها. كانت جبهتها تتمطي، وكان هناك فتوة غير مألوفة وسريعة في جلدها، يا أدريان، الملابس جاهزة وكذلك الطعام. لم يكن ينقص شيء وسيجدفان قبل أن يصلا إلى التكنة ويدخلا إلى الجبل. والرقيب، قف، يراقب الخارج: ليستقلبا على أرض الزورق، وحذار أن يرفعا رأسيهما، فلو رأهما الفتيان لأطلقوا عليهما النار، وكان «الصغير» يصيب الهدف دائماً.

- أشكرك، لقد فكرت بالأمر كثيراً ولا يمكن الخروج عبر النهر . قال أدريان نيبيس . ما من أحد يستطيع عبور المضيق الآن، أيها الرقيب. حتى ولو كان ساحراً. وأنت رأيت كيف بقي الملازم محاصراً في نهر سانتياغو، الذي ليس شيئاً أمام نهر المارانبيون.

- لكن يا دون أدريان . قال الرقيب . ما الذي تريده إذن؟ لا أفهم.
- الحل الوحيد هو الدخول في الجبل، كما دخلت في المرة السابقة . قال نيبيس .
- لكنني لا أريد أيها الرقيب . فقد فكرت في الأمر حتى تعبت ومنذ أن ذهبتم إلى الجزيرة . لن أقضي ما تبقى لي من حياة راكضاً في الجبل، أنا فقط كنت دليله، كنت أسير له الزورق، ليس أكثر، كما فعلت معكم، لا يستطيعون أن يفعلوا معي شيئاً . كان سلوكي هنا دائماً جيداً، وهذا ما يعرفه الجميع، الأمهات والملازم والحاكم .
- إنهم لا يتعاركون . قال «الصغير» . إذن لكننا سمعنا صراخاً، يبدو أنهم يتحادثون .
- لا بدّ أنه وجده نائماً وينتظر أن يرتدي لباسه . قال «الأشقر» .
- أو أنه يبطح لاليتا . قال الثقيل . لا بدّ أنه ربط نيبيس وراح يلتهمها أمامه .
- غريبةٌ هي الأمور التي تخطر لك، يا «ثقل» . قال «الأسود» . يبدو وكأنهم سقوك بوسانغا، فأنت حام ليلاً ونهاراً، ثم من هو الذي سيأكل لاليتا وهي مليئة بالبثور؟
- لكنها بيضاء . قال «الثقل» . إنها أفضل مسيحية فيها بثور . ساقاها جميلتان . وهي ستبقى الآن وحيدة وستحتاج لمن يواسيها .
- غياب المرأة يصيبك بالجنون . قال «الأسود» . وكذلك أنا أحياناً .
- ماذا تستفيد من رأسك، يا دون أدريان؟ . قال الرقيب . إذا لم ترم بنفسك إلى الماء الآن فأنت هالك، ألا ترى أنهم سيحملونك مسؤولية كل شيء؟ تقرير الملازم يقول إن المجنون يموت، لا تكن عنيداً .
- سيحتفظون بي في السجن لبضعة شهور لكنني سأعيش بعد ذلك بسلام، وسأستطيع العودة إلى هنا . قال أدريان نيبيس . ولو دخلت إلى الجبل لما رأيتُ بعد ذلك زوجتي أولادي، ولا أريد أن أعيش كحيوان إلى أن أموت . أنا لم أقتل أحداً وهذا يعرفه بانانتشا والوثيون . وقد سلكت هنا سلوك مسيحي صالح .
- الرقيب ينصحك لصالحك . قالت لاليتا . اسمع منه، يا أدريان . أحلقك بأعز ما عندك، بأولادك، يا أدريان .

كان ينبش الأرض، يتلمس الموز، وكان صوته يضيع وأدريان نيبس بدأ يرتدي ملابسه. كان يرتدي قميصاً بالياً، وبلا أزرار.

- أنت لا تعرف شعوري الآن. قال الرقيب. أنت ما تزال صديقاً لي، يا دون أدريان. أه كيف سيكون موقف بونيفانثيا. فهي كانت تعتقد أنك مضيت بعيداً، مثلي.

- خذه، يا أدريان. أجهشت لاليتا. انتطه أيضاً.

- لست بحاجة إليه. قال الدليل. احتظي لي به إلى أن أعود.

- لا، لا، انتطه. ألحت لاليتا صارخة انتتل الحذاء، يا أدريان.

عبرت علامة امتعاض وجه الدليل لثانية. نظر بارتباك إلى الرقيب، لكنه جلس القرفصاء وانتتل الحذاء ذا الأرضية السمكية، يا دون أدريان: ستعمل ما بوسعها للعناية بالعائلة، على الأقل يجب ألا ينشغل من هذه الناحية. كان قد نهض على قدميه وكانت لاليتا قد اقتربت منه وأمسكته من ذراعه. لن يبكي، أليس كذلك؟ لقد مرّ بتجارب كثيرة معاً، لكنه لم يبك قط. والآن عليه أيضاً ألا يبكي. سوف يطلقون سراحه عاجلاً، وعندئذ ستصبح الحياة أكثر هدوءاً، ولتعتني هي خلال ذلك بالصغار. وهي توميء موافقة مثل تمثال متحرك، وعادت عجوزاً، متشنجة الوجه، وعيناها مثل صحنين. خرج الرقيب وأدريان نيبس إلى الشرفة. وهبط السلم، وعندما وطأ شجيرات الخيزران الأولى شقت الليل صرخة امرأة، وفي ظلال الجانب الأيمن، هو ذا الداهية يخرج! صوت «الأشقر». والرقيب، ونحك، يداك فوق رأسك: اهدأ أو أحرقك. أطاعه أدريان نيبس. كان يسير أمامه ويداه مرفوعتان، ويتبعه الرقيب و«الأشقر» و«الصغير»، وهم يسيرون ببطء بين خطوط المزرعة الصغيرة.

- لماذا تأخرت كثيراً، يا حضرة الرقيب؟ قال «الأشقر».

- استجوبته قليلاً. قال الرقيب. وتركته يودّع زوجته.

حين وصلوا إلى غابة الخيزران الصغيرة خرج «الثقل» و«الأسود» للقائهم. انضموا إلى المجموعة دون أن يقولوا شيئاً، وهكذا قطعوا الدرب حتى سائنا ماريًا ده نيبيا بصمت. وعند مرورهم كانت تُسمع في الأكوخ مهممات.

وكان يوجد أيضاً بين أشجار الكايبيرونا وتحت الأعمدة أشخاص يراقبون. لكن أحداً لم يقترب منهم أو يسألهم شيئاً. سُمع أمام رصيف الميناء وقع أقدام حافية تعدو وكان قريباً، أيها الرقيب: إنها لاليتا، جاءت ثائرة، لا بدّ أنها ستوقعهم في ورطة. إلا أنها مرّت لاهثة بين الحراس، ولم تتوقّف إلا لثوان بجانب الدليل نيببس. كان أدريان قد نسي طعامه، ناولته حزمة وعادت راكضة كما جاءت، وضاعت خطواتها في الظلمة، وفي البعيد وبعد وصولهم إلى الموقع دوى عويل كعويل اليوم.

- أرايت ما قلته لك، يا «أسود»؟ قال «الثقيل». ما زال جسدها جيداً. أفضل من جسم أية تشوننتشية أخرى.

- آه، يا «ثقيل». قال «الأسود». أنت لا تفكر في شيء آخر، يا لك من داهية.
- غداً مساء سيكون الطقس جيداً، يا فوشيا. قال أكيلينو. سأذهب أنا أولاً لأستقصي. يوجد مكان قريب، تستطيع أن تبقى فيه مختبئاً في الزورق.
- وماذا لو لم يقبلوا، أيها العجوز؟ قال فوشيا. ماذا سأفعل؟ ماذا سيصير بحياتي، يا أكيلينو؟

- لا تستبق ما يمكن أن يحدث. قال أكيلينو. إذا وجدت هذا الشخص الذي أعرفه، فسوف يساعدنا. ثم إن المال يسوي كل شيء.
- وهل ستعطيهم كل المال؟ قال فوشيا. لا تكن غيبياً، أيها العجوز. احتفظ بشيء منه لنفسك تستقد منه، على الأقل، في تجارتك.

- لا أريد مالك. قال أكيلينو. سأعود بعد ذلك إلى إيكيترس، لأتبع وأقوم ببعض التجارة في المنطقة. وعندما أبيع كل شيء، سأذهب لزيارتك في سان بابلو.
- لماذا لا تكلمني؟ قالت لاليتا. هل أنا من أكل المعطبات؟ أعطيتها لك كلها. ليس نذبي أنها نفذت.

- لست راغباً بالتكلم إليك. قال فوشيا. كما لست راغباً بتناول الطعام. ألقى بهذا ونادي الأتشوليات.

- أتريد أن يسخنُ لك الماء؟ . قالت لاليتا. إنهن يفطن ذلك، أنا كلّفتهن بذلك. كلّ ولو قليلاً من السمك، يا فوشيا. إنه سمك شابل، أحضره خوم الآن.
- لماذا لم تُحقّق رغبتى؟ . قال فوشيا. كنت أريد أن أرى إيكيتوس من بعيد، حتى لو أنوارها فقط.

- هل جننت، يا رجل؟ . قال أكيلينو. والدوريات البحرية؟ ثم إن الجميع يعرفونني هنا، وأنا أريد مساعدتك لا أن أذهب إلى السجن.

- كيف هي سان بابلو، أيها العجوز؟ . قال فوشيا. هل ذهبت إليها مرات كثيرة؟
- مرات قليلة، وعبوراً . قال أكيلينو. المطر قليل هناك، كما أنه لا توجد سدود. لكن يوجد مدينتان باسم سان بابلو. وأنا ذهبتُ فقط إلى لاكلونيا، كي أتاجر، أنت ستعيش في الجانب الآخر. إنه على بعد كيلومترين تقريباً.

- هل يوجد الكثير من المسيحيين؟ . قال فوشيا. ما يقارب المائة، أيها العجوز؟
- بالتأكيد، أكثر . قال أكيلينو. ويتزهون عراة على الشاطئ عندما يكون هناك شمس. لا بدّ أن الشمس تفيدهم أو يريدون إيهام الزوارق التي تمر. يطلبون الطعام والسجائر صرلاً. وإذا لم يعرهم أحد اهتماماً، فإنهم يتناولونه بالسباب، ويرمونه بالحجارة.

- أنت تتكلم عنهم بقرف . قال فوشيا. أنا متأكد أنك ستتركني في سان بابلو وأنتي لن أراك بعدها، أيها العجوز.

- أنا وعدتك . قال أكيلينو. ألم أف بوعودي معك دائماً؟
- ستكون هذه هي المرّة الأولى التي تخلف فيها معي . قال فوشيا. والأخيرة أيها العجوز.

- هل تريدني أن أساعدك؟ . قالت لاليتا. اتركني أخلع لك جزمك.
- اخرجي من هنا . قال فوشيا. لا تعودى حتى أُناديك.
دخلت الأثشواليات. بصمت حاملات وعائين يتصاعد منهما البخار، وضعنهما بجانب السرير المعلق، دون أن ينظرن إلى فوشيا، وخرجن.
- أنا زوجتك . قالت لاليتا. لا تخجل مني. لماذا سأخرج.

أمال فوشياً برأسه ونظر إليها فكانت عيناه شقين من نار: يا لك من لوريثية عاهرة. دارت لاليتا نصف دورة وخرجت من الكوخ وكان الظلام قد خيم. وبدا الجو المكهر كأنه سيتفجر رعداً أمطاراً وبروقاً. كانت الصلوات في القرية الهوامبسية تطلق، ونورها يضطرم بين أشجار اللويونا ويوجي باضطراب متنام وتتقلات وصراخات وأصوات مبحوحة. كانت ساقا بانئاتشا، الجالس في شرفة الكوخ يتوسان في الفراغ.

- ماذا حل بهم؟ قالت لاليتا. لماذا كل هذه الصلوات؟ لماذا كل هذا الصخب؟
- لقد رجح الذين خرجوا للصيد، يا معلمة. قال بانئاتشا. ألم تري النساء؟
لقد أمضين النهار كله في صنع الماساتو، سيعيدون. يرغبون بأن يذهب المعلم ويشاركهم أيضاً. لماذا هو غاضب بهذا الشكل، يا معلمة؟
- لأن دون أكيلينو لم يصل. قالت لاليتا. انتهت المعلبات، المشروب أوشك على الانتهاء أيضاً.
- منذ شهرين لم يأت العجز. قال بانئاتشا. هذه المرة فعلاً لن يأتي ثانية، يا معلمة.
- تساوت عندك الأمور الآن، أليس كذلك؟ قالت لاليتا. فقد صار عندك امرأة ولم يعد يهيك شيء.

أطلق بانئاتشا ضحكة وظهرت التشاربية في الباب ملبئة بالزينة: أكاليل، أساور، خلاخيل، وشوم على الخدين والصدغين. ابتسمت لاليتا وجلست إلى جانبها في الشرفة.

. لقد تعلمت اللغة المسيحية أفضل مني. قال بانئاتشا. إنها تحبك كثيراً، يا معلمة. وهي الآن خائفة من وصول الهوامبسيين الذين خرجوا للصيد. وخوفها منهم لا يزول مهما فعلت.

أشارت التشاربية إلى الأدغال التي كانت تخفي الوهدة. كان الدليل نيبس قاسماً وقبعة القش في يده، دون قميص، وقد شمر بنطالونه حتى الركبتين.
- لم يرك أحد طوال النهار. قال بانئاتشا. هل كنت تصطاد السمك؟

- بلى لقد هبطت حتى نهر سانتياغو . قال نيبيس . لكن الحظ لم يحالفني .
- ستحدث عاصفة فالأسماك تفرح أو تنزل إلى الأعماق البعيدة .
- لقد عاد الهوامبيسيون . قال بانناتشا، سيعيدون هذه الليلة .
- إذا هذا هو سبب ذهاب خرم . قال نيبيس . رأيته يخرج من البحيرة بزورقه .
- سيقى في الخارج يومين أو ثلاثة . قال بانناتشا . هذا الوثنى أيضاً لا يفارقه الخوف من الهوامبيسيين .
- ليس خوفاً، ولكنه فقط لا يريدون أن يقطعوا له رأسه . قال النليل . هو يعرف أنهم عندما يسكرون تستيقظ كراهيتهم له .
- أنت أيضاً ستحتفل مع الوثنيين؟ . قالت لاليتا .
- إنني منكم من الإبحار . قال نيبيس . سأذهب لأنام .
- لكنهم يخرجون أحياناً . قال أكيلينو . عندما يريدون أن يطالبوا بشيء، يجهزون زوارقهم وينزلون إلى الماء، ويقومون أمام لاكلونيا . إما أن تلبوا رغباتنا أو أننا ننزل إلى البر، هذا ما يقولونه .
- من يعيش في لاكلونيا، أيها العجوز؟ . قال فوشيا . هل يوجد شرطة؟
- لا، لم أراهم . قال أكيلينو . هناك العائلات . الزوجات والأولاد . لقد أقاموا مزارعهم الصغيرة .
- إلى هذا الحد تعرفهم عائلاتهم؟ . قال فوشيا . رغم أنهم أقراباؤهم، يا أكيلينو؟
- هناك حالات لا دور للقرابة فيها . قال أكيلينو . المسألة هي أنهم لا يتأقلمون ويخافون أن يُصابوا بالعدوى .
- إذا لا أحد يذهب لزيارتهم . قال فوشيا . إذا الزيارات ممنوعة .
- على العكس، على العكس، كثيرون هم الذين يقومون بزيارتهم . قال أكيلينو . يجب أن يأتي المرء في زورق قبل أن يدخل ويعطونك صابوناً كي تستحم، وعليك أن تخلع ملابسك وترتدي مريولاً .
- لماذا تصوّر لي أنك ستأتي لرويتي، أيها العجوز .؟ . قال فوشيا .

- تظهر البيوت من النهر . قال أكيلينو. وهي بيوت جيدة. بعضها من الطوب ويشبه بيوت إيكيتوس. ستعيش هناك أفضل من الجزيرة، يا رجل. ستكون لك صداقات وستعيش بهدوء.

- اتركني على أحد الشواطئ، أيها العجوز . قال فوشيا. ومستمر بي من حين لآخر وتحضر لي طعاماً. سأعيش متخفياً، ولن يراني أحد. لا تحملني إلى سان بابلو، يا أكيلينو.

- لكنك، لا تكاد تستطيع السير، يا فوشيا . قال أكيلينو. ألا تترك هذا، يا رجل؟

- وكيف سمحت لنفسك أن تتداوى من الحمى عند ساحر الهوامبيسين؟

- طالما أنك ما تزالين تخافينهم إلى هذا الحد؟ . قالت لاليتا. ابتسمت

الشاربية دون أن تجيب.

- أحضرته رغم أنها لم تكن تريد، يا معلمة . قال بانئاتشا. غنى لها، رقص، بصق التبغ في أنفها وهي لم تفتح عيناً. وكانت ترتجف من الخوف أكثر من الحمى. اعتقد أن الخوف شفاها.

دوى الرعد وبدأت تمطر ولاليتا التجأت تحت السقف. وبقي بانئاتشا في الشرفة منتقياً الماء على ساقيه. توقّف المطر بعد دقائق وامتألت الفسحة المكشوفة بالبخار. لم يعد في كوخ الليل نور، يا معلمة، لا بدّ أنه نام، وهذا لم يكن سوى إخطار، والمطر الغزير سيسقط على الهوامبيسين فعلاً في عزّ الاحتفال. لا بدّ أنّ أكيلينو قد خاف من الرعود، بالتأكيد، وقفزت لاليتا عن الدرج، كانت ذاهبة لرؤيته، اجتازت المنطقة المكشوفة ودخلت الكوخ. كانت ساقا فوشيا مغمورتين في الوعائين وقد صار جلد فخذه متورداً ومحرشفاً مثل صلصال الوعاء. كان فوشيا يتلمس الناموسية دون أن يرفع نظره عنها، لماذا كان يخلج؟ وانتزعها وتغطى بها وراح يدمم، ما وجه السوء في أن تراه، ومنطوياً على نفسه حاول فوشيا أن ينتعل الجزمة، ثم أمسكها وقذفها دون أن يصوّب: مرت بجانب لاليتا واصطنعت بالمهد والطفل لم يبك. عادت لاليتا وخرجت من الكوخ. كان يسقط الآن مطر ناعم.

- والذين يموتون، أيها العجوز؟ . قال فوشيا. هل يقبرونهم هناك بالذات؟
- بالتأكيد هناك . قال أكيلينو. لن يرموهم في الأمازون، لن يكون هذا عمل مسيحيين.
- وهل ستبقى تنتقل من مكان لآخر عبر الأنهار، يا أكيلينو؟ . قال فوشيا.
- ألم تفكر أنه يمكن أن تموت ذات يوم في الزورق؟
- أودّ لو أموت في بلدي . قال أكيلينو. لم يعد لي أحد في مويويامبا، لا أقارب ولا أصدقاء. لكنني أتمنى أن أقبر في مقبرتها، لا أدري لماذا.
- أنا أيضاً أحب أن أعود إلى كامبو غرانده . قال فوشيا. وأن أعرف ماذا جرى لأقربائي، ولأصدقائي. لا بدّ أن بعضهم ما زال يتذكرني.
- أنتم أحياناً لأنني لا أملك شريكاً . قال أكيلينو. كثيرون عرضوا عليّ أن أشاركهم، وقدموا رأسمالاً لشراء زورق جديد. تراود الجميع فكرة أن يقضوا حياتهم في السفر.
- ولماذا لم تقبل؟ . قال فوشيا. لو قبلت لصار عندك الآن وأنت عجوز رقيقة.
- أنا أعرف المسيحيين . قال أكيلينو. ولكنك تقاهمت جيداً مع الشريك أثناء تعليمي له التجارة وتعريفه على الزبائن، ولكنه فكّر عندئذ لماذا نظل نتقاسم ما يمنح القليل من المال. وبما أنني أنا العجوز ساكون من يضحى به.
- يعزّ عليّ أن لا نستمر معاً، يا أكيلينو . قال فوشيا. طوال السفر وأنا أفكر في هذا.
- لم تكن بالنسبة لك تجارة . قال أكيلينو. أنت شديد الطموح ولا ترضى بالريح البائس الذي يعطيه هذا.
- ها أنت ترى ماذا استعدت من الطموح . قال فوشيا. لأنتهي إلى حال أسوأ بألف مرة من حالك أنت الذي لم يكن عندك أي طموح قط.
- لم يساعدك الله، يا فوشيا . قال أكيلينو. كل الأشياء التي تحدث لها علاقة بهذا.
- لكن لماذا لم يساعدني وقد ساعد آخرين غيري؟ . قال فوشيا. لماذا حطمني وساعد رثائغي مثلاً؟

- أسأله عندما تموت . قال أكيلىنو . كيف تريد منى أن أعرف يا فوشيا ؟
- لنذهب لحظة قبل أن يهطل وابل المطر ، يا معلم . قال بانئاتشا .
- صنأ ، لكن للحظة فقط . قال فوشيا . لكي لا يمستاء هولاء الكلاب . ألن
يأتى نيبيس ؟

- كان يصطاد فى نهر سانتياغو . قال بانئاتشا . ونام ، يا معلم . أطفأ
القنديل منذ برهة .

ابتعدا عن الأكوخ باتجاه أضواء القرية الهواميمسية الضاربة للحمرة
وانتظرت لاليتا ، جالسة إلى جانب دعامات الكوخ الذي كان يذلف . ظهر
الدليل بعد قليل بالبنطلون والقميص . كان كل شيء جاهزاً ، لكن لاليتا لم تعد
ترغب ، غداً ، فالآن كانت مستهب عاصفة .

- غداً لا ، الآن . قال أدريان نيبيس . فالمعلم وبانئاتشا سيبقيان للاحتفال
والهواميمسيون الآن ثملون ، وخورم فى الرافد ينتظرننا ، وميوصلنا حتى نهر سانتياغو .

- يجب ألا أترك أكيلىنو هنا . قالت لاليتا . لا أريد أن أهجر ولدي .

- لم يقل أحد إنه سيبقى . قال نيبيس . أنا أيضاً أريد أن نأخذه معنا .

دخل إلى الكوخ وخرج وبين ذراعيه حزمة ، دون أن يقول شيئاً للاليتا ، وراح
يسير باتجاه حوض البشاريات ، تبعته باكية ، لكنها هدأت فى الوهدة وأخذت
بذراع الدليل . انتظر نيبيس أن تصعد هي أولاً إلى الزورق ، ثم ناولها الطفل
وبعد قليل راح الزورق يحدش وجه ماء البحيرة الداكن بنعومة . من خلف سياج
أشجار اللويونا المكفهرة كانت تطل أضواء الصلآعات وتسمع الأغاني .

يرإلى أين نحن ذاهبان ؟ . قالت لاليتا . أنت لا تقول لي شيئاً وتفعل كل
شيء بمفردك . لا أريد الذهاب معك ، أريد أن أعود .

- اسكتي . قال الدليل . لا تتكلمي حتى نخرج من البحيرة .

- ها هو الفجر يطلع . قال أكيلىنو . لم يطبق لنا جفن ، يا فوشيا .

- هذه آخر ليلة نقضيها معاً . قال فوشيا . أشعر بنيران هنا فى داخلي ،

يا أكيلىنو .

- أنا أيضاً حزين . قال أكيلينو. لكننا لا نستطيع أن نمكث أكثر هنا، علينا أن نتابع. ألسنت جائعاً؟
- على شاطئ صغير، أيها العجوز . قال فوشيا. بحق صداقتنا. سان بابلو لا، اتركني في أي مكان. لا أريد أن أموت هناك، أيها العجوز.
- كن شديد البأس، يا فوشيا . قال أكيلينو. تصور أنني كنت أحسب. مضي ثلاثون يوماً تماماً على خروجنا من الجزيرة.

الأشياء هي هي، يختلط الواقع بالرغبات، وإلا فلماذا جاءت هذا الصباح. هل ميّزت صوتك، رائحتك؟ كلمها، وانظر كيف يَطو وجهها شيء باسم ومتلهف. الممن يدها للحظة واكتشف الرهبة تحت جلدها، تلك الرهبة المحتمشة واستنغار دهما اللطيف، انظر كيف تتجدد شفتاها وكيف تهتز أجفانها، هل كانت تريد أن تعرف؟ لماذا تشدّ على نراعي بهذا الشكل؟ لماذا تلعب بشعري؟ لماذا يدك على خصري؟ وعندما تتكلم يكون وجهك قريباً جداً من وجهي. وضّح لها: كي لا تخلطي بيني وبين الآخرين لأنني أريد أن تعرفيني، يا تونييتا، وهذه الريح الناعمة وصخب فمي هذا إنما هي الأشياء التي أقولها لك الآن. لكن كن حكيماً، يقظاً، واحذر الناس، والآن، وبما أنه لا يوجد أحد، خذ يدها، اتركها فوراً، لقد خفت، يا تونييتا، لماذا صرت ترتجفين؟ اطلب منها أن تغفر لك. وما هي الشمس هناك من جديد تُدْهبُ أهدابها، وهي، أكيد أنها تفكر، ترتاب، تتصور، أنت لستِ سيئة أبداً، يا تونييتا، لا تخافي مني، وهي تجهد نفسها بشكل غامض، تخنلق، لماذا، كيف، وما هم الآخرون هناك، خائنتو ينظف الطاولات، تشابيرو يتكلم عن القطن، عن الديكة، وعن التشوليات اللواتي كان يبطحهن، بعض النسوة يقمن القشدة،

وهي جادة تتكش بضييق في الظلمات الخرساء، لماذا؟ كيف؟ وأنت أنا مجنون، هذا مستحيل، أنا أعذبها، استح، اقفز على جرانك، ثم الرملة من جديد، والقاعة والبرج. أسدل الستائر ولتصعد لاماريبوسا، ولتتعد دون أن تفتح فمها، تعالي، لا تتحركي، أنت طفلة، قبلها، أنت تحبها، يداها أزهار، وهي ما أجملها من أشياء، يا معلم، هل حقاً أنني أعجبك إلى هذا الحد؟ لترتد ثيابها ولتعد إلى القاعة، لماذا تكلمت، يا ماريبوسا، وهي أنت عاشق وتريد مني أن أحل محلها، وأنت هيا اذهبي، ما من قاطنة تعود إلى البرج. ثم العزلة، القيثارة، والكانياتو من جديد، اسكز، تمتد على السرير، قلب أنت أيضاً، نقب في الظلمة، هل من حقها أن يحبها؟ هل لي الحق في أن أحبها؟ هل يهتمي إذا كان ذلك خطيئة؟ إنَّ الليل بطيء، أجوف ورتيب من دونها دون حضورها الذي يقتل الشكوك. في الأسفل يضحكون، يشربون الأنخاب، يمزحون. وبين قيثارات صاخبة يتسلل صوت ناي رقيق، يلتهبون، يرقصون. كانت خطيئة، يا تون أنسيلمو، سوف تموت، تب، وأنت ليس الأمر كذلك، أيها الأب، لن أندم على أي شيء إلا عليها إذا ماتت. وهو كان بالإكراه، بالقوة، وأنت لم يكن بالإكراه، كنا نقاتم دون أن تراني، كان يحب أحدنا الآخر دون أن تكلمني. كانت الأشياء كما كانت. الله كبير، يا تونبيتا، أليس صحيحاً أنك عرفتني. قم بالتجربة، شدّ على يدها، عدّ إلى الستة، هل تعدّ هي؟ إلى العشرة، ألا ترى أنها لا تفلت يدك؟ إلى الخمسة عشر، فتبقى يدها في يدك، واثقة، ناعمة. وأثناء ذلك يتوقف سقوط الرمل، وتصعد ريح رطبة من النهر، تعالي، إلى لاستريليا دل نورته، يا تونبيتا، وسنتناول شيئاً، وعن أي نراع كانت تبحث يدها؟ على من كانت تتكى كي تجتاز الساحة؟ وأنت عن نراعي وليس عن نراع ابوسيبوي، عليّ وليس على دون تشابيرو، إذن تحبك؟ ولتشر بما كنت تشعر به: اللحم القتي والمحمص وزغب نراعها السبط. وتحت الطاولة بركبتها إلى جانب ركبتك، أليذ عصير اللوكوما، يا تونبيتا؟ والركبة دائماً وعندئذ تمّتع، إذا التجارة تسير سراً حسناً، يا دون ابوسيبوي، وهكذا فالحانوت التي

افتتحتها في سوليانا هي الأكثر ازدهاراً، هكذا فإن أريس يموت ونفقده يا دكتور ثياليو، وبألها من كارثة بالنسبة لبيورا، فقد كان مقروءاً أكثر من غيره، وبها هي الحرارة محظوظة بين العروق والأفخاذ، وجنوة في القلب وأخرى في الصدغين، فوهتا بركان صغيرتان تتقيحان تحت المعصمين. ليست الركبة وحدها الآن وإنما القدم أيضاً، سيبدو صغيراً وأعزل إلى جانب الجزمة الغليظة، وكذلك الكعب، والفخذ الرشيقي الموازي لفخذك، وأنت الله كبير ربما تنتبه، تراها مصادفة؟ قم بتجربة أخرى، ادفع، أنتراجع؟ هل تبقى ملاصقة لك؟ وهل تدفع هي أيضاً؟ وأنت ألسنت تلعبين، أيتها الفتاة؟ ما هو شعورك تجاهي؟ ومن جديد الرغبة الجامحة: أن تكونا وحيدتين ذات مرة، ليس هنا وإنما في البرج، وليس نهراً وإنما ليلاً، ليس بتيابكما وإنما عاريان، يا تونييتا، لا تنفصلي عني، ابقي ملامسة لي. وبها هو الصباح الصيفي الخائق، ماسحو الأحنية، الشحاذون، البائعات، الناس الذين يخرجون من الصلاة، لاسترليلا دل نورته برجالها وأشجار الحور فيها، القطن، الفيضانات، وباتشامانكا الأحد وفجأة، اشعر بيدها التي تبحث عن يدك، اعثر عليها وتمسك بها، انتبه، حذار، لا تنتظر إليها لا تتحرك، ابتسم، القطن، المراهنات، حفلات الصيد، ولحم الغزال القاسي، الأوبئة الغادرة، وخلال ذلك، اسمع ويدها في يدك، رسالتها السرية، حلل هذا الصوت ذا النفوذ السري والقرص الخفيف، ومن ثم طوال الوقت، تونييتا، تونييتا، تونييتا. كفى شكواً الآن، وغداً باكر أكثر، اختبئ في الكاتدرائية وراقب، استمع إلى غناء الرمل الناعم في رؤوس أشجار التمر الهندي، انظر متجمداً، وعيناك ثابتتان على الزاوية شبه المخفية وراء الرواق والأشجار، ومن ثم الزمن المتوقف هناك تحت القبة والأفواس، والبلاط المكفهر والمقاعد المهجورة، الإرادة الصلبة والإفرازات الباردة في الظهر، وفراغ المعدة القاسي: الحمار، الغالبيناثية والسلال وطيف يتقدم زاهياً. وحيداً أن لا يصل أحد وأن لا يخرج الراهب، ولتذهب فوراً، والآن بسرعة، جارياً، النور الخارجي، الفناء، الدرجات العريضة، الطريق والساحة المظلمة. افتح ذراعك،

استقبلها، انظر كيف ينحني رأسها على كتفك، داعب شعرها، نظّفه من الرمل الأثقل وكن حذراً في الوقت نفسه، فـ «لاستريليا دل نورته» مستنقح أبوابها وسيظهر خائنتو متثائباً، سيأتي الجيران والغرباء، اسبقهم. دعك من الخدع، قبلها، وبينما تلعو الحرارة وجهها لا تخف، أنت جميلة، أنا أحبك، لا تبكي، واشعر بفمك على خدّها، وانظر، فهي جانيها يزول، وهي من جديد عادت وديعة، وهكذا عقب مطر الصيف الحار، مثل السطح الذي يذعن لشفتيك، هكذا هو حين يضيء قوس قزح السماء. وعندئذ اسرفها: لا نستطيع أن نستمر على هذه الحال، تعالي معي، يا تونيبينا، وستعتني بها وتجلّها وستكون سعيدة معك، وقت قصير وستذهبان بعيداً عن بيورا، وستعيشان في الضوء. اركض معها، والأطناف ما تزال تلتف رملًا، والناس ينامون أو يتمطون في أسرّتهم، لكن انظر، راقب حولك، ناولها يدك، ارفعها على الجواد، لا تنثر أعصابها، كلّمها ببطء: أمسكي بخاصرتي، بقوة، لحظة واحدة فقط. ومن جديد الشمس التي تتوضّع فوق المدينة، والجو المعتدل، الشوارع المقمرة، السرعة الوحشية وانظر فجأة كيف تهصر قميصك، جسدها يلتحم بجسدك، انظر إلى تلك الومضة في وجهها: هل فهمت؟ أتسرعين؟ تريدين ألا يزورنا؟ هل نذهب؟ أريد أن أذهب معك؟ وأنت تونيبينا ألا تلاحظين إلى أين نحن ذاهبون؟ ولماذا نحن ذاهبون؟ ما نحن؟ اعبر البييخو بونته ولا تدخل كاستيليا المبكرة، واتبع بسرعة أشجار الخرنوب على الضفة، والآن ها هي الرملة، إلكر بكعبيك بحقد، ليخبّ، ليقفز، ليمض خبياً، وليضرب بحوافره ظهر الصحراء موجعاً وليرتفع غبار واق. ومن ثم الصهيل وتعب الحيوان ونراعاها إلى خصرك ومن حين لآخر طعم شعرها الذي يدخله الهواء في فمك. اضرب بكعبيك دائماً، ها هم يصلون، استعمل السوط، واستنشّق من جديد رائحة هذا الصباح، غبار وهيجان هذا الصباح. ادخل دون أن تُحدث جلبة، احمّلها، اصعد بها درج البرج الضيق، واشعر بذراعيها حول عنقك مثل طوق حي، ومن ثم تجد الزفير والقلق يشق شفتيها، يريق أسنانها، وأنت لا أحد يرانا، أناس نيام، اهثني، يا

تونيبينا. قل لها أسماءهن: لالوثيرناغا، لارانبنا، لافلور، لاماريبوسا، وأكثر من ذلك: إنهن منهكات، فقد شرين ومارسن الحب وهن لا يشعرن بنا، ولن يقن شيئاً، أنت ستوضحين لهنّ الأمور وهن سيقهمنها. لكن تابع، كيف بنادونهن بالقاطنات؟ أخك لها عن البرج وعن المنظر، وارسم لها النهر، وحقول القطن وجانب الجبال البعيدة ويريق أسطحه بيورا عند الظهر، بيوت كاستيليا البيضاء والرملة الواسعة والسماء الشاسعة. وأنت سأنظر عنك، سأعيرك عيني، كل ما عندي هو لك، يا تونيبينا. ولتتصور عندما تدخل في النهر: تلك الأفاعي الدقيقة والتي تصل ذات يوم من أيام كانون الأول زاحفة في المجرى، وكيف تتجمع وتتمو، ولونها أخضر ويني، وستسمن وتطول. لتسمع قرع النواقيس ولتحترس الناس الذين يخرجون للقائه، الأطفال الذين يتعبون سكرأ، والنسوة اللواتي ينثرن خبزاً ولفافات ورقية، وأردية الأسقف القانية، الذي يبارك المياه المسافرة. أخك لها كيف يجلسون على ركبهم في المالكون وصف لها المعرض، الأكشاك، الظللات، البوظة، والدلاين. قل لها أسماء السادة المجيدين، الذين يمرقون خبياً على جيادهم ويطلقون النار في الهواء، وكذلك الغاليناثيين والمانغاتشيين الذين يتحممون بسرولهم الداخلية، والشجعان الذين يلقون بأنفسهم من الببيخو بونته، قل لها كيف أن النهر الآن نهر وكيف أنه يجري ليل نهار باتجاه كاتاكاوس كثيفا ومليناً بالقانورات. قل لها من هي أنخليكا ميرثيدس أيضاً، والتي ستصبح صديقة لها، والأطباق التي ستحضرها لها أنت، أحب الصحون إليك، يا تونيبينا، حارة وتشويبات، وسيكو ويكنو بل وكلاريتو أيضاً. لكنني لا أريدك أن تسكري. ولا تنس القيثارة، وأنت في كل ليلة لك مني معروفة ليلية خاصة بك. كلمها همساً في أنها، أجلسها على ركبتيك، لا تجبرها، كن صبوراً معها، داعبها، دغدغها قليلاً أو بالأحرى استشفها دون أن تلمسها، بلا عجلة، وانتظر حتى تبحث عن شفيتك. كلمها دائماً همساً في أنها، برقة، فوزن جسدها خفيف، ومن بشرتها ينبثق عطر فاتر، المس زغب نراعيها تماماً كما تلمس أوتار قيثارتك. كلمها، همس لها،

اخضع لها حذاءها برقّة، قبل قلميها، كعبيها الصافيين والبطينين وانحناءة
خصرها وأصابعها الرشيقة في فمك، وضحكها الطازجة في الظل. اضحك
أيضاً، هل أدغدغك؟ قلبها طول الوقت فما هي هناك، كعباها ناعمان تماماً
وركبناها قاسيتان ودائريتان. مدّها عندئذ بحذر، وأرخها، ببطء شديد ويعنوية،
افتح قميصها والمساء، جسدها يقسو؟ اتركها، المسنها من جديد، وكلمها فأنت
تحبها، وستلّلهما كما تدلّل طفلة، ستعيش لأجلها، لا تعصرها، لا تعضها،
أحط بها قليلاً، احمل يدها إلى تورتها ولتتك أزرارها بنفسها. قل أنا أساعدك،
يا تونيبيا، أنا أنزعها عنك، يا فتاتي وتمدّ إلى جانبيها. قل لها بماذا تشعر، قل
إنّ ثديها أرنبان صغيران، قبلهما، أنت تحبهما، كنت تراهما في أحلامك،
وكانا في الليالي يدخلان إلى البرج أبيضين يقفزان، وكنت تذهب لتأخذهما
فيهربان، لكنهما أحلى وأكثر حيوية حيث هنا الظلمة الساترة، حركة الستائر،
طيف الأشياء المغشاة وقساوة وتألّق جسدها الذي بلا حراك. والمسه مرة أخرى
وقل لها إنك تحبّ ركبتيها ووركها، وكتفيها، ما تشعر به وأنك تحبها وتحبها
دائماً. أنت تونيبيا، يا فتاتي، يا صغيرتي وضّمها إليك، والآن ابحث عن
فخذيها، أبعد بينهما بخجل، كن حذراً، كن مطيعاً، ولا تضايقها، قبلها، وتراجع
وعذّ وقبلها، هنتها، ولتشر خلال ذلك كيف ستبتل بك وسيهجرها جسدها
وينتشر، والوسن الكسول يغزوها وكيف ينشط تنفسها ويناديك نراعها، اشعر
كيف يبدأ البرج بالسير، يمشي ويختفي بين الكتبان الحارة، قل لها أنت زوجتي
لا تبكي، لا تعانقيني كما لو أنك ستموتين، قل لها إنك بدأت تحيين، والآن
سلها، العبّ معها، جفّف خديها، غنّ لها، اهدلّ لها، قل لها أن تمام، وأنا
سأكون ومسانتك، يا تونيبيا، وسأسهر على حلمك.

- حملوه إلى ليما هذا الصباح . أنت بونيفاثيا. ويقولون لأعوام كثيرة.
وسجن بيورا ألم يكن أسوأ من حظيرة خنازير؟ خطأ خوسيفينو عدة خطوات
في الغرفة، الناس تعيش في القذارة. استند إلى إفريز النافذة، كانوا يقتلوتهم
جوعاً، في ضوء مصباح ضعيف كانت تظهر مدرسة سان ميغيل، الكنيسة
وأشجار خرنوب، ساحة مورينو وكأنها في حلم، وكانوا يقدمون للسفهاء البراز
بدل الطعام، وكان ليتوما سفيهاً، والويل لهم إذا لم يبلعوه: كان يفضل لو أنهم
أرسلوه إلى ليما.

- لم يسمحوا لي حتى أن أودعه . أنت بونيفاثيا. لماذا لم يخبروني أنهم
سيأخذونه.

ألم يكن الوداع حزيناً؟ اقترب خوسيفينو من الأريكة التي كانت قد جلست
عليها بونيفاثيا لتوها، كانت بونيفاثيا تحفّ قدميها ببعضهما بعضاً بغضب،
وكان جسدها يعاني من ارتعاشات شديدة. كان ذلك هو المفضل، بالنسبة
لليتوما أيضاً الذي كان سيحزن من دون شك، وهي من أين كانت ستأتي
بالنقود، فبطاقة السفر كانت غالية جداً، لقد قالوا لها ذلك في شركة روجيرو.
مرّر خوسيفينو يده على كتفها. ماذا كانت ستفعل المسكينة في ليما؟ من
الأفضل أن تبقى هنا، في بيورا، وسيعتني هو بها وسيجعلها تنسى كل شيء.

- إنه زوجي، عليّ أن أذهب . أنت بونيفاثيا. مهما يكن فإنني سأذهب
لأزوره كل يوم وسأحمل له الطعام.

لكن الوضع كان مختلفاً في ليما، آه ما أغياها، فقد كانوا يقدمون لهم
طعاماً جيداً ويحسنون معاملتهم. طوّق خوسيفينو بذراعيه بونيفاثيا، فقاومت
للحظة، ثم أذعنت وأخيراً أتيرت، ألم يكن الشرطي متوحّشاً؟ وهي كذب، ألم
يكن ينغص عليها حياتها؟ وهي هذا ليس صحيحاً، لكنها ارتمت عليه وبدأت
تبكي من جديد، داعب خوسيفينو شعرها. ثم لماذا كل هذا، فهذا من حسن
حظها، يجب أن يقال عن الخبز خبزاً وعن النبيذ نبيذاً، يا سيلباتيكا: لقد
تخلصنا منه.

- أنا سيئة، لكنك أسوأ مني . تباكت بونيفاثيا. كلانا سئدان، فلماذا يقول لي سيلباتيكا إذا كنت تعرف أنني لا أحب ذلك، أرايت، أرايت أنك سيء؟
أبعدها خوسيفينو بنعومة، نهض على قدميه وتلك كانت الطامة الكبرى،
ألن تموت جوعاً لولاه؟ ألن تعيش كمتسولة، فقتل جيبويه وهو منكئ إلى
النافذة، ومثل اللحم، وفوق ذلك كله تأتيه وتبكي على الشرطي أمامه، أخرج
سيجارة وأشعلها: يا للشيطان، الرجل له كبرياؤه.
- أنت تتاديني بأنت . قال فجأة وهو يلتفت إلى بونيفاثيا. في السابق في
الفراس فقط ثم دائماً بأنتم. ما أغريك، يا سيلباتيكا.

رجع إلى جانبها وبدأت هي حركة تقهقر، لكنها تركته يعانقها وضحك
خوسيفينو. هل كانت خجلي؟ هل هي أشياء زرعتها في رأسها راهبات قربتها؟
لماذا تكلمه في السرير بأنت؟ لماذا لا تخاطبه بأنت إلا في السرير؟
- أنا أعرف أنها خطيئة ومع ذلك فأنا مستمرة معك . أجهشت بونيفاثيا.
أنت لا تتبته لكن الله سيعاقبني أيضاً، كل ذلك بسببك أنت.

يا لها من مناقفة، كانت تشبه البيوريات في هذا فعلاً، وكل للنساء، إنها
تشولية مناقفة، هل كانت تعلم أنها ستصبح زوجته في تلك الليلة التي
أحضرها فيها أم لا؟ وهي لم تكن تعلم، جاءت لأنه لم يكن عندها مكان تذهب
إليه. بصق خوسيفينو السجارة على الأرض وكانت بونيفاثيا مستكينة إليه
وكان يستطيع أن يهمس في أنفها. لكنه أعجبها، لتكن صريحة، سيلباتيكا،
لتعترف لمرة واحدة فقط، ببطء، له وحده، يا صينية، هل أعجبت به أم لا ؟
- أعجبتني لأنني سيئة . همست هي . لا تسألني، هذه خطيئة، لا تكلمني
عن هذا.

هل كان الأمر أفضل مما هو مع الشرطي؟ لتقسم، فلا أحد يسمعها، فهو
كان يحبها، أليس صحيحاً أنها كانت تتمتع معه أكثر، قبلها على عنقها،
عض أنفها. تحت التتورة كل شيء كان ضيقاً، متوتراً وفاتراً. أليس صحيحاً
أن الشرطي لم يجعلها تصرخ أبداً؟ وهي يصوت ضائع بلى في المرة الأولى

لكن من الألم أكثر من أي شيء آخر، أليس صحيحاً أنه كان يجعلها هو تصرخ حين كان يرغب؟ ومن اللذة فقط، أليس كذلك؟ وهي اسكت، يا خوسيفينو، فالله كان يسمعه، وهو المسك فتتبدلين في الحال، تعجبيني لأنك ملتبهة. أفلتها فتوقفت عن الهزّ وبعد لحظة راحت تبكي من جديد.

- هو كان يوسخك، يا سيلباتيكا . قال خوسيفينو. كنت تضيّعين وقتك مع الشرطي. لماذا تحزنين عليه إلى هذا الحد؟

- لأنه زوجي . قالت بونيفاثيا. يجب أن أذهب إلى ليما.

انحنى خوسيفينو والنقط عقب السيارة عن الأرض وأشعله وكان بعض الصبية يحومون في ساحة ميرينو، وتسلق واحد منهم التمثال ونوافذ الأب غارثيا كانت مضاءة، لا يبدو أن الوقت متأخر إلى هذا الحد، هل كانت تدري أنه رهنّ ساعته البارحة، لقد نسي أن يحكي لك، يا سيلباتيكا، صحيح، صحيح، إنّ كل شيء سيكون جاهزاً غداً باكراً مع السيدة سانتوس.

- لم أعد أريد . قالت بونيفاثيا. لا أريد، لن أذهب.

رمى خوسيفينو عقب السيارة باتجاه ساحة ميرينو لكنه لم يبلغ حتى جادة سانتشيت ثيرو، وتراجع عن النافذة، وكانت هي متبسمّة، وهو ماذا بك، هل كانت تريد أن تقتله بنظرتها؟ كان يعرف أن عينيها جميلتان، فلماذا كانت تفتجهما إلى هذا الحد؟ وماذا كانت تلك القصة؟ لم تكن بونيفاثيا تبكي، وكانت عليها ملامح عدوانية، وصوتها حازم: لم تكن تريد، فقد كان ابن زوجها. ومم كانت ستطعم ابن زوجها؟ وماذا كانت ستأكل هي ريثما يولد ابن زوجها؟ وماذا كان سيفعل خوسيفينو بابن زوجته؟ وأسوأ ما في الأمر أن الناس لم يكونوا يفكرون بالأسياء، ماذا كانوا يفعلون بالرأس الذي وضعه لهم الله فرق العنق؟ أي خراء كانوا يفعلون؟

- سأشتغل خادمة . قالت بونيفاثيا. ثم أذهب به إلى ليما.

خادمة، يا صغيرة؟ كانت تحلم، إذ لا أحد كان يريد استخدامها، وإذا ما صادف ورضي أحد فسيجعلها تمسح الأرض، وسيسقط ابن زوجها من الجهد

المضني أو يأتي ميتاً أو مسخاً، ولتسأل طبيباً عن ذلك، وهي ليثت من تلقاء نفسه، لكنها لا تريد أن تقوله: تلك كانت رغبتها.

بدأت تبكي من جديد، جلس خوسيفينو إلى جانبها ومرر نراعه على كتفها، كانت ناكرة للجمل، كان يحسن معاملتها، صحيح أم لا؟ لماذا جاء بها إلى بيته؟ طبعاً لأنه كان يحبها، تأتيه بابن زوجها ليضحك الناس منه؟ يا للغرابة، فالرجل ليس مهرجاً. ثم كم كانت ستتقاضى لاسانتوس؟ كومة، حملاً من النقود، ويدل أن تشكره تبكي، لماذا كانت معه سيلباتيكا هكذا؟ كان يبدو أنها لا تحبه، وبينما يحبها هو كثيراً، تشوليتا، وكان يقرصها في رقبتها وينفخ خلف أذنها وهي تنن على قرينتها وأمها، تريد العودة، كما لو كانت تلك بلاد تشونتشويين. ولم يكن هناك أبنية ولا سيارات، خوسيفينو، خوسيفينو، تريد أن تعود إلى سانتا ماريا ده نيبيا.

- تحتاجين من المال للعودة إلى بلدتك أكثر مما لبناء بيت، يا تشوليتا . قال خوسيفينو. تتكلمين دون أن تعرفي ماذا تقولين، يجب ألا تكوني هكذا، يا حبي.

أخرج منديله ومسح عينيها وقبّلها وجعل نصف جسدها يميل، عانقها بحرارة، كان يهتم بها، لماذا؟ كان يفعل كل شيء ويريد الخير لها، لماذا، عليها اللعنة، لماذا؟ لأنه يحبها. ويونيفاثيا كانت تهدد، والمنديل على فمها: كيف يريد الخير لها وهو يريد أن يقتل ابن زوجها؟

- هذا ليس قتلاً، يا غبية، أتراه ولد؟. قال خوسيفينو. ثم لماذا تتكلمين كثيراً عن زوجك طالما أنه لم يعد زوجك.

بل كان زواجاً في الكنيسة، وهو بالنسبة لله الوحيد المعترف، وخوسيفينو، أي هراء، لماذا ترجين الله في كل شيء؟ يا سيلباتيكا، وهي أرأيت؟ أرأيت؟ وهو تشوليتا، غبية، لتعطه قبلة، وهي لا، وهو ماذا يفعل بها لولا أنه يحبها كثيراً؟ يهدد لها، يبحث عن إبطيها، ويمنعها من النهوض، غبية، عنيدة، سيلباتيكا، أرأيت؟ أرأيت؟ وكانت تضحك وتجهش. وكان فمها يهدأ للحظة

فيمكن من تقبيله، أكانت تحبه، مرة واحدة، يا غبية، وهي لا أحبك، وهو وأنا كثيراً، يا سيلباتيكا، لكن أه كيف يجعلك هذا تتعالين وتتمادين، وهي أنت تقول لي تلك لكئك لا تحبني، وهو لئلمس قلبه لتر كيف كان يخفق لأجلها، ثم إنها لو أحبته لأرضاها في كل شيء، وتحت التتورة كان كل شيء ضيقاً، فاتراً وزلقاً تماماً كما كان كل شيء تحت القميص وفي الظهر فاتراً، تائقاً ووارقاً، وراح صوت خوسيفينو يتلكأ ويصبح مثل صوتها خالفاً جداً، لن تذهب إلى لاسانتوس حتى ولو أحبته، وقالت وهي متماسكة إنها لن تذهب إليها حتى ولو قتلها، لكنها كانت تحبه، وكانت متقلبة وملتهبة.

-3-

- تقليبين سيماء وجهك . قال الرقيب . حتى ليبدو كأنهم اقتلعوك من هنا بالقوة. لماذا أنت غير سعيدة؟
- بل أنا كذلك . قالت بونيفاثيا. لكنني أشعر بشيء من الحزن على الأمهات.

- لا تضع هذه الحقيبة على الحافة بهذا الشكل، يا بينتادو . قال الرقيب .
ثم إن الصناديق مقلقلة وستسقط في الماء عند أول صدمة.
- تنكزنا عندما تصبح في الجنة، يا حضرة الرقيب . قال «الصغير» . اكتب
واخك لنا كيف هي الحياة في المدينة.
- بيورا هي أكثر مدن البيرو فرحاً، يا سيدة . قال الملازم . ستعجبك كثيراً.
- وهو كذلك، يا سيد . قالت بونيفاثيا. إذا كانت فرحة إلى هذا الحد
فستعجبني.

كان الدليل بينتادو قد وضع كل الأمتعة في الزورق، وراح الآن يتفحص المحرك وقد جلس على ركبته بين صفيحتين من البنزين. هبّت نسمة رقيقة وكانت مياه النيبيا، العنبية اللون، نحو المارانينيون، محتمة بالموجات والدرجورات الصغيرة. كان الرقيب يروح ويغدو في الزورق سريعاً، باسمأ يتحقق من الطرود والحبال، وبونيفاثيا تبدو مهتمة بهذه الحركة، لكن عينيها كانتا تبتعدان أحياناً عن المركب وتراقبان التلال. كانت البعثة تبدو تحت السماء الصافية زاهية بين الأشجار وكانت أسطحه الكالامين والجدران تتلألأ وبيعة في نور الفجر الصافي، بينما كانت الدرب الوعرة تبدو متخفية بنمسالات الضباب الذي كان يطفو، سالمأ، على وجه الأرض. كانت الغابة تحرف النسمة التي كان من الممكن أن تبدده.

- أليس صحيحاً أن جسمنا يحكنا لأننا سنصل إلى بيورا، يا صينية؟ قال
الرقيب.

- صحيح . قالت بونيفاثيا. نريد أن نصل في أسرع وقت ممكن.

- لا بد أنها بعيدة جداً . قالت لاليتا. والحياة فيها مختلفة تماماً عن الحياة هنا .
- يقولون إنها أكبر بمئة مرة من سانتا ماريا ده نيبيا . قالت بونيفاثيا. وبيوتها مثل البيوت التي تظهر في مجلات الأمهات. إنها نادرة الأشجار وكثيرة الرمال.
- يحزنني أنك ستذهبين، لكنني سعيدة لأجلك . قالت لاليتا. هل صارت الأمهات على علم؟
- قمن لي نصائح كثيرة . قالت بونيفاثيا. الأم أنخليكا بكت، آه كم شاخت، لم تعد تسمع ما يُقال لها، اضطررتُ إلى أن أصرخ. لا تكاد تمشي، يا لاليتا، وعيناها كأنهما ترقصان طول الوقت، أخذتني إلى الكنيسة وصلينا معاً. بالتأكيد لن أراها بعد الآن.
- إنها عجوز سيئة، وشريرة . قالت لاليتا. لم تكنسي هذا، لم تغسلي القدر، وتخوّفتني بالجحيم، وفي كل صباح هل تبتّ عن أخطائك؟ كما أنها تقول لي أشياء رهيبة عن أدريان، إنه لص، وكان يخدع الجميع.
- إنها سيئة الطباع لأنها عجوز . قالت بونيفاثيا. لا بد أنها تدرك أنها ستموت قريباً. لكنها طيبة معي، إنها تحبني وأنا أحبها أيضاً.
- خرنوب، حمير ورقصات . قال الملازم . سوف تعرفين البحر، فهو ليس بعيداً عن بيورا. وهذا أفضل لك من الاستحمام في النهر.
- ويقولون إن النساء هناك أجمل نساء البيرو، يا سيدة . قال «الثقيل» .
- آه منك، يا «ثقيل» . قال «الأشقر» . وماذا يهم السيدة أن تكون في بيورا نساء جميلات؟
- أقول هذا لها كي تأخذ حذرهما من البيوريات . قال «الثقيل» . فلا يتركنها بلا زوج.
- هي تعلم أنني جدي . قال الرقيب . ولا أحلم إلا بروية أصدقائي وأبناء عمومتي . بالنسبة للنساء تكفيني زوجتي وتزيد.

- يا لك من داهية مراوغ . ابتسم للملازم . انتبهى إليه كثيراً، يا سيدة، وإذا ما أفلت العنان، يدك والعصا.
- وإذا كان بالإمكان غُف امرأة بيورية وأرسلها لي، يا حضرة الرقيب .
قال «التقيل».

كانت بونيفاتيا تبتسم للجميع وفي الوقت نفسه تعض على شفتيها وفي فترات منتظمة كانت تعود إلى وجهها تعابير مختلفة تُضنيه، تُغشي نظرتها وتهز فيها بارتجاج خفيف لثوان ثم تختفي وتبتسم عنها من جديد. كانت البلدة قد بدأت تستيقظ وهناك مسيحيون مجتمعون في حانوت باريديس، وخامة دون فابيو العجوز تكنس شرفة دار الحكومة وتحت الكاببرونات كان يمر شبان وعجائز أغارونيون باتجاه النهر يحملون المجانيب الطويلة والعصي. كانت الشمس تشعل أسطحه اليارين.

- يُفضل أن نطلق الآن وحالاً، أيها الرقيب . قال بينتادو. يُستحسن أن نجتاز البونغو الآن فالريح ستزداد شدة فيما بعد.

- اسمعيني أولاً ثم تقولين لا . قالت بونيفاتيا. اتركيني على الأقل أوضح لك .
- من الأفضل ألا تضعي خططاً أبداً . قالت لاليتا. لأنه إذا فشلت فيما بعد تكون الحال أسوأ. فكري فقط فيما يحدث في اللحظة يا بونيفاتيا.

- لقد قلت له ذلك وهو موافق . قالت بونيفاتيا. سوف يعطيني سولاً واحد كل أسبوع، وسأنفذ أنا أعمالاً للناس، ألا ترين أن الأمهات علمني الخياطة؟ لكن ألن يسرقوها؟ إذ ستمر على أيد كثيرة، ويحتمل ألا تصلك.

- لا أريد أن ترسلي لي نقوداً . قالت لاليتا. ماذا سأفعل بها؟ ما حاجتي لها؟
- لكن عثرت على طريقة . قالت بونيفاتيا، وهي تلمس رأسها. سوف أرسلها إلى الأمهات، إذ من سيجرو على سرقتهن؟ والأمهات يعطينها لك.

- رغم رغبة المرء بالذهاب، فالحالة دائماً تسبب قليلاً من الحزن . قال الرقيب . وهذا ما أصابني الآن، أيها الفتيان ولأول مرة. إن المرء يحب الأمكنة حتى ولو كانت بلا قيمة.

كانت النسمة قد تحولت إلى ربح وكانت الأشجار الأكثر علواً تحني رؤوسها، وتهزها فوق الأشجار الصغيرة. انفتح هناك في الأعلى باب مكان الإقامة وخرج طيفٌ أمٌ داكن مسرعاً، وبينما كانت تقطع الفناء باتجاه الكنيسة، كانت الريح تتفخ ثوبها وتجده مثل موجة. كان آل باريدوس قد خرجوا إلى باب كوخهم واتكأوا على أكواعهم فوق الدرابزين، ينظرون إلى رصيف الميناء، ويلوحون مودعين.

- شيء إنساني، يا حضرة الرقيب . قال «الأسود» . زمن طويل هنا، ثم إنك متزوج من امرأة من هنا لذلك شيء مفهوم أن تحزن قليلاً. وأنت ستحزنين أكثر، يا سيده.

- شكراً على كل شيء، سيدي الملازم . قال الرقيب . إذا كان باستطاعتي أن أسدي إليك خدمة في بيورا، فأنت تعرف، أنا تحت أمرك، في أي شيء. متى ستكون أنت في ليما؟

- بعد شهر، تقريباً . قال الملازم . علي أن أذهب إلى إيكيتوس أولاً كي أنهى هذا الموضوع. أتمنى لك التوفيق في ولدك، أيها العزيز ولتهبط عليك، فجأة، ذات يوم واحدة من تلك النعم.

- احفظ أموالك بشكل أفضل إلى حين يصبح عندك أولاد . قالت لاليتا. أدريان كان يقول الشهر القادم نبدأ وسيكون معنا خلال ستة أشهر ما يكفي لمحرك جديد. ولم نوفر أبداً سنتيماً واحداً. لكنه لم يكن يصرف شيئاً تقريباً، كان كله للطعام وللأولاد.

- إذن تستطيعين أن تذهبي إلى إيكيتوس . قالت بونيفاثيا. اصلي على أن تخبئي الأمهات النقود التي سأرسلها لك، حتى يصبح عندك ما يكفي لبطاقة السفر. وعندئذ، تذهبين لرؤيته.

- قال لي باريدوس إنني لن أراها بعد الآن . قالت لاليتا. وإنني ساموت هنا كخادمة عند الأمهات. لا ترسلي لي شيئاً، فأنت ستحتاجين إلى النقود هناك، ففي المدينة الحاجة إلى النقود كبيرة.

هل تسمح له، يا تشولو؟ هز الرقيب موافقاً، وعانق الملازم بونيفاثيا التي رفّت أهدابها وحركت رأسها مذهولة، ورغم أنّ شفّتها وعينيها كانتا مبلّتين فقد كانت ما تزال تبتسم، وبإصرار، يا سيدة: كان قد جاء دورهم. عانقها أولاً «الثقل» ثم «الأسود»، غريب، كم استغرقت، وهو لا تظن سوءاً، يا حضرة الرقيب، فقد كان عناق صديق، ثم «الأشقر» و«الصغير». كان الدليل بينتادو قد أقلت الحبال وأبقى على الزورق بملاصقة الرصيف، منحنيّاً فوق المجذاف الطويل. صعد الرقيب وبونيفاثيا وتوضعا بين الطرود، رفع بينتادو المجذاف فتمكن التيار من المركب وبدأ يورجحه ويقوده دون عجلة نحو المارانبيون.

- يجب أن تذهبي لرؤيته . قالت بونيفاثيا. سأرسل لك حتى ولو أنك لا تريدن. وحين يخرج، تذهبون إلى بيورا، وسأساعدكم، كما ساعدتموني. لا أحد يعرف دون أدريان هناك ويستطيع أن يشتغل في أي شيء.

- مستبدّين تعابير وجهك عندما ترين بيورا، يا صينية . قال الرقيب.

كانت إحدى يدي بونيفاثيا خارج المركب، تشق خطوطاً، مستقيمة سريعة تختفي فوراً في الحركة المزيدة التي كانت تولدها المروحة، وكانت تلمح أحياناً سمكة صغيرة وسريعة تحت الماء العكر، وكانت السماء فوقهم صافية. لكن في البعيد وفوق سلسلة الجبال كانت تطفو غيوم متكدة تشقها الشمس كسكين.

- أنت حزينة على الأمهات فقط؟ . قال الرقيب.

- وعلى لاليتا أيضاً . قالت بونيفاثيا. أفكر طول الوقت في الأم أنخيليكأ. في الليل كانت تتشبّث بي ولم تكن تريد أن تتركني، والكلام كان لا يكاد يخرج منها من الأكم.

- كان سلوك الراهبات جيداً . قال الرقيب . كم هدية قدمن لك؟

- هل سنعود يوماً ما؟ . قالت بونيفاثيا. ولو مرة واحدة للزهوة؟

- من يدري؟ . قال الرقيب . لكنه بعيد جداً بحيث لا يمكن أن نأتي للنتزه هنا.

- لا تبكي . قالت بونيفاثيا. سأكتب لك وأحكي كل ما أفعله.

- منذ أن خرجت من إيكيتوس لم أملك صديقة . قالت لاليتا. منذ أن كنت صغيرة. هناك في الجزيرة لم تكن الأسئلة والهوامبيسيات يكن يتكلمن المسيحية ولم نتفاهم إلا حول بعض الأشياء. كنت خير صديقة لي.
- وأنت كذلك بالنسبة لي . قالت بونيغاثيا. أكثر من صديقة، يا لاليتا. أنت والأم أنخيليك أكثر من أحب هنا. كفى، لا تبكي.

- لماذا لم تعد، يا أكيلينو . قال فوشيا. لماذا لم تعد، أيها العجوز .
- لم أستطع أن أتى بسرعة أكبر، يا رجل، اهدأ . قال أكيلينو. كان الرجل يلتهمني بأسئلته، ويقول الراهبات، والدكتور ولم أكن أستطيع إقناعه. لكنني أقنعتة، يا فوشيا، وقد حل المشكلة.

- الراهبات؟ . قال فوشيا. هناك تعيش راهبات أيضاً؟
- يعملن كمرضات، يرعين الناس . قال أكيلينو .
- خذني إلى مكان آخر، يا أكيلينو . قال فوشيا. لا تتركني في سان بابلو، لا أريد أن أموت هناك.

- أبقى الرجل على المال كله معه، لكنه وعدني بأشياء كثيرة . قال أكيلينو.
سيحصل لك على أوراق ويتبر كل شيء كي لا يعرف أحد من أنت.

- وهل أعطيتة كل ما جمعتة خلال سنوات . قال فوشيا. الأجل هذا كل تلك التضحيات، وكل ذلك الكفاح؟ الكي يستولي أحد ما على كل شيء؟

- اضطررت إلى أن أرفع السعر بالتدريج . قال أكيلينو. في البداية خمسمئة فرفض ثم ألف فرفض أيضاً، لم يكن يريد حتى أن يناقش الأمر وكان يقول السجن أعلى. وعدني أيضاً أن يقدم لك طعاماً أفضل، وعلاجات أفضل. ماذا سنفعل، يا فوشيا؟ ستحدث مصيبة إذا لم يقبل.

كانت تمطر بغزارة شديدة، والعجوز المبتل حتى العظم والذي كان يلعن الطقس أخرج الزورق من الرافد دفعاً بالمجذاف الطويل. وبالقرب من رصيف المرفأ لمح أطيفاً عارية في أعلى الوهدة. أمرهم صارخاً بالهوامبيسية أن يهبوا لمساعدته، فاخفتت تلك الأطيف خلف أشجار اللبونا التي كانت تهزها الرياح ثم ظهرت ضارية للحمرة فافزة ومنزقة في طين المنحدر. ربطوا الزورق إلى بعض الأوتاد، وهم يبريطون في الماء تحت الدلف الذي كان يتشظى على ظهورهم، حملوا دون أكيلينو في الهواء إلى البر. راح العجوز يتعرى بينما كان يتسلق الوهدة. حين وصل إلى القمة كان قد خلع القميص وفي القرية خلع بنطلونه دون أن يجيب على إشارات الود التي كان الأطفال والنساء يوجهونها له من الأكواخ. وهكذا اجتاز الغابة إلى منطقة المسيحيين المكشوفة بقبة القش والسروال الداخلي القصير، وهناك تلى من الشرفة شخص مترنج، إنه بانئاتشا، عانقه، أنت تحلم، وتمتم متعثراً في أنه، مخبول بالأعشاب ولا تستطيع حتى الكلام، اتركني، كانت عينا بانئاتشا كدرتين وخبوط من اللعاب تسيل من شفتيه. كان يشير إلى الأكواخ بانفعال شديد. رأى العجوز الشاربية في الشرفة بلا حراك وقد غطت عنقها وذراعيها بصوف من الأطواق والأساور، وكان وجهها كثير الطلاء.

- لقد هربوا، يا دون أكيلينو . دمدم بانئاتشا أخيراً، مقلباً عينيه . والمعلم غاضب، منغلق على نفسه هناك منذ شهر، لا يريد أن يخرج.
- هل هو في كوخه؟ . قال العجوز. اتركني، علي أن أكلمه.
- من أنت حتى تأمرني؟ . قال فوشيا. هيا امض من جديد ولتعد لك الرجل النقود. خذني إلى سانتياغو. أفضل أن أموت بين أناس أعرفهم.
- علينا أن ننتظر حتى الليل . قال أكيلينو. حين ينام الجميع سأحملك إلى الزورق حيث يجمون الزوار، وهناك سأخذك الرجل. لا تبق على هذه الحال، يا فوشيا، حاول الآن أن تنام قليلاً. أم أنك تريد أن تأكل شيئاً؟

- تماماً كما تعاملني أنت الآن، سيعاملونني هناك . قال فوشيا. لا تسمعني، تقرر كل شيء وعليّ أن أطيع. هي حياتي، يا أكيلىنو، وليست حياتك، لا أريد، لا تتركني في هذا المكان. قليلاً من الرحمة، أيها العجوز، لنعد إلى الجزيرة.

- لا أستطيع أن أفعل لك ذلك حتى لو أردتُ . قال أكيلىنو. كي نصل إلى سانتياغو مجتّفين ومتخفيين، نحتاج أشهراً من السفر. ثم إنه لم يعد لدينا بنزين، ولا نقود لشراؤه. لقد حملتك حتى هنا لمجرد الصداقة ولكي تموت بين المسيحيين فلا تموت مثل الوثنيين. اعملْ بنصيحتي، نم قليلاً.

كان الجسد لا يكاد يبين تحت البطانيات التي تغطيه حتى نقهه. وكانت الناموسية لا تبقى إلا نصف سرير معلق وحوله فوضى كثيرة: علب صفيح مبعثرة، قشور وقرعات فيها بقايا ماساتو، وبقايا طعام. كان هناك نثانة غريبة ونباب كثير. لمس العجوز فوشياً على كتفه فشخر فزهه العجوز بكلتا يديه. تباعد جفنا فوشيا، عن بعضهما، جمرتان لمويتان توضعتا على وجه أكيلىنو، انطفأتا واشتعلتا عدة مرات. استجمع فوشيا نفسه قليلاً على مرفقيه.

- فاجأني المطر وسقط الرافد . قال أكيلىنو. إنني مبلل تماماً.

كان يتكلم ويعصر القميص والبنطلون ويلويهما بحنق، علقهما فيما بعد إلى حبل الناموسية، كان المطر في الخارج غزيراً، ونور عكر يهبط إلى البحيرات، وطين المنطقة المكشوفة الرمادي والريح تسوط الأشجار مزمجرة. وكانت نضياء السماء أحياناً خطوطاً متعرجة يليها بعد ثوان رعد.

- ذهبت العاهرة مع نيبس . قال فوشيا وعيناه مغمضتان . لقد هرب الكلبان معاً، يا أكيلىنو.

- وماذا يهمك أنهما ذهبا؟ . قال أكيلىنو، وهو يجفف جسده بيده . خير أن يكون المرء وحيداً بدلاً من أن يكون معه رفيق سوء.

- لا تهمني هذه العاهرة . قال فوشيا. ما يهمني فعلاً هو ذهابها مع الدليل. يجب أن يدفع لي ثمن هذا.

- أدار فوشيا وجهه و بصق دون أن يفتح عينيه، يا رجل، رفع البطانيات حتى فمه، أو أنه كان ينظر إلى حيث بصق، فقد خرجت مخرشةً.
- كم شهراً مضى على غيابك؟ قال فوشيا. منذ قرون وأنا أنتظرك.
- هل عندك حمولة كثيرة؟ قال أكيلينو. كم كرة من المطاط؟ كم جلدًا؟
- لم نُوقِّق . قال فوشيا. لم نجد إلا القرى الخاوية. ليس عندي هذه المرة بضائع.
- لم يعد باستطاعتك أن تسافر، فرجلاك لا تساعدانك على السير في الجبل . قال أكيلينو. تموت بين من تعرفهم! وهل تعتقد أن الهوامبيسيين سيستمرون معك؟ سيولون الأديار في أية لحظة.
- كان باستطاعتي أن أصدر الأوامر وأنا في سريري المعلق . قال فوشيا. وكان خوم وبياناتنا يقودانهم إلى حيث أمر.
- لا تتغاب . قال أكيلينو. إنهم يكرهون خوم وهم لم يقتلوه حتى الآن من أجلك أنت. وبياناتنا رهين مغليّاته. تركناه لا يكاد يستطيع الكلام. هذا موضوع منته، يا رجل، لا تتخضع.
- هل بعث جيداً؟ قال فوشيا. كم أحضرت لي؟
- خمسمئة سول . قال أكيلينو. لا تمتنع، فما حملته لم يكن يساوي أكثر، واضطرتت إلى أن أقاتل حتى حصلت على ذلك. لكن ماذا حدث؟ هذه هي المرة الأولى التي لا يكون عندك فيها بضائع.
- المنطقة محروقة . قال فوشيا. أولئك الكلاب محتاطون ويختبئون. سأذهب بعيداً، وسأدخل المدن إن تطلّب الأمر، لكنني سأجد مطاطاً.
- هل سرقت لاليتا كل نقودك؟ قال أكيلينو. هل تركا لك شيئاً؟
- أية نقود؟ كان فوشيا يمسك بالبطانيات عند فمه، وكان وقد انكمش أكثر. عن أية نقود تتكلم؟

- عن النقود التي كنت آتيك بها، يا فوشيا . قال العجوز. عن أرباح سرقاتك. أعرف أنك كنت تخبئها. كم بقي معك؟ خمسة آلاف سول؟ عشرة آلاف؟

- لا أنت، ولا أمك، ولا أحد يستطيع أن ينتزع مني ما هو لي . قال فوشيا .
- لا تحزتي أكثر مما أنا حزين . قال أكيلينو. ولا تنتظر إليّ بهذا الشكل، فعيناك لا تخيفانني. الأفضل أن تجيبني على أسئلتني.

- إما أنها كانت تخاف مني، أو أن السرعة جعلتهما يبعيان أن يسرقا النقود؟ . قال فوشيا. فلإيتا كانت تعرف أين كنت أخبئها.

- يمكن أن يكون إشفاقاً أيضاً . قال أكيلينو. ربما قالت إنك منهك وستبقى وحيداً وستترك لك النقود كي تواسي نفسك قليلاً.

- كان من الأفضل أن يسرقها الكلبان . قال فوشيا. فالرجل ما كان ليرضى بلا نقود، لو لم تكن رجلاً طيب القلب لرميت بي في الجبل، وما عدت بي إلى الجزيرة، أيها العجوز.

- عجباً، أخيراً أصبحت أكثر هدوءاً . قال أكيلينو. هل تعلم ماذا سأفعل؟ سأهرس بعض الموز وأغليه. ومنذ الغد ستأكل كما يأكل المسيحيون، سيكون هذا وداعك للطعام الوثني.

ضحك العجوز واستلقى في السرير المعلق الفارغ وراح يهزهز نفسه دفعاً بقدمه.

- لو كنت عدوك لما كنتُ هنا . قال . ما يزال معي هذه الخمسة سول، أبقيتها لنفسني. كنت واثقاً هذه المرة أنه ليس عندك بضاعة.

كان المطر يكنس الشرفة بصوت أخرس على السطح. وكان الهواء الحار القادم من الخارج يرفع الناموسية ويحركها مثل طائر لقلق أبيض.

- لست بحاجة لأن تتغطي بهذا الشكل . قال أكيلينو. أعرف أن جلد ساقيك يتساقط، يا فوشيا.

- حكمت لك تلك العاهرة عن البعوض؟ . تمتم فوشيا. حككت فالتهب مكانها، لكنها تزول. وهما يعتقدان أنني لن أذهب في طلبهما لأنني في هذه الحال. سنرى من سيضحك في النهاية، يا أكيلينو.

- لا تغير الموضوع. قال أكيلينو. هل فعلاً أنك تتماثل للشفاء؟

- أعطني قليلاً أيضاً، أيها العجوز. قال فوشيا. هل بقي منه؟

- تناول حصتي، لا أريد أكثر. قال أكيلينو. يعجبني أنا أيضاً. أشبه في هذا الهوامبسيين. كل صباح وحين أستيقظ أهرس بعض الموز وأغليه.

- سوف أشتاق إليها أكثر من كامبو غرانده، وأكثر من إيكيتوس. قال فوشيا. يبدو لي أن الجزيرة هي الوطن الوحيد الذي كان لي يوماً ما. وسأشتاق حتى إلى الهوامبسيين يا أكيلينو.

- سوف تشتاق إلى كل شيء، باستثناء ابنك. قال أكيلينو. هو الوحيد الذي لا تتكلم عنه. ألا يهمك أن لاليتا أخذته؟

- من يدري ما إذا كان ابني؟ . قال فوشيا. ربما أن هذه الكلبة قد...

- اسكت، اسكت، منذ سنين وأنا أعرفك، لذلك فمن الصعب أن تخدعني. قال أكيلينو. قل لي الحقيقة هل هي في طريقها إلى الشفاء، أم أنها أسوأ من قبل؟

- لا تكلمني بهذه النبوة. قال فوشيا. لا أسمح لك، أيها الخراء.

تلاشى صوته، الذي كان يخلو من الإقناع، فيما يشبه العواء. نهض أكيلينو من السرير المعلق، ومضى باتجاهه فغطى فوشيا وجهه:

- لا تخجل مني، يا رجل. همس العجوز. دعني أرى.

لم يجب فوشيا فأمسك أكيلينو طرف البطانية ورفعها. لم يكن فوشيا منتعلاً الجزمة وبقي العجوز ينظر، ويده ممسكة بالبطانية مثل مخلب، جبينه متغضن وفمه فاغر.

- آسف جداً، لكن حانت الساعة، يا فوشيا. قال أكيلينو. علينا أن نذهب.

- لحظة أخرى أيها العجوز . أنّ فوشيا. انظر، أشعل لي سيجارة أدخنها ثم
تحملني إلى حيث الرجل. عشر دقائق فقط، يا أكيلينو.

- لكن دعنا بسرعة . قال العجوز. فالرجل في انتظارنا الآن.

- انظر إلى كل شيء مرة واحدة . أنّ فوشيا، تحت البطانية. حتى أنا لا
أعتادها، أيها العجوز. انظر إلى الأعلى.

انثنت الساقان وحين مدهما سقطت البطانيات على الأرض. صار
باستطاعة أكيلينو أن يرى حتى الفخذين الشفافين تقريباً، العانة القرعاء
والخطاف اللحمي الصغير الذي كان يوماً من الأيام عضواً تناسلياً،
والبطن. كان الجلد هناك على حاله. انحنى العجوز سريعاً، التقط
البطانيات، وغطى السرير.

- أرايت، أرايت؟ . أجهش فوشيا. أرايت أنني لم أعد رجلاً، يا أكيلينو؟

- وعدني أيضاً أن يعطيك السجائر حين تريد . قال أكيلينو. صرت تعرف،
حين تريد أن تدخن اطلب منه.

- أتمنى لو أموت في هذه الساعة . قال فوشيا. فجأة ودون أن أنتبه. فتلفني
في بطانية وتعلقني إلى شجرة، كما يُطلق الهوامبيسي. الفارق الوحيد أنه لن
يكون هناك من يبكيني كل صباح. مم تضحك؟

- من أنك تتظاهر بأنك تدخن، كي تدوم السجارة أكثر ويمضي الوقت .
قال أكيلينو. لكن سنذهب، فماذا تفعل لك دقيقتان زيادة أو نقصاناً، يا رجل؟

- كيف سأسافر حتى هناك؟ يا أكيلينو. قال فوشيا. إنه بعيد جداً.

- خير لك أن تموت هناك من أن تموت هنا . قال العجوز. هناك سوف
يعالجونك ولن يمضي المرض صاعداً. أنا أعرف رجلاً، يُقبلك مقابل النقود
التي معك دون أن يطلب منك أوراقاً أو أي شيء.

- لن أصل، أيها العجوز، سوف يلقون القبض عليّ في النهر.

- أنا أعدك بأننا سنصل . قال أكيلينو . حتى لو لم نساfer إلا ليلاً، بحثاً عن الروافد، علينا أن نطلق اليوم، دون أن يرانا البانتاتشا ولا الوثيون . يجب ألا يعلم أحد، تلك هي الطريقة الوحيدة التي تجعلك في أمان هناك .

- والشرطة والعسكر، أيها العجوز . قال فوشيا . ألا ترى أن الجميع يبحثون عني؟ لا أستطيع أن أخرج من هناك . هناك ناس كثيرون يريدون أن ينتقموا مني .

- سان بابلو مكان لن يذهبوا ليعثوا فيه عنك أبداً . قال العجوز . حتى لو علموا بأنك هناك، لن يذهبوا . لكن لن يعلم أحد .

- أيها العجوز، أيها العجوز . أجهد فوشيا . أنت طيب، أرجوك، هل تؤمن بالله؟ أستطفاك بالله أن تفعل ذلك، يا أكيلينو، حاول أن تفهمني .

- طبعاً أفهمك، يا فوشيا . قال العجوز، وهو ينهض . لكن الظلام خيم منذ برهة، وعلني أن أحملك وأنتهي، فالرجل سيتعب من الانتظار .

الوقت ليل مرة أخرى، الأرض رخوة، والأقدام تغوص حتى الكعبين، والأماكن هي دائماً نفسها: الضفة، الدرب الذي يضيق بين البحيرات، غابة خزنوب صغيرة، الرملة . من هنا، يا تونيينا، وليس من هناك أبداً، كي لا يروه من كاستيليا، الرمل يتساقط دون رحمة، غطها بالبطانية، ضع لها القبة، قبعتك . ولتخفف رأسها إذا كانت لا تريد أن يلتهب وجهها . الأصوات هي نفسها: حفيف الريح في حقول القطن، موسيقا فيثارات، غناء، مشاجرات، وفي الفجر خوار البقر العميق . تعالي، أنت، يا تونيينا، لنجلس هنا، سيرتاجان برهة ثم يتابعان نزهتهما . الصور نفسها: قبة سوداء، نجوم تتلألأ، تلمع ثابتة أو تتطفئ، الصحراء بتغضناتها وكثبانها الزرقاء، وفي البعيد، البناء المنتصب، المنفرد، بأضوائه الزرقاء الضاربة للسواد، ظلال تخرج، ظلال تدخل وأحياناً في الفجر فارس، بعض المشاة، قطع ماعز، زورق كاولوس روخاس، وأبواب «الكمال» الرمادية على الضفة الأخرى . كلّمها عن الفجر، أنت هل تسمعيني يا تونيينا؟ هل نمب؟ كيف تلمح أبراج النواقيس، أسطحة

القرميد، الشرفات، ما إذا كانت ستمطر ويوجد هناك ضباب. أسألها إذا كانت تشعر بالبرد، إذا كانت تريد العودة، دُتِر ساقها بمسرتك، ولتستد إلى كتفك. ثم ومن جديد الضوضاء المبالغتة، حُبُّ تلك الليلة الغريب. انتفاضة جسدها، انهض، انظر، من يجري؟ مراهنه؟ تشاييرو، دون إيوسويو، توأما تيميل؟ أنت لنتخبتي، لنطاطي، لا تتحركي، لا تخافي، إنهما جوادان، ثم وفي الظلمة، من؟ لماذا؟ كيف؟ أنت: مروا قريباً منا وعلى جياد متوحشة، أولئك المجانين، يذهبون حتى النهر، والآن يعودون لا تخافي يا صغيرة، ومن ثم وجهها يلتفت، تسأل، توقها، ارتجاف فمها، أظاقرها التي تشبه المسامير ويدها لماذا؟ كيف ونفسها إلى جانب نفسك؟ والآن هُتُها، أنت: أنا أشرح لك، يا تونبيتا، لقد ذهبوا، كانوا مسرعين جداً، لم أر وجوههم وهي عنيدة، عطشى تتحقق في الظلمة من؟ لماذا وكيف؟ أنت: لا تمتعضي، من سيكونون؟ ماذا يهم؟ يا لك من بلهاء. حيلة لإلهائها: اخلُ تحت البطانية، اختبئي، اتركيها تغطيك، فما هم قادمون، إنهم كثيرون، إذا رأونا سيقتلوننا، تحسُّ اضطرابها، غضبها، رعبها، لتتقرب، لتعانقك، لتعض فيك، وأنت: أكثر، يا تونبيتا، التصقي أكثر وقل لها الآن إنه كذب، لا أحد قادم، أعطني قبلة، لقد خدعتك، يا صغيرة، والآن لا تكلمها، اصنع إليها بجانبك، طيفها سفينة، والرملة بحر، تتفادى بهدوء الكتبان والشجيرات، لا تقاطعها، لا تدس الظل الذي تُنقطه. أشعل سيجارة وِدخنها، فكَر أنك سعيد وأنت تقدم أي شيء في سبيل أن تعرف ما إذا كانت هي أيضاً سعيدة، تثرثر معها وامزح، أنت: أنا أدخن وستعلمها عندما تكبر، فالصغيرات لا يدخنن، ستتزلقن، اضحك، توسل إليها، أنت لا تكوني دائماً جدية بهذا الشكل، يا تونبيتا، بحق أعز ما عندك. ومن ثم الارتباب من جديد، تلك الحمض الذي ينخر الحياة، أنت، صرت على علم، إنها تمل كثيراً، الأصوات نفسها، الحبس، لكن انتظري بقي القليل، سيسافران إلى ليما، بيت لهما فقط، لن يكون هناك داعٍ للتخفي، سوف تشترى لها كل شيء، سوف تزين يا تونبيتا، سوف تزين. اشعر مرة أخرى بتلك العاطفة المرة، أنت لا ترعلين أبداً،

يا صغيرة، لتكن مختلفة، لتزعج ذات مرة، لتكسر الأشياء، لتبكي بصوت عال، ومن ثم ساهية، كما هي، تعبير وجهها، نبض صدغها الناعم، جفناها المسدلان، سر شفيتها. والآن لا شيء سوى الذكريات وقليل من الحزن، أنت لذلك يدلعونك كثيراً، أه كيف عاملتك، لم يقلن شيئاً، يأتينك بالحلوى، يلبسنك ثيابك، يسرخن شعرك، يبدن مختلفات، يتشاجرن فيما بينهن كثيراً، كم من الشرور يرتكنن وهن معك طيبات ولطيفات جداً. قل لهنّ إنني أحضرتها، سرقتها وإنك تحبها، وستعيش معك وعليهنّ مساعدتك، ومن ثم من جديد انفعالها، احتجاجاتها، تقسم لها، نعدّها، نتجاوب مع تقتها، همسها، تخبطها، انظر إليهن، متأثرات، فضوليات، باسمات، اشعرن بلفتهنّ للصعود إلى البرج، ليربنا ويكلمنا. ومرة أخرى، الأنتك شابة؟ الأنتك لا تتكلمين، لماذا يشفقن عليك؟ ومن ثم تلك الليلة: النهر ينساب بغموض، وفي المدينة لم يبق أضواء، والقمر يضيء الصحراء بصعوبة، والمزارع بقع ضبابية وهي بعيدة وبلا حماية. نادها، اسألها، تونبيتا هل تسمعينني؟ بماذا تشعرين؟ لماذا تنتر يدك بهذا الشكل؟ لقد خافت من الرمل الذي يتساقط بشدة. أنت تعالي، يا تونبيتا، تدري، سوف يزول، هل تعتقدين أنه سيطمرنا، ويقرنا أحياء؟ ممّ ترتعدين؟ بماذا تشعرين؟ هل ينقصك هواء؟ أتريدين العودة؟ لا تنتفسي بهذه الطريقة. ولم تكن تتنبه، وأنت أنا وحش، ما أفضح إلا أفهمك، يا صغيرة، ألا أعرف أبداً ماذا يحدث لك، ألا أتنبأ. ومن ثم قلبك مثل فوارة والأسئلة تتفق، من تظنينني؟ أمثل القاطنات، والوجوه، والأرض التي تدوسينها؟ من أين يخرج ما تسمع؟ كيف أنت؟ ما معنى هذه الأصوات؟ هل تظنين أن الجميع مثلك؟ إننا نسمع ولا نجيب؟ وإن أحداً يقدم لنا الطعام، ينومنا ويساعدنا على صعود الدرج؟ تونبيتا، تونبيتا، ما شعورك تجاهي؟ هل تعرفين ما هو الحب؟ لماذا تعلبينني؟ أجهذ نفسك الآن، لا تتقل لها عدوى كابتك، أخفض صوتك وقل لها بنعومة: لا يهم، مشاعري هي مشاعرك، وأنتك تريد أن تتعذب عندما تتعذب هي. ولتس تلك الأصوات، وأنت لن أفعلها ثانية، يا تونبيتا، أثيرت أعصابي،

أحك لها عن المدينة، عن الغالينائية التي تبكي أحرانها، عن الحمار
والسلاسل، وما يقوله الناس في لاستريليا دل نورته، وأنت الجميع يسألون، يا
تونيباتا، إنهم في حداد، مسكينة، تراهم قتلوها؟ غريب سرقها؟ يخلقون، كتبهم،
ثيروتهم. أسألها إذا كانت تتذكر، هل تحب أن تعود إلى الساحة، وتتشمس
بجانِب الرواق؟ إن اشتاقت للغالينائية؟ أنت هل تريدين رؤيتها من جديد؟ هل
نأخذها معنا إلى ليمبا؟ لكنها لا تستطيع أو لا تريد أن تسمع، هناك شيء
يعزلها، يعذبها، وهناك دائماً يدها، ارتجافها، خوفها، أنت ماذا بك؟ هل
تألمين؟ هل تريدين أن ألمسك؟ أرضها، الممن حيث تقول لك، لا تُلقِ بقلبك
كثيراً، داعبِ بطنها، دغدغ المكان نفسه، عشر مرات، مئة مرة، وخلال ذلك
أعرف، يؤلمك، الطعام، أتريدين أن تبولي، ساعدها، غائط؟ لتقرص، عليها
ألا تهتم، فأنت ستكون ظللتها، افتح البطانية، احجب المطر عن رأسها،
لترتكها الرمال بسلام. لكن لا جدوى، فالآن خذها مبللان، وقد ازداد استنفار
جسدها وتشنج وجهها، أن تعرف أنها تبكي نون أن تحزر. شيء رهيب،
تونيباتا، ماذا تستطيع أن تفعل؟ ماذا تريد منك أن تفعل؟ احملها بين ذراعيك،
اركض بها، قبلها، وأنت ها نحن نصل، اقتربنا، سنتناول مئة، ستومها وغداً
تستيقظ معافاة، لكن لا تبكي، بحق الله لا تبكي. نادِ أنخليكا ميرثيس،
اندأويها، وهي مخص، يا معلم، وأنت شاي ساخن؟ محاجم، وهي لا شيء
خطر، لا تخف، أنت: ترتجانة؟ زهورات؟ ويدها هناك، تتلمس، تدفع، تداعب
المكان نفسه، ويا لك من بهيمة، يا لك من بهيمة، فأنت لم تتبته. وهناك
القاطنات، فرجهن، أجسادهن التي تملأ البرج، روائحهن، طلائتهن، طلقهن
وفازلينهن، صراخهن وققرهن، المعلم لم يتبته، يا لسذاجته، كم هو طفل. انظر
إليهن متكسبات، أمعن النظر، إنهن يحطن بها، يحقنن بها، ويقنن لها أشياء.
دعهن يسلينها وانزل إلى القاعة، افتح قنينة، واستلقِ على كرسي، اشرب نخب
ذاتك، اشعر بالقلق المبهم، المفرح، أغمض عينيك وحاول أن تسمعهن: اثنتان
على الأقل، لاماريبوسا الثالثة، لالوثيبرناغا الرابعة وويحه إذا ما كان غيباً،

لماذا تعتقد، يا معلم أنها تتزف؟ متى حدث أن توقفت بهذا الشكل سنعرف بالتحديد. اشعر بالكحول، بحرارته المسكّنة التي ترخي الساقين وبالندم، أه كيف ينقشع القلق وأنت لم أحسب لها أبداً. ماذا يهمك، ماذا يهم أن يولد غداً أو خلال ثمانية أشهر، فتونيبينا سوف تسمن وبعد ذلك سيسعدها هذا. اركع عند سريرها، أنت لا شيء، لنحتفل، سوف تلعه وستبدل له أقمطته، وإذا كانت أنثى فلتسببها. وليذهبن هن غداً حيث دون أيوسيبيو، وليشترين لها ما ينقصها، وبالتأكيد فإن المستخدمين سيسخرون: من ستلد؟ ومن؟ وإذا كان نكراً فيلسم أنسيلمو. هيا اذهب إلى لاغاليناثيرا، ابحت عن النجارين، وليحضروا الواحاً خشبية، مسامير، ومطارق، وليبنوا غرفة صغيرة، اخترع لهم أية قصة. تونيبينا، يا تونيبينا، توخمي. فلنصابي بالوحام، الإقياء، والضجر، كوني كما الأخريات، أ تستطيعين لمسه؟ هل صار يتحرك؟ واسأل نفسك لآخر مرة ما إذا كان خيراً أم شراً، ما إذا كانت الحياة يجب أن تكون هكذا، ماذا كان يمكن أن يحدث لو أنها رفضت، لو رفضت أنت وهي، ما إذا كان حتماً وما إذا كانت الأشياء دائماً مختلفة عن الأحلام، ما زال هناك جهد أخير. اسأل نفسك ما إذا استسلمت ذات مرة، وما إذا كان ذلك لأنها ماتت أو لأنك عجوز، أنت راض تماماً بفكرة أن تموت أنت نفسك.

- هل ستتظريه، يا سيلباتيكا؟ . قالت لاتشونغا. ربما كان مع امرأة أخرى.
 - من؟ . قال عازف القيثارة وعيناه البيضاوان ملتفتتان نحو السلم . ساندرا؟
 - كلا، يا معلم . قال بولاس . إنها تلك التي باشرت أول أمس .
 - كان سيأتي في طلبي، يا سيده، لكنه ربما نسي . قالت لاسيلباتيكا.
- سأذهب حالاً.

- تناولني فطورك أولاً، يا صبية. قال عازف القيثارة. هيا، يا تشونغيتا، ادعيها.

- طبعاً، طبعاً، أحضري فجاناً. قالت لاشونغفا. في الإبريق حليب ساخن. كان الموسيقيون يتناولون فطورهم على طاولة بالقرب من طاولة المشرب، تحت نور المصباح البنفسجي الوحيد الذي كان ما يزال مشتعلًا. جلست لاسيلباتيكا بين بولاس والشاب اليخاندرو، لم يسمعا لها صوتاً حتى تلك المساعة، كم كانت صموتة، هل جميع النساء في بلدتها مثلها؟ من النواذد يلمح الحي في الظلمة، وفي الأعلى ثلاثة نجوم واهنة، الفحلات؟ كلا، يا سيدة، بالأحرى كانوا يتكلمون ويتكلمون مثل البيغاوات. كان عازف القيثارة يقضم شريحة من الخبز، ببيغاوات؟ وهي بلى، حيوان صغير كان يوجد منه في قريتها، وتوقف عن المضغ، وكيف هذا؟ يا فتاة، ألم تكن هي قد ولدت في بيورا؟ كلا، يا سيد، كانت من بلد أبعد، من الجبل، لم تكن تعرف أين ولدت، لكنها عاشت دائماً في مكان يدعى سانتا ماريا ده نيبيا. إنها صغيرة، يا سيد، بلا سيارات، ولا أبنية، ولا دور سينما، كما هو الحال في بيورا، أكان يدري؟ استمر عازف القيثارة في المضغ، الجبل؟ ببيغاوات؟ مرفوع الرأس، مندهشاً وبسرعة وضع النظارة، أسرع، أيتها الفتاة: كان قد نسي أن هذا المكان موجود. على ضفة أي نهر كانت سانتا ماريا ده نيبيا؟ هل هي قريبة من إيكيتوس؟ بعيدة؟ الجبل، يا للغرابة. كانت حلقات الدهان الذي كان يخرج من فم الشاب تنمو وتتشوه وتتلاشى فوق حلبة الرقص متماثلة ومستمرة. كان هو أيضاً يحب لو أنه عرف أمازونياً وسمع موسيقى التشونتشييين. لم يكن بينها وبين الأوروبية أي شبه، أليس كذلك؟ إطلاقاً يا سيد، كان الناس هناك قليلي الغناء ولم يكن غناؤهم مفرحاً، مثل الماريبيرا أو الفالس، وإنما كانت أقرب إلى الحزن، وكانت غريبة جداً. لكن الشاب كان يحب الموسيقى الحزينة، وكيف كانت كلمات أغانيهم؟ شاعرية تماماً؟ لأنها كانت تفهم لغتها، أليس كذلك؟ لم تكن هي تتكلم لغة التشونتشييين، وخفضت رأسها، تلعثمت، كلمات متفرقة

وقليلة لكثرة ما سمعتها. أكان ينتبه؟ ثم عليه ألا يندفع، فهناك كان يوجد بيض أيضاً، وكثرة، وقليلاً ما يشاهد التشونتشيين، لأنهم يسكنون الجبل.

- وكيف حدث ووقعت بين يدي هذا؟ قالت لاتشونغا. ماذا رأيت في الشيطان البائس خوسيفينو؟

- وماذا بهم هذا، يا تشونغا. قال الشاب. هذه أمور حب والحب لا يفهم بالعقل. كما أنه لا يقبل أسئلة ولا يعطي أجوبة، كما يقول أحد الشعراء.
- لا تخافي. ضحكت لاتشونغا. سألتك لمجرد السؤال، مازحة. فحياة جميع الناس لا تهمني، يا سيلباتيكا.

- ماذا بك، يا معلم؟ لماذا استغرقت في التفكير؟ قال بولاس. فحليبك بيرد.
- وأنت أيضاً، يا آنسة. قال الشاب. اشربيه دفعة واحدة. هل تريدن خبزاً أكثر؟

- إلى متى ستكلم القاطنات بلغة متعالية. قال بولاس. أه ما أظرفك، يا شاب.
- معاملتي لجميع النساء واحدة. قال الشاب. لا فرق عندي بين القاطنات والراهبات، احترامي لهنّ واحد.

- إذا لماذا تشتمن كثيراً في أغانيك. قالت لاتشونغا. تبدو مؤلفاً منكمشاً.
- أنا لا أشتمن، وإنما أغني الحقائق. قال الشاب. وابتسم مطلقاً بوهن حلقة نخان أخيرة بيضاء وكاملة.

نهضت لاسيلباتيكا، يا سيده، كانت تشعر بالنعاس. ستهذب، وشكراً جزيلاً على الفطور، لكن عازف القيثارة أمسك بها من نراعها، يا فتاة، منتفضاً، انتظري. هل كانت ذاهبة إلى بيت المنيع، هناك في ساحة ميرينو؟ هم سيأخذونها، وليبحث بولاس عن سيارة أجرة، كان هو أيضاً يشعر بالنعاس. نهض بولاس. خرج إلى الشارع فجأة وجاعت موجة هواء رطب إلى الطاولة حين أظق الباب. كان الحي ما يزال في الظلمة. هل لاحظوا كم كانت سماء بيورا متقلبة؟ البارحة كانت الشمس في مثل هذه الساعة مرتفعة وحارقة. لم يكن الرمل يتساقط. وبدت الأكواخ كأنها مغسولة. واليوم كان مرور الليل

بطيئاً، ماذا كان سيحدث لو بقي هناك للأبد؟ أشار الشاب بيده إلى قطعة السماء المربعة الماطرة المرئية من النافذة. كان سعيداً، غير أنّ كثيرين لم يعجبهم ذلك. لمست لاتشونغفا صدغها: يا للأشياء التي تشغل هذا الرجل، يا له من معتوه. هل كانت الساعة هي الساسة؟ وضعت لاسيلباتيكا رجلاً فوق أخرى واستندت بمرفقيها إلى الطاولة. كانت الشمس تشرق في الأدغال باكراً، والناس جميعاً في مثل هذه الساعة يكونون مستيقظين، وعازف القيثارة بلى، بلى، وكانت السماء تتورد، تخضّر، وتزرق وتكتسب جميع الألوان، ولا تشونغفا، كيف، والشاب كيف، يا معلم، تراه كان يعرف الأدغال؟ كلا، لكنها أشياء كانت تخطر له، وإذا كان قد تبقى حليب في الإبريق فإنه يشربه بكل سرور. صبت له لاتشونغفا ووضعته فيه سكرًا، وكانت لاتشونغفا تنظر إلى عازف القيثارة بارتياح، وكانت تقاسيما وقدك جافة. أشعل الشاب سيجارة أخرى ومن جديد كانت تخرج من فمه حلقات شفافة، سريعة التلاشي باتجاه لوحة النافذة السوداء. وكانت تدرك بعضها بعضاً وسط الطريق، وما كان يحدث له مع الضوء كان بعكس ما يحدث للناس. وكانت حلقات الدخان تتداخل فتشبه الغيوم الصغيرة. كان آخرون يفرحون ويتفاعلون بالشمس بينما كان الليل يسبب لهم الاكتئاب، وفي النهاية كانت ترق فتصبح غير مرئية، بينما كان هو بالمقابل يشعر بالمرارة نهاراً ولا ينتعش إلا عندما تظلم. المسألة أنهم كانوا ليليين، يا شاب، مثل الثعالب. واليوم لاتشونغفا، بولاس هما كذلك، والآن هي أيضاً، يا فتاة، وسمعت صفقة باب. كان بولاس في العتبة يمسك خوسيفينو من خصره، انتظروا ليعرفوا من أتى، نهضت لاسيلباتيكا، كان يتحدث مع نفسه في الطريق.

- يا للحياة الطيبة التي تعيشها، يا خوسيفينو. قالت لاتشونغفا. إنك تنهار.
- صباح الخير، يا فتى. قال عازف القيثارة. ظننا أنك لن تعود في طلبها.
- وكننا سنحملها بأنفسنا.

- لا تكلمه، يا معلم. قال الشاب. إنه منطفي تماماً.

أحضرته لاسيلباتيكا ويولاس إلى الطاولة، لم يكن خوسيفينو منطفاً، يا للغباء، الندماء أنفسهم، لا أحد يغادر، ولتنزل لاثشونغا قفينة بيّرة. وكان عازف القيثارة ينهض على قدميه، يا فتى، يشكره على لفته، لكن الوقت كان متأخراً والتكسي تنتظر. كان خوسيفينو يشرب، منشرح الصدر، الجميع كانوا سينزلون، صراخ، يتناول طبيباً، غذاء الأطفال، ولاتشونغا بلى، حسناً، إلى اللقاء، ليحمله. خرجوا وكان هناك شعاع أزرق أفقي يشير باتجاه تكنة غراو. وفي الحي كانت تتحرك أطراف نعسة خلف القصب، وكانت تُسمع طقطقة مجمرة والهواء يحمل روائح زنخة. اجتازوا الرملة وقد أخذ بولاس والشباب بذراعي عازف القيثارة. واستند خوسيفينو على لاسيلباتيكا. وفي الطريق دخلوا جميعاً في سيارة أجرة، وجلس الموسيقيون في المقعد الخلفي. كان خوسيفينو يضحك ولاسيلباتيكا غيورة، أيها العجوز، وتقول له لماذا تشرب كثيراً وأين كنت ومع من؟ كانت تريد منه أن يعترف، يا عازف القيثارة.

- حسناً فطبت، أيتها الفتاة. قال عازف القيثارة. فالمانغاتشيون أسوأ من عليها، لا تتقي بهم أبداً.

- ما هذا؟ قال خوسيفينو. تتمادي علي؟ ما هذا؟ لا تلمسها، يا رفيق، يمكن أن تسيل دماء، ما هذا؟

- أنا لا أتحدى أحداً. قال السائق. ليس نني، فالسيارة ضيقة. هل لمستك، يا أنسة؟ أنا أقوم بعملتي ولست أبحث عن مشاكل.

ضحك خوسيفينو بغم مفتوح. لم يكن يفهم المزاح، الرفيق، مقهقها، ليلمسها إذا كانت تثيره، فهو راض، والسائق ضحك أيضاً، لقد صدق فعلاً. التفت خوسيفينو إلى الموسيقيين، لقد كان عيد ميلاد ألونو، فليأتوا معهم، كي يحتفلوا به معاً، فابنا آل ليون كانا يحبانك، أيها العجوز، كثيراً. لكن المعلم كان متعباً وعليه أن يرتاح، يا خوسيفينو، وريت بولاس على كتفه. وخوسيفينو زعل وتآعب وأغضض عينيه. مرّت السيارة أمام الكاتدرائية وكانت مصابيح لا بلاتنا ده أرماس مطفاة. كانت أطراف أشجار التمر الهندي المغبرة تطوق

الفسحة الدائرية ذات السطح المنحني مثل مظلة بإحكام، ولا سيلباتيكا، لماذا هو سيء هكذا؟ كم طلبتُ منه ذلك؟ كانت عيناها تبحثان عن عيني خوسيفينو، خضراوين وكبيرتين وخائفتين، فمدَّ هو يده ساخرًا. كان سيناً، كان يأكلهما نيئتين ويلقمة واحدة. كاد يضطك، راقبه السائق شزراً: كان يهبط في شارع ليما، بين «لا اندرستريا» ودار البلدية. لم تكن هي راغبة لكن المونو أكمل البارحة المئة عام وكان يفرحهم في كل شيء.

- لا تزج الفتاة، يا خوسيفينو. قال عازف القيثارة. لا بد أنها متعبة، اتركها مرتاحة.

- لا تريد أن تذهب إلى بيتي، يا عازف القيثارة. قال خوسيفينو. لا تريد أن ترى المنيعين. تقول إنها تخجل، تصور. قف، يا رفيق، سننزل هنا.

توقفت السيارة، وكان شارع تاكنا وساحة مرينو مظلمين، لكن جادة سانتشت ثيرو كانت تتلألأ بمصابيح قافلة من الشاحنات الداخبة باتجاه الجسر الجديد. نزل خوسيفينو بقفزة واحدة، لاسيلباتيكا لم تتحرك، بدأ يتماكان، وعازف القيثارة لا تتشاجرا، كونا صديقين، وخوسيفينو، ليأتوا ومعهم السائق أيضاً، فالمونو كان عجوزاً كبيراً وكان يكمل الألف عام. لكن بولاس أعطى السائق أمراً فانطلق. كانت الجادة قد أصبحت مظلمة أيضاً والشاحنات قد صارت غمازات حمراء مزمجرة تتبعد باتجاه النهر. بدأ خوسيفينو يصفر بين أسنانه وأخذ لاسيلباتيكا من كتفها فلم تقاوم أبداً وكانت تسير بجانبه هانئة تماماً. فتح خوسيفينو الباب، وأغلقه خلفهما، وكان المونو منطوياً في كرسي ورأسه تحت مصباح حمالة، وهو يشخر. كان دخان حاد يحوم في الغرفة فوق قنان فارغة، كؤوس وأعقاب سجائر ويقايا طعام. كانوا قد استسلموا. أهؤلاء كانوا المانغاشيين؟ كان خوسيفينو يقفز، المانغاشيون الذين لا يهزمون؟ وانثبق صوت غير متجانس من الغرفة المجاورة. كان خوسيه قد دخل في فراشه، سيقته. نهض المونو وهو يهز رأسه، أي خراء هذا الذي استسلم، وابتسم ويرقت عيناها، لكن يا إلهي، وصار صوته كصوت الناي، لكن من هنا،

ونهض، أه كم من الزمن، وتقدم متعزراً، شعر بسعادة كبيرة لأنه رآها، ابنة العم، مبعداً الكراسي بيديه والقناني على الأرض بقدميه، كم كان مشتاقاً لرؤيتها من جديد، تراني أفي أم لا أفي؟ وكلمته كانت لها قيمة، كلمة المانغاشي أم لم تكن كذلك؟ كان مفتوح الذراعين، أشعت الشعر وابتسامته عريضة. كان المونو يتقدم متميلاً، زمن طويل، أصبحت فتاة رائعة، ولماذا كانت تتراجع، ابنة العم، كان عليها أن تهنته، ألم تكن تعرف أنه عيد ميلاده؟ - صحيح إنه يكمل المليون . قال خوسيفينو. كفاك ارتعاشاً، يا سيلباتيكا، عانقيه.

تهاوى على كرسيه وأمسك قنينة وحملها إلى فمه، وشرب، فدوت الصفقة مثل ضربة حجر في الماء، ابنة عم سيئة، ضحك خوسيفينو، وتركها المونو تصفحه من جديد مرة أخرى، ابنة عم سيئة، وراحت لاسيلباتيكا تمضي من جانب إلى آخر، وكانت تتكسر كؤوس، والمونو خلفها، منزلقاً وضاحكاً، والمنيعون في الغرفة المجاورة، لم يكونوا يتقنون عملاً، فقط كانوا يمتصون، وصوت خوسيه يذهب وخوسيفينو يرزم أيضاً منطوياً تحت مصباح الحامل، القنينة تنزلق من يده قليلاً قليلاً، والآن كانت لاسيلباتيكا والمونو هانئين في زاوية وهي تصفحه دائماً، ابنة عم سيئة، صار يتألم فعلاً، لماذا كانت تضربه؟ وكان يضحك لتقبله بشكل أفضل وهي كانت تضحك أيضاً من حركات المونو البهلوانية وحتى خوسيه المخنقي كان يضحك يا ابنة العم الجميلة.

الخاتمة

يطرق الحاكم ثلاث طرقات بمفاصل أصابعه، فيفتح باب مكان الإقامة: وجه الأم غريسيلدا مصر على الابتسام لخوليو رثاتيغي، لكن عينيها تحرفان بارتباك واضح، نحو ساحة سانتا ماريا ده نيبيا وفمها يرتجف. يدخل الحاكم، تتبعه الصغيرة بوداعة. يتقدمان عبر ممر معتم باتجاه مكتب رئيسة الدير، وأصوات البلدة الآن منطفئة وبعيدة، مثل ضجة الأحاد، حين تنزل الربيبات إلى النهر. يتهاوى الحاكم في المكتب على كرسي الخيش. يتهدأ بارتياح، ويغمض عينيه. تبقى الصغيرة في الباب، حاسرة الرأس، ولكن حين تدخل رئيسة الدير بعد لحظة، تركض باتجاه خوليو رثاتيغي، أماء، وينهض: صباح الخير، ترد عليه رئيسة الدير بابتسامة جليدية وتشير له بيدها أن يعود فيجلس وتبقى هي واقفة، إلى جانب المكتب، كانت قد ألمته رؤيتها وقد صارت متوحشة صغيرة في أوراكوسا، أيتها الأم مع أنّ لها عينيْن نكيتين، وخوليو رثاتيغي كان يفكر أنه بإمكانهن تربيتهما في البعثة. هل فعل خيراً؟ خيراً تماماً، يا دون خوليو، تتكلم رئيسة الدير كما تتبسم، باردة وبعيدة، دون أن تنظر إلى الصغيرة: هذا هو مبرر وجودهن هنا. لم تكن تفهم شيئاً من الإسبانية، أيتها الأم، لكنها ستتعلمها بسرعة، فقد كانت حيوية تماماً، ولم تسبب لهم أي ازعاج طول فترة السفر. تصغي رئيسة الدير إليه بانتباه، متيِّسة مثل الصليب الخشبي المستمر على الجدار، وعندما يسكت خوليو رثاتيغي، لا توافق ولا تسأل، وإنما تنتظر شابكة يديها فوق رداثها وفمها مجعد قليلاً. أيتها الأم: إذا يتركها لها. ينهض خوليو رثاتيغي. كان عليه أن يذهب، ويتبسم لرئيسة الدير. كان ذلك كله شاقاً وثقيلاً جداً. صانفتهم أمطار وعوايق من الأنواع كلّها، ومع ذلك لم يكن باستطاعته أن يذهب وينام كما كان يحلو له، فالأصدقاء كانوا قد حضروا غداء وإذا لم يذهب فإنهم سيزعلون، الناس كانوا حساسين جداً، تمدُّ رئيسة الدير يدها ويزداد الضجيج شدة في هذه اللحظة، وبعد ثوان يسمع قريباً

جداً كما لو أن الهتافات والصرخات لم تكن تصعد من الساحة، وإنما تتفجر في البستان، في المصلى. تخف بعد ذلك وتستمر كما كانت، معتلة، مبهمة وغير عدوانية، وترف رئيسة الدير أجفانها مرة واحدة، تتوقف قبل أن تصل إلى الباب، تلتفت إلى الحاكم، يا دون خوليو، ودون أن تبسم، شاحبة، مبتلة الشفتين: لا بد أن السيد أخذ بعين الاعتبار ما تقطعه من أجل هذه الطفلة، صوتها محزون، أرادت أن تنكره فحسب أن على المسيحي أن يعرف كيف يسامح. يهز خوليو رئاتيغي رأسه، يخفضه قليلاً، يشبك نراعيه، ووضعته في الوقت نفسه صارمة ووديعه ومهيبة، يا دون خوليو: لتقبل ذلك من أجل الله. تتكلم رئيسة الدير الآن بمودة، وأيضاً لأجل عائلتك، واشتعل خذاها، يا دون خوليو لأجل زوجتك الطيبة جداً والوديعه جداً. يوافق الحاكم من جديد. ألم يكن رجلاً بانساً وشقياً؟ الوجه في كل مرة أكثر غمماً، أترأه تلقى تربية؟ يدها اليسرى تداعب بمرونة الخد. هل كانت تعرف ما كان يفعل؟ وبرزت بعض التجاعيد في جبينها. كانت الصغيرة تنظر إليها شزراً، بين شعرها تلمع عيناها، مذعورتين، خضراوين ووحشيتين. كان هذا يؤلمه أكثر من أي شخص آخر، أيتها الأم. يتكلم الحاكم دون أن يرفع صوته. وكان هذا يتنافى مع طبيعته وأفكاره ويكرهه. لكن المسألة لم تكن مسألته هو، الذي كان سيترك سانتا مارياده نيبيا، وإنما مسألة الذين سيقون، أيتها الأم، بنثاس، اسكابينو، أغيلا، هي، الربيبات والبعثة. ألم تكن الأم تريد أن تكون هذه الأرض مسكونة؟ لكن المسيحي يمتلك أسلحة أخرى يضع بها حداً للظلم، يا دون خوليو، وهي كانت تعلم أن مشاعره كانت طيبة، ولا يمكن أن يقبل بهذه الطرق. ليحاول أن يجعلهم يحتكمون للعقل، فالجميع كانوا هنا يطيعونه، وعليهم ألا يفعلوا ذلك مع التعيس، كان سينلها، أيتها الأم، إنه أسف جداً، لأنه هو أيضاً كان يفكر أنها الطريقة الوحيدة. أسلحة أخرى؟ أسلحة المبشرين، أيتها الأم؟

كم قرناً بقوا هنا؟ كم من التقدم أحرزوا بتلك الأسلحة؟ كانت المسألة تتعلق فقط بتجنب الفواجع المستقبلية، أيتها الأم، لقد ضرب هذا اللص وجماعته عريفاً من بورخا بوحشية، قتلوا غزراً، سرقوا دون بيدرو اسكابينو، وفجأة ترفض رئيسة الدير بغضب، لا، لا، وترفع صوتها: الثأر عمل غير إنساني، عمل متوحش، وهذا ما كانوا قد فعلوه مع التعيس. لماذا لا يحاكمونه؟ لماذا لا يسجنونه؟ ألم يكن يلاحظ أنه لا يمكن أن يعامل كائن بشري بهذا الشكل؟ لم يكن انتقاماً، ولا حتى عقاباً، أيتها الأم، ويخفض خوليو رناتيغي صوته ويداعب برؤوس أصابعه شعر الصغيرة المتسخ: كانت مسألة حيلة. كان يحزنه أن يذهب ويترك هذه الذكرى السيئة في البعثة، أيتها الأم، لكنه كان ضرورياً من أجل صالح الجميع. كان يحب سانتا ماريا ده نيبيا، كان يشعر بالآلفة مع سانتا ماريا ده نيبيا، فالحكومة جعلته يهمل أمورهِ، يضيق أموالاً، لكنه لم يكن نادماً، أيتها الأم، ليس صحيحاً أنه ساهم في تقدم البلدة؟ هناك الآن سلطات، وقريباً سيقام موقع للحرس المدني، وسيعيش الناس بسلام، أيتها الأم: لا يمكن أن يضيق هذا. كانت البعثة أول من شكره على ما فعله من أجل سانتا ماريا ده نيبيا، ما ذنبه إذا لم يعلمه أحد الخير والشر؟ لم يكونوا سيقتلونه أيتها الأم، كما أنهم لن يرسلوه إلى السجن، وأكد أنه كان يفضل هذا على أن يزجوه في السجن. لم يكونوا يكرهونه، أيتها الأم، وإنما فقط أرادوا أن يتعلم الأغوارونيون هذا، ما الخير وما الشر، ولم يكونوا يفهمون إلا هذا والذنب ليس ذنبهم، أيتها الأم. يخيم عليهم الصمت لثوان، بعدها يمد الحاكم يده إلى رئيسة الدير، يخرج فتتبعه الصغيرة، لكنها لا تكاد تتقدم بضع خطوات حتى تمسكها رئيسة الدير من نراعها دون أن تحاول الهرب، تخفض رأسها ليس أكثر، يا دون خوليو، هل كان لها اسم؟ لأنه كان عليهن أن يعمننها، الطفلة، أيتها الأم؟ لم يكن يعرف، وعلى أي حال لن يكون لها اسم مسيحي، وعليهن أن يبحثن لها عن واحد. ينحني احتراماً، يخرج من الإقامة، يجتاز فناء البعثة بخطوات واسعة، يهبط الدرب مسرعاً. حين يصل إلى الساحة

ينظر إلى خوم: يده مربوطتان فوق رأسه ويتكلى من الكاببيرونا مثل فادن، وبين قدميه المتكلمين في الفراغ ورؤوس المتفرجين يوجد متر من النور. لم يعد بينناش وأغليلا واسكابينو هناك، ولا يوجد إلا العريف روبرتو ديلغانو، بعض الجنود وأغوارنيون شيوخ وشبان مجتمعون في مجموعة ملتحمة. لم يعد العريف يطلق أصواتاً وخوم صامت أيضاً. يراقب خوليو رثائغي الميناء. كانت الزوارق تتمايل فارغة، فقد انتهوا من التفريغ. الشمس قاسية، عمودية، ذات صفرة تكاد تكون بيضاء. يتقدم الحاكم عدة خطوات من دار الحكومة، لكنه عندما يمر أمام أشجار الكاببيرونا يتوقف ويلتفت من جديد. تمطُّ يده حافة الخوذة ومع ذلك فالأشعة العدوانية تطعن عينيه. لا يلمح إلا فمه، تراه مغشى عليه؟ يبدو مفتوحاً، تراه يشاهده؟ هل سيصرخ بيرويين مرة أخرى؟ هل سيستم العريف من جديد؟ لا، إنه لا يصرخ، وربما فمه ليس مفتوحاً أيضاً. إن الوضعية التي كان فيها جعلت معدته تغور ومطت جسمه، حتى أنه يمكن القول إنه رجل طويل وناحل وليس الوثني القوي والأكرش الذي هو. يرشح منه شيء غريب، جعله سكونه كالأثير، وقد حولته الشمس إلى شكل رشيق متوهج. يستمر رثائغي في السير، يدخل إلى دار الحكومة، الدخان يكثف الجو، يسعل، يصافح بعض الأيدي، يعانق ويعانق. يُسمع مزاح وضحكات، أحد ما يضع في يديه كأس بيرة. يشربه بجرعة واحدة. تدور حوله حوارات، مسيحيون يفشون أسراراً، يا دون خوليو، سوف يفقدونك، وينكرونك. وهو كذلك، وكثيراً، لكن حان الوقت كي يعود ويهتم بأموره، فقد كان قد أهمل كل شيء، مزارعه، منشرته، فندقه الصغير في إيكيتوس. لقد أضاع هنا أموالاً، وأصدقاء، وشاخ أيضاً. لم يكن يحب السياسة، كان العمل شغله الشاغل، يدان مُغتبيتان تملآن له الكأس، تصفقان تربتان له، تأخذان خونته، يا دون خوليو، جميع الناس جاؤوا للاحتفاء بك، حتى أولئك الذين كانوا يعيشون في الجانب الآخر من البيونغو. كان متعباً، يا أربيالو، ليلتان لم ينم فيهما وكانت تؤلمه عظامه. يجفف جبينه، وعنقه، وخديه، بين الفينة والأخرى يبتعد مانويل أغليلا

ويبدو اسكابينو، وبين الجسدين، تظهر قضبان النافذة المعدنية، وفي البعيد أشجار الكاببرونا في الساحة، هل ما زال الفضوليون هناك أم أن القبط قد فرّقهم؟ خوم لا يلمح وجسده الترابي يتحلل إلى نفايات من الضوء أو يختلط بقشرة الجذوع الضارية للصفرة، أيها الأصدقاء يجب ألا يموت بين أيديكم، كي يكون عبرة يجب أن يعود الوثني إلى أوراكوسا ويروي للأخريين ما حدث. لن يموت يا دون خوليو، سيفيده أن يأخذ قليلاً من الشمس: يا مانويل أغيلًا؟ عليه ألا يتهرب من دفع ثمن البضاعة له، يا دون بيدرو، يجب ألا يُقال إنه كان هناك تصف، وإن كل ما فعلوه هو أنهم وضعوا الأمور في نصابها. طبعاً، يا دون خوليو، سيدفعون الفرق لأولئك البدائيين، والشيء الوحيد الذي كان يطلبه اسكابينو هو أن يقيم تجارة معهم، كما في السابق. هل أكيد أن دون فاييو كويستا ذاك رجل ثقة، يا دون خوليو؟ أريبالو بينثاس؟ لو لم يكن كذلك، لما جعلهم ينصبونه. منذ سنوات وهو يعمل معه، يا أريبالو. إنه رجل ثقيل قليلاً، لكنه وفيّ ومتفصل، نوعه نادر، سيتفقون مع دون فاييو، كان يؤكد لهم ذلك. حبذا لو أنه لا تحدث مشاكل أكثر، فالوقت الذي كانوا يضيّعونه كان رهيباً، وخوليو رئائخي كان قد تحسن، أيها الأصدقاء: فقد شعر حين دخل وكأنه دائخ. أليس من الجوع، يادون خوليو؟ يفضل أن يذهب ويتناول غداءه وينتهي، فالنقيب كيروغا كان ينتظرهم، ها ها، بالمناسبة، كيف هو هذا النقيب، يا دون خوليو؟ كانت له نقاط ضعفه، مثل أي كائن بشري، يا دون بيدرو: لكنه بشكل عام طيب.

-1-

- لم تأت منذ أكثر من سنة . صرخ فوشيا .
- لا أفهم عليك . قال أكيلينو، ويده على أذنه، مثل بوق، تهيم عيناه فوق رؤوس نخيل التشونتتا¹⁴¹ والكانهاها¹⁴² المتداخلة، أو تترصدان خفية ويخوف الأكواخ المطلة من خلف سياج الخنشار، في عمق الدرب . ماذا تقول، يا فوشيا؟
- منذ أكثر من سنة . يصرخ فوشيا . منذ أكثر من سنة لم تأت، يا أكيلينو .
يوافق العجوز هذه المرة وتستقر عيناه المصابتان بالمرض على فوشيا للحظة ثم تعودان ففتيهان في مياه الضفة الطينية والأشجار والتواءات الدرب - ليس إلى هذا الحد، يا رجل عدة شهور فقط .
لا يصل من الأكواخ أي ضجيج، وكل شيء يبدو مقفراً، لكنه لا يثق، يا فوشيا، وماذا لو ظهوروا، كما في تلك المرة، وهم يعوون عراة، حيث كانوا يغطون الدرب ويخرجون نحوه ويضطر إلى أن يلقي بنفسه إلى الماء؟ هل أنت متأكد أنهم لن يأتوا، يا فوشيا؟
- سنة وأسبوع . قال فوشيا . كنت أحسبها كل يوم . والآن وعندما تذهب سأبدأ بالحساب، وأول ما أفعله كل صباح هي الخطوط . في البداية لم أكن أستطيع، والآن أصبحت أستعمل قنمي وكأنها يد، أمسك العود بالإصبعين . هل تريد أن ترى، يا أكيلينو؟

¹⁴¹التشونتتا: نوع من النخيل خشبه قوي ويستخدم في صناعة العكايزت وبعض أدوات الزخرفة وذلك لجمال لونه القاتم قليلاً.

¹⁴²الكانهاها: قبيلة من قبائل الأدغال، تعيش بين نهري ياباري ولوكايبالي: لكن هنا معناها مختلف تماماً، مثل تشونتتا، وعلى الأغلب أنواع من الأشجار.

تتقدم القدم السليمة وتخدش الرمل، تكشف كومة من الحجارة، تتفصل الإصبعان السليمتان مثل كلابة عقرب، وتتغلغان على قطعة صخر صغيرة وترتفعان، تتحرك القدم بسرعة، تلامس الرمل تتراجع مُخَلِّفة خطأً مستقيماً صغيراً ودقيقاً، لا تلبث الريح أن ترممه في ثوان قليلة.

- لماذا تفعل هذه الأشياء، يا فوشيا؟ قال أكيلينو.

- أرايت، أيها العجوز؟ قال فوشيا. هكذا كل يوم، خطوط صغيرة، هي في كل يوم أصغر كي تدخل في جداري، خطوط هذا العالم كثيرة، تصل إلى عشرين صفاً وعندما تأتي أُنْتَم طعامي إلى الممرض فيلقي عليها كلساً ويمحوها، فأتمكن من خطّ الأيام المتبقية من جديد. سأعطيه هذه الليلة طعامي وغداً يلقي عليها الكلس.

- بلى، بلى. تطلب يد العجوز من فوشيا أن يهدأ. سنة، كما تقول، حسناً، لا تغضب لا تصرخ. لم أستطع أن آتي قبل هذا الوقت، لم يعد السفر سهلاً علي، أنام، ونراعي لا تطاوعانني. ألا ترى أن الأعوام تمضي؟ لا أريد أن أموت في الماء، والنهر جميل للحياة وليس للموت، يا فوشيا. لماذا أنت تزعق طوال الوقت بهذا الشكل، ألا تؤلمك حنجرتك؟

يثب فوشيا ويتوضع أمام أكيلينو، لكن وجهه يبقى تحت وجه العجوز، الذي يتراجع لامصاً بفمه، لكن فوشيا يمدم وينظر إلى أن ينظر أكيلينو إليه: حسناً، يا رجل لقد رأى. يغلظ العجوز أنفه ويعود فوشيا إلى مكانه. لذلك لم يكن يفهم عليه، يا فوشيا، هل كان باستطاعتك أن تأكل هكذا، فارغ الفم؟ ألم تكن تحتاج إلى الأسنان، ألم تكن تعيقك؟ وينفي فوشيا برأسه، عدة مرات.

- إنّ الراهبة تبلل لي كل شيء: الخبز، الفاكهة، كل شيء يوضع في الفم إلى أن يصبح طرياً، وينقتت عندئذٍ أستطيع تناوله. الكلام وحده هو المزعج، صوتي لا يخرج.

- لا تغضب إذا أغلقتُ أنفي. يضغط أكيلينو على فتحتي أنفه بإصبعين فيسمع صوته أغناً. الرائحة تدوخني ورأسي يفتل. في المرة الماضية حملتُ

الرائحة معي، يا فوشيا، كنت أتقياً في الليل. لو عرفت أن الأكل يكلفك كل هذا الجهد لما كنت أحضرت لك معي بسكويتاً، فهو سيكشط لك لثتك. سأحضر لك في المرة القادمة بييرة، وبعض الكولا. لييتي أتذكر، لأنه، تصور، رأسي ليس كما يجب، أنسى الأشياء، لا يبقى شيء. لقد أصبحت عجوزاً، يا رجل.

- مع أن الشمس غائبة الآن. يقول فوشيا. إذ عندما تكون الشمس مشرقة ونخرج إلى الشاطئ، حتى الراهبات والكتور يغطون أنوفهم، يقولون إنه يصدر رائحة ننتة شديدة. أنا لا أشعر بشيء، لقد اعتدت. هل تدري ما هو؟
- لاتصرخ كثيراً. ينظر أكيلينو إلى الغيوم: لفاقات غليظة ورمادية ويقع ببيضاء متناثرة هنا وهناك تغطي السماء، ونور رصاصي يهبط بطيناً فوق الأشجار. اعتقد أنها ستمطر، لكن حتى ولو أمطرت سأذهب. لن أنام هنا، يا فوشيا. هل تذكر تلك الأزهار التي كانت في الجزيرة؟. ينثب فوشيا في مكانه مثل قرد أمرد وأحمر. تلك الصفراء التي تتفتح مع الشمس وتغمض مع الظلام، والتي كان الهوامبيسيون يقولون إنها أرواح. هل تذكرها؟ سأذهب حتى لو أمطرت بغزارة. قال أكيلينو. لن أنام هنا.

- تماماً مثل تلك الأزهار. يصرخ فوشيا. تتفتح مع الشمس ويخرج منها لعاب، هو الذي يصدر النتانة يا أكيلينو. لكنها الآن أفضل، لم تعد تخز، وأشعر بأنني أحسن. إننا نفرح ولا ننشاجر.

- لا تصرخ كثيراً، يا فوشيا. يقول أكيلينو. انظر كيف غامت السماء، ربح شديدة تهب الآن. والراهبة قالت إن هذا يؤذيك، عليك أن تعود إلى كوخك. وأنا أذهب فوراً، هذا أفضل.

- لكن نحن لا نشعر بشيء لا مع الشمس ولا حين تكون غائمة. نشم الرائحة نفسها طوال الوقت، ولا يبدو لنا أنها نتانة وإنما رائحة الحياة. هل تفهم علي، أيها العجوز؟

بقلت أكيلينو أنفه ويتنفس بعمق. تجاعيد رقيقة تسود وجهه وتغطّبه تحت قبة القش. تحرك الريح قميصه القطني الخشن وتكشف بين القينة والأخرى عن صدره الضامر، وأضلاعه البارزة وجلده البراق. يخفض العجوز عينيه، ينظر شزراً: ما يزال هناك، ساكناً، مثل سرطان كبير.

- ماذا تشبه؟. يصرخ فوشيا . سمكة فاسدة؟

- أستحلفك بأعلى ما لديك، لا تستمرّ في الصراخ . يقول أكيلينو . عليّ الآن أن أذهب . وحين أعود سأترك بأشياء طرية كي تبلعها دون مضغ . سأبحث وأسأل في الحوانيت .

- اجلس، اجلس . يصرخ فوشيا . لماذا وقفت ، يا أكيلينو؟ اجلس، اجلس .

يثب وهو في حالة القرفصاء، حول أكينيو ويبحث عن عينيه، ولكنّ العجوز يصرّ على النظر إلى الغيوم والنخيل ومياه النهر الناعسة والموجبات المتسخة. في أسفل النهر جزيرة صغيرة ترابية وصفراء تشطر التيار بشموخ، فوشيا الآن قرب ساقي أكيلينو . يجلس العجوز .

- لحظة أخرى يا أكيلينو . يصرخ فوشيا . تذهب الآن أيها العجوز فالآن وصلت .

- تذكرت الآن، عليّ أن أحكي لك شيئاً . يضرب العجوز على جبينه، وبعد ثانية ينظر: القمّ الصحيحة السليمة تخدش الرمل . في نيسان كنتُ في سانتا ماريا ده نيبيا . ألا ترى كيف هو رأسي؟ كنتُ سأذهب دون أن أحكي لك . تعاقبت معي البحرية، وكان لديهم لليل مريض وحملوني في إحدى تلك البوارج الحربية الصغيرة التي تطير في الماء . بقينا هناك يومين .

- خفت أن أمسك بك . صرخ فوشيا . من أن ألفَ ساقيك بنراعي، ولهذا جلست، يا أكيلينو وإلا لذبتُ ببطء .

- كفّ عن إطلاق هذا الزعيق، اتركني أحكي لك . يقول أكيلينو . أصبحت لاليتا مفرطة السمنة، في البداية لم يعرف أحدنا الآخر . اعتقدتُ أنني مثٌ . بكت من فرحها .

- في السابق كنت تمضي اليوم بكامله . بصرخ فوشيا . كنت تذهب وتنام في الزورق وتعود في اليوم التالي لتتحدث معي، يا أكيلينو . كنت تمكث يومين أو ثلاثة وتعود في اليوم التالي لتتحدث معي، يا أكيلينو . والآن ما تكاد تصل حتى تريد أن تذهب .

- أنزلوني في بيتهم يا فوشيا . قال أكيلينو . عندها أولاد كثيرون، كم عندهم، كثيرون . وصار أكيلينو رجلاً . عملَ سائقَ رمث، وعيناه لم تعودا محرورتين كثيراً . جميعهم رجال تقريباً، ولو رأيت لاليتا لن تصدق أنها هي، بدينة جداً . ألا تذكر كيف ولنتها بهاتين اليبين؟ صار أكيلينو رجلاً ضخماً ولطيفاً . وكذلك الأود نيبيس وأولاد الشرطي . لا يوجد من يستطيع أن يميز بينهم، جميعهم يشبهون لاليتا .

- كان الجميع يحسدونني . بصرخ فوشيا . لألك كنت تأتي لتراني وهم لم يكن يأتي أحد ليراهم . ثم إنهم كانوا يسخرون لألك كنت تتأخر في العودة . سيأتي، الممسألة أنه يقوم بأسفار، يتاجر في الأنهار، لكنه سيأتي، غداً، أو بعد غد، لكنه سيأتي على أي حال . والآن كأنك لم تأت أبداً، يا أكيلينو .

- لاليتا حكمت لي قصة حياتها . يقول أكيلينو . لم تكن تريد أولاداً أكثر، لكن الشرطي كان يريد، وقد أحبلها مرات لا تحصى، وفي سانتا ماريا ده نيبيا ينادون الفتيان بـ «الثقلاء» . لكن هذا لا ينطبق على أولاد الشرطي فقط وإنما على أولاد نيبيس وعلى ابنك أنت أيضاً .

- لاليتا؟ . بصرخ فوشيا . لاليتا، أيها العجوز؟

ينبعث اضطراب، أنين، روائح ننتة فيطلق العجوز أنفه ويلتفت برأسه إلى الخلف . بدأ المطر يهطل والريح تصفر بين الأشجار والأعشاب تتراقص على الضفة الأخرى، هناك حفيف أوراق هامسة . المطر مايزال خفيفاً، غير ظاهر، ينهض أكيلينو :

- ها قد رأيت، لقد بدأت تمطر، يجب أن أذهب . يقول . سأضطر للنوم في الزورق، وأتبل طوال الليل . لن أستطيع الذهاب ثملاً تحت المطر، إذ لو

تعطل المحرك لن أملك القوة الكافية وسيجرفني التيار، وقد حدث لي هذا. هل أحزنك ما رويتك لك عن لاليتا؟ لماذا لم تعد تصرخ، يا فوشيا؟
إنه الآن أكثر انطواءً، وانحاءً وتكرراً ولا يجب. قدمه السلمية تداعب الحصى المبعثرة على الرمل: يبعثرها ويجمعها، يسوي حوافها وفي كل هذه الحركات الدقيقة والبطيئة يوجد نوع من الحزن. يتقدم أكيلينو خطوتين، دون أن يرفع بصره الآن عن الظهر الملتهب، عن تلك العظام التي تمضي المياه بغسلها. يتراجع أكثر قليلاً وصار الآن لا يميز القروح عن الجلد، كله صار سطحاً يتراوح بين الأزرق الرصاصي والبنفسجي البراق. يفلت أنفه ويتنفس بعمق.

- لا تحزن، يا فوشيا. يتعلل. سأتي في العام القادم حتى لو كنت منهكاً تماماً، وسأحضر لك أشياء طرية. هل أغضبك موضوع لاليتا؟ هل تنكرت أزماناً أخرى؟ هكذا هي الحياة، يا رجل، على الأقل كانت حياتك أفضل من حياة آخرين، تصور نيبس مثلاً.

يتمتم ويمضي متراجعاً، صار الآن في الدرب. ثمة أعمار مائة في التقعرات ونفس نباتي قوي يغزو الجو، رائحة نسغ، راتينج ونباتات ناشئة. بخار فاتر، ما يزال خفيفاً، يتصاعد في طبقات متموجة. يتابع العجوز تراجعاً، والكتلة اللحمية الدامية بلا حراك في البعيد، تختفي خلف السراخس. يدور أكيلينو نصف دورة ويجري باتجاه الأكواخ، يا فوشيا، سأتي في العام القادم، هامساً، عليه ألا يحزن. تمطر الآن بغزارة.

- أسرع، أيها الأب . قالت لاسيلباتيكا. هناك سيارة أجرة تنتظر.
- لحظة . تتحج الأب غارثيا، وهو يفرك عينيه . علي أن أرتدي ثيابي .
غاص في البيت وأشارت لاسيلباتيكا إلى سائق السيارة بأن ينتظر.
أسراب من الحشرات كانت تطلق مخشخشة حول مصابيح ساحة ميرينو
المقفرة، وكانت السماء عالية ومرصعة بالنجوم، وظهرت في جادة سانتشت
ثيرو أولى الشاحنات والباصات وهي ترمجر . بقيت لاسيلباتيكا على قارعة
الطريق إلى أن فُتح الباب من جديد وخرج الأب غارثيا، وقد اختفى وجهه
خلف لفاح رمادي، وقبعة قماش نازلة حتى حاجبيه. صعد إلى سيارة
الأجرة فانطلقت بهما .
- امضي بكل ما عندك من سرعة، يا معلم . قالت لاسيلباتيكا. بأقصى
سرعة، يا معلم.

- هل هو بعيد؟ . قال الأب غارثيا وقد تحول صوته إلى تتاوب طويل .
- قليلاً، أيها الأب . قالت لاسيلباتيكا . بالقرب من كلوب غراو .
- ولم جئت إلى هنا إن؟ . نعمم الأب غارثيا. لماذا وجدت خورنية بوينوس
آيريس؟ لماذا توقظيني أنا ولا توقظين الأب روبيو؟

كان «الترث استريلياس» مغلقاً، لكن كان يظهر نور في الداخل، أيها
الأب: السيدة كانت تريد أن يأتي هو نفسه. كان ثلاثة رجال يرتلون متعاقبين
في الزاوية، وآخر، بعيد عنهم قليلاً يبول على الجدار. شاحنة محملة
بالصناديق كانت تتقدم بوقار في عرض الشارع، عبثاً كان يطلب سائق سيارة
الأجرة منه أن يفسح له الطريق، مستعملاً منبه الصوت، مشعلاً الأنوار
ومطفئاً إياها، وفجأة تقرب قبعة القماش من فم لاسيلباتيكا نفسه: أية سيدة
كانت تريد أن يأتي بنفسه؟ ابتعدت الشاحنة فاستطاعت سيارة الأجرة أن تمر
أخيراً، أيها الأب، إنها السيدة تشونغفا، ذعر مفاجئ، ماذا؟ من الذي كان

يموت؟ بدأ رداء الراهب يهتز وكان نوع من التقلصات يخفق صوت الأب غارثيا تحت اللفاح: من هو الذي كان ذاهباً إليه ليعترف؟
- السيد دون أنسيلمو، أيها الأب . همست لاسيلباتيكا.
- عازف القيثارة يموت؟ . هتف السائق؟ ماذا؟ هو؟
صرت السيارة التي أصدرت مكابحها صوتاً صاخباً في جادة غرار، ثم أقلعت إلى الأمام بقوة أكبر والأضواء البعيدة المدى مشتعلة، وتابع زيادة السرعة دون أن يخفها في الشوارع، وكان يكفي للإعلان عن مروره السريع بإطلاق منبه الصوت بقوة. كانت قبعة القماش تتوس طائشة أمام وجه لاسيلباتيكا، وحجرة الأب غارثيا تبدو منهكة في معركة ضد شيء كان يعيقها ويخنقها.
- كان يعزف بفرح كبير وفجأة سقط على الأرض . تنهدت لاسيلباتيكا . لقد ازرق لونه، أيها الأب.

خرجت يد مسرعة من الظل وهزت كتف لاسيلباتيكا، فأنت، هل كانا ذاهبين إلى بيت الدعارة؟ توقعت خائفة على باب السيارة، لا أيها الأب، بل إلى البيت الأخضر. كان يحتضر هناك، لماذا كان يدفعها بهذا الشكل، ماذا فعلت له؟ وأفلتها الأب غارثيا بيده انتزع اللفاح عن رقبتة. قرب فمه من النافذة وهو يتنفس بصعوبة، وبقي هكذا نقيّة، منحنيّاً، مغمض العينين، يستشوق هواء الليل الخفيف بضيق. ثم ارتدى بظهره على المقعد وعاد وتلفع باللفاح.
- البيت الأخضر هو بيت الدعارة، يا شقية . شخر. أعرف من أنت، وأعرف لماذا أنت نصف عارية ومطلية بهذا الشكل.

- ألم يستدعوا الطبيب؟ . قال السائق . يا له من خبر محزن، يا أنسة. اعذرني إذا كنت أتدخل، فالمسألة هي أنني أعرف عازف القيثارة جيداً. من لا يعرفه؟ جميعنا نقره عالياً.

- بلى، لقد استدعوه . قالت لاسيلباتيكا . والدكتور ثيباليو هناك. لكنه يقول إنها ستكون معجزة إذا لم يموت. الجميع سيكون، أيها الأب.

انكفا الأب غارثيا في المقعد وتوقف عن الكلام، لكن هممة منقطعة،
واهنة، وملحاحة كانت تقلت من تحت اللفاح. توقفت سيارة الأجرة أمام شبك
كلوب غراو الحديدي، وبقي المحرك مزمجرأ ومدخنأ.

- كنت سأوصلكما إلى الحي . قال السائق . لكن الرمل رخو وبالتأكيد
فإنني سأتورط. إنني فعلاً حزين لما يحدث.

وبينما كانت لاسيلباتيكا تحلُ مندبلاً، وتخرج نقوداً وتدفع، نزل الأب غارثيا
وأغلق الباب بغضب. وراح يسير في الرملة بسرعة. كان يعثر أحياناً، يغوص
ويرتفع في السطح المتعرج، وكان يُرى في الليلة الصافية وهو يتقدم، بين
الكتبان الصفراء، بلون مطاطي وداكن مثل غالينائي. أدركته لاسيلباتيكا في
منتصف الطريق.

- هل كنت تعرفه، أيها الأب؟ همست لاسيلباتيكا . مسكين، أليس كذلك؟
آه، لو رأيت كيف يعزف، ما أجمل عزفه. هذا على الرغم من أنه كان لا يكاد
يرى.

لم يجب الأب غارثيا. كان يسير منكمشأ، مباعداً جداً ما بين ساقيه
وبإيقاع حي، وتتفسه في كل مرة أكثر اضطراباً.

- يا للغزاية، أيها الأب . قالت لاسيلباتيكا. لاتسمع أية ضجة، بينما كانت
موسيقا الغرفة تصل كل ليلة حتى هنا. بل وأبعد. فقد كانت تُسمع على
الطريق العام واضحة.

- اخربي، أيتها الشقية . زمجر الأب غارثيا دون أن ينظر إليها . أغلقتي
فمك.

- لا تغضب، أيها الأب . قالت لاسيلباتيكا . لا أعرف عما أتحدث. فأنا
حزينة، أنت لا تعرف كيف كان دون أنسلمو.

- أعرف أكثر مما يجب، يا شقية . تتم الأب غارثيا . أعرفه قبل أن
تولدي أنت.

وقال أشياء أخرى غير مفهومة، ومن جديد انبثق الصوت الأجنس الغريب والتواؤق. في أبواب أكواخ الحي كان يوجد ناس، وعند مرورهما كان يصدر همس، ليال سعيدة، وبعض النسوة كنّ يرسمن إشارة الصليب. طرقت لاسيلباتيكا الباب، فسمع صوت امرأة في الحال: كان مغلّقاً، ولا يستقبل أحداً يا سيدة، إنها هي، وها هو الأب هنا. خيم صمت، وكان هناك خطوات مستعجلة، انفتح الباب فأضاء نور نخاني وجه الأب غارثيا الضامر والهرم واللفاع الذي كان يتراقص على رقبتّه. نخل إلى المحل تتبّعه لا سيلباتيكا، لم يرد على التحيّن اللتين وجههما إليه صوتان منكران من طاولة المشرب، وربما لم يسمع المهمة الوقورة التي كانت قد ارتفعت على طاولتين محاطتين بهيئات ضبابية. بقي مكفهاً ومتخسباً أمام حلبة الرقص المقفّرة، وعندما انبثق أمامه طيف بلا وجه، أين هو؟ ندمم بسرعة، ولا تشونغنا التي كانت قد مدت يدها نحوه، حرفتها وأشارت إلى الدرج: أين، ليقوده. أمسكته لاسيلباتيكا من نراعه، أيها الأب، هي ستله. عبرا القاعة، صعدا إلى الطابق الأول، وفي الممر أفلت الأب غارثيا بشدة يد لاسيلباتيكا. طرقت أحد الأبواب الأربعة المتشابهة بنعومة كبيرة وفتحته. تحت جانباً وعندما دخل الأب غارثيا، أغلقته وعادت إلى القاعة.

- هل كان الطقس بارداً في الخارج؟ قال بولاس. إنك ترتعدين.
- اشربي هذا الكأس. قال الشاب اليخاندرو. سيدخل الدفء إليك.
- أخذت لاسيلباتيكا الكأس، شربت وجففت شفيتها بيدها.
- فجأة استشاط الأب غيظاً. قالت. في الميارة أمسكني من كتفي وهزني.
- اعتقدت أنه سيضرني.
- إنه سيء المزاج. قال بولاس. لم أكن أفكر أنه سيأتي.
- هل ما زال الدكتور ثيباليو هناك، يا سيدة؟ قالت لاسيلباتيكا.
- نزل منذ دقيقة، ليتناول فنجان قهوة. أجابت لاشونغنا. قال إنه ما يزال على حاله.

- سأتناول جرعة أخرى، يا تشونغيتا، فأنا بحاجة إليها لأريح أعصابي .
قال بولاس . لا يوجد معي نقود، هل تحسبها لي؟
وافقت لاتشونغفا ومألت الكأسين للالتئين. ثم ذهبت بالقنينة نحو الطاولات
التي على حافة حلبة الرقص حيث القاطنات يتهايمن بسرية: هل كن يردن
أن يتناولن شيئاً؟ لا، لا يردن، يا سيدة، شكراً، لا يوجد هنا ما يستحق البقاء
لأجله، كان باستطاعتهم الذهاب، همس جديد أعاد إليها قواها، وكان أطول،
صَرَ كرسي، يا سيدة، إذا كان لا يوجد مانع فإنهن يفضلن البقاء، هل
يستطعن؟ ولا تشونغفا، طبعاً، كما يرغبن وعادت إلى طاولة المشرب. تابعت
الظلال حوارها الخافت وكان الموسيقيان يشربان بصمت، وينظران بين الفينة
والأخرى إلى الدرج.

- لماذا لا تعزفان لنا شيئاً؟ . قالت لاتشونغفا، بصوت منخفض وبإيماءة
مبهمة . إذ لو استطاع أن يسمعكما ربما أعجبه الأمر، وسيشعر بأنكما
ترافقانه.

تردد بولاس والشاب، لاسيلباتيكا، بلي، بلي، لقد كانت السيدة على حق،
يحبُّ ذلك، وتوقفت الظلال عن الهمس: حسناً، سيعزفان له. ذهبنا نحو ركن
الفرقة ببطء، جلس بولاس على المقعد مستنداً إلى الجدار، رفع الشاب فيثارتته
عن الأرض. بدأ عزفاً حزيناً. لم يتجرأ على الغناء بين أسنانها إلا بعد برهة
ودون قناعة، لكن شيئاً فشيئاً راحا يرفعان نبرتهما وانتهيا إلى أن استعددا
طلاقتهما وحيويتهما المعتانئين. عندما كانا يعزفان إحدى مؤلفات الشاب، كان
يلاحظ عليهما أنها أكثر تأثراً، يقولان الأشعار بصوت متأن وعاطفي، وكانت
تقلت الموسيقى من بولاس أحياناً فيسكت. أدركتها لاتشونغفا ببعض الكؤوس.
هي أيضاً كانت كدرة، ولم تكن تسير بهدونها المعهود دائماً والذي ينطوي على
بعض الخيلاء، وإنما على رؤوس أصابعها، دون أن تحرك ذراعها أو تنظر
إلى أحد وكأنها خائفة أو مرتبكة، يا سيدة: هوذا الدكتور ثيباليو كان يهبط.

توقف بولاس والشاب عن العزف، نهضت القاطنات، ولاتشونغا ولاسيلباتيكا هرعنا أيضاً نحو الدرج.

- أعطيته حقنة . كان الدكتور ثياليو ينظف جبينه بمنديله . لكن يجب ألا نعلق عليه آمالاً كثيرة. الأب غارثيا معه. لتصلوا على روحه.

مَرَّ لسانه على شفتيه، يا تشونغا، لقد كان به عطش رهيب، ففي الأعلى الحرارة مرتفعة. مضت لاتشونغا نحو البار وعادت بكأس من البيرة. كان الدكتور ثياليو جالساَ إلى طاولة مع الشاب ، وبولاس ولاسيلباتيكا. وكانت القاطنات قد عدنَ إلى أماكنهنَّ ورحن يتسارزنَ من جديد وبرتابة.

- هكذا هي الحياة . شرب الدكتور ثياليو، تتهد، أغمض عينيه وفتحهما . سيأتينا الدور جميعاً وأذا قبلكم بكثير.

- هل يتعذب كثيراً، يا دكتور؟ . قال بولاس بصوت ثمل، لكن نظرتُه وحركاته كانت متزنة.

- لا، لذلك أعطيته الحقنة . قال الدكتور. إنه غائب عن الوعي. يفوق بين الحين والآخر، لثوان. لكنه لا يشعر بأي ألم.

- كانا يعزفان له . همست لاتشونغا وقد تغير صوتها أيضاً وارتبكت عيناها. ظننا أن ذلك سيسرّه.

- في الغرفة لايسمع . قال الدكتور. إلا أن سمعي سيء، ربما كان دون أنسيلمو يسمعه. كان بودي أن أعرف كم عمره بالضبط. لا شك، أكثر من ثمانين. إنه أكبر مني، وأنا دخلت السبعين. صبي لي كأساً آخر، يا تشونغا.

ثم صمتوا ويقوا هكذا فترة طويلة. وكانت لاتشونغا تنهض من حين لآخر، تذهب إلى طاولة المشرب وتحضر بيرة وكووساً من البيسكو. كان همس القاطنات حاضراً دائماً، وكان أحياناً حاداً وعصبياً. ومرة أخرى هرعوا نحو الدرج الذي كان ينزل عليه الأب غارثيا، بدون قبعة أو لفاع، ويشق النفس يومئً للدكتور ثياليو. الذي صعد الدرجات ممسكاً بالدرايزين وضاع في الممر، أيها الأب، ماذا حدث؟ أسئلة كثيرة انبثقت دفعة واحدة، وصمت

الجميع في وقت واحد وكان الضجة أخافتهم: كان الأب غارثيا يتمم بشيء وهو متضايق. كانت أسنانه تصطك بشدة ونظرته التائهة لا تتوقف عند أي وجه. كان الشاب ويولاس متعائنين وواحد منهما يبكي مجهشاً. بعد قليل بدأت القاطنات يفركن عيونهن، وينتحن بصوت عالٍ، يرتمي بعضهن بين ذراعي بعض، وهدهما لاثسونغا ولاسيلباتيكا كانتا تسندان الأب غارثيا الذي كان يرتجف ويدور بعينه بعناد وألم. جزّاه فيما بينهما نحو الكرسي، وهو، تركهما تجلسانه جلسة مريحة وتلمسان جبهته، وكان يشرب دون تمرد كأس البيسكو الذي كانت تفرغه لاثسونغا في فمه. كان جسده يرتجف، لكن عينيه هدأتا وعلقتا في الفراغ، يحيط بهما محجران داكنان وكبيران. بعد قليل ظهر الدكتور ثيباليو على الدرج. نزل دون عجلة، منخفض الرأس، وهو يفرك ببطء عنقه.

- مات بسلام. قال. هذا ما يهم الآن.

كانت الظلال على طاولات العمق قد سكنت أيضاً وراح الهمس ينبعث من جديد، وجلأً محزوناً، وكان الموسيقيان يبكيان متعائنين، يولاس بصوت عالٍ، والشاب بلا صوت وكفاه يهتران. جلس الدكتور ثيباليو وعبرت وجهه علامة حزن، أبها الأب: هل تحدثت معه؟ نفى الأب غارثيا بحركة من رأسه. كانت لاسيلباتيكا تداعب جبهته، بينما كان يجهد نفسه للكلام وهو منقبض في كرسيه، لم يعرفه وانبثق من فمه صفير أجش ومرة أخرى جددت نظرتة السبر التائه والمتواصل لما حوله: طوال الوقت «لااستريليا دل نورته»، الشيء الوحيد الذي كان مفهوماً. كان صوته الذي يخنقه بكاء يولاس لا يكاد يسمع.

- كان فندقاً موجوداً هنا عندما كنت شاباً. قال الدكتور ثيباليو، بشيء من الحنين، للاثسونغا، لكنها لم تكن تسمعه. في ساحة لابلاتاده أرماس، حيث يوجد الآن فندق توريساس.

- تقضي الوقت كله في النوم . لا تكاد تستفيد من السفر. تقول لاليتا. والآن لن نتمكن من الوصول.

كانت متكئة على الحافة، وهوامباتشانو على الأرض، وظهره إلى بعض الحبال الملفوفة، يفتح عينيه الوثابتين، حبذا لو كان نائماً، يسمع صوته ضعيفاً ومريضاً، كان يغمض عينيه كي لا يستمر في التقيؤ، يا لاليتا: كان قد أفرغ كل ما عنده، ورغم ذلك كانت به رغبة لذلك. كانت خطيبتها هي، فهو كان يريد البقاء في سانتا ماريا ده نيبيا. تلتهم لاليتا بعينها، ونصف جسدها خارج الحافة، أفق الأسطحة الضاربة للحمرة والواجهات البيضاء والنخيل السامق الذي ينقط المدينة، والأطراف الواضحة الآن تماماً وهي تتحرك في الميناء. يجتهد الناس على السطح في الحصول على مكان في الحافة.

- يا «ثقيل»، لا تكن كسولاً، ستضيع على نفسك أفضل منظر. تقول لاليتا. انظر إلى بلدي ما أكبرها، وما أجملها، يا بيسانو. ساعدني في البحث عن أكيلينو.

ترتسم على وجه هوامباتشانو المنهك صورة ابتسامة، يتلوى جسده وينهض بشق النفس أخيراً. تكتسح السطح حركة نشطة، يتفقد المسافرون أمتعتهم ويلقون بها على أكتافهم، تنتقل عدوى الإثارة إلى الخزائير فتقع، وإلى الدجاج فيرفوق ويخفق بأجنحته مجنوناً، وإلى الكلاب فتروح وتغوى، تنبح، توقف أذانها وتحرك أنيالهها. تخترق الجو صفارة، ويصبح دخان المدخنة الأسود كثيفاً وتمطر فوق الناس نرات من الفحم. لقد دخلوا الميناء وراحوا يتقدمون في أرخبيل من الزوارق ذات المحركات والزُمت المحملة بالموز، والمراكب، يا «ثقيل»، هل كان يراه، لينعم النظر، هناك يجب أن يكون، لكن «التقول» كان ينهار من جديد: اللعنة على هذا الحظ. تأخذه نوبة تقيؤ لكنه لا يتقيأ، يكتفي بأن يبصق بحق. وجهه الدهني محزون وبنفسجي، وعيناه ازدابتا احمراراً. في

الطابق العلوي رجل قصير يصدر أوامره صارخاً ويومئ، وبحاران حافيان وعاريا الجذع يعتلان مقدمة الباخرة ويقفان الحبال نحو الرصيف.

- أنت تضيّع كل شيء، يا «ثقل». تقول لاليتا دون أن تتخلى عن مراقبة الميناء. أعود إلى إيكيثوس بعد طول غياب فتمرض أنت.

مع تمايل المياه ذات اللون الزيتوني تتهدى علب معدنية وصناديق، وصحف ونفايات. إنهم محاطون بالزوارق، التي طلى بعضها حديثاً ورُيّنت سواربها بالأعلام، وكذلك بالمراكب، والرمث والعوامات. على الرصيف وجانب المعبر الخشبي، توجد مجموعة لا شكل لها من الحمالين الذين يزأرون ويزعقون باتجاه الرّكّاب، ينطقون بأسمائهم، يضربون على صدورهم، وجميعهم يحاولون أن يشغلوا المكان الأول أمام المعبر. خلفهم سياج من الأسلاك الشائكة وبعض العنابر الخشبية التي يتزاحم بينها الناس الذين ينتظرون الركاب: لقد كان هناك، يا «ثقل»، ذاك الذي يعتمر قبعة. ما أضخمه! يا له من فتى قوي! لوح له، ويفتح هوامبثشانو عينيه الزجاجيتين، ليحييه، «الثقل»، يرفع يده ويصرخ بوهن. السفينة ساكنة والبحاران يقفزان إلى الرصيف، يعالجان الحبال ويربطانها إلى بعض المرابط الحجرية. الآن يعوي الحمالون، يثبون إلى الرصيف، يحاولون أن يجنبوا انتباه الركاب باللمص والحركات المفتحة. رجل بلباس موحد أزرق وقبعة بيضاء يسير غير مبال أمام ألواح المعبر. الناس خلف الأسلاك الشائكة تهتز أيديهم، تضحك، ووسط الضجة، وفي فترات منتظمة تدوي الصفارة المصممة: أكليينو! أكليينو! أكليينو! تعود الألوان إلى وجه هوامبثشانو وتصبح ابتسامته الآن أكثر طبيعية، وأقل اكتئاباً. يشق طريقه بين النساء المحملات بالحزم، وهو يجر حقيبة منتقخة وكيساً.

- أرايت؟ لقد سمن. تقول لاليتا. وكيف تأنق لاستقبالنا، يا «ثقل». قل

شيئاً، لا تكن ناكراً للجميل، ألا تلاحظ ما فطه من أجلنا.

- بلى، إنه سمين، وارتدى قميصاً أبيض . يقول هومباتشانو بشكل آلي .
أن الأوان، أنا لم أخلق للماء . جسمي لا يتأقلم مع السفر وأنا أتألم .
يستلم رجل اللباس الموحد الأزرق التذاكر، ويسلم على كل مسافر بدفعة
وديةة . القروء، الحمالون المتلهفون، الذين يرتمون فوقه، ينتزعون منه
الحيوانات، والصرر، متوسلين إليه، موبخين له إذا أصر على عدم إفلات
أمتعته . لا يكاد يصل عددهم إلى العشرة، لكن الضجة التي يحدثونها تجعلهم
يبدون مئة، إنهم قنزون، شعرهم مشعث، ضامرون، ولا يرتدون سوى
بنطلونات مغطاة بالرقع ومنهم من يرتدي قميصاً بالياً . يبعدهم هومباتشانو
دفعاً، يا معلم، كما يريد، أبعداً، وينهالون عليه من جديد، اللعنة، خمس
ريالات، يا معلم، وهو، أبعداً، افتحوا الطريق . يتركهم خلفه ويصل إلى
الحاجز وهو يترنح . يخرج أكيلينو للقائه ويتعانقان .
- صار لك شارب . يقول هومباتشانو . ووضعت برينتينا . أه كم تغيرت، يا
أكيلينو .

- هنا ليس كما هناك، على المرء أن يكون حسن الهندام . يبتسم أكيلينو .
كيف كان السفر؟ أنا بانتظاركم منذ هذا الصباح .
- سفر أمك كان موفقاً، كانت سعيدة . يقول هومباتشانو . لكن أنا أصابني
دوار شديد، أمضيته في التقويم . أصدت إلى باخرة منذ سنوات .

- هذا علاجه، جرعة . يقول أكيلينو . ماذا تفعل أمي؟ لماذا بقيت هناك؟
لايتا، الممتلئة، بشعرها الطويل الذي وخطه الشيب، والمسدل على ظهرها،
محاطة بالحمالين . تتحنى نحو واحد منهم، تتحرك شفتاها، وترافقه عن كثب
بفضول يكاد يكون عدوانياً: هؤلاء الخرافيون؟ ألم يكونوا يرون أنها بلا حقيبة؟
ماذا كانوا يريدون، أن يحملوها هي؟ يضحك أكيلينو . يخرج طيبة لينكا، يقدم
سيجارة إلى هومباتشانو ويشعلها له . وضعت لايتا يدها الآن على كتف
الحمال لتكلمه بحدة، فيصغي إليها بوضعية متحفظة، ينفي برأسه ثم يتراجع
بعد دقيقة ويختلط بالآخرين، يبدأ بالقفز والزعيق والجري خلف المسافرين،

تأتي لاليتا باتجاه الأسلاك الشائكة، خفيفة جداً مقترحة الذراعين. بينما تعانق أكيلينو يدخن هومباتشانو ويظهر وجهه بين الدخان الحلزوني مرتاحاً ومطمئناً.

- ها قد صرت رجلاً، ومستزوج، قريباً ستأتيني بأحفاد. تهصر لاليتا أكيلينو وتجبره على التراجع والدوران. ثم كم أنت أنيق، ثم إنك أنيق جداً وقتي نضمر.

- هل تطمان أين مستزلان؟ يقول أكيلينو. عند والدي أميليا، كنت قد بحثت في فندق صغير، لكنهما رفضا، نتنبر لهما هنا سريراً في المدخل. إنهما طيبان: ستصبحون أصدقاء.

- متى العرس؟ قالت لاليتا. أحضرت معي ثوباً جديداً، يا أكيلينو، كي أذنه في هذا اليوم. و«الثقل» عليه أن يشتري ربطة عنق: فالتى كانت عنده قديمة جداً ولم أدعه يحضرها.

- الأحد. يقول أكيلينو. كل شيء صار جاهزاً، دفعنا للكنيسة وسنقيم حفلة صغيرة في بيت والدي أميليا. وغداً سيودعني الأصدقاء. لكنك لم تحك لي عن إخوتي. هل جميعهم بخير؟

- بخير، لكنهم يحلمون بالمجيء إلى إيكييتوس. يقول هومباتشانو. حتى الصغير يريد أن يهرب منك.

خرجوا إلى المالكون وأكيلينو يحمل الحقيبة على كتفه والكيس تحت ذراعه. هومباتشانو يدخن لاليتا تراقب بلهفة الحديقة، والبيوت، والطريق، والسيارات، يا «ثقل»، ألم تكن مدينة جميلة؟ أه كم كبرت. لا شيء من هذا كان موجوداً عندما كنت صغيرة، وهومباتشانو، بلى، وقد فتر وجهه: كانت تبدو لدى النظرة الأولى جميلة.

- ألم تزر هذا المكان عندما كنت في الحرس المدني؟ يقول أكيلينو.

- كلا، فقط في أماكن على الشاطئ. يقول هومباتشانو. ثم في ساننا ماريا

ده نيبيا.

- لا نستطيع الذهاب سيراً، والدا أميليا يعيشان بعيداً. يقول أكيلينو. سنستقل سيارة أجرة.

- أريد أن أذهب ذات يوم إلى حيث ولدت . تقول لاليتا. أما زال بيتي قائماً، يا أكيلينو؟ سأبكي عندما أرى بيلين، ربما البيت موجود وما زال على حاله.

- وعملك . يقول هومباتشانو. دخلك جيد؟

- الآن قليل . يقول أكيلينو . لكن صاحب المديخة سيحسنه لنا في العام القادم، هذا ما وعدنا به. هو الذي أسلفني من أجل تذكرتيكما.

- ما هي المديخة؟ تقول لاليتا. ألا تعمل في مصنع؟

- المكان الذي تُدبغ فيه جلود الضببة . يقول أكيلينو. وتُصنع هناك الأحذية والحقائب. عندما بدأت لم أكن أعرف شيئاً. والآن يكلفونني بتعليم الجدد.

يصيح هو وهومباتشانو بصوت عال لكل سيارة أجرة تمر، لكن ما من واحدة تتوقف.

- لقد ذهب عني دوار الماء . يقول هومباتشانو. لكن بي الآن دوار المدينة، أيضاً لم أعد معتاداً على هذا.

- ما يحدث هو أنه لا يوجد بالنسبة لك مثل سانتا ماريا ده نيبيا. يقول أكيلينو. الوحيدة التي تعجبك في العالم.

- صحيح لم أعد أقدر على العيش في المدينة . يقول هومباتشانو. أفضل البيت الريفى، الحياة الهادئة. عندما قنمت استقالتى من الحرس المدني قلت لأمك إنني سأموت في سانتا ماريا ده نيبيا وسأفي بذلك. سيارة قديمة وتقلية تتوقف أمامهم محدثة دويماً كأنها ستتفكك. يضع السائق الحقبة على السطح ويربطها بحبل. تجلس لاليتا وهومباتشانو في المقعد الخلفي وأكيلينو إلى جانب السائق.

- تحققتُ مما طلبته مني، يا أمي . يقول أكيلىنو . وكلفني ذلك جهداً كبيراً، لا أحد كان يعرف، وكانوا يعرفون، وكانوا يرسلونني، من مكان إلى آخر . لكنني تحققت منه أخيراً .
- ما هو ؟ . تقول لاليتا . تنتظر نشوى إلى شوارع إيكيتوس وابتسامة تعلق شفيتها والتأثر باد في عينيها .
- السيد نيبس . يقول أكيلىنو، ويتصميم فظ يبدأ هومباتشانو النظر عبر النافذة . أطلقوا سراحه في العام الفائت .
- هل أبوه سجيناً كل هذا الوقت ؟ . تقول لاليتا .
- لا بد أنه ذهب إلى البرازيل . يقول أكيلىنو . فالذين يخرجون من السجن يذهبون إلى ماناوس . هنا لا يقدمون لهم عملاً . ولا بد أنه وجده هناك، طالما أنه دليل ممتاز كما يقولون . لكن ربما أنساه بعده الطويل عن النهر مهنته .
- أعتقد أنه نسيها . تقول لاليتا وقد سحرها مرة أخرى مشهد الشوارع الضيقة والمزحمة والأرصعة المرتفعة والواجهات ذات الدرايزينات . على الأقل شيء جيد أنهم أطلقوا سراحه أخيراً .
- ما هي كنية خطيبتك ؟ . يقول هومباتشانو .
- مارين . يقول أكيلىنو . إنها سمراء، وهي تعمل في المدينة أيضاً . ألم تستلما الصورة التي أرسلتها لكم ؟
- سنوات مضت لم أفكر فيها بالأشياء الماضية . تقول لاليتا، وهي تلتفت إلى أكيلىنو . واليوم أرى إيكيتوس من جديد وتكلمني أنت عن أدريان .
- السيارة تسبب لي الدوار أيضاً . يقاطعها هومباتشانو . هل بقي الكثير حتى نصل، يا أكيلىنو ؟

ها هي تشرق بين الكثبان، وخلف تكتة غراو، لكن الظلال ما تزال تخفي المدينة حين يجتاز الدكتور ثيباليو والأب غارثيا الرملة ممسكاً الواحد منهما بذراع الآخر، ويصعدان إلى سيارة الأجرة المتوقفة في الطريق العام. الأب غارثيا، المتفجع بلفاعه ونو القبعة النازلة، له عينان متوقدتان وأنف ضخمة ينمو تحت حاجبين كثين.

- كيف تشعر الآن؟ يقول الدكتور ثيباليو وهو ينفض طية البنطلون.
- مازال رأسي يدور. يهمس الأب غارثيا. لكنني سأنام وسيزول.
- لا يمكن أن تذهب إلى الفراش بهذا الشكل. يقول الدكتور ثيباليو.
سنتناول إفطارنا قبل ذلك وسنشعر بتحسن.

قال الأب غارثيا بحركة امتعاض إنه لن يكون هناك مكان مفتوح في هذه الساعة، لكن الدكتور ثيباليو قطع عليه الطريق بالتقدم من السائق: هل محل أنخليكا ميرثيدس مفتوح؟ نعم، يا معلم، مدم الأب غارثيا، فهي كانت تفتح باكراً، إلى هناك لا، ارتجفت يده أمام وجه الدكتور ثيباليو إلى هناك لا، ارتجفت مرة أخرى وعادت إلى وكر النشاي.

- كفى عن التجديف طوال الوقت. قال الدكتور ثيباليو. ليس المكان هو المهم، بل تكفئة المعدة قليلاً بعد ليلة سيئة. لا تماطل، أنت تعرف أنه لن تغمض لك عين إذا دخلت الآن في الفراش. عند أنخليكا ميرثيدس سنتناول شيئاً ونتحدث.

تعبّر اللفاح نفخة فظة، يتقلب الأب غارثيا في مقعده دون أن يجيب. تدخل السيارة حي بوينوس آيرس، تمر بين شاليهات بحدائق واسعة مصطفة على جانبي الطريق، تدور حول النصب الداكن وتزلق باتجاه كتلة الكاتدرائية المعتمة. تلمع بعض الواجهات البلورية في جادة غراو في الفجر. شاحنة القمامة أمام فندق توريسناس. ورجال يرتدون الأفرولات يتوجهون نحوها محمّلين بالقف. يقود السائق وسيجارة في فمه وسحابة رمادية تجري من شفته

نحو المقعد الخلفي، فيبدأ الأب غارثيا بالسعال. يفتح الدكتور ثيباليو النافذة قليلاً.

- ألم تعد إلى لامانغاتشيريا منذ ليلة السهر على دوميتيلا بارا؟ يقول الدكتور ثيباليو، وما من جواب: الأب غارثيا مغمض العينين ويشخر بشكل مقزز.

- هل تعلم أنهم كانوا يقتلونه في تلك المرة أثناء السهر على الجنمان؟ يقول السائق.

- اسكت، يا رجل. يهمس الدكتور ثيباليو. لو سمعك، لاستشاط غيظاً.
- هل مات عازف القيثارة فعلاً، يا معلم؟ يقول السائق.. أمن أجل هذا استدعوه إلى البيت الأخضر؟

تتطاول جادة (سانتشت ثيرو) مثل نفق، ويلمح بين فترة وأخرى طيف شجيرة في ظل الأرصفة. في العمق يبرز فوق أفق مشوش من الأسطح والرمات تقزح دائري.

- مات هذا الفجر. يقول الدكتور ثيباليو. أم تعتقد أنني والأب غارثيا في عمر يسمح لنا بقضاء الليل عند لاثونغا؟

- هذا لا يتطلب عمراً محدداً، يا معلم. يضحك السائق. أحد زملائي نقل إحدى النساء للبحث عن الأب غارثيا، تلك تدعى لاسيلباتيكا. هو الذي روى لي أن عازف القيثارة كان يموت، يا معلم، يا للفاجعة.

ينظر الدكتور (ثيباليو)، شارداً، إلى الجدران المبيضة بالكس والبوابات الكبيرة بمطارقها، بناء (أل سولاري) الجديد، وشجيرات الخرنوب المغروسة حديثاً على الأرصفة، والهشة والهفافة في مريعاتها الترايبية: أه، كيف كانت تطير الأخبار في هذه البلاد! لكنه كان يجب أن يعلم، يا معلم، ويخفض السائق صوته: هل صحيح ما كان يحكيه الناس؟ ويتجسس على الأب غارثيا من خلال المرأة، هل حقاً أن الأب غارثيا أحرق لعازف القيثارة البيت

الأخضر؟ هل عرفت، بهذه الشائعة، يا معلم؟ هل كان كبيراً كما كانوا يقولون
ومترامي الأطراف؟

- لماذا البيوريون هكذا . يقول الدكتور ثياليو . ألم يتعبوا من تكرار القصة
نفسها ثلاثين عاماً ؟ لقد سمعوا للراهب حياته، يا للمسكين .

- لا تتكلم بالسوء عن البيوريين، يا معلم . يقول السائق . بيورا هي بلدي .
- بلدي أيضاً، يا رجل . يقول الدكتور ثياليو . ثم إنني لا أتكلم وإنما أفكر
بصوت عالٍ .

- لكن لا بد أن شيئاً من الصحة في ذلك، يا معلم . يلح السائق . وإلا فلماذا
تتحدث عنه الناس، لماذا يقولون له حارق، حارق؟

- وما أدراني . يقول الدكتور ثياليو . أو تجرؤ على أن تسأل عن هذا
الأب غارثيا؟

- ومزاجه سيء؟ لا حتى لو جننت . يضحك السائق . لكن قل لي إذا
كانت هذه الشائعة صحيحة أم أنها من ابتداع الناس؟

يمرون الآن في القطاع الجديد من الجادة: الطريق القديم سيلتقي قريباً مع
ذلك الطريق العريض والمزقت، والشاحنات القادمة من الجنوب وتمتد نحو
سولاتا، وتالارا وتومبيس . لم تعد السيارة مضطرة لعبور مركز المدينة بعد
الآن . الأرصفة عريضة ومنخفضة وأعمدة الإضاءة الرمادية مطلية حديثاً .
وهذا الهيكل الإسمنتي المسلح والشاهق جداً ربما صار ناطحة سحاب أضخم
من فندق كريستينا .

- أكثر الأحياء حداثة يتكئ على أكثرها قديماً وفقراً . يقول الدكتور ثياليو .
لا أعتقد أن المانغاتشيريا ستدوم طويلاً .

- سيحدث لها ما حدث للغالينياتورا، يا معلم . يقول السائق . سيدخلون فيها
الجرارات ويننون بيوتاً للبيض مثل هذه .

- وإلى أية شياطين سيذهب المانغاتشيون بما عزمهم وحميرهم . يقول الدكتور
ثياليو . ثم أين سيستطيع الإنسان أن يذهب ويتناول تشبثسا ممتازة في بيورا؟

- سيحزن المانغاشيون كثيراً، يا معلم . يقول السائق . فعازف القيثارة كان إليها بالنسبة لهم. وكان أكثر شعبية من سانتشت ثيرو. أيضاً سيضعون الشموع لليون أنسيلمو وسيصلون لأجله كما صلوا لأجل الزاهدة دوميتيلا.

تغادر السيارة الجادة وتتقدم واثبة وناطة بعنف في زقاق ترابي بين أكواخ القصب. تثير سحابة كبيرة من الغبار وتهيج الكلاب المشردة التي تجري بملاصقتها نابحة، يا معلم: لقد كان المانغاشيون على حق، فالفجر يبرز هنا قبل بيورا. في السنى الأزرق وعبر سحابات الغبار تتميز بعض الأجساد الممتدة فوق حصائر في أبواب المساكن، نساء بجرار على رؤوسهن يقطعن الزوايا، حمير بنظرات ناعسة ولامبالية، أطفال يشدهم هدير المحرك يخرجون من الأكواخ عراة أو بالأسمال ويجرون خلف السيارة، وهم يلوحون بأيديهم، ماذا كان هناك، متثائباً، ماذا كان يحدث: لا شيء، أيها الأب، فقط كانوا قد أصبحوا في أرض محرمة.

- توقّف هنا . يقول الدكتور ثيباليو . سنتمشى قليلاً.

ينزلان من السيارة ويجويان طريقاً متعرجاً، يمسك الواحد بذراع الآخر ويسنده، يرافقهما صببية يقفزون، حارق! يزحفون ويضحكون، حارق! حارق! والدكتور ثيباليو يتظاهر بأنه يلتقط حجراً ويرميهم به: أولاد الخراء، صببية الخراء، لحسن الحظ أنهما كانا على وشك الوصول.

كان كوخ أنخليكا ميرثينس أكبر من الأكواخ الأخرى والأعلام الثلاثة الصغيرة التي ترفرف فوق الواجهة تضيء عليه غنجاً ورشاقة. يدخل الدكتور ثيباليو والأب غارثيا عاطسين، يختاران مقعدين وطاولة من ألواح معشقة، يجلسان. الأرض مرشوشة لتوها تتبعث منها رائحة تراب رطب وكزبرة ويقدونس. لا أحد على الطاولات الأخرى ولا على طاولة المشرب. يستمر الصببية المتجمعون في الباب، بالصراخ، يمتون رؤوسهم المتسخة والمنفوشة الشعر، دونيا أنخليكا! أنزعتهم هزيلة، دونيا أنخليكا! يضحكون مكشّرين عن أسنانهم. يفرك الدكتور ثيباليو يديه متفكراً والأب غارثيا ينظر، بين التثاؤب

والتأوب، بطرف عينه إلى الباب. تأتي أنخيليك ميرثيس أخيراً نضرة، ممثلة، دارة فستانها ترسم فتائل فوق المقاعد الصغيرة. ينهض الدكتور ثيباليو، دكتور، يفتح لها ذراعيه، يا للفرحة، يا للمعجزة أن تراه هنا في مثل هذه الساعة، شهور كثيرة مضت لم يأت فيها وهي في كل يوم كانت تصبح فتاة أشهى، أنخيليك، ماذا كانت تفعل كي لا تشيخ؟ ما السر؟ أخيراً توقفا عن الريب، أنخيليك، ألم تشاهدي من أحضر لها معه؟ ألم تعرفه؟ يضم الأب غارثيا قنميه ويخفي يديه، كأنه خائف، صباح الخير، يجار اللفاح بتجهم وتتحرك القبعة لثانية. يا مريم العذراء! إذا كان الأب غارثيا. تتحنى أنخيليك ميرثيس ويدها على قلبها وعيناها طائشتان، أيها الأب، كم أنا فرحة لرؤيتك، هو لم يكن يعرف، قام بعمل عظيم بإحضاره، وترتفع يد ليس فيها إلا العظام وعدم ثقة وبدون تأثير نحو أنخيليك ميرثيس، وتراجع قبل أن تقبلها.

- هل يمكنك أن تعدي لنا شيئاً ساخناً، أيتها الصديقة؟ . يقول الدكتور ثيباليو . نكاد نموت جوعاً، قضينا الليل سهراً.

- طبعاً، طبعاً، في الحال . تتظف أنخيليك ميرثيس الطاولة بفستانها . مرق وبيكيو؟ نبيذ زهري أيضاً؟ لا، ما زال الوقت باكراً لهذا، سأحضر لكما بعض العصير وقهوة بالحليب. لكن، لماذا لم تقاما حتى الآن، يا دكتور؟ إنك تقسد لي أخلاق الأب غارثيا.

دمدمة ساخرة تخرج من تحت اللفاح وتتصب القبعة وتنظر عينا الأب غارثيا الغائرتان إلى أنخيليك ميرثيس، فتحجم عن الابتسامة وتلتفت بوجهها الكامد إلى الدكتور ثيباليو، الذي وضع نقنه بين إصبعين وكانت تطلوه الآن علائم حزن: أين كنتما، يا دكتور؟ صوتها مهيب ويدها تمسك بطارة الفستان على بعد مليمترات من الطاولة وقد وقفت بلا حراك: عند لاشونغفا، يا صديقة، وتطلق أنخيليك ميرثيس صرخة صغيرة، عند لاشونغفا؟ تسحب، عند لاشونغفا؟ تغطي فمها.

- بلى، أيتها الصديقة، لقد مات أنسيلمو. يقول الدكتور ثيباليو . إنه خبر محزن بالنسبة لك، أعرف ذلك. وبالنسبة لنا، جميعاً. ماذا نفع، هكذا هي الحياة.

- دون أنسيلمو؟ تتلعم أنخيليك ميرثيس، فاعرة الفم، مائلة الرأس، هل مات، أيها الأب؟ ويخفق أنفها سريعاً جداً، وتظهر في خديها انبعاجات، الصبية في الباب راحوا يركضون، وهي تهز رأسها، تلم على نزاعها، مات، يا دكتور؟ تبكي.

- الجميع سيموتون . يزمجر الأب غارثيا، وهو يضرب الطاولة، يفتح اللفاح ويشوه ارتعاش فمه، ووجهه، المحقق والذي لم يخلق . أنت، أنا، الدكتور ثيباليو، سيأتينا الدور جميعاً، لا أحد ينجو منه.

- اهدأ، يا رجل . يعانق الدكتور ثيباليو أنخيليك ميرثيس، التي تجهد ضاغطة فستانها على عينيها . اهدأي أنت أيضاً، يا صديقتي فالأب غارثيا أذنته نوية عصبية شديدة، ويفضل ألا تكلميه، إلا تسألينه شيئاً . هيا، حضري لنا شيئاً ساخناً، لا تبكي.

توافق أنخيليك ميرثيس دون أن تكف عن البكاء وتبتعد ووجهها بين يديها. تُسمع في الغرفة الأخرى وهي تحدث نفسها، تتهدد. التقط الأب غارثيا اللفاح، لفه من جديد على عنقه، ونزع قبعته: خصلات الشعر المجعدة والرمادية التي على صدغيه، لا تغطي إلا نصف جمجمته الملساء والمنمشة. يسند نقه إلى قبضته وتجعدة مفرطة في التأمل تبرز عروق جبهته، لحيته النامية تضفي على خديه مشهد شيء متآكل ومتسخ. يشعل الدكتور ثيباليو سيجارة. صار الوقت نهاراً، والشمس التي تغمر المحل وتذّهب الأكوخ جفّت الأرض. نباب أزرق طنان يغزو الجو. في الخارج تزداد الأصوات والنباح والثغاء والصهيل والجلبة المنزلية تدريجياً، وإلى جانبها راحت أنخيليك ميرثيس تصلي، تهمس باسم الناسكة ممزوجاً بابتهالات إلى الله والعذراء، يا دكتور: هذه المسترجلة كانت قد فعلت هذا عمداً.

- ما الداعي لذلك . يتمم الأب غارثيا . ما الداعي لذلك، يا دكتور؟
- ماذا يهم . يقول الدكتور ثيباليو وهو يرى الدخان يتلاشى . ثم ربما لم يكن عمداً، يمكن أن تكون مصادفة.
- هراء، استدعتنا، أنا وأنت، لشيء ما، يقول الأب غارثيا . أرادت أن تخرجنا.
- يهز الدكتور ثيباليو كتفيه. يلتقي شعاع شمس وسط جبينه ونصف وجهه مذهّب ولامع، النصف الآخر رصاصي قمري. عيناه غارقتان في ضباب ناعم.
- ليس عندي شيء من الفطانة . يقول بعد برهة . لم يخطر لي ولا حتى التفكير في هذا. لكن منك حق، ربما أرادت أن تجعلنا نمر في لحظة حرجة. لاثسونغا امرأة غريبة. كنت أعتقد أنها لا تعرف.
- يلتفت إلى الأب غارثيا فنكتسب بقعة الظل، ما الذي لا تعرفه. ينظر الأب غارثيا إلى الدكتور شزراً.
- أنا الذي جئت بها إلى العالم . يرفع الدكتور ثيباليو رأسه فيشتعل، تبرز صلته براءة . من الذي يمكن أن يكون قد قال لها؟ أنسلمو لا، أنا متأكد. فهو كان يعتقد أن لاثسونغا تعيش مخدوعة.
- في هذه البلدة الحقيبة التي تعيش على النميمة ينكشف كل شيء في النهاية . يدمم الأب غارثيا . حتى لو بعد ثلاثين سنة يُعرف كل ما يحدث.
- لم تأتِ قط إلى عيانتني . يقول الدكتور ثيباليو . كما لم تستدعني لشيء، وتُفعل ذلك الآن. إذا كانت تريدني أن أعيش لحظة حرجة، فقد فعلت. جعلتني أعيش كل شيء دفعة واحدة.
- موضوعك أنت واضح . يدمم الأب غارثيا وكأنه يكلم الطاولة . هذا رأى موت أمي فليز موت والدي أيضاً. لكن لماذا تتأدبيني أنا، هذه المسترجلة؟
- ماذا يعني هذا؟ . يقول الدكتور ثيباليو . ماذا جرى لها؟

- تعال معي، يا دكتور. يأتي الصوت من اليمين، ويدوي في أعلى الدهليز.
الآن، تماماً كما أنت، يا دكتور، لا يوجد وقت.
- هل تعتقد أنني لا أعرفك. يقول الدكتور ثياليو. اخرج من هناك، يا
أنسيلمو. لماذا تختبئ؟ هل جننت، يا رجل؟
- تعال، يا دكتور، بسرعة. صوت منكمسر في ظلمة الدهليز، يردده
الصدى في الأعلى.. إنها تموت بين يدي، يا دكتور، تعال.
يرفع الدكتور ثياليو المصباح، يبحث عنه فيجده أخيراً غير بعيد عن
الباب: ليس سكراناً ولا مهتاجاً، وإنما متشنج خوفاً. عيناه تتراقصان بجنون في
محجريهما المنتفخين وظهره ملتصق بالجدار كما لو أنه يريد أن يهوي به.
- زوجتك؟ يقول الدكتور ثياليو ذاهلاً. زوجتك، يا أنسيلمو.
- يمكن أن يكون كلاهما ميت، لكنني لا أقبل ذلك. يضرب الأب غارثيا
على الطاولة فيصر مقعده. لا أستطيع أن أقبل الوصمة وبعد مئة عام سيبدو
لي عاراً.

فتح باب الدهليز، يتراجع الرجل كما لو أنه رأى شبحاً يهرب من مخروط
نور المصباح. الهيئة المفلعة بدثار أبيض تسير عدة خطوات في الفناء،
يتوقف قبل الوصول إلى الدهليز: من كان هناك؟ لماذا لم يدخل؟ كان هو،
ماما، ينزل الدكتور ثياليو المصباح، يخفي جسمه أنسيلمو: كان عليه أن
يخرج لحظة.

- انتظرني في المايكون. بهمس. سآذهب لأحضر حقيبتني.
- ابدأ بتناول المرق. تضع أنخيليكاميرثيدس على الطاولة قرعتين بخرج
منهما البخار. إنه مملح، لحظة وأتيكما بالبيكو.
لم تعد تبكي، لكن صوتها متهدج وقد وضعت معطفاً أسود على كتفيها.
تبتعد باتجاه المطبخ وفي مشيتها الآن شيء من التبختر. يحرك الدكتور
ثياليو المرق بشروده، يرفع الأب غارثيا القرعة بأربعة أصابع، يقربها من أنفه
ويستنشق العبق الساخن.

- أنا أيضاً لم أفهمه أبداً . يقول الدكتور ثيباليو . أنا أيضاً اعتقدت في ذلك الوقت أنه كان معيباً . يقول الدكتور ثيباليو . والآن وقد أصبحت عجوزاً ورأيت ماء كثيراً يمر في النهر لا يبدو لي أنه معيب إطلاقاً . لو كنت شاهداً في تلك الليلة لما كرهت المسكين أنسيلمو كل هذه الكراهية، أقسم لك، أيها الأب غارثيا .

- سيعاقبك الله، يا دكتور . يتباكى الرجل بينما يجري مصطماً بأشجار ومقاعد ودرابزينات المالكون . سأعمل ما تطلبه مني، سأعطيك كل مالي، يا دكتور، حياتي كلها، يا دكتور .

- أتريد أن تثير عواطفني؟ . يمدم الأب غارثيا، وهو ينظر إلى الدكتور ثيباليو، متمرساً خلف القرعة التي ما يزال يشمها . هل علي أن أكي؟
- الحقيقة أن شيئاً من هذا لم يعد يهم أبداً . يبتسم الدكتور ثيباليو . إنها أشياء ذهبت أدراج الرياح، يا صديقي، لكن وبسبب لاثشونغيثا عانت واستقرت في رأسي . إنني أنكلم عنهما كي أزيحهما عن كاهلي . لا تأخذ بكلامي .

يتذوق الأب غارثيا المرق الحار برأس لسانه، ينفخ، يشرب جرعة، يتجشأ، يمدم باعتذار ويتابع الشرب على جرعات وهو ينفخ . بعد قليل تعود أنخليكا ميرثيدس بطبق كبير فيه بيكو وعصير اللوكوما . يغطي رأسه بالمعطف، يا دكتور، اليس لنذيذاً؟ وتجهد نفسها كي يكون صوتها طبيعياً، يا صديقة، لنذي جداً . إنه ساخن قليلاً ولكن ما أن يكاد يبرد حتى يتاوله، وكم كان مظهر البيكو الذي أعتته لهما رائعاً . الآن كانت تُعدُّ لهما القهوة وليس عليهما إلا أن ينادياها إذا لزمهما أي شيء، أيها الأب . يهزهز الدكتور ثيباليو القرعة بإصبعه، يتفحص بنقطة سطحها الدائري العكر الذي يتذبذب، والأب غارثيا بدأ ينتش اللحم ويمضغه بقوة . وفجأة يتوقف، هل الجميع علموا به؟ ويمكث مفتوح الفم: الهالكات والهالكون، الذين كانوا هناك؟

- هن كن على علم بالنشيد منذ البداية، وكما هو منطقي . يتمم الدكتور ثيباليو، وهو يداعب حافة القرعة .، لكنني لا أعتقد أن أحداً آخر علم بالأمر،

كان هناك درج صغير يؤدي إلى الفناء الخلفي، ومن هناك صعدنا إلى البرج، الذين كانوا في القاعة لم يرونا، وكانت تصل جبلية، ولا بد أن أنسلمو أعطاهن تعليمات كي يلهين الناس فلا يسمح لهم أن يشتقوا ما كان يحدث. - آه كم كنت تعرف المكان جيداً . يمضغ الأب غارثيا من جديد . لم تكن المرة الأولى التي تذهب فيها، حسب ما أتصور .

- ذهبت عشرات المرات . يقول الدكتور ثيباليو ووميض كلمح البصر في عينيه . كان عمري ثلاثين سنة وقتذاك . زهرة العمر، يا صديقي .

- قذارات، حماقات . يمدم الأب غارثيا لكن يده تخفض الشوكة التي كان قد حملها إلى فمه . ثلاثون سنة؟ كان لي العمر نفسه تقريباً .

- طبعاً، فحن أبناء جيل واحد . يقول الدكتور ثيباليو . كذلك أنسلمو رغم أنه يكبرنا قليلاً .

- لم يبق من تلك الجيل إلا القليل . يقول الأب غارثيا بظرافة فجّة . قبرناهم جميعاً .

لكن الدكتور ثيباليو لا يصغي إليه . إنه يحرك شفتيه، يطرف بعينيه، يهز القرعة إلى أن يكب قطرات من المرق على الطاولة، يا رجل، كيف كان سيتصور، حتى عندما رأى الكتلة في السرير لم يحزر، يا رجل، ومن كان سيحزر!

- لا تبدأ بالكلام لنفسك . يمضغ الأب غارثيا بصعوبة . لا تنس أنني هنا . ما الذي لا يمكن تصوّره؟

- أن زوجته كانت تلك المخلوقة . يقول الدكتور ثيباليو . عندما دخلت رأيت عند رأس السرير امرأة بدينة حمراء الشعر كانوا يدعونها لوثييرناغا، ولم تبد لي مريضة، وكنت سأقوم بمزحة فرأيت الكتلة والدم . لا يمكن أن يعرف، يا صديقي، على الملاحف، والأرض، الغرفة كلها كانت بقعة خالصة . كان يبدو وكأنهم نجحوا أحداً ما .

الأب غارثيا لا ينتش وإنما يدق بضرارة قطع اللحم ويدخلها في الشوكة ويلويها على الطبق. لا تصعد القطعة التي تقطر إلى فمه، أكانت مخلوقة تتزف؟ تبقى مرتعدة وهي ترتجف في الهواء، مثل الطفلة؟ خيط من لعاب، كان يهبط على نفته، الأبله، ليتركها، لم تكن الساعة ساعة قُبل، كان يخنقها، كان يجب حملها على الصراخ، غبي: يُفضّل أن يضررها. لكن خوسيفينو يحمل إصبعاً إلى فمه: لا يريد صراخاً، ألم تكن ترى أن هناك جيراناً كثيرين؟ ألم تكن تسمعهم يتحدثون؟ كأنها لم تكن تسمعهم، وتصرخ لاسيلباتيكا بقوة أكبر، ويخرج خوسيفينو مندبلة، ينحني فوق السرير ويسد لها فمها. تستمر دونيا سانتوس في تقليبها دون أن تتبدل، مناورة بفخذيها الأسمرين بمهارة. وهنا رأى وجهها، يا دون غارثيا، وبدأت ترتعد ساقيه ويداه، نسي أنها تموت، وأنه كان هناك ليحاول إنقاذها، بلى، بلى، الشيء الوحيد الذي كان يشده هو النظر إليها، لا شك في ذلك: كانت لا أنتونيا، يا إلهي: دون أنسيلمو لم يعد يقبلها، وانكبّ عند قدم السرير، يقدم له المال من جديد، يا دكتور ثيباليو، حياتها، أنقذها لي! وخاف خوسيفينو، يا دونيا سانتوس، ألم تمت؟ حذاري أن تقتليها، يا دونيا سانتوس وهي صنة: أغمي عليها، ليس إلا، وكان هذا أفضل لها، لن تحدث جلبة فينتهي بسرعة، ليبلل جبهتها الصغيرة بالخرقة، ناوله الدكتور ثيباليو المغسل بعنف، ليغزوا ماء أكثر، يا أبله، تتباكي بدل أن تساعد. إنه يرتدي القميص، المفتوح الياقة، وهو الآن متزن تماماً، أنسيلمو لا يستطيع أن يسند المغسل، يسقط من بين يديه، يا دكتور، يجب ألا تموت منه، يتلقف المغسل ويصل به إلى الباب حابياً، يا دكتور، إنها حياتها، ويخرج.

- اللعنة على العاهرة التي ولدتك. يتمم الدكتور ثيباليو. ما هذا الجنون، يا أنسيلمو؟ كيف استطعت، يا رجل؟ ما هذا العمل الوحشي الذي ارتكبته، يا أنسيلمو؟

- ناولني الكيس. تقول سانتوس. الآن اسقها مئة فتستيقظ. خذ هذا، اطمره جيداً، فلا يراك أحد.

- هل كان هناك من أمل؟ . يمدم الأب غارثيا، وهو بطرق قطع اللحم، ويخزها، ويجرها من جانب إلى آخر . هل كان من المستحيل إنقاذ الطفلة؟
- ربما في المشفى . يقول الدكتور ثيباليو . لكن كان من غير الممكن تحريكها. اضطررت إلى أن أجري لها العملية في الظلمة تقريباً، وأنا أعرف أنها كانت تموت. وكان إنقاذ لاشونغيئا أقرب إلى المعجزة، فقد ولدت في الوقت الذي كانت فيه الأم ميتة.
- معجزة، معجزة . يمدم الأب غارثيا . كل شيء معجزة هنا. أيضاً كانوا يقولون معجزة حين مات آل كيروغا وأنقذت الطفلة. وكان من الأفضل لها لو أنها ماتت.
- ألا تتذكر الفتاة وهي تمر في الميدان؟ . يقول الدكتور ثيباليو . أنا فعلاً يبدو لي دائماً أنني أراها هناك جالسة، وهي تتشمس. لكنني هذه الليلة شعرت بحزن على أنسيلمو أكثر مما على أنتونيا.
- لم يكن يستحق . يشخر الأب غارثيا. لا حزناً، ولا تأثراً ولا أي شيء. كل هذه المأساة هي من مسؤوليته.
- لو أنك رأيتَه وهو يتخبط ويقبل قدمي كي أنقذ الفتاة لكنت رقت له أيضاً . يقول الدكتور ثيباليو . هل تدري أنه لولا صديقتي لماتت معي لاشونغيئا أيضاً؟ هي ساعدتني على رعايتها.
- يخيم عليهما الصمت والأب غارثيا يحمل قطعة من اللحم إلى فمه، لكنه يقوم بحركة تعبر عن القرف ويفلت الشوكة. تعود أنخيليكيا ميرثيدس بإبريق آخر من العصير، تأتي كاشة الذباب بيدها.
- ألم تسمعي، يا صديقة؟ . يقول الدكتور ثيباليو . إننا نتذكر الليلة التي ماتت فيها لا أنتونبيئا. صارت تبدو كالحلم، أليس كذلك؟ كنت أقول للأب غارثيا إنك ساعدتني في إنقاذ لاشونغا.
- تنظر إليه أنخيليكيا ميرثيدس بجديّة تامة، دون ذهول ولا دعر، وكأنها لم

تفهم.

- لا أنكر شيئاً، يا دكتور . تقول بصوت منخفض . أخيراً صرْتُ طاهية، لكنني أيضاً لا أتذكر . يجب عدم التحدث عن هذا الآن . سأذهب إلى صلاة الثامنة لأصلي لأجل دون أنسيلمو، كي يرتاح في قبره . ثم سأذهب بعدها للسهر على جثمانه .

- كم كان عمرك . يدمم الأب غارثيا . لا أتذكر كيف كنت . أنكر أنسيلمو والهالكات، لكنني لا أتذكرك .

- كنت صغيرة، أيها الأب . يد أنخيليكيا ميرثيدس مروحة سريعة وفعالة: ما من ذبابة تقرب من البيكو ولا من العصير .

- لم تكن تتجاوز الخامسة عشرة . يقول الدكتور ثياليو . وكم كنت جميلة، يا صديقة . كانت عيوننا جميعاً عليك، وأنسيلمو مكانكم، إنها ليست قاطنة، تنظر ولا تلمس، وكان يردك كابنته .

- كنت فتاة صغيرة ولم يكن الأب غارثيا يريد أن يصنقني . بريق خبيث ينعش عيني أنخيليكيا ميرثيدس، لكن وجهها دائماً قناع جهم . كنت أذهب للاعتراف مرتعدة وأنت دائماً أخرجني من بيت الشيطان ذلك، فأنت الآن هالكة . ألا تذكر هذا أيضاً، أيها الأب؟

- ما يقال في كرسي الاعتراف سر . يدمم الأب غارثيا بنوع من البحيح المتشفي . احتفظي بهذه الحكايات لنفسك .

- بيت الشيطان . يقول الدكتور ثياليو . أما زلت تعتقد أن أنسيلمو كان الشيطان؟ هل حقاً كانت له رائحة كبريت أم أن ذلك كان لتخويف الأتقياء؟
تبتسم أنخيليكيا ميرثيدس والدكتور، وبعد لحظة يدوي، تحت اللفاح، شيء خشن وغير منتظر وهجين مثل نوبة سعال وضحك خائفة .

- في ذلك الوقت كان الشيطان مقتصراً على البيت الأخضر . يقول الأب غارثيا متتحناً . الشيطان الآن في كل مكان . في بيت المسترجلة وفي الشارع، وفي دور السينما، صارت بيورا كلها بيتاً للشيطان .

- لكن لامانغاتشيريا لا، أيها الأب . تقول أنخيليكاً ميرثيس . فهو لم يدخل إلى هنا أبداً، لا تسمح لهن والقديسة دوميتيلا تساعدنا على ذلك .
- لم تصبح قديسة بعد . يقول الأب غارثيا . أما كنت ستعدين لنا قهوة؟
- بلى، إنها جاهزة . تقول أنخيليكاً ميرثيس . ها أنا ذاهبة لإحضارها .
- منذ عشرين سنة على الأقل لم أشعر بالأرق . يقول الدكتور ثيباليو .
والآن ذهب عني النوم كلياً .

ما أن دارت أنخيليكاً ميرثيس نصف دورة حتى أقبل النباب وحطّ فوق البيكو، ورشه بالنقاط السوداء الداكنة . من جديد يحرم صببية بالأسمال أمام الباب ويظهر الناس من خلال القصب وهم يعبرون ويتكلمون بصوت عال ومجموعة من العجائز يتشمسون أمام الكوخ المقابل .
- هل كان يشعر على الأقل بالنعم؟ . يدمم الأب غارثيا . هل انتبه إلى أن تلك الصغيرة ماتت بسببه؟

- خرج يجري خلفي . يقول الدكتور ثيباليو . كان يتقلب على الرملة، وكأنه يريد مني أن أقتله . حملته إلى بيتي، أعطيته حقنة وسقرته . لا أعرف شيئاً، لم أر شيئاً، اذهب عني . لكنه لم يذهب، بل نزل إلى النهر وبقي هناك ينتظر الغاسلة، ماذا كان اسمها؟ تلك التي ربت أنتونيا .
- كان دائماً مجنوناً . يدمم الأب غارثيا . أمل أن يكون قد تاب وأن الله قد غفر له .

حتى لو لم يتب فإن ما عاناه من عذاب كان عقاباً كافياً . يقول الدكتور ثيباليو . ثم إنه يجب أن يعرف ما إذا كان يستحق العقاب فعلاً . وماذا لو لم تكن أنتونيا ضحيته وإنما شريكته؟ وماذا إذا كانت قد عشقته؟
- لا تتقوه بحماقات . يدمم الأب غارثيا . أكاد أصدق أنك خرف .
- إنه شيء ساءلت نفسي عنه دائماً . يقول الدكتور ثيباليو . كانت القاطنات يظنّ إنه كان يدلّ لها وإن الفتاة كانت تبدو راضية مسرورة .

- الآن صار يبدو لك عادياً؟ . يمدم الأب غارثيا. يسوق عمياء، يدخلها في بيت دعارة، ويحبها. عمل جيد أنه قام بذلك؟ من أكثر الأمور عادية في العالم؟ أكان من الواجب مكافأته على هذا الجميل؟

- لا شيء عادي فيه . يقول الدكتور. لكن لا ترفع صوتك كثيراً، حذار من الربو. كل ما أقوله هو من يدري ، إذا كانت تفكر هي؟ أنتونيا لم تكن تعرف الخير من الشر، ثم وبعد كل شيء، الفضل لأنسيلمو في أنها كانت امرأة كاملة. دائماً كنت أعتقد...

- اسكت، يا رجل! . يكش الأب، غارثيا الذباب صفعاً بيده فيهرب مذعوراً . امرأة كاملة! الراهبات غير كاملات،؟ ونحن الرهبان غير كاملين لأننا لا نقوم بأعمال قنرة؟ لا أسمح لك بمثل هذه الهرطقات التافهة.

- أنت تقابل أشباحاً . يتنم الدكتور ثياليو . فقط أردت أن أقول إنني أعتقد أن أنسيلمو أحبها فعلاً وأنه من الممكن أن تكون قد أحبته أيضاً .
- يزعجني هذا الحديث . يمدم الأب غارثيا. لن نتفق، ولا أريد أن أتساجر معك.

- لا ينقصنا إلا هذا . يتمم الدكتور ثياليو . انظر من جاء . كانوا المنيعين، لم يكونوا يحبون العمل وإنما فقط السكر، فقط القمار، كانوا المنيعين ويأتون وقد جاؤوا لتناول الفطير، عجباً: من كان هنا!
- هيا بنا . يمدم الأب غارثيا حنقاً . لأريد أن أمكث مع قطاع الطرق هؤلاء.

لكن ابنتي آل ليون لا يفصحان له المجال للزهوض وينقضان عليه يضريان أكفاً بأكف، أيها الأب غارثيا، شعرهما متشابك، أيها الأب، عيونهما مليئة بالتيارات الليلية. يثبان حول الأب هارثيا، اليوم سيسقط تلج فوق بيورا وليس رماً، يحاولان أن يصافحاه، كانت معجزة المعجزات، يريتان له. عيد بالنسبة للمانغاتشين أن يستقبلوا هذه الزيارة. إنهما بقميصين داخليين، بلا جوارب، وبأحذية محلولة الرباطات، تصدر عنهما رائحة تعرق والأب غارثيا، القابع

خلف لفاعه، تحت القبة التي وضعها بكل سرعة، يمكث بلا حراك وينظر بثبات إلى البيكو الذي هاجمه الذباب من جديد.

- لا أَرْضَى أن تنتقصا من احترامه . يقول الدكتور ثيباليو . انتبها إلى لسانيكما، أيها الفتيان . إنه رجل دين وعجوز .

- لكن لا أحد ينتقص من احترامه، يا دكتور . يقول المونو . إننا في منتهى السعادة لرؤيته هنا . كلمة شرف، لا نريد منه إلا أن يمد يده لنا .

- لم يُعرف قط أن مانغاتشيا أخلّ بالضيافة، يا دكتور . يقول خوسيه . صباح الخير يا دونيا أنخيليكما . علينا أن نحتفل بهذا الحدث . أحضري لنا شيئاً كي نشرب النخب مع الأب غارثيا . سنتصالح معه .

تأتي أنخيليكما ميرثيس، جدية تماماً، تحمل في يديها فنجانين من القهوة .
- لماذا هذا الغضب على وجهك، يا دونيا أنخيليكما؟ . يقول المونو . ألسنت مسرورة بهذه الزيارة؟

- أنتما أسوأ من في هذه المدينة . يدمم الأب غارثيا . خطيئة بيورا الأصلية . حتى لو قتلتماني لن أتناول معكما شيئاً .

- لا تعصب، أيها الأب غارثيا . يقول المونو . نحن لا نهزأ منك، فعلاً نحن سعيدون لأنك عدت إلى مانغاتشيريا .

- مفسدان، صطوكان . بدأ الأب غارثيا هجوماً جديداً على الذباب . بأي حق تكلماني، أيها الهالكان!

- انظر، يا دكتور ثيباليو . يقول المونو . من ينتقص من قدر من؟
- اتركوا الأب بسلام . تقول أنخيليكما ميرثيس . لقد مات دون أنسيلمو والأب والدكتور كانا يرعيانه، ولم ينما طول الليل .

تترك الفنجان الصغير على الطاولة، تعود إلى المطبخ، وعندما يختفي طيفها في الغرفة التي في العمق لا شيء يُسمع إلا رنين الملاعق ورشف قهوة الدكتور وتتفص الأب غارثيا الشاق . ينظر ابنا آل ليون الواحد منهما إلى الآخر كأنهما في دوار .

-ها أنتما تريان، أيها الفتيان . يقول الدكتور ثيباليو . هذا اليوم ليس يوم مزاح.

- مات دون أنسيلمو . يقول خوسيه . لقد فقدنا عازف القيثارة، يا المونو .
- كان من خيرة الرجال، يا دكتور . بيتسم المونو . كان فناناً عظيماً يا دكتور، فخر بيورا، وأفضل الرجال جميعاً . قلبي يتمزق، يا دكتور ثيباليو .
- كان أباً لنا جميعاً، يا دكتور . يقول خوسيه . لا بد أن بولاس والشاب يموتان حزناً الآن، يا المونو . إنهما تلميذاه، يا دكتور، كانا الظفر ولحمه مع عازف القيثارة . أنت لا تدري كيف كانا يرعيانه، يا دكتور .
- لم تكن على علم بشيء، أيها الأب غارثيا . يقول المونو . ونطلب منك المعذرة على ما صدر منا من مزاح.

- وهل مات، فجأة؟ . يقول خوسيه . البارحة كان في أحسن حال . الليلة الفائتة تناولنا العشاء معه هنا، وكان يضحك ويمزح .
- أين هو، يا دكتور؟ . يقول المونو . علينا أن نذهب لنراه، يا خوسيه، وعلينا أن نستعير ربطات عنق سوداء .

- إنه هناك، حيث مات . يقول الدكتور ثيباليو . عند لاثونغا .
- وهل مات في البيت الأخضر؟ . يقول المونو . وصل بهم الأمر إلى أنهم لم ينقلوا عازف القيثارة إلى المستشفى؟
- هذا زلزال بالنسبة للامانغاتشيريا، يا دكتور . يقول خوسيه . لن تبقى على حالها بعد عازف القيثارة .

يهزان رأسيهما مفعوجين، غير مصدقين، ويتابعان نجواهما وحواراتهما، بينما يشرب الأب غارثيا قهوته دون أن يزيح الفئجان عن شفتيه، اللتين لا تكادان تتجاوزان طرف اللفاعة . انتهى الدكتور ثيباليو من تناول قهوته، وتلعب الآن بالملعة، يحاول أن يبقي عليها متوازنة على رأس إصبعه . يسكت ابنا آل ليون أخيراً، وحين تدخل أنخيليكيا ميرثيدس بعد برهة، تجدهما يدخنان بصمت، وهما متضامقان ومتجهمان أيضاً .

-لذلك لم يأت ليتوما . يقول المونو. لا بد أنه يقف بجانب لاثشونغيتا.
-كانت تتظاهر بأنها لا مبالية . يقول خوسيه . لكنها أيضاً تتزف دماً في
داخلها، إلا تعتقدين ذلك، يا دونيا أنخيليكاً؟ فالدم يحن للدم.
- لا بد أنها محزونة، ربما . تقول أنخيليكاً ميرثيدس . لكن أحداً لا يعرف
كيف تفكر هذه المرأة أبداً. أتراها كانت ابنة بارة؟
- لماذا تقولين هذا، يا صديقة؟ . يقول الدكتور ثيباليو .
- أتستحسن أنت أنها كانت تشغل والدها مستخدماً عندها؟ . تقول أنخيليكاً
ميرثيدس ..

- الدكتور ثيباليو يستحسن كل شيء . يدمم الأب غارثيا. فقد اكتشف في
شيخوخته أن كل شيء مستحسن في العالم.
- تقول هذا ساخراً . يبتسم الدكتور ثيباليو . لكنك تؤمن جيداً، أن في هذا
شيئاً من الصحة.

- لو لم يكن دون أنسيلمو يعزف لمات، يا دونيا أنخيليكاً . يقول المونو. إن
الفنانين يعيشون من فنهم. ما السوء في أنه كان يعزف هناك؟ كانت
لاثشونغيتا تكفح له جيداً.

- تناول قهوتك بسرعة، يا صديقي . يقول الدكتور ثيباليو . داهمني النعاس
فجأة، عيناى تغمضان وحدهما.

- ها قد وصل ابن عمنا . يقول خوسيه . أي حداد هذا الذي على وجهه.
يدخل الأب غارثيا أنفه في الفججان ويطلق زمجرة خرساء حين تتحني
لاسيلباتيكا، وحذاؤها، في يدها، وعيناها مزينتان تماماً، فمها بلا أحمر شفاه،
نحوه وتقبل يده. ينفض ليتوما الغبار الذي يوسخ ببلته الرمادية، وربطة عنقه
ذات البقع الخضراء وحذاءه الأصفر. شعره أشعث ويلمع من الفازلين، أساريه
بارزة ويحيي الدكتور ثيباليو بجديّة تامة.

- سيسهرون على جثمانه هنا، يا دونيا أنخيليكاً . يقول . كلفتني لاثشونغيتا
بان أبلذك ذلك.

- في بيتي؟ . تقول أنخيليك ميرثيس . ولماذا لا يتركونه حيث هو؟ لماذا سيحركون المسكين.

- وهل تريدان أن يسهروا عليه في بيت دعاة؟ . يشخر الأب غارثيا. أين رأسك، أنت؟

- أنا سعيدة لتقديم بيتي، أيها الأب . تقول أنخيليك ميرثيس : المسألة أنني اعتقدت أن التنقل بالمرحوم من هنا إلى هناك إثم . أليس انتهاكاً للمقدسات؟
- وهل تعرفين أنت معنى انتهاك المقدسات؟ . يدمم الأب غارثيا. لا تتكلمي بما لا تفهمين.

- بولاس والشاب ذهباً لشراء التابوت ولتسوية أمر المقبرة . يجلس ليتوما بين ابني آل ليون . فيما بعد سيأتون به؟ ستدفع لآتشونغا كل شيء، يا دونيا أنخيليك، ثمن المشروبات الروحية والأزهار، وتقول إن المطلوب منك هو تقديم البيت فقط.

- يبدو لي، أنا، أن السهر عليه في لامانغاثيريا فكرة حسنة . يقول المونر: فقد كان مانغاثياً وعلى إخوته أن يسهروا عليه.

- وتود لآتشونغا أن تؤدي القديس بنفسك، أيها الأب غارثيا . يقول ليتوما في محاولة منه أن يكون طبيعياً، لكن صوته بطيء جداً.. ذهبنا إلى بيتك لنقول لك ذلك، لكنهم لم يفتحوا لنا، من حسن الحظ أنني وجدتك هنا.

تندحرج القرعة على الأرض فارغة وعلى الطاولة زويدة من ثنايا سوداء، ومن أعطاه إنناً بذلك، يدق الأب غارثيا على طبق البيكو، من الذي سمح له بأن يوجه له الكلام، وينهض ليتوما بوثة واحدة، حارق، ما هذه النبوة حارق. يحاول الأب غارثيا أن ينهض ويتحرك بين نراعي الدكتور ثيباليو، ابن الوغد، ابن أوى، وتشد لاسيلباتيكا ليتوما من سترته، ليسكت، صارخة، لا تسيئ الأدب معه، فقد كان أباً روحياً، ليخلقوا فمه. لكنه سيراه في الجحيم، ابن الوغد، وسيلقي جزاءه هناك عن كل شيء، هل كان يعرف، ابن الوغد، ما معنى الجحيم؟ يرتعد الأب غارثيا، منفوخ الوجه ومعوج، الفم، مثل خرقة، ويهز

ليتوما لاسيلباتيكا دون أن يستطيع إبعادها، حارق، ويضيق الأب غارثيا صوته ويستعيده، فهو لم يكن يشتمه، لم يكن يقول له ابن الوغد، كان أسوأ من هذه الهالكة التي كانت تعيله، ويمد له يديه الحانقتين في الفراغ، طفيلي قذر، ابن أوى، يمك ابن ليون بليتوما: كان سيحطم أنف هذا العجوز، لم يكن يحتمل، حتى ولو كان راهباً، حارق الخراء. أجهشت لاسيلباتيكا بالبكاء وأنخيليكاً ميرثيس تمسك بيديها مقعداً صغيراً وتهزه في وجه ليتوما وكأنها على استعداد لأن تحطمه على رأسه إذا تقدم ميليمتراً واحداً. في الباب خلف القصب، حول المحل من كل جهة، هناك رؤوس مشدودة، عيون، شعر طويل، لكن بالمرافق، وجلبة متصاعدة، كأنها تنتشر باتجاه بقية الحي، وبين أصوات جوقة الصغار الصاخبة: حارق، حارق، حارق، كانت تبرز أحياناً أسماء عازف القيثارة، المنيعين، والأب غارثيا. يسعل الأب غارثيا الآن ونزاعاه في الأعلى، مشوشاً أحمر مثل جمرة، ولسانه خارج فمه، يذر اللعاب من حوله، يبقى الدكتور ثيباليو على يدي الأب غارثيا في الأعلى، لاسيلباتيكا تهوي له وأنخيليكاً ميرثيس تربت بنعومة على ظهره، وليتوما يبدو الآن مرتبكاً.

- إن أي شخص سيفلت لسانه حين يُشتم، فهكذا هي الأمور. يقول بصوت متردد. ليس نبيي، ليكن في علمكم أنه هو الذي بدأ.

- لكنك أسأت معه الأدب وهو عجوز، يا ابن العم. قال المونو. لم يغمض له جفن طول الليل.

- كان عليك ألا تفعل، يا ليتوما. يقول خوسيه. اعتنر منه، يا رجل، انظر كيف صار.

- اعزني. يتلعثم ليتوما. اهدأ، أيها الأب غارثيا. أيضاً لا داعي لكل هذا. لكن الأب غارثيا ما يزال يرتعش من السعال وتقلصات معدته ووجهه مليء بالمخاط واللعاب والدموع. تنظف له لاسيلباتيكا جبينه بتورتها وأنخيليكاً ميرثيس تحاول أن تسقيه كأساً صغيراً من الماء وليتوما يمتنع، ويعتذر، أيها

الأب، ويبدأ يزرق، ماذا كانوا يريدون منه أن يفعل أكثر. مذعوراً، هو لم يكن يريد أن يموت، اللعنة، ويقتل يديه.

- لا تخف . يقول الدكتور ثيباليو . إنه الريو والرمل الذي دخل في حنجرتة. ستزول عنه.

لكن ليتوما لا يستطيع السيطرة على أعصابه، كان يشتمه وينهار من تلقاء نفسه. بلوم نفسه شبه بالك بين ابني آل ليون اللذين كانا يعانقانه، الواحد منهم من كثرة الفواجع، يقتر فمه وللحظة يبدو أنه سينفجر في البكاء، اهدأ، يا ابن العم، فهم كانوا يفهمون حالته، وهو يضرب على صدره: لقد حملوه على أن يزرع عن عازف القيثارة ثيابه، يغسله، ويلبسه من جديد، لم يكن هناك من يستطيع أن يقاوم. فالواحد كائن بشري.

وهم ليهدأ، ابن العم، ليكن شجاعاً، لكنه لم يكن يستطيع، اللعنة، اللعنة، لم يكن يستطيع ويسقط على المقعد ورأسه بين يديه. توقف الأب غارثيا عن السعال ومع أنه يتنفس الآن بصعوبة إلا أن وجهه أكثر هدوءاً. لاسيلباتيكا على ركبتيها بجانبه، الأب، هل كان يشعر بأنه أحسن ويهز بالإيجاب، ما هم أن تكون هالكة، فهذا شأنها، مزمرراً، شقية، لكن لا بد أنها كانت بهيمة، تهلك نفسها كي تعيل من لا فائدة منه، قاتلاً، لا بد أنها بهيمة وهي بلى، أيها الأب، لكن لا تغضب، لتهدأ، فقد زالت الحالة.

- اتركه يشتمك إذا كان هذا يريحه، يا ابن العم . يقول المونو.

- حسناً، أتركه، وأتحمل . يهمس ليتوما. ليشتمني، قاتل، غير ذي فائدة،

ليتابع، كل ما يريد.

- أسكت، ابن أوى . يدمم الأب غارثيا، دون همة، وباشمئزاز ملحوظ،

تسمع عند الباب وخلف القصب موجة من الضحك . اسكت، يا ابن أوى.

- أنا ساكت . يزار ليتوما. لكن كف عن شتمي، فأنا إنسان، لا أحب ذلك،

أغلق فمك، أيها الأب. اطلب منه هذا، يا دكتور ثيباليو.

- شيء مضي، أيها الأب . تقول أنجيليكا ميرثيدس . لا تتفوه بكلمات
بنيئة، فهذا خطيئة، أيها الأب. لا تغضب هكذا. هل تريد فنجاناً آخر من
القهوة؟

يخرج الأب غارثيا مندبلاً أصفر من جيبه، حسناً، فنجان آخر، ويمخط
بقوة. يلمس الدكتور ثيباليو حاجبيه، وينظف طيبي سترته من اللعاب بحركة
انزعاج، تمرر لاسيلباتيكا يدها على جبين الأب غارثيا، تسوي خصلات شعر
صدغيه، فيتركها تقفل ذلك متبرماً ووديعاً.

- ابن عمي يريد أن يعتذر منك، أيها الأب غارثيا . يقول ألمونر. وهو
يأسف جداً لما حدث.

- ليعتذر من الله وليتوقف عن استغلال النساء . يدمم الأب غارثيا بهدوء،
وقد خمد كلياً. اعتذرا أنتما أيضاً من الله، أيها الكسولان. وأنت أيضاً تعيلين
هذا الزوج من المتبطلين؟

- بلى، أيها الأب . تقول لاسيلباتيكا وتعلو موجة أخرى من الضحك في
الشارع. يصغي الدكتور ثيباليو بظرافة.

- لا يمكن أن يقال إنه تنقصك الصراحة . يدمم الأب غارثيا وينكش أنفه
بالمندبل . يا لك من بلهاء خالصة، يا شقية.

- أنا أقول ذلك لنفسي أحياناً كثيرة، أيها الأب . تعترف لاسيلباتيكا، ماسحة
جبين الأب غارثيا الخشن . لا تفكر، فأنا أقوله لهما في وجهيهما.

تحضر أنجيليكا ميرثيدس فنجان قهوة آخر، تعود لاسيلباتيكا إلى طاولة
ابني آل ليون ويبدأ الناس المتجمهرون في الباب وخلف القصب بالتفرق. يعود
الصبية إلى جريهم الذي يثير الغبار، وتسمع من جديد أصواتهم الرقيقة
والجارحة. يتوقف المارة قليلاً أمام مشرب التشيشا، يطلون برووسهم، يشيرون
إلى الأب غارثيا، الذي يشرب قهوته رشفاً وهو جالس، يذهبون، تتحدث
أنجيليكا ميرثيدس والمنيعون ولاسيلباتيكا بصوت منخفض عن المأكولات

والمشروبات، يقدرون عدد الناس الذين سيحضرون إلى السهر على الجثمان،
يذكرون أسماء أرقاماً ويناقشون أسعاراً:

- هل أنهيت قهوتك؟ يقول الدكتور ثيباليو . فقد أخذنا من الإرهاق اليوم
ما يفيض عنا، هيا بنا إلى الفراش .

ما من جواب: ينام الأب غارثيا بوداعة ورأسه منحرف فوق صدره وطرف
اللفاع غاطس في الفنجان .

- أخذه النوم . يقول الدكتور ثيباليو . لا أدري ماذا يثير عندي إيقاظه .

- هل تريننا أن نجهز له سريراً؟ . تقول أنجيليكا ميرثيس . في الغرفة
الأخرى، يا دكتور . سننثره جيداً ولن تحدث ضجة .

- لا، لا، ليستيقظ وسأخذه معي . يقول الدكتور ثيباليو . إنه لا يسمح أبداً
بأن تلوي ذراعه، لكنني أعرفه . لقد أثر فيه موت أنسيلمو كثيراً .

- يجب أن يكون مسروراً . يهمس المونو محزوناً . دائماً كان يشتم دون
أنسيلمو عندما يراه في الشارع . كان يكرهه .

- وعازف القيثارة لم يكن يرد عليه، كان يتظاهر بأنه لم يسمع ويذهب إلى
الرصيف الآخر .

- لم يكن يكرهه إلى هذا الحد . يقول الدكتور ثيباليو . على الأقل في
السنوات الأخيرة . كانت مجرد عادة عنده، عادة سيئة .

- بينما كان يجب أن يحدث العكس . يقول المونو . دون أنسيلمو هو الذي
كان يملك الأسباب لكراهيته .

- لا تقل هذا، إنه خطيئة . تقول لاسيلباتيكا . فالرهبان وكلاء الله ولا يمكن
كراهيتهم .

- إذا كان فعلاً أحرق له البيت الأخضر، فهنا تتجلى العظمة التي كان
يتحلى بها عازف القيثارة . يقول المونو . لم أسمعه قط ينطق بكلمة سوء ضد

الأب غارثيا .

- هل فعلاً أحرقوا لدون أنسيلمو ذلك البيت، يا دكتور؟ . تقول لاسيلباتيكا .

- ألم أرو لك القصة مئة مرة؟ يقول ليتوما. لماذا تسألين الدكتور؟
- لأنك دائماً ترويها لي بشكل مختلف. تقول لاسيلباتيكا. أسأله لأنني أريد أن أعرف كيف حدث ذلك فعلاً.
- اسكتي، اتركينا، نحن الرجال، نتحدث بسلام. يقول ليتوما.
- أنا أيضاً كنت أحب عازف القيثارة. تقول لاسيلباتيكا. كانت تجمعني معه أشياء أكثر منك، ألم يكن ابن بلدي؟
- ابن بلدك؟ يقول الدكتور ثياليو، قاطعاً نثاويه.
- طبعاً، يا صبية. يقول دون أنسيلمو. مثلك، لكن ليس من سانتا ماريا ده نيبيا، ولا أعلم أين تقع هذه البلدة.
- حقاً، يا دون أنسيلمو. تقول لاسيلباتيكا. أنت أيضاً وُلدت هناك؟ اليس صحيحاً أن الغابة جميلة بأشجارها وطيورها الكثيرة؟ اليس صحيحاً أن الناس هناك أطيب؟
- الناس متشابهون في كل مكان، يا صبية. يقول عازف القيثارة. لكن فعلاً إن الغابة جميلة. الآن نسيت كل ما له علاقة بهناك، باستثناء اللون، لذلك طلبت القيثارة بالأخضر.
- الجميع هنا يحقدونني، يا دون أنسيلمو. تقول لاسيلباتيكا. يقولون سيلباتيكا كشتيمة.
- لا تفهمي الأمر هكذا، يا صبية. يقول أنسيلمو. هو بمعنى التحبب أكثر من أي شيء آخر. أنا لا يزعجني أن ينادوني سيلباتيكو.
- غريب. يحك الدكتور ثياليو عنقه، بينما يتعاب. لكنه ممكن على أي حال. هل فعلاً كان قيثاره مطلبياً بالأخضر، أيها الفتيان؟
- كان دون أنسيلمو مانغانشياً. يقول المونو. وُلد هنا، في الحي، ولم يخرج منه أبداً. سمعته ألف مرة يقول أنا أكبر المانغانشيين سناً.
- طبعاً كان كذلك. تؤكد لاسيلباتيكا. ودائماً كان يطلب من بولاس أن يدهنها له من جديد.

- أنسيلمو سيلباتيكو غابي؟ . يقول الدكتور ثيباليو . ممكن، بعد كل حساب، لم لا! شيء غريب.
- إنها أكانيب، يا دكتور . يقول ليتوما. لم نقل لنا لاسيلباتيكا هذا قبل الآن بدأ، اختلقته لتوها. هاتي لنر لماذا تحكين هذا الآن تحديداً؟
- لأن أحداً لم يسألني . تقول لاسيلباتيكا. ألا تقول إن على النساء أن يبقين مغلفات الأفواه؟
- ولماذا حكى لك أنت هذا؟ . يقول الدكتور ثيباليو . سابقاً عندما كنا نساله أين وُلد، كان يغيّر الحديث.
- لأنني غابية أيضاً . تقول وهي تنظر نظرة اعتزاز حولها . لأننا كنا ابني بلد واحد.
- أنت تسخرين منا، يا لقيطة . يقول ليتوما.
- لقيطة، لكن تعجبك نقودي . تقول لاسيلباتيكا. وهل تبدو لك نقودي لقيطة أيضاً؟
- ابتسم ابنا ليون وأنخيليك ميرثيدس، بينما تابع الدكتور ثيباليو حك رقبته بعينين تأمليتين، وقطّب ليتوما جبينه.
- لا تحمّيني، يا صبية . يبتسم ليتوما بتكأف . اليوم ليس للجدال .
- حذار من أن تغضب هي . تقول أنخيليك ميرثيدس . فتركك تموت جوعاً، لا تحشر نفسك مع رجل العائلة، أيها المنيع.
- يحتفل ابنا ليون بالنكته وينقش الحداد عن وجهيهما، ليحل محله الفرح التام وينتهي ليتوما إلى الضحك، ودونيا أنخيليك، بمزاج رائق، ليذهب متى شاء. فقد كانت ملتصقة بهم مثل عشيقه جندي وتخاف خوسيفينو أكثر مما تخاف الشيطان. إذا تركته فذاك يقتلها.
- ألم يكلمك أنسيلمو بعد ذلك أبداً عن الغابة، أيتها الصبية؟ . يقول الدكتور ثيباليو.

- لقد كان مانغاشياً، يا دكتور . يؤكد المونو. وقد اختلفت أنه ابن بلدها لأنه ميت ولا يستطيع الدفاع عن نفسه، كي تعطي لنفسها أهمية.
- سألته ذات مرة ما إذا كانت له أسرة هناك . تقول لاسيلباتيكا. وقال لي: من يدري، لا بد أنهم ماتوا جميعاً. لكنه في مرات أخرى كان ينكر ويقول لي ولدت مانغاشياً وسأمت مانغاشياً.
- أرايت، يا دكتور؟ . يقول خوسيه . إذا كان قد حكي لها ذات مرة أنه ابن بلدها، فإن ذلك كان مزاحاً. أخيراً ها أنت تقولين الحقيقة، يا ابنة العم.
- لست ابنة عمك . تقول لاسيلباتيكا. أنا عاهرة ولقيطة.
- يجب ألا يسمعك الأب غارثيا فيأخذه هيجان آخر . يقول الدكتور ثياليو وإصبع على شفتيه . وماذا عن المنيع الآخر، أيها الفتيان؟ لماذا ما عنتم تمشون معه؟
- تشاجرنا، يا دكتور . يقول المونو. لقد منعناه من دخول لامانغاشيريا.
- كان نموذجاً سيئاً، يا دكتور . يقول خوسيه . شخص سيء. ألم تدر أنه سقط في أدنى درجات الانحطاط؟ حتى أنه سُجن لأنه لص.
- لكنكم كنتم في السابق لا تفرقون وكنتم ترهبون بيورا كلها معه . يقول الدكتور ثياليو.
- المسألة أنه لم يكن مانغاشياً، يا دكتور . يقول المونو. كان صديقاً سيئاً، يا دكتور .
- يجب الذهاب للتعاقد مع أب . تقول أنخيليك ميرثيدس . من أجل القداس ولكي يأتي إلى السهر عليه والصلاة لأجله أيضاً.
- ما أن سمعها ابنا ليون وليتوما حتى اكفهرت وجوههم، وتقطبت جباههم، وهزوا رؤوسهم موافقين.
- أب من آباء الساليسيانو، يا دونيا أنخيليك . يقول المونو. هل تريدني مني أن أرافقك؟ هناك واحد لطيف، يلعب كرة القدم مع الصبية. إنه الأب دومينيكو.

- يعرف كرة القدم، لكنه لا يعرف الأسبانية . يمدم اللفاح مبحوحاً. الأب دومينيكو، يا للحماقة.

ليكن كما تقول، أيها الأب . تقول أنخيليك ميرثيدس . ليس هذا الإملاكي يكون المأتم كما يأمر الله. أرايت؟ من نستطيع أن نستدعي إذن؟

ينهض الأب غارثيا ويسوي من وضعية القبعة. أيضاً الدكتور ثيباليو.

- ساتي أنا . يقوم الأب غارثيا بحركة تتم عن القلق . ألم تطلب تلك المسترجلة أن آتي أنا؟ إذن لماذا كل هذه التثرثرة؟

- صحيح، أيها الأب . تقول لاسيلباتيكا. فالسيدة تشونغا تفضل أن تحضر أنت.

يبتعد الأب غارثيا باتجاه الباب، منحنياً ومكفهاً، دون أن يرفع قدميه عن الأرض. يخرج الدكتور ثيباليو محفظة نقوده.

- هذا ما كان ينقصنا، يا دكتور . تقول أنخيليك ميرثيدس . إنها دعوة مني للسرور الذي أدخلته إلى نفسي باحضارك الأب.

- شكراً، يا صديقة . يقول الدكتور ثيباليو . لكنني أترك لك هذه من أجل المأتم. إلى اللقاء ليلاً، فأنا أيضاً سأحضر.

ترافق لاسيلباتيكا وأنخيليك ميرثيدس الدكتور ثيباليو إلى الباب، تقبلان يد

الأب غارثيا. يسير الأب غارثيا والدكتور ثيباليو آخذاً الواحد بذراع الآخر،

تحت هواء أرضي وشمس ملتبهة بين حمير محملة بالحطب والجرار والكلاب

الكثة الشعر، والصبية، حارق، حارق، حارق، بأصوات حادة لا تعرف الملل.

الأب غارثيا لا يتبدل. يجرجر قدميه بمشقة ويمضي ورأسه معلق فوق صدره،

ساعلاً ومتحناً. وحين يسلكان شارعاً صغيراً مستقيماً، تخرج للقائهما ضجة

هانلة فيضطران لأن يسيرا بملاصقة جدار من القصب كي لا يصطدما

بجمهور من الرجال والناس يواكب سيارة قديمة. صوت منبه واهن غير متناغم

يقطع الجو طول الوقت. ناس يخرجون من الأكواخ وينضمون إلى الحشد

وتُطلق بعض النسوة هتافات وترفع أخريات أصابعهن صلباناً. ينتصب

أمامهما صبي، دون أن ينظر إليهما، عيناه حيويتان ومذعورتان، مات عازف
القيثار، ويشد الدكتور ثياليو من كفه، كانوا قادمين في السيارة، جاؤوا به
بقيثارة وكل شيء، وينطلق مثل الرمح، مومناً. أخيراً ينتهي مرور الحشد.
يصل الأب غارثيا والدكتور ثياليو إلى جادة سانتشث ثيرو بخطوات قصيرة
جداً ومنهكة.

- سأذهب في طلبك . يقول الدكتور ثياليو . سنأتي معاً إلى السهرة على
جثمانه . حاول أن تنام قرابة الثماني ساعات، على الأقل.
- أعرف، أعرف . يمدم الأب غارثيا . كف عن تقديم النصائح إليّ
طول الوقت.

ينهضون في الفجر كي يتابعوا سفرهم، يهبطون الوهدة فلا يجدون الزورق. يبدؤون البحث عنه، وفجأة: صيحات، حجارة، وعراة. وها هو العريف، يحيط به الأغوارونيون، يأخذونه تحت ضرب العصي، وكذلك الخادم، ويجري الأطفال نحوه، ياللهول! لقد جاء دورك، ويلقي بنفسه إلى الماء: بارد، سريع، داكن، لا تخرج رأسك، اهبط إلى الداخل أكثر، ليأخذك التيار، سهم أصابك؟ لينتزعه في أسفل النهر، رصاص؟ حجارة؟ ياللهول! فالرئتان تزيدان هواء، رأسه مصاب بالدوار مثل خدروف، حذار من التشنج. هل يقتلونه؟ يترك نفسه طافياً على الماء المنحدر متعلقاً إلى جفء، وعندما يزحف إلى الضفة اليمنى من النهر يكون موصولاً. ينام هناك على الشاطئ، يستيقظ ولماً يستعد قواه بعد، وعقرب يلدغه على هواه. عليه أن يشعل ناراً ويضع يده فوقها، وهكذا يتعرق قليلاً حتى لو التهبت كثيراً. امتص الجرح، ابصق، تمضمض، لا أحد يعرف أبداً ما ينتج عن اللدغ، وفي الحال عليه أن يصنع معبراً. يحتاج إلى وقت طويل، أه لو كُنت تحمل مديّة، فيداك متعبتان ولا تقويان على الإطاحة بالجفوع. يختار ثلاث أشجار ميتة، بيضاء، نخرها الدود، تنهار من أول دفعة، يسندها بخيزران، والآن لن يخرج إلى النهر الكبير، إنه يبحث عن مجار وبحيرات، يسلكها. وهذا ليس صعباً، المنطقة كلها مستنقعات. المسألة هي فقط في كيف سيحدد الاتجاه، فهذه الأراضي المرتفعة ليست أرضه، والمياه ارتفعت كثيراً، هل سيصل بهذا الشكل إلى نهر سانتياغو؟ افتح خياشيمك كثيراً، جيداً، فالرائحة لا تخدع، ذلك هو الاتجاه الصحيح، والعزيمة، يارجل، العزيمة الشديدة. لكن أين هو الآن؟

